بطرس البستاني

مُنتقيات
أدباءِ العرب
في الأعصُر العبّاسيّة

طبعة جديدة منقحة ، مشروحة ، مفهرسة

دار مارون عبود

العصر العباسي الاول

بشار بن برد (٧١٤ – ٧٨٤ م و ٩٦ – ١٦٨ هـ)

ابو العتاهية (٧٤٨ – ٨٢٦ م و ١٣٠ – ٢١٠ هـ)

ابو نواس (٧٦٢ – ٨١٤ م و ١٤٥ – ١٩٩ هـ (؟))

ابو تمام (٧٨٨ – ٨٤٥ م و ١٧٢ – ٢٣١ هـ (؟))

دعبل (٧٦٥ – ٨٦٠ م و ١٤٨ – ٢٤٦ هـ)

ابن المقفع (٧٢٤ – ٧٥٩ م و ١٠٦ – ١٤٢ هـ)

بشار بن برد

الهجاء

هجاء أبي جعفر المنصور

كان بشار مبعداً عن البصرة عندما ثار فيها إبراهيم بن عبد الله العلوي يريد الخلافة لأخيه محمد الثائر في المدينة ، فأرسل الشاعر إلى إبراهيم بهذه القصيدة من الكوفة يهجو بها أبا جعفر المنصور ويحرض على قتله ويضم إلى ذلك أبياتاً يمدح بها الثائر ويشير عليه :

أبا جَعفرٍ ! ما طولُ عَيشٍ بدائمٍ ، ولا سالمٌ ، عمّا قليلٍ ، بسالمِ
على المَلِكِ الجَبّـارِ يَقتَحِمُ الرّدى ، ويَصرَعُهُ في المأزِقِ المُتَلاحِمِ[1]
كأنّكَ لم تَسمَعْ بقَتلِ مُتَوَّجٍ عظيمٍ ، ولم تَسمَعْ بفَتكِ الأعاجِمِ
تَقَسّمَ كِسرَى رَهطُهُ بسيوفِهِمْ ، وأمسَى أبو العبّاسِ أحلامَ نائِمِ[2]
وقد كانَ لا يَخشَى انقلابَ مكيدَةٍ عليهِ ، ولا جَرْيَ النُّحوسِ الأشائِمِ[3]
مُقيماً على اللّذّاتِ ، حتى بدَتْ لهُ وجوهُ المَنايـا حاسراتِ العَمائِمِ[4]
وقد تَرِدُ الأيّامُ غُرّاً ، وربّمـا وَرَدْنَ كُلُوحاً ، بادياتِ الشّكائِمِ[5]

....

١ المأزق : المضيق . المتلاحم : المتلاصق بالمتحاربين .
٢ تقسم : قطع . رهطه : قومه . أبو العباس : كنية الوليد بن يزيد . مات مقتولا متهماً بالكفر والمجون.
٣ الأشائم : جمع الأشأم أي الكثير الشؤم .
٤ حاسرات العمائم : كاشفات الرؤوس . كناية عن وقوع الشر .
٥ غراً : بيضاً مشرقة ، من غرة الجواد . كلوحاً أي كالحة : عابسة مكشرة بادية الأسنان. الشكائم: جمع الشكيمة وهي حديدة اللجام المعترضة في فم الفرس . شبه الأيام بالخيول العابسة البادية الشكائم لتكشيرها ، وهي في حالة الضيق والشدة .

ومَروانُ قد دارَتْ على رأسِهِ الرّحى ، وكانَ ، لِما أجرَمتَ ، نَزرَ الجَرائِمِ[1]
فأصبَحتَ تَجري سادراً في طريقِهِم ، ولا تَتّقي أشباهَ تلكَ النّقائِمِ[2]
تَجَرّدتَ للإسلامِ تَعفو طَريقَهُ ، وتُعري مَطاهُ للّيوثِ الضّراغِمِ[3]
فما زِلتَ ، حتى استَنصرَ الدّينُ أهلَهُ عليكَ ، فعاذوا بالسّيوفِ الصّوارِمِ[4]
فرُمْ وَزَراً يُنجيكَ يا ابنَ سَلامةٍ ، فلَستَ بناجٍ من مَضيمٍ وضائِمِ[5]
لحَا اللهُ قَوماً رأسوكَ علَيهِمُ ، وما زِلتَ مَرؤوساً خَبيثَ المَطاعِمِ
أقولُ لبَسّامٍ ، علَيهِ جَلالَةٌ ، غَدا أريحيّاً عاشقاً للمَكارِمِ[6]
منَ الفاطميّينَ الدّعاةِ إلى الهُدى جِهاراً، ومَن يَهديكَ مثلُ ابنِ فاطمِ؟[7]
سِراجٌ لعَينِ المُستَضيءِ ، وتارَةً يَكونُ ظَلاماً للعَدوّ المُزاحِمِ :
إذا بَلَغَ الرّأيُ المَشورَةَ ، فاستَعِنْ برأيِ نَصيحٍ أو نَصيحَةِ حازِمِ[8]
ولا تَجعلِ الشّورى علَيكَ غَضاضَةً ، فإنّ الخَوافي قُوّةٌ للقَوادِمِ[9]

---

١ مروان بن محمد : آخر خلفاء بني أمية . قتله أبو العباس السفاح في مصر . الرحى : الطاحون ويكنى بها عن شدة الحرب وحومة الموت فيها .
٢ سادراً : غير مبال ولا يهتم بما يصنع . النقائم : جمع النقيمة وهي الانتقام .
٣ تعفو : تمحو . مطاه : ظهره . الليوث : الأسود . الضراغم جمع الضرغام وهو الأسد أو صفة له . يقول : أخذت تمحو طريق الإسلام ، وتجعل ظهره مركباً لأعدائه .
٤ فما زلت : أي فما زلت تفعل ذلك . استنصر الدين أهله : أي أن الدين دعا العلويين أهل البيت إلى نصرته . عاذوا : لاذوا واعتصموا . الصوارم : السيوف القواطع .
٥ الوزر : الملجأ. سلامة : أم المنصور . وقد جعل بشار موضعها يا ابن وشيكة ؛ وهي أم أبي مسلم الخراساني ، عندما قلب القصيدة وحولها إلى مدح المنصور وهجاء أبي مسلم . مضيم وضائم : مظلوم وظالم . أي من مظلوم قهرته أو ظالم يقهرك .
٦ الاريحي : من يرتاح إلى صنع المعروف .
٧ فاطم : أصله فاطمة وهي بنت النبي ، فرخمه بحذف تاء التأنيث ، والترخيم في غير النداء جائز للضرورة . وهذا البيت حذفه الشاعر من القصيدة عندما أظهرها في عهد المنصور .
٨ إذا بلغ الرأي المشورة : أي إذا احتاج إليها . حازم : الذي يحسن ضبط أمره .
٩ غضاضة : نقصاً من القدر. الخوافي: الريش الصغار التي في جناح الطائر بعد القوادم، مفردها الخافية. ←

وما خَيرُ كَفٍّ أمسكَ الغُلُّ أختَها ، وما خَيرُ سَيفٍ لم يُؤيَّدْ بقائمِ [1]

إذا كنتَ فرداً، هرَّكَ النّاسُ مُقبلاً ؛ وإن كنتَ أدنَى ، لم تَفُزْ بالعَزائمِ [2]

فأدْنِ ، على القُربَى، المُقرِّبَ نفسَه، ولا تُشهِدِ الشّورى امرأً غيرَ كاتمِ [3]

وحارِبْ ، إذا لم تُعطَ إلاّ ظُلامَةً ، شَبا الحَربِ خيرٌ من قَبولِ المَظالمِ [4]

وخَلِّ الهُوَينا للضّعيفِ ، ولا تَكُنْ نَؤوماً ، فإنَّ الحَزمَ ليسَ بنائمِ [5]

فإنّكَ لا تَستَطرِدُ الهَمَّ بالمُنى ، ولا تَبلُغُ العَليا بغَيرِ المَكارِمِ [6]

فما قَرَعَ الأقوامَ مثلُ مُشَيَّعٍ أريبٍ ، ولا جَلّى العَمى مثلُ عالِمِ [7]

هجاء المهدي

قطع المهدي صلاته عن بشار فقال يهجوه ، ويستفزه على وزيره يعقوب بن داود لأنه أبى التوسط له عنده ، ويحرض بني أمية على استرجاع ملكهم :

بَني أمَيّةَ ! هُبّوا طالَ نومُكُمُ ! إنّ الخَليفَةَ يَعقوبُ بنُ داودِ

ضاعتْ خِلافتُكُمْ ، يا قومُ، فالتمسوا خليفَةَ اللهِ بينَ الزّقِّ والعُودِ

القوادم : عشر ريشات في مقدم جناح الطائر وهي كبار الريش ، مفردها القادمة . يقول : لا تحسب ان في الشورى نقصاً من قدرك . فأنت وان كنت أعلى قدراً ، واحزم رأياً من كل من تشاوره من الناس ، فالكبير يستفيد من الصغير ويتقوى به كما تتقوى الريش الكبار في الطيران باستنادها إلى الريش الصغار .

١ الغل : الحديدة التي تجمع بين يد الأسير وعنقه وتسمى الجامعة . قائم السيف : مقبضه . يقول : الكف الواحدة ضعيفة إذا لم تستند إلى أختها . والسيف القاطع قليل النفع إذا لم يستند إلى مقبضه .

٢ هرك : كره ناحيتك ، أو نبحك واعتدى عليك . الأدنى : الساقط الضعيف . العزائم : جمع العزيمة وهي الثبات والصبر والجلد .

٣ يقول : أدن من يقرب نفسه إليك ، مع ما لديك من ذوي القربى .

٤ الشبا : جمع الشباة وهي حد كل شيء .

٥ الهوينا : التؤدة والرفق .

٦ تستطرد الهم : تطلب طرده . المنى : جمع المنية وهي ما يتمناه الإنسان ، أي لا يطرد الهم بالتمنيات .

٧ قرع : غلب . المشيع : الشجاع . الأريب : الماهر . جلى : كشف . العمى : الجهل .

هجاء واصل بن عطاء

كان واصل بن عطاء شيخ المعتزلة يحرض الناس على بشار لما بلغه من إلحاده . فقال فيه :

ما لي أُشايعُ غزّالاً ، لهُ عُنُقٌ   كنِقنِقِ الدوّ : إنْ ولّى وإن مثَلا[1]

عُنْقَ الزرافةِ ! ما بالي وبالُكُمُ ،   أتُكفِرونَ رِجالاً كفّروا رَجُلا ؟[2]

هجاء حمّاد عجرد

التحم الهجاء بين بشار وحماد عجرد نحواً من خمس عشرة سنة حتى مات حماد . فمن قوله فيه يرميه بالزندقة :

يا ابنَ نِهيْا ! رأسٌ عليّ ثقيلُ ،   واحتمالُ الرأسَيْنِ خَطْبٌ جليلُ[3]

أدعُ غيري إلى عبادةِ الاثنيْـ   ـنِ ، فإنّي بواحدٍ مشغُولُ[4]

يا ابنَ نِهيْا برِئْتُ منكَ إلى اللّـ   ـهِ جِهاراً ، وذاكَ منّي قليلُ !

---

١ أشايع : أوالي . غزالا : لقب واصل بن عطاء سمي به لكثرة جلوسه في سوق الغزالين . النقنق : الظليم وهو ذكر النعام . الدو : الفلاة . وكان واصل طويل العنق ، وقوله : ان ولى وان مثلا أي إن أدبر أو أقبل .

٢ ما بالي وبالكم : أي ما شاني وشانكم واحد . وقوله أتكفرون رجالا ، خطاب لواصل الذي كان يكفر الخوارج لتكفيرهم علي بن أبي طالب .

٣ نهيا : اسم أم حماد . يقول : إن رأسه ثقيل عليه فكيف يحتمل رأسين . قال حماد : « يغيظني منه تجاهله بالزندقة ، فيوهم الناس أن الزنادقة تعبد رأساً ليظن الجهال أنه لا يعرفها . لأن هذا قول تقوله العامة لا حقيقة له . وهو ، والله ، أعلم بالزندقة من ماني . »

٤ عبادة الاثنين : يريد بها الثنوية أو مذهب المانوية منسوباً إلى مؤسسه ماني . وهو مذهب فارسي جاء مصدقاً لما بين يديه من المذهب الزرادشتي ، متفقاً معه على أن في الكون إلهين اثنين أحدهما إله النور والخير وهو النهار والثاني إله الظلام والشر وهو الليل . وهنا يبين الشاعر حقيقة الزندقة المانوية بعد ان أدخل عليها في البيت السابق مزاعم العامة ليظهر بهذا الخلط المقصود بجهله لها ، وبراءته منها . ثم يقول بأنه مشغول بعبادة إله واحد .

فاخر الاعراب

تعرض أعرابي لبشار ، فأنكر عليه قول الشعر لأنه مولى . فسكت بشار هنيهة ثم أنشأ يهجوه ويهجو الأعراب معه ، ويفاخر بفارسيته :

خَليلي ، لا أنامُ عـلى اقتِسارٍ ، ولا آبَى على مَولًى وجارِ[١]

سأُخبِرُ فاخِرَ الأعرابِ عنّي وعَنهُ ، حينَ تأذَنُ بالفَخارِ :[٢]

أحينَ كُسيتَ بعدَ العُري خزّاً ، ونادَمتَ الكِرامَ عـلى العُقارِ[٣]

تُفاخِرُ ، يا ابنَ راعيةٍ وراعٍ ، بني الأحرارِ ، حَسبُكَ من خَسارِ ![٤]

وكُنتَ إذا ظَمِئتَ إلى قَراحٍ ، شرِكتَ الكَلبَ في وَلَغِ الإطارِ[٥]

تُريغُ بخُطبَةٍ كَسْرَ المَوالي ، ويُنسيكَ المَكارِمَ صَيدُ فارِ[٦]

وتَغدو للقَنـافِذِ تَدَّريها ولمْ تَعقِلْ بدَرّاجِ الدّيـارِ[٧]

وتَتَّشِحُ الشِّمالَ لِلابِسيها ، وتَرعَى الضّأنَ بالبَلَدِ القِفارِ[٨]

. ...

١ اقتسار : ضيم وقهر . لا آبى : لا امتنع . المولى : هنا بمعنى الحليف والصديق .

٢ عني وعنه : أي عن أصلي وأصله . وقوله : حين تأذن بالفخار : خطاب لخليله مجزأة بن ثور السدوسي ، وكان بشار عنده حين تعرض له الأعرابي .

٣ خزاً : أي ثوباً من حرير أو حرير وصوف . العقار : الشراب .

٤ بني الأحرار : أي الفرس ، والشاعر منهم . الخسار : الضلال .

٥ القراح : الماء الخالص . الولغ : أن يدخل الكلب لسانه في الماء ليشرب . الإطار : من معانيه ، ما حول البيت . ومن هذه المادة : المأطور ، وهي البئر بجانبها بئر أخرى . والماء في السهل يطوى بالشجر مخافة الانهيار . فيكون المعنى أن الكلب يلغ في المياه الراكدة حول البيوت ، ويشركه الأعرابي فيها .

٦ تريغ : تريد وتطلب . أي تريد كسر الموالي بكلمة تقولها . وينسيك المكارم : أي اشتغالك بالأمور الحقيرة كصيد الفار ينسيك المكارم وأهلها ، فتنكر فضل الموالي .

٧ تدريها : تتخفى لها لتصيدها . ولم تعقل : بمعنى لم تعتقل وتتعدى بنفسها لا بالباء . كما أنه لا يصح الاعتقال للقنافذ إلا مع التوسع . ولعلها لم تقفل أي لم ترجع . الدراج : القنفذ . يقول : تغدو لصيد القنافذ ولم ترجع بواحد منها يدرج حول الديار لأنك لا تحسن إلا صيد الفار .

٨ الشمال : جمع الشملة وهي كساء يلتف فيه . ويقال اتشح بالثوب مع التعدية بالباء . ولعلها : تتنسج بمعنى تنسج كما نبه على ذلك شارح الأغاني (نشر دار الكتب المصرية). البلد: كل قطعة من الأرض ←

مُقامُكَ بينَنا دَنَسٌ علينا ، فليتكَ غائبٌ في حَرّ نارِ
وفخرُكَ ، بَينَ خِنزيرٍ وكلبٍ ، على مِثلي منَ الحَدَثِ الكُبارِ[1]

هجاء بني زيد

قال صاحب الأغاني : وقف رجل من بني زيد شريف على بشار فقال له : يا بشار قد أفسدت علينا موالينا ، تدعوهم إلى الانتفاء منا ، وترغبهم في الرجوع إلى أصولهم وترك الولاء . وأنت غير ذاكي الفرع ، ولا معروف الأصل . فقال بشار : والله لأصلي أكرم من الذهب ، ولفرعي أذكى من عمل الأبرار . وما في الأرض كلب يود أن نسبك له بلسبه . وموعدك غداً بالمربد . فرجع الرجل إلى منزله وهو يتوهم أن بشاراً يحضر معه المربد ليفاخره . فخرج من الغد يريد المربد فإذا رجل ينشد في هجائه ، فسأل عمن قال هذا ، فقيل له : هذا لبشار فيك . فرجع إلى منزله من فوره ، ولم يدخل المربد حتى مات :

بَلَوتُ بَني زَيدٍ ، فَما في كِبارِهِم حُلومٌ ، ولا في الأصغَرِينَ مُطَهَّرُ[2]
فأبلِغْ بَني زَيدٍ ، وقُلْ لسَراتِهِم ، وإنْ لم يكُنْ فيهم سَراةٌ تُوَقَّرُ :[3]
لأمّكُمُ الوَيلاتُ ! إنّ قَصائِدي صَواعِقُ ، منها مُنجِدٌ ومُغَوِّرُ[4]
أجَدَّهُمُ ، لا يَتّقُونَ دَنيّةً ، ولا يُؤثِرُونَ الخَيرَ ، والخَيرُ يُؤثَرُ[5]
يَلُفّونَ أبناءَ الزّنا في عِدادِهِم ، فعِدّتُهُم مِن عِدّةِ النّاسِ أكثَرُ[6]
إذا ما رأوا مَنْ دأبُهُ مثلُ دأبِهِم ، أطافُوا بهِ ، والغَيُّ للغَيِّ أصوَرُ[7]

منحصرة عامرة أو غامرة . ويقال: بلد قفار على توهم الجمع لسعته . يعير الشاعر الأعرابي بصناعة النسج على طريقة العرب في التعبير بالصناعات . يقول له : تلسج الثياب للابسيها وأنت عار .

١ الكبار : العظيم الكبر .
٢ بلوت : جربت . حلوم : عقول .
٣ السراة : الأشراف .
٤ المنجد : من يأتي النجد وهو الأرض المرتفعة . المغور : من يأتي الغور وهو الأرض المنخفضة . يقول: ان قصائده كالصواعق تنقض على كل الأرض أعاليها ووهادها .
٥ اجدهم : يستحلفهم بحظهم . وهي منصوبة على المصدرية . وتكسر الجيم فيكون الاستحلاف بحقيقة الشخص . والجد بالكسر ضد الهزل .
٦ يلفون : يجمعون .
٧ الدأب : العادة والشأن . الغي : الضلال . اصور : أميل ، من صار يصور : أي مال بوجهه إليه .

ولو فارَقُوا مَنْ فيهِم مِن دَعارَةٍ ، لمَا عَرَفتَهُمْ أمُّهُمْ حينَ تَنظُرُ[1]

لقَد فخَروا بالمُلحَقِينَ عَشيّةً ، فقلتُ: افخَروا ، إن كان في اللُّؤم مَفخرُ[2]

يُريدونَ مَسعاتي ، ودونَ لِقائِها قَناديلُ أبوابِ السّماواتِ تَزْهَرُ[3]

فقُلْ في بني زَيدٍ ، كما قالَ مُعرِبٌ : قَواريرُ حَجّامٍ غَداً تَتَكَسّرُ[4]

المدح

مدح سليمان بن هشام

قصد بشار إلى حران نحو سنة ٧٤٤ م وافداً على سليمان بن هشام بن عبد الملك من أمراء بني أمية ومدحه بهذه القصيدة :

نأتْكَ على طُولِ التّجاوُرِ زَينَبُ ، وما شَعَرَتْ أنّ النّوَى سَوفَ تَشعَبُ[5]

يرَى النّاسُ ما تَلقَى بزَينَبَ ، إذ نأتْ ، عَجيباً ، وما تُخفي بزَينَبَ أعجَبُ

وقائِلَةٍ لي حينَ جَدّ رَحيلُنا ، وأجفانُ عَينَيها تَجودُ وتَسكُبُ :

---

١ يقول : لو فارقوا من اجتمع إليهم من أبناء الدعارة لما عرفت المرأة الزيدية أولادها من أبناء الزنا لاختلاط بعضهم ببعض .

٢ الملحقين : أي الذين استلحقوهم من أولاد الزنا أي ضموهم إليهم .

٣ المسعاة : المكرمة والمعلاة في أنواع المجد والجود لأن الكريم يسعى فيها كأنها من مكاسبه . تزهر : تتلألأ . يقول : يريدون الوصول إلى مرتبتي في المجد ، وهي فوق النجوم الزاهرة .

٤ المعرب : المفصح الذي لا يتقي أحداً في كلامه . الحجام : محترف الحجامة وهي أن يشرط الجلد بالمشراط ثم يلقى في المحجمة أي قارورة الحجام ، قرطاس ملتهب أو قطن ونحوه . ويلزم بها مكان الشرط فتجذب الدم بقوة الامتصاص .

٥ تشعب : تفرق أي تفرق بيننا .

« أغادِ إلى حَرّانَ في غَيرِ شيعَةٍ ؟ » وذلكَ شأوٌ عن هَواها مُغَرِّبُ[1]

فقُلتُ لها : كَلّفتِني طَلَبَ الغِنى ، ولَيسَ وراءَ ابنِ الخَليفَةِ مَذهَبُ[2]

سيَكفي فتًى ، من سَعيِهِ حدُّ سَيفِهِ ، وكُورٌ عِلافيٌّ ، ووَجناءُ ذِعلِبُ[3]

إذا استَوغَرَتْ دارٌ علَيهِ ، رمَى بها بَنَاتِ الصُّوى منها رَكوبٌ ومُصعَبُ[4]

فعُدّي إلى يَومَ ارتَحَلتُ ، وَسائلي بزَورِكِ ، والرّحّالُ مَن جاءَ يَضرِبُ[5]

لَعَلّكِ أن تَستَيقِني أنّ زَورَتي سُلَيمانَ من سَيرِ الهَواجرِ تُعقِبُ[6]

أغَرُّ هِشاميُّ القَناةِ ، إذا انتَمَى ، نَمَتهُ بُدورٌ لَيسَ فيهِنّ كَوكَبُ[7]

وما قَصَدَتْ يوماً مُحِلّينَ خَيلُهُ ، فتُصرَفُ إلاّ عَن دِماءٍ تَصَبّبُ[8]

---

١ الشأو : الغاية . مغرب : بعيد .

٢ يريد أن طالب المعروف ليس له طريق يسلكها بعد طريق الممدوح .

٣ من سعيه : أي في طلب المجد والمكاسب . الكور : الرحل . علافي : نسبة إلى علاف بن طوار . يزعم العرب أنه أول من صنع الرحال . وجناء : ناقة عظيمة الوجنتين ، أو صلبة قوية ، من الوجين وهو الصعب من الأرض . ذعلب : سريعة . يقول : ان الممدوح سيكفي قاصده ، أي الشاعر . وهذا الشاعر يستحق أن يكفى لأنه فتى شجاع مغامر لا يقيم على ضيم . وله من مساعيه إلى النجاح حد سيفه ، واسفاره على ناقة قوية سريعة يعلو ظهرها كور أصيل .

٤ استوغرت : حميت واشتد حرها . يريد أنها ضاقت به . رمى بها : أي بناقته . الصوى : جمع صوة وهي حجارة تكون علامة في الطريق يهتدى بها . وما غلظ وارتفع من الأرض . والمراد من بناتها حجارتها الصغيرة أو طرقها. الركوب : الناقة المذللة للراكب. والمصعب : البعير الذي لم يذلل بالركوب. والمراد ما سهل أو صعب قطعه من الطرق .

٥ الزور : الزائر . يضرب : يقال ضرب في الأرض خرج يطلب الرزق ، وأسرع . يقول لها : عدي مدة غيابي إلى اليوم الذي ارتحلت فيه ، ثم سائلي عن زائرك تجديه عائداً إليك ، فإن الرحال من يرجع مسرعاً كاسباً . وقوله : بزورك : يريد به نفسه . والباء بمعنى عن .

٦ الهواجر : شدة الحر مفردها الهاجرة . تعقب : تأتي بعاقبة حسنة ، أي يكون له بها عوض وبدل من تعبه وسيره في الهواجر .

٧ القناة : أي القامة والمخبر .

٨ محلين : جمع المحل وهو العدو الذي ليس له عندك حرمة عهد ولا ذمة ، وضده المحرم . قال زهير : وكم بالقنان من محل ومحرم .

مدح خالد بن برمك

كان خالد البرمكي وزيراً للسفاح ثم للمنصور . فلما تغلب الأكراد على بلاد فارس انتدبه المنصور والياً عليها سنة ٧٥٥ م (١٣٨ هـ) فوفد عليه بشار وأنشده مادحاً :

لَعَمْري! لقد أجدى عليَّ ابنُ بَرمَكٍ ، وما كلُّ مَن كانَ الغِنى عندَه يُجدي

حلَبتُ بشِعري راحتَيه ، فدَرّتا سَماحاً ، كما دَرَّ السَّحابُ معَ الرَّعْدِ

إذا جِئتَهُ للحَمدِ ، أشرَقَ وَجهُهُ إليكَ ، وأعطاكَ الكَرامَةَ بالحَمدِ[1]

لَهُ نِعَمٌ في القومِ لا يَستَثيبُها جَزاءً ، وكَيلَ التّاجِرِ المُدَّ بالمُدِّ[2]

مُفيدٌ ومِتلافٌ ، سَبيلُ تُراثِهِ ، إذا ما غَدا أو راحَ ، كالجَزرِ والمَدِّ[3]

لَمَستُ بكَفّي كَفَّهُ أبتَغي الغِنى ، ولم أدرِ أنّ الجُودَ من كَفِّهِ يُعدي

فلا أنا منهُ ما أفادَ ذَوو الغِنى أفَدتُ ، وأعداني فأتلَفتُ ما عندي[4]

أخالِدُ ، إنّ الحَمدَ يَبقى لأهلِهِ جَمالاً ، ولا تَبقَى الكُنوزُ على الكَدِّ

فأطعِمْ وكُلْ مِن عارةٍ مُستَرَدّةٍ ، ولا تُبقِها ، إنّ العَواريَ للرَّدِّ[5]

مدح المهدي

وقائِلَةٍ : إنّ العِيالَ مُعَوَّلٌ عليكَ ، فلا تَقعُدْ ، وأنتَ مُضيعٌ[6]

فقلتُ لها: كُفّي! سيَكفيكِ واحِدٌ أشَمُّ ، لأبوابِ المُلوكِ قَروعُ

١ بالحمد : الباء باء البدل أي بدلا من الحمد .

٢ يستثيبها : يسترجعها . أي لا يطلب عليها جزاء أو مدحاً كالتاجر الذي يبيع مبادلا كيل مد بمد .

٣ مفيد : مستفيد . التراث : ما يخلفه الرجل لورثته . يريد أن ماله الذي هو إرث أولاده من بعده ، معرض أبداً للزيادة والنقصان .

٤ أفاد : استفاد وكسب .

٥ العارة : مفرد العواري وهي ما يتداوله الناس بينهم . والمال عارة لأنه متداول .

٦ مضيع : اسم فاعل من أضاع . يقول : لا تقعد عن طلب الرزق فتكون قد أضعت عيالك . وقد عولوا عليك إذ لا كاسب لهم غيرك .

وما أنا راضٍ بالهَوانِ ، إذا احتَبَى على الذّلّ ، في دارِ الهَوانِ ، رَتوعُ[1]

إذا الأمرُ لم يُقبِلْ عليّ بوَجهِـهِ ، فَلي مَسلَكٌ باليَعمَلاتِ وَسيعُ[2]

وزُرتُ هُماماً ، يُصبِحُ القومُ حَولَه عُكوفاً ، علَيهِم ذِلّةٌ وخُضوعُ

ولمّا التَقَينا سابَقَ الحَمدَ جُودُه ، فأجدَى ، وجُودُ الطّالبينَ سَريعُ[3]

وأملاكُ صِدْقٍ ألبَستَني طِرازَهم قَصائِدُ ، ما لي غيرَهنّ شَفيعُ[4]

إذا حاجةٌ ألقَتْ عليّ بَعاعَها ، ركِبتُ ، وحَسبي مُنصُلٌ وقَطيعُ[5]

يَرِدنَ امرأً قد شذّبَ الحَمدُ مالَهُ ، أغرَّ ، طَويلَ الباعِ ، حينَ يَبُوعُ[6]

وغَيرانَ من دونِ النّساءِ ، كأنّهُ أُسامَةُ ذو الشّبلَينِ حينَ يَجوعُ[7]

على جَنَباتِ الدَّستِ منهُ مَهابَةٌ ، وفي الدّرعِ عَبلُ السّاعدينِ قَروعُ[8]

يَشُقّ الوغى عن وَجهِهِ صِدقُ نجدةٍ ، وأبيَضُ من ماءِ الحَديدِ ، وَقيعُ[9]

إذا خَزَنَ المالَ البَخيلُ ، فإنّما خَزائنُـهُ خَطّيّـةٌ ودُروعُ[10]

---

١ احتبى : قعد عاقداً حبوته أي معتمداً يديه أو سيفه على ركبتيه . والمراد هنا أنه عاقد حبوته على الذل ، ذاك الذي يرتع في دار الهوان .

٢ اليعملات : جمع اليعملة وهي الناقة التي يعمل عليها في الأسفار .

٣ الطالبين : أي طالبي الحمد .

٤ أملاك صدق : أي ملوك شيمتهم الصدق في القول والفعل . الطراز : الثوب الملوكي . يقول : إن قصائده ألبسته ما يخلعون عليه من الحلل الملوكية .

٥ بعاعها : ثقلها. ركبت : أي ركبت إبلي للسفر في طلبها. المنصل: السيف. القطيع: السوط يسوق به مطيته .

٦ يردن : الضمير يعود إلى الإبل المحذوفة . شذب الحمد ماله : أي فرقه . الباع : قدر مد اليدين ، والشرف والكرم . يبوع : يمد باعه ، ويبسط يده بالمال والهبات .

٧ أسامة : معرفة علم للأسد . كان المهدي شديد الغيرة على النساء . يقول : إنه غيور يغضب للنساء كالأسد إذا جاع وعنده ولدان يحرص عليهما أن لا يجوعا معه .

٨ الدست : صدر المجلس . العبل : الضخم من كل شيء . قروع : من قرعه أي غلبه .

٩ يشق الوغى : يريد أنه يشق حومة الحرب ، ويكشف شدتها عن وجهه بصدق نجدته وسيفه المرهف . الوقيع : الرقيق المحد .

١٠ الخطية : الرماح . والمراد انه يجود بالمال ويحرص على السلاح .

وبِيضٌ بها مِسكٌ مكانَ بَنانِهِ ، ولكِنّها رِيحُ الدّماءِ تَضوعُ[1]
تَروحُ بأرزاقٍ ، وتَغدو بغارَةٍ ، فأنتَ ذُعافٌ مرّةً ورَبيعُ[2]

الغزل

لم يطل ليلي

لم يَطُلْ لَيلي ، ولكن لم أنَمْ ، ونَفَى عنّي الكَرى طَيفٌ ألَمّ
وإذا قُلتُ لها : جُودي لَنا ، خرَجتْ بالصّمتِ عن لا ونعَم[3]
نَفّسي يا عَبدَ عنّي ، واعلَمي أنّني ، يا عبدَ ، من لحمٍ ودَم[4]
إنّ في بُردَيّ جِسماً ناحِلاً ، لو تَوَكّأتِ علَيهِ ، لانهَدَم[5]
خَتَمَ الحبُّ لها في عُنُقي موضِعَ الخاتَمِ ، من أهلِ الذّمَم[6]

....

١ تضوع : تفوح .
٢ الذعاف : السم السريع القتل . وقوله تروح بأرزاق : أي تعود سيوفه مساء من الحرب بالغنائم لأمته ، وتغدو في الصباح بغارة على الأعداء .
٣ خرجت بالصمت عن لا ونعم : أي لم تجب بلا ولا بنعم .
٤ نفسي : فرجي .
٥ بردي : ثوبي .
٦ أهل الذمم : في الدول الإسلامية كالنصارى واليهود وكانوا يعلقون في أعناقهم خواتم من الرصاص ، ليدلوا بها على ما لهم عند الدولة من عهد . فالشاعر يقول هنا إن حبها ملازم له ملازمة الخاتم لأهل الذمة ، ويخضع عنقه لختم هذا الحب خضوع أعناقهم لخاتم العهد .

الأذن العاشقة

يا قَومُ ، أذني لبَعضِ الحَيّ عاشِقَةٌ ، والأُذنُ تَعشَقُ قَبلَ العَينِ أحيانَا
قالوا : بمَن لا ترَى تَهذي؟ فقلتُ لهم : الأُذنُ كالعَينِ تُوفي القَلبَ ما كانَا[1]
هَلْ مِن دَواءٍ لمَشغوفٍ بجاريَةٍ ، يَلقَى بلُقيانِها رَوحاً ورَيْحانَا ؟[2]

يا رحمة الله حلّي !

قال هذه الأبيات في جارية اسمها رحمة الله :

يا أطيَبَ النّاسِ ريقاً غيرَ مُختَبَرٍ ، لولا شَهادَةُ أطرافِ المَساويكِ
قد زُرتِنا مَرّةً في العامِ واحِدةً ، ثَنّي ، ولا تَجعَليها بَيضةَ الدّيكِ[3]
يا رَحمةَ اللهِ ، حُلّي في مَنازِلِنا ، حَسبي برائحَةِ الفِردوسِ من فيكِ

صفة حسناء

يا لَيلَتي تَزدادُ نُكرَا ، من حُبّ مَن أحبَبتُ بِكْرَا
حَوراءُ إن نظرَتْ إليْ ـكَ ،سقَتكَ بالعينينِ خَمرَا[4]
وكأنّ رَجْـعَ حَديثِها قِطَعُ الرّياضِ ، كُسينَ زَهرَا[5]

---

١ توفي : تبلغ .
٢ الروح : الراحة والسرور .
٣ على اعتقاد العامة أن الديك يبيض مرة في السنة .
٤ الحوراء : أي حوراء العينين ، من الحور وهو شدة البياض والسواد في العين مع استدارة الحدقة ورقة الجفون .
٥ يقول : إن حديثها جميل فيه ألوان متنوعة كأزهار الرياض .

وكأنّ تحتَ لِسانِها هاروتَ ، يَنفُثُ فيه سحرَا[1]
وتَخالُ ما جمعَتْ عليْـ ـهِ ثيابَها ذَهَباً وعِطرَا[2]
وكأنّها بَردُ الشّرا بِ، صَفا ،ووافقَ منك فِطرَا[3]
جِنّيّةٌ إنسيّةٌ ، أو بينَ ذاكَ أجَلُّ أمرَا[4]
وكَفاكَ أنّي لَمْ أحِطْ بشَكاةِ مَن أحبَبتُ خبِرَا[5]
إلاّ مَقالَةَ زائرٍ ، نَشَرَتْ ليَ الأحزانَ نَشْرَا[6]
مُتَخَشّعاً تحتَ الهَوَى عَشراً، وتحتَ الموتِ عَشرَا[7]

مجلس غناء

وذاتِ دَلٍّ كأنّ البَدرَ صورَتُها ، باتَتْ تُغَنّي عَميدَ القَلبِ سَكرانَا :[8]
« إنّ العُيونَ التي في طَرفِها حَوَرٌ قتَلْنَنا ، ثمّ لم يُحيِينَ قَتْلانَا »
فقلتُ : أحسَنتِ يا سُؤلي ويا أمَلي ، فأسمِعيني ، جَزاكِ اللهُ إحسانَا :

١ هاروت : أحد ملكي السحر ، والثاني ماروت . تقول الأسطورة إن الله غضب عليهما فحبسهما في بابل فهما معلقان بشعورهما في بئر يأتيها طلاب السحر فيتعلمون منهما . يقول الشاعر : إن حديث هذه الفتاة يسحر سامعه فكأن هاروت محبوس تحت لسانها ينفث السحر كلما تكلمت .
٢ يقول : تحسب جسمها الذي جمعت عليه ثيابها مجبولا من ذهب وعطر لا من طين وماء .
٣ ووافق منك فطراً : أي بعد صوم وعطش .
٤ يقول : فيها من الجن السحر . وفيها من الإنس الشكل والجسم . أو هي شيء بين الجن والإنس أعظم أمراً منهما لأنها مخلوقة من ذهب وعطر .
٥ الشكاة : المرض . الخبر ، بالكسر والفم : العلم بالشيء . وكانت هذه الفتاة قد وعدت بشاراً بالزيارة فأخلفت وعدها . فأرسل يعاتبها فاعتذرت بمرضها . فهو يستعظم عدم معرفته بذلك .
٦ إلا مقالة زائر : أي الذي جاء يخبر مرضها .
٧ يقول : تركتني مقالة الزائر متخشعاً تحت الهوى عشر مرات ومثلها تحت الموت . والعرب تستعمل عدد العشرة لأنه تمام العقد الأول . ويعبرون به عن الكثرة . ومن ذلك قولهم : قلب أعشار أي مكسر على عشر قطع .
٨ عميد القلب : مريضه من العشق .

«يا حَبّذا جَبَلُ الرّيّانِ مِن جَبَلٍ ، وحَبّذا ساكنُ الرّيّانِ مَن كانَا»
قالتْ: فهلاّ ، فدتكَ النّفسُ ، أحسنُ من هذا ، لمَن كانَ صَبّ القلبِ حَيرانا :
«يا قومُ أُذني لبَعضِ الحيّ عاشقَةٌ ، والأُذنُ تَعشَقُ قبلَ العَينِ أحيانَا»
فقلتُ: أحسنتِ ، أنتِ الشّمسُ طالعةً ، أضرَمتِ في القَلبِ والأحشاءِ نيرانَا
فأسمِعيني صَوتاً مُطرِباً هزَجاً ، يزيدُ صَبّاً مُحبّاً ، فيكِ أشجانَا :
يا لَيتَني كنتُ تُفّاحاً مُفلّجَةً ، أو كنتُ من قُضُبِ الرّيحانِ رَيحانَا[1]
حتّى إذا وَجَدَتْ ريحي فأعجبَها ، ونَحنُ في خَلوَةٍ ، مُثّلتُ إنسانَا[2]
فحرّكَتْ عُودَها ، ثمّ انثَنَتْ طرَباً ، تَشدو بهِ ، ثمّ لا تُخفيهِ كِتمانَا :
«أصبَحتُ أطوَعَ خَلقِ اللهِ كُلّهِمُ ، لأكثَرِ الخَلقِ لي في الحبّ عِصيانَا»
فقُلتُ : أطرَبتِنا ، يا زَينَ مَجلِسِنا ، فهاتِ ، إنّكِ بالإحسانِ أولانَا
لو كنتُ أعلَمُ أنّ الحُبّ يَقتُلُني ، أعدَدْتُ لي ، قبلَ أن ألقاكِ ، أكفانَا
فغَنّتِ الشَّربَ صَوتاً مُؤنِقاً رَمَلاً ، يُذكي السّرورَ ، ويُبكي العينَ ألوانَا:[3]
«لا يَقتُلُ اللهُ مَن دامَتْ مَوَدّتُهُ ، واللهُ يَقتُلُ أهلَ الغَدرِ أحيانَا»

ترك الغزل

يا مَنظَراً حَسَناً رأيتُهْ ، مِن وَجهِ جاريَةٍ فدَيتُهْ
بَعَثَتْ إليّ تَسومُني بُردَ الشّبابِ ، وقد طَوَيتُهْ[4]

---

١ قوله : تفاحاً مفلجة : على اعتبار أنه شبه جمع لتفاحة . مفلجة : مشققة حيث تكون رائحتها أسطع نفحاً .
٢ ريحي : رائحتي .
٣ الرمل : ضرب من الأغاني .
٤ تسومني : تطلب مني الشراء . والمراد أنها تطلب منه أن يبادلها الحب .

والله ربِّ محمدٍ ، ما إن غدرتُ ، ولا نويتُهْ
أمسكتُ عنكِ ، وربّما عرضَ البلاءُ ، وما ابتغيتُهْ
إنّ الخليفةَ قد أبَى ، وإذا أبَى شيئاً أبيتُهْ
ومخضَّبٍ رخصِ البنا نِ بكى عليّ ، وما بكيتُهْ[1]
قامَ الخليفةُ دونَهُ ، فصبرتُ عنهُ ، وما قليتُهْ[2]
ونهانيَ الملِكُ الهما مُ عن النسيبِ ، وما عصيتُهْ
لا بلْ وفيتُ فلمْ أضعْ عهداً ، ولا وأياً وأيتُهْ[3]
وأنا المُطِلُّ على العدا ، وإذا غلا علِقٌ ، شريتُهْ[4]
أصفي الخليلَ ، إذا دنَا ، وإذا نأى عنّي ، نأيتُهْ
ويشوقُني بيتُ الحبيـ ـبِ ، إذا ادّكرتُ ، وأينَ بيتُهْ ؟

---

١ ومخضب : على تذكير المؤنث . البنان : الأصابع واحدتها بنانة . وقوله: بكى علي وما بكيته : جعل النساء يجزعن لبعده ، ويتلهفن على أوقاته . وهو لا يبكي ولا يجزع بل يحمد الصبر في طاعة الخليفة .

٢ قليته : أبغضته .

٣ وأياً وأيته : وعداً وعدته .

٤ العلق : الشيء النفيس .

الفخر والحماسة

رويد تصاهل !

هاجم الضحاك بن قيس الشيباني فقيه الخوارج ورئيسهم الكوفة سنة ٧٤٥ م (١٢٨ ﻫ) فاستولى عليها وبايعه الناس على الخلافة . ثم عاد إلى الموصل . فبعث الخليفة الأموي مروان بن محمد ابنه عبد الله لمحاربته ورده عن الجزيرة ، فالتقاه الضحاك بنصيبين ، وضيق عليه الحصار . فأسرع مروان لنجدة ولده ومعه قائده يزيد بن عمر بن هبيرة الفزاري . فحصلت بين الفريقين موقعة قتل فيها الضحاك . ثم ولى مروان قائده ابن هبيرة على العراقين . فلبث يقاتل الخوارج حتى أجلاهم . وكان بشار ينتمي إلى بني عقيل بالولاء وعقيل وفزارة من قيس عيلان . فلما خرج ابن هبيرة لقتال الضحاك ومعه قيس عيلان ، أنشده بشار هذه القصيدة مفاخراً بالقيسية وانتصاراتها مهدداً الضحاك مثيراً الحماسة في صدور الرجال :

جَفَا وُدُّهُ ، فازوَرَّ ، أو مَلَّ صاحبُهْ ، وأزرَى به ِ ألاّ يزالَ يُعاتِبُهْ [١]

خليليَّ ، لا تَستكثِرا لَوعةَ الهَوى ، ولا سَلوةَ المَحزونِ ، شطّتْ حَبائبُهْ [٢]

فقد رابَني قلبي يُكلّفُني الصِّبا ، وما كلَّ حينٍ يَتبعُ القَلبَ صاحبُهْ

* * *

إذا كنتَ في كلِّ الأُمورِ مُعاتِباً صَديقَكَ ، لم تَلقَ الذي لا تُعاتِبُهْ

فعِشْ واحداً ، أو صِلْ أخاكَ ، فإنّهُ مُقارِفُ ذَنْبٍ مَرّةً ، ومُجانِبُهْ [٣]

إذا أنتَ لم تَشرَبْ مِراراً على القَذَى ظَمِئتَ، وأيُّ النّاسِ تَصفو مَشارِبُهْ [٤]

ومَن ذا الذي تُرضي سَجاياهُ كُلُّها ، كَفَى المَرءَ نُبلاً أنْ تُعَدَّ مَعايبُهْ

* * *

---

١ الضمير في وده يعود للشاعر . صاحبه : فاعل جفا وازور ومل . الضمير في به : يعود للشاعر المتغزل .
٢ شطت : بعدت .
٣ مقارف ذنب : مرتكبه .
٤ القذى : ما يقع في الماء فيكدر صفاءه .

يَخافُ المَنايا أنْ ترَحّلتُ صاحبي ، كأنّ المَنايا في المُقامِ تُناسبُه [١]

فقُلتُ لهُ : إنّ العِراقَ مُقامُهُ وَخيمٌ ، إذا هبّتْ علَيكَ جَنائبُه [٢]

لألقَى بَني عَيلانَ ، إنّ فَعالَهُمْ تَزيدُ على كلّ الفَعالِ مَراتبُه [٣]

أولاكَ الأُلى شَقّوا العَمَى بسيوفِهِم عن العَينِ ، حتى أبصَرَ الحَقّ طالبُه [٤]

رُوَيدَ تَصاهَلْ بالعِراقِ جِيادُنا ، كأنّكَ بالضّحّاكِ قد قامَ نادبُه [٥]

وسامٍ لمَروانٍ ، ومن دونِهِ الشّجَا ، وهَولٌ كلُجّ البحرِ، جاشتْ غَواربُه [٦]

أحلّتْ بهِ أمُّ المَنـايا بَناتِها بأسيافِنا ، إنّا رَدَى مَنْ نُحاربُه [٧]

وأرعنَ ، يَغشَى الشّمسَ لونُ حَديده ، وتَحبِسُ أبصارَ الكُماةِ كَتائبُه [٨]

تَغَصُّ بهِ الأرضُ الفَضاءُ ، إذا غَدا تُزاحمُ أركانَ الجبالِ مَناكبُه [٩]

رَكِبنا لهُ جَهراً بكُلّ مُثَقَّفٍ ، وأبيَضَ تَستَسقي الدّماءَ مَضاربُه [١٠]

---

١ تناسبه : تكون نسيبة له أي قريبة فلا يخشى شرّها

٢ الجنائب : جمع الجنوب ، وهي الريح الجنوبية .

٣ الفعال بالفتح : الفعل الحسن والكرم .

٤ أولاك : أولئك . العمى : الضلال والجهل .

٥ رويد : قال الليث : « إذا أردت برويداً التهديد نصبتها بلا تنوين . » وأنشد بيت بشار . كأنك : تفيد هنا التقريب لا التشبيه . أي قرب أن يقوم نادبه . والكاف حرف خطاب . الضحاك اسم كأن والباء فيه زائدة . وجملة قام نادبه خبر كأن .

٦ وسام لمروان : أي طامح إلى الخلافة مكان مروان . الشجا : الهم والحزن والغصة . غواربه : أمواجه .

٧ أم المنايا : يريد بها أعظمها هولا . بناتها : ويلاتها .

٨ الأرعن : الجيش الطويل الجرار . يغشى : يغطي ويحجب . لون حديده : أي اسوداده من صدإ الحديد . تحبس أبصار الكماة كتائبه : أي من الدهشة والارتياع .

٩ المناكب : جمع منكب وهي هنا الجوانب .

١٠ المثقف : صفة الرمح من ثقف الرمح قومه . الأبيض : صفة السيف . تستسقي : تطلب سقياً . المضارب : جمع مضرب وهو حد السيف . وقد جعل للسيف الواحد عدة مضارب على اعتبار أن كل جزء من حده مضرب .

وكُنّا ، إذا دَبَّ العَدوُّ لسُخطِنا ، وراقَبَنا في ظاهرٍ ، لا نُراقِبُه[1]

وجيشٍ كجُنحِ اللّيلِ ، يزحفُ بالحصَى ، وبالشّوكِ ، والخَطّيِّ حُمراً ثَعالبُه[2]

غَدَونا لهُ ، والشّمسُ في خِدرِ أُمّها ، تُطالعُنا ، والطّلُّ لم يَجرِ ذائبُه[3]

بضَربٍ يَذوقُ الموتَ من ذاقَ طَعمَهُ وتُدرِكُ مَن نَجّى الفِرارُ مَثالبُه[4]

كأنّ مُثارَ النّقعِ ، فوقَ رؤوسِنا ، وأسيافَنا لَيلٌ تَهاوَى كَواكبُه[5]

بَعَثْنا لَهُمْ موتَ الفُجاءَةِ ، إنّنا بَنو المَوتِ ، خَفّاقٌ علينا سَبائبُه[6]

فراحوا : فَريقٌ في الإسارِ ، ومثلُه قتيلٌ ، ومِثلٌ لاذَ بالبَحرِ هاربُه[7]

إذا المَلِكُ الجَبّارُ صَعّرَ خَدّهُ ، مَشَينا إلَيهِ بالسّيوفِ نُعاتِبُه[8]

---

١ دب : جاء في خفية . ظاهر : المكان المشرف من الأرض . يقول : إذا جاءنا العدو خفية ليثير غضبنا عليه وأخذ يراقبنا من مكان عال ، منتظراً غفلتنا ، فنحن لا نراقبه بل نسير إليه جهراً .

٢ جنح الليل : طائفة وقطعة منه . ويشبه به الجيش في اسوداد حديده وتلملمه . الحصى : العدد الكثير . الشوك : السلاح الحاد . الخطي : أي القنا الخطي منسوب إلى الخط وهو مرفأ السفن في البحرين تباع فيه الرماح . الثعالب : جمع ثعلب وهو طرف الرمح الداخل في السنان . يصف ضخامة جيش العدو وسلاحه .

٣ خدر أمها : خباؤها . والخدر : ظلمة الليل . تطالعنا : تديم إلينا النظر . الطل : الندى . يقول : غدونا إلى هذا الجيش عند ذرور قرن الشمس إذ كانت لم تزل مستترة في خباء أمها . جعلها مخدرة ولها أم . والندى لم يبرح منعقداً على الأوراق غير ذائب من حرارة الشمس .

٤ المثالب : جمع مثلبة وهي العيب والنقيصة . أي من يهرب يدركه العيب والعار .

٥ مثار : اسم مفعول من أثار الغبار . النقع : الغبار . تهاوى : على حذف إحدى التائين ، واصله تتهاوى : أي يتساقط بعضها إثر بعض . يقول : كأن الغبار المرتفع فوق رؤوسنا ، وكأن أسيافنا اللامعة في تساقطها على رؤوس الأعداء ليل تتساقط كواكبه . وهذا البيت يستشهد به على التشبيه الحسي الذي طرفاه مركبان . ووجه الشبه الهيئة الحاصلة من هوي أجرام مشرقة مستطيلة متفرقة في جوانب شيء مظلم . فوجه الشبه مركب وكذا طرفاه .

٦ خفاق : متحرك من خفقت الراية إذا تحركت . وهو مبتدأ لم يعتمد فيه على نفي أو استفهام . السبائب : جمع سبيبة ، وهي شقة رقيقة من الكتان . والمراد هنا الرايات . والسبائب فاعل خفاق سد مسد الخبر .

٧ فريق : خبر لمبتدإ محذوف تقديره وهم ، والجملة حالية من الواو . الإسار : الأسر . لاذ : اعتصم وعاذ . وفي هذا البيت صورة من البديع المعنوي تعرف بالتقسيم . وهي ان يذكر متعدد ثم يضاف الى كل فرد من افراده ما له على التعيين .

٨ صعر خده : اماله كبراً وغطرسة .

غضبة مضرية

إذا ما غَضِبنا غَضبةً مُضَرِيّةً ، هَتَكنا حِجابَ الشّمسِ ، أو تُمطرَ الدّما[1]
خَلَقنا سَماءً فوقَنا بنُجومِها سُيوفاً ، ونَقعاً يَقبضُ الطَّرفَ ، أقتَما[2]
وإنّا لَقَومٌ ما تَزالُ جِيادُنا تُساوِرُ مَلكاً ، أو تُناصِبُ مَغنَما[3]
إذا ما أعَرنا سَيّداً مِنْ قَبيلَةٍ ذُرى مِنبَرٍ ، صَلّى علَينا وسَلّما[4]

آراؤه وعقائده

الجبرية

طُبِعتُ على ما فيّ غَيرَ مُخَيَّرٍ هَوايَ، ولو خُيّرتُ كنتُ المُهذَّبَا
أُريدُ فلا أُعطى ، وأُعطى ولم أُرِدْ ، وقَصّرَ عِلمي أنْ أنالَ المُغَيَّبَا
فأُصرَفُ عن قصدي ، وعلمي مُقصِّرٌ ، وأمسي ، وما أُعقِبتُ إلاّ التّعَجّبَا

---

١ حجاب الشمس : شعاعها . هتكنا : فضحنا . أو : بمعنى إلى أن أو حتى . يقول : إذا ما غضبنا غضبة شريفة عرف بها أهل مضر ، سللنا سيوفنا للقتال ففضحنا بلمعانها لمعان أشعة الشمس لأنها أشد بريقاً من الشمس . وتظل الشمس مفضوحة في نورها إلى أن تمطر دماء أعدائنا ، فتكتسي بها سيوفنا ، فيذهب لمعانها . وفي هذا البيت إيجاز حذف لا يظهر فيه المعنى إلا بشرح مسهب .

٢ نقعاً : غباراً . يقبض : ضد يبسط . الطرف : البصر . أقتم : أسود .

٣ تساور : تواثب . تناصب : تقاوم .

٤ يقول : نحن أصحاب المنابر ، وهي ملك لنا ؛ فإذا أعرنا سيد قبيلة منبراً ليخطب عليه ، بدأ بالصلاة والسلام على محمد وآله ، ومحمد من مضر فكأنه صلى وسلم على مضر كلها . والشاعر ينتسب إلى بني عقيل بالولاء ، وعقيل من بني عامر ، وعامر قيسية مضرية .

البعث والحساب

كيفَ يَبكي لمَحبَسٍ في طُلولٍ ، مَن سيُفضي لحَبسِ يومٍ طويلِ[1]
إنّ في البَعثِ والحِسابِ لَشُغلاً عن وُقُوفٍ برَسمِ دارٍ مُحيلِ[2]

مجوسيّة

إبليسُ أفضَلُ من أبيكُمْ آدَمٍ ، فتَبَصّروا ، يا مَعشرَ الفُجّارِ
ألنّارُ عُنصُرُهُ ، وآدمُ طينَةٌ ، والطّينُ لا يَسمُو سموَّ النّارِ

صبر وأمل

خَليليّ ، إنّ العُسرَ سوفَ يُفيقُ ، وإنّ يَساراً في غَدٍ لَخَليقُ[3]
ذَراني أشُبْ هَمّي براحٍ ، فإنّني أرى الدّهرَ فيهِ فَرجةٌ ومَضيقُ[4]
وما كنتُ إلاّ كالزّمانِ ، إذا صَحا صَحَوتُ ، وإن ماقَ الزّمانُ ، أموقُ[5]
أأدماءُ ، لا أسطيعُ في قِلّةِ الثّرى خُزُوزاً ووَشياً ، والقَليلُ مَحيقُ[6]
خُذي من يدي ما قلّ ، إنّ زَمانَنا شَموسٌ ، ومعروفُ الرّجالِ رَقيقُ

---

١ المحبس : اسم مكان من الحبس أي الوقف ويريد به حبس الإبل على الطلول الدوارس للبكاء على الأحبة . سيفضي : سيصير . حبس يوم طويل : أي عذاب الآخرة .
٢ محيل : من أحال الشيء أتت عليه أحوال أو تغير من حال إلى حال .
٣ يفيق : يأتي بالخصب بعد الضيق .
٤ أشب همي : أي أخلطه .
٥ ماق : حمق .
٦ أدماء : اسم امرأة . الثرى : الخير والغنى . الخزوز ، جمع الخز : ثياب من صوف وحرير أو من حرير وحده . الوشي : الثياب المنقوشة التي خلط فيها لون بلون . محيق : لا خير فيه ، وهي فعيل بمعنى المفعول من محقه الله أي أذهب خيره وبركته .

لقد كنتُ لا أرضَى بأدنَى معيشةٍ ، ولا يَشتَكي بُخلاً عليّ رَفيقُ
خَليلِيّ ، إنّ المالَ ليسَ بنافعٍ ، إذا لم يَنَلْ منهُ أخٌ وصَديقُ
وكنتُ إذا ضاقتْ عليّ مَحلّةٌ ، تيَمّمتُ أخرى ، ما عليّ تَضيقُ[1]
وما خابَ بينَ اللهِ والنّاسِ عاملٌ ، له في التّقى ، أو في المَحامدِ سوقُ
ولا ضاقَ فضلُ اللهِ عن مُتَعَفّفٍ ، ولكنّ أخلاقَ الرّجالِ تَضيقُ[2]

---

١ تيممت : توخيت وقصدت .
٢ متعفف : أي عن السؤال وبذل ماء الوجه .

ابو العتاهية

الزهد والحكم

الله واحد

ألا ! إننا كلّنا بائدُ ، وأيُّ بَني آدَمٍ خالدُ ؟
وبَدْوُهمُ كانَ مِن رَبّهِمْ ، وكلٌّ إلى رَبّهِ عائدُ
فيا عَجَبا ! كيفَ يُعصَى الإلَـهُ ، أم كيفَ يجحدُه الجاحدُ ؟
وفي كلّ شيءٍ لهُ آيَةٌ ، تَدُلّ على أنّهُ واحدُ

وخذ ما انت محتاج اليه

أرى الدّنيا ، لمن هيَ في يَديهِ ، عَذاباً كُلّما كَثُرَتْ لَدَيهِ
تُهينُ المُكرِمينَ لها بصُغرٍ ، وتُكرِمُ كلَّ مَن هانَتْ علَيهِ
إذا استَغنَيتَ عَن شيءٍ فدَعْهُ ، وخُذْ ما أنتَ مُحتاجٌ إلَيهِ

لدوا للموت

لِدوا للمَوتِ وابنُوا للخَرابِ ، فكُلّكُمُ يَصيرُ إلى تَبابِ ![1]

....

١ التباب : الهلاك .

أَلا يا مَوتُ ! لم أرَ منكَ بُدّاً ، أتَيتَ ، وما تَحيفُ وما تُحابي[1]
كأنّكَ قد هَجَمتَ على مَشيبي ، كما هَجَمَ المَشيبُ على شَبابي

خانك الطرف

خانَكَ الطَّرفُ الطّموحُ ، أيّها القَلبُ الجَموحُ !
لدَواعي الخَيرِ والشّـ ـرّ ، دُنُـوٌّ ونُزُوحُ
هل لمَطلوبٍ بذَنبٍ ، تَوبَةٌ منهُ نَصوحُ ؟[2]
كيفَ إصلاحُ قُلوبٍ ، إنّمـا هنّ قُرُوحُ ؟
أحسَنَ اللهُ بنا ، إ نّ الخَطايا لا تَفُوحُ
فإذا المَستورُ مِنّـا ، بَين ثَوبَيهِ فُضُوحُ
كَم رأينا مِن عَزيزٍ ، طُوِيَتْ منهُ الكُشُوحُ[3]
صاحَ منهُ برَحيلٍ ، صائحُ الدّهرِ الصَّدُوحُ
موتُ بعضِ النّاسِ ،في الأر ضِ ، على قومٍ فُتُوحُ
سيَصيرُ المَرءُ ، يوماً ، جَسَداً ما فيهِ رُوحُ
بَينَ عَينَيْ كلّ حَيٍّ ، عَلَمُ المَوتِ يَلُوحُ
كُلُّنا في غَفْلَةٍ ، والـ ـموتُ يَغدو ويرُوحُ
لبَني الدّنيا ، مِنَ الدّنْـ يا ، غَبُـوقٌ وصَبُوحُ[4]
رُحنَ في الوَشيِ ، وأصبَحـ ـنَ علَيهِنّ المُسوحُ
كلُّ نَطّاحٍ ، منَ الدّهْـ ـرِ ، لَهُ يومٌ نَطُوحُ

---

١ تحيف : تجور . وما تحابي : لا تميل الى احد منحرفاً عن العدل .
٢ نصوح : صادقة .
٣ الكشوح ، جمع الكشح : وهو ما بين السرة ووسط الظهر .
٤ الغبوق : شراب المساء . الصبوح : شراب الصباح .

نُحْ على نفسكَ ، يا مسـ كينُ ، إنْ كُنتَ تنُوحُ
لتَموتَنّ ، وإنْ عُـ مّرْتَ ، ما عُمّرَ نُوحُ !

من ملك الى ملك

ما اختلَفَ اللّيلُ والنّهارُ ، ولا دارَتْ نجومُ السّماءِ في الفَلَكِ
إلاّ لنقلِ السّلطانِ عَن مَلِكٍ ، قدِ انقَضَى مُلكُهُ ، إلى مَلِكِ

الهي لا تعذبني

إلهي ! لا تُعَذّبْني ، فإنّي مُقِرٌّ بالذي قد كانَ منّي !
فَما لي حيلَةٌ ، إلاّ رَجائي لعفوِكَ ، إن عفوتَ ، وحُسنُ ظَنّي
وكم مِن زَلّةٍ لي في الخَطايا ، وأنتَ عليّ ذو فَضلٍ ومَنّ
إذا فكّرتُ في نَدَمي علَيها ، عضَضتُ أناملي ، وقَرَعتُ سِنّي !
أُجَنُّ بزَهرَةِ الدّنيا جُنُوناً ، وأقطَعُ طولَ عُمري بالتّمَنّي
ولو أنّي صَدَقتُ الزُّهدَ عَنها ، قَلَبتُ لأهلِها ظَهرَ المِجَنّ[1]
يَظنّ النّاسُ بي خَيراً ، وإنّي لَشَرُّ الخَلقِ ، إنْ لم تَعفُ عَنّي

تحليل الكسب

ولا تَدَعْ مَكسِباً حَلالاً تكونُ منهُ على بَيانِ
فالمالُ من حِلّهِ قِوامٌ للعِرضِ والوَجهِ واللّسانِ
والفَقرُ ذُلٌّ علَيهِ بابٌ مِفتاحُهُ العَجزُ والتّواني

---

[1] المجن : الترس وكل ما وقى من السلاح . قلب له ظهر المجن : اي تحول عن الصداقة الى العداوة .

ذم الفقر

يُكرَمُ المَرءُ، وإنْ أم لَقَ أقصاهُ بَنُوه[1]
لو رأى النّاسُ نَبيّاً سائِلاً ما وَصَلُوهُ
لا تَرَاني آخِرَ الدّهْرِ بِتَسآلٍ أفُوه[2]
أنتَ مااستَغنَيتَ عَنْ صا حبكَ الدّهرَ أخوهُ
فإذا احتَجْتَ إلَيهِ ساعَةً مَجّكَ فُوه[3]

ذم جمع المال

ماذا تُؤمّلُ، لا أبا لكَ، في مالٍ تموتُ وأنتَ تُمسِكُهُ
ما لم تكُنْ لكَ فيهِ مَنفَعَةٌ ممّا مَلَكتَ فلَستَ تملِكُهُ
أنفِقْ، فإنّ اللهَ يُخلِفُهُ، لا تَمضِ مَذموماً وتَترُكُهُ

وقفة على القبور

يا مَعشرَ الأمواتِ، يا ضِيفانَ تُربِ الأرضِ كَيفَ وَجَدتُمُ طَعمَ الثّرَى
أهلَ القُبورِ مَحا التّرابُ وُجوهَكُمْ أهلَ القُبورِ تَغَيّرَتْ تلكَ الحِلَى
أأخَيَّ لم يَقِكَ المَنيّةَ إذْ أتَت ما كانَ أطعَمَكَ الطّبيبُ وما سقَى
أأخَيَّ لم تُغنِ التّمائِمُ عَنكَ ما قد كُنتُ أحذَرُهُ علَيكَ ولا الرُّقَى[4]
أأخَيَّ، كيفَ وَجدتَ مَسّ خُشُونةِ الـ مأوَى وكيفَ وجَدتَ ضِيقَ المُتّكَا

١ املق : افتقر واحتاج .
٢ آخر الدهر : ابد الدهر .
٣ مجك : لفظك وبصقك .
٤ التمائم : جمع التميمة وهي العوذة تعلق في العنق ليتوقى بها مس الجن . الرقى ، جمع الرقية : العوذة التي ينفث فيها الرقاء لاستجلاب النفع أو الضرر في زعمهم .

ابو نواس

الخمر

شهر في خمّارة

وفِتيانِ صِدقٍ ، قد صرَفتُ مطيَّهم ✻ إلى بَيتِ خَمّارٍ ، نزَلنا بهِ ظُهرَا
فلمّا حكَى الزُّنّارُ أن ليسَ مُسلِماً ، ✻ ظَنَنّا بهِ خَيراً ، فظَنَّ بنا شَرّا[1]
فقُلنا : على دينِ المَسيحِ بنِ مَريمٍ ، ✻ فأعرَضَ مُزوَرّاً ، وقال لنا هُجرا[2]
ولكن يَهوديٌّ ، يُحبُّكَ ظاهراً ، ✻ ويُضمِرُ في المَكنونِ منه لكَ الغَدرَا
فقلتُ له : ما الإسمُ ؟ قال : سَمَوءَلٌ ، ✻ ولكنّني أُكنَى بعَمرٍو ولا عَمرَا[3]
وما شَرّفتني كُنيَةٌ عَرَبيّـةٌ ، ✻ ولا أكسَبَتني لا ثَناءً ، ولا فَخرَا[4]
ولكِنّها خَفّتْ وقَلّتْ حروفُها ، ✻ ولَيستْ كأُخرى ، إنّما جُعلتْ وَقرَا[5]

---

١ الزنار : خيط دقيق كان أهل الذمة من النصارى واليهود والمجوس يتزنرون به في البلاد الإسلامية ليعرفوا من المسلمين . وقوله : ظننا به خيراً : لأن الخمارة التي يديرها المسلم سراً تكون معرضة لأنظار رجال الشرطة وتنقيبهم . وقوله : فظن بنا شراً ، لأنهم نزلوا به ظهراً على أعين الناس ورجال الشرطة .

٢ مزوراً : منحرفاً . هجراً : كلاماً قبيحاً .

٣ قوله : ولا عمرا أي ليس له ولد اسمه عمرو ولكنه يكنى به .

٤ هنا شعوبية أبي نواس في فم الخمار .

٥ كأخرى : أي لفظة سموءل . الوقر : ثقل في الأذن . يريد أن لفظة سموءل كثيرة الحروف ثقيلة على السمع بخلاف لفظة عمرو .

فقُلتُ لهُ عُجباً بظَرفِ لسانِهِ : أجَدتَ أبا عَمرٍو ، فجَوِّد لنا الخَمرَا
فأدبَرَ كالمَزْوَرِّ ، يَقسِمُ طَرْفَهُ لأرجُلِنا شَطراً ، وأوجُهِنا شَطرَا
وقال: لَعَمري ، لو أحطتم بوَصفِها ، لَلُمناكمُ ،لكن سَنوسِعُكُمْ عُذرَا[1]
فجاءَ بهـا زَيتيّـةً ذهَبيّةً . فلَم نَستَطِعْ دونَ السّجودِ لها صَبرَا
خرَجنا على أنّ المُقامَ ثَلاثَةٌ ، فطابَ لنا ، حتى أقَمنا بها شَهرَا[2]
عِصابَةُ سَوءٍ ، لا ترى الدّهرَ مثلَهم وإن كنتَ منهم لا بَريئاً ولا صِفرَا[3]
إذا ما دَنا وقتُ الصّلاةِ ، رأيتَهُمْ يَحثُونَها ، حتى تَفوتَهُمُ سُكرَا[4]

في دير الأكيراح

دَعِ البَساتينَ منْ آسٍ وتُفّـاحِ واعدِلْ ،هُديتَ،إلى ديرِ الأُكَيراحِ[5]
إعدِلْ إلى نَفَرٍ دَقّتْ شُخوصُهُمُ من العِبادَةِ ، إلاّ نِضوَ أشباحِ[6]
يُكَرّرونَ نَواقيساً مُرَجّعَـةً على الزّبورِ ، بإمساءٍ وإصبـاحِ
تَبعُدْ بسَمعِكَ عن صَوتٍ تَكَرَّهُهُ، فلَستَ تَسمَعُ فيهِ صَوتَ فَلاّحِ[7]

١ لو أحطتم بوصفها : أي لو عرفتم خمرتنا وحسن صفاتها لكنا للومكم إذ قلتم جود لنا الخمر ، ولكن سنعذركم لجهلكم إياها .
٢ طاب لنا : اي المقام . اقمنا بها : اي الخمارة .
٣ السوء بالفتح : الشر والفساد . الدهر : اي مدى الدهر . وقوله : وان كنت منهم لا بريئاً ولا صفراً ، خطاب لابن عصره اي لا يبرأ ولا يخلو ان يكون فيه شيء منهم .
٤ يحثونها : الضمير يعود للخمرة ويريد انهم يسرعون في شربها لكي تفوتهم الصلاة وهم في حالة السكر .
٥ أعدل : ارجع . دير الأكيراح : دير حنة بظاهر الكوفة . الأكيراح : تصغير اكراح ، مفردها كرح وهي لفظة سريانية معناها الكوخ الصغير يكون حول الدير ويسكنه الراهب الذي لا قلاية له .
٦ النضو : الهزيل .
٧ فلاح : أراد به المؤذن الذي يقطعه عن شرابه إذا دعا حي على الفلاح . ولم ترد فلاح بهذا المعنى في كتب اللغة .

إلاّ الدّراسةَ للإنجيلِ عن كُتُبٍ ، ذِكرُ المَسيحِ بإبْلاغٍ وإفصاحِ
يا طيبَهُ! وعتيقُ الرّاحِ تُحفتُهم ، بكُلّ نَوعٍ منَ الطّاساتِ رَحراحِ[1]

الخمرة والغفران

دعْ عنكَ لَومي ، فإنّ اللّومَ إغراءُ ، وداوِني بالّتي كانتْ هيَ الدّاءُ[2]
صَفراءُ ، لا تَنزِلُ الأحزانُ ساحتَها ، لو مَسّها حَجَرٌ ، مَسّتهُ سَرّاءُ

* * *

قامتْ بإبريقِها ، واللّيلُ مُعتَكِرٌ ، فلاحَ من وَجهِها ، في البيتِ ، لألاءُ
فأرسلَتْ من فَمِ الإبريقِ صافيَةً ، كأنّما أخذُها بالعَينِ إغفاءُ
رَقّتْ عنِ الماءِ ، حتى ما يُلائمُها لَطافَةً ، وجَفا عن شَكلِها الماءُ
فلَو مزَجتَ بها نُوراً ، لمَازَجَها ، حتى تَوَلّدُ أنوارٌ وأضواءُ
دارَتْ على فِتيَةٍ دانَ الزّمانُ لَهُمْ ، فَما يُصيبُهُمُ إلاّ بما شاؤوا
لتِلكَ أبكي ، ولا أبكي لمَنزِلَةٍ ، كانتْ تَحُلُّ بها هِندٌ وأسماءُ
حاشا لدُرّةَ أنْ تُبنَى الخيامُ لها ، وأنْ تَروحَ علَيها الإبلُ والشّاءُ[3]
فقُلْ لمَنْ يَدّعي في العِلمِ فَلسفَةً : حَفِظتَ شَيئاً ، وغابتْ عنكَ أشياءُ !
لا تَحظُرِ العفوَ ، إن كنتَ امرَأً حرِجاً ، فإنّ حَظْرَكَهُ بالدّينِ إزْراءُ[4]

. . . .

١ يا طيبه : الضمير عائد إلى دير الأكيراح . رحراح : واسع . كانت الحانات تقام قرب الأديار فيقصدها عشاق الخمرة لجمال موقعها الطبيعي ؛ فيصفون الرهبان ، والخمرة معاً .
٢ إغراء : أي إيلاع بالشيء وحض عليه . كان : زائدة بين اسم الموصول والصلة في قوله : بالتي كانت هي الداء .
٣ الدرة : اللؤلؤة العظيمة . استعارها للخمر أو لكأسها ، وأجراها مجرى اسم العلم ، فمنعها من الصرف للعلمية والتأنيث .
٤ لا تحظر : لا تمنع . حرجاً : ضنيناً متشدداً في الدين . ازراء : تحقير ، أي منع العفو تحقير للدين . والخطاب لإبراهيم النظام شيخ المعتزلة .

العيش سكرة بعد سكرة

ألا فاسقِني خَمراً، وقل لي: هيَ الخَمرُ! ولا تَسقِني سِرّاً، إذا أمكَنَ الجَهرُ

فعَيشُ الفتى في سكرَةٍ بعدَ سكرَةٍ، فإنْ طالَ هذا عندَهُ، قَصُرَ الدّهرُ

وما الغَبنُ إلاّ أنْ تَرانيَ صاحياً، ولا الغُنمُ إلاّ أن يُتَعتِعَني السُّكرُ[1]

فبُحْ باسمِ مَن أهوَى، ودَعني من الكِنى، فلا خَيرَ في اللّذّاتِ من دونِها سِترُ

ولا خَيرَ في فَتكٍ بغَيرِ مَجانَةٍ، ولا في مُجُونٍ لَيسَ يَتبَعُهُ كُفرُ[2]

بكُلّ أخي قَصفٍ كأنّ جَبينَهُ هِلالٌ، وقد حَفّتْ بهِ الأنجُمُ الزُّهرُ[3]

نشوتان

لا تَبكِ لَيلى، ولا تَطرَبْ إلى هِنْدِ، واشرَبْ على الوَردِ من حمراءَ كالوَردِ[4]

كأساً إذا انحَدَرَتْ في حَلقِ شارِبِها، أجدَتهُ حُمرَتَها في العَينِ والخَدّ[5]

فالخَمرُ ياقُوتَةٌ، والكأسُ لؤلؤةٌ، في كَفّ جارِيَةٍ مَمشوقَةِ القَدّ

تَسقيكَ من طَرفِها خَمراً، ومن يدِها خَمراً، فما لكَ من سُكرَينِ من بُدّ

لي نَشوَتانِ، وللنّدمانِ واحدَةٌ، شيءٌ خُصِصتُ بهِ، من دونِهم، وَحدي[6]

١ يتعتعني : يحركني بعنف .
٢ الفتك : الجرأة والمضي في الأمور التي تدعو إليها النفس .
٣ بكل : أي مع كل . قصف : لهو . الأنجم الزهر : أي الحسان الوجوه . أو الكؤوس المتلألئة .
٤ لا تطرب : لا تحزن ، والطرب خفة تأخذ الإنسان لشدة السرور أو الحزن . وقوله : واشرب على الورد : إشارة إلى الأزهار التي كانوا يفرشونها أمامهم على بساط المدام .
٥ أجدته : أعطته . وقوله : كأساً ، مجاز مرسل قام به اسم المحل مكان الحال فيه .
٦ الندمان : المنادم على الشراب ، وقد يأتي جمعاً كما في هذا البيت . تنبيه : هذه الأبيات من البسيط في ضربه الثاني المقطوع وهو فعلن ، ولا يكون إلا مردفاً أي مسبوق الروي بحرف لين ، كقول المتنبي :
لا خيل عندك تهديها ولا مال ، فليسعد النطق إن لم تسعد الحال
وقد ورد هنا غير مردف شذوذاً .

قصة الأمم

يا شَقيقَ النَّفسِ من حَكَمٍ ، نِمتَ عَن لَيلي ، ولم أنَمِ[1]

فاسقِني البِكرَ الّتي اختَمَرَتْ بخُمارِ الشَّيبِ في الرَّحِمِ[2]

ثُمّتَ انصاتَ الشّبابُ لها ، بَعدَما جازَتْ مدى الهَرَمِ[3]

فهيَ لليَومِ الذي بُزِلَتْ ، وهيَ تِربُ الدّهرِ في القِدَمِ[4]

عُتِّقَتْ ، حتى لَوِ اتّصَلَتْ بلِسانٍ ناطِقٍ وفَمِ

لاحتَبَتْ في القومِ ماثِلَةً ، ثمّ قَصّتْ قِصّةَ الأُمَمِ[5]

فَرَعَتها بالمِزاجِ يَدٌ ، خُلِقَتْ للسّيفِ والقَلَمِ[6]

في نَدامى ، سادَةٍ زُهُرٍ ، أخَذوا اللّذّاتِ مِن أمَمِ[7]

فتَمَشّتْ في مَفاصِلِهِمْ ، كتَمَشّي البُرءِ في السّقَمِ

فعلَتْ في البَيتِ ، إذ مُزِجتْ ، مثلَ فِعلِ الصّبحِ في الظُّلَمِ

واهتَدى ساري الظّلامِ بها ، كاهتِداءِ السَّفْرِ بالعَلَمِ[8]

. . . .

١ حكم : قبيلة يمنية كان ينتسب إليها الشاعر بالولاء .

٢ البكر : أي الخمرة التي لم تزل بطينتها . اختمرت الخمرة : أدركت وصار لها إزباد وغليان ، واختمرت أيضاً : لبست الخمار وهو النصيف يغطى به الرأس . يقول : هذه الخمرة شابت وهي في أول تكوينها . ويريد بالشيب ما ستر وجهها من الزبد في مدة إدراكها وغليانها .

٣ انصات : أقبل . يقول : إن هذه الخمرة أقبل لها شبابها بعدما هرمت أي عتقت . يريد بذلك أنها صفت وسكن إزبادها ، ففارقها الشيب .

٤ بزلت الخمرة : ثقب دنها بالبزال وهو حديدة يفتح بها . ترب الدهر : رفيقته كأنها ولدت معه . يقول : هذه الخمرة بقيت مختومة بطينتها معدة لليوم الذي بزل به دنها ليشرب منها الشاعر ، وهي قديمة كالدهر .

٥ احتبت : جلست عاقدة حبوتها كالشيوخ لتحدث عن الماضي . والاحتباء هو أن يجمع الرجل بين ظهره وساقيه معتمداً يديه على ركبتيه ، ليصير كالمستند .

٦ المزاج : مزج الخمرة بالماء .

٧ الزهر : حركت الهاء بالضم للشعر ، مفردها أزهر وهو الأبيض والمشرق الوجه . من أمم : من قرب .

٨ السفر : المسافرون ووردت في الديوان : الصقر وهو تحريف . العلم : شيء ينصب في الطريق ليهتدي به المسافرون .

روحان في جسد

ما زِلتُ أستَلُّ روحَ الدَّنّ في لَطَفٍ ، وأستَقي دَمَهُ من جوفِ مَجروحِ[1]
حتّى انثَنَيتُ ولي روحانِ في جَسَدٍ ، والدَّنُّ مُنطَرِحٌ جِسماً بلا رُوحِ

ثورة على القديم

عاجَ الشّقيُّ على رَسمٍ يُسائِلُهُ ، وعُجتُ أسألُ عن خَمّارَةِ البَلَدِ[2]
يَبكي على طَلَلِ الماضينَ من أسَدٍ ، لا دَرَّ دَرُّكَ ، قل لي: مَن بنو أسدِ ؟
ومَن تَميمٌ ، ومَنْ قَيسٌ ولِفُّهُما؟ ليسَ الأعاريبُ عندَ اللهِ من أحَدِ[3]
لا جَفَّ دَمعُ الذي يَبكي على حَجَرٍ ؛ ولا صَفا قَلبُ مَن يَصبو إلى وَتَدِ
كم بينَ ناعِتِ خَمرٍ في دَساكِرِها ، وبينَ باكٍ على نُؤْيٍ ، ومُنتَضِدِ[4]
دعْ ذا، عَدِمتُكَ، واشرَبها مُعَتَّقَةً ، صَفراءَ ، تَفرُقُ بينَ الرّوحِ والجَسَدِ[5]

المركب الوعر

أعِرْ شِعرَكَ الأطلالَ والمَنزِلَ القَفرا ، فقَد طالمَا أزرَى بهِ نَعتُكَ الخَمرا

---

١ الدن : وعاء كبير كالخابية . في لطف : في رفق . وقوله : دمه ، استعارة على تشبيه الخمرة الخارجة من الدن المثقوب بالبزال ، بالدم المنبعث من جوف مجروح .
٢ عاج : عطف على المكان .
٣ لفهما : حزبهما .
٤ النؤي : نهير يحفر حول الخيمة ليجري فيه ماء المطر ، ويصنع له حاجز لئلا يدخل الماء البيت . المنتضد : المقيم بالمكان ، ويريد به ساكنة الدار .
٥ قوله : تفرق بين الروح والجسد ، على حد تعبير الفلاسفة في قولهم: النفوس المفارقة ، ويريدون بها الأرواح السماوية المنفصلة عن المادة . فخمرة أبي نواس كخمرة الصوفيين ، تبعد الروح مدة السكر عن حبس الجسد وآلامه .

دَعاني إلى وَصفِ الطُّلولِ مُسَلَّطٌ ، يَضيقُ ذِراعي أنْ أرُدَّ لهُ أمرَا[1]
فسَمعاً ، أميرَ المؤمنينَ ، وطاعَةً ، وإن كنتَ قد جَشّمتَني مَركباً وَعرَا

آداب المنادمة

- ولَستُ بقائلٍ لنَديمِ صِدقٍ ، وقد أخَذَ الشّرابُ بمُقلَتَيهِ :
- تَناوَلْها ، وإلاّ لمْ أذُقْها ، فيأخُذُها ، وقد ثَقُلَتْ علَيهِ
- ولكِنّي أديرُ الكأسَ عَنهُ ، وأصرِفُها بغَمزَةِ حاجِبَيهِ
- وأحبِسُها إلى أن يَشتَهيها ، وآخُذُها برِفْقٍ من يَدَيه
- وإنْ مَدَّ الوِسادَ لنَومِ سُكرٍ ، دَفَعتُ وِسادَتي أيضاً إلَيه
- فذلكَ ما حَيِيتُ لهُ ، وإنّي أبَرُّ بمِثلِهِ مِن والِدَيهِ

الغزل

حامل الهوى

حامِلُ الهوَى تَعِبُ ، يَستَخِفُّهُ الطّرَبُ
إنْ بكَى يُحَقّ لهُ ، لَيسَ ما بهِ لَعِبُ[2]

....

١ مسلط : يريد به الخليفة الأمين . يضيق ذراعي : يقال ضاق بالأمر ذرعه وذراعه : ضعفت طاقته ، ولم يجد من المكروه فيه مخلصاً .

٢ من المواضع التي تخرج فيها ليس عن وجه استعمالها هي أن تدخل على المبتدإ والخبر مرفوعين ، فيكون اسمها ضمير الشأن لتعظيم الشيء ، والجملة بعدها في محل نصب خبراً لها . مثال ذلك : ليس الأمر هين ، أو كقول أبي نواس هنا : ليس ما به لعب .

تَضحَكينَ لاهيَةً ، والمُحِبُّ يَنتَحِبُ
تَعجَبينَ مِن سَقَمي ، صِحّتي هيَ العَجَبُ
كُلّما انتَفَى سبَبٌ مِنكِ ، جاءَني سَبَبُ

المختسلة

نَضَتْ عَنها القَميصَ لصَبِّ ماءٍ ، فوَرّدَ وَجهَها فَرطُ الحَياءِ[1]
وقابَلَتِ الهَواءَ ، وقد تَعَرّتْ ، بمُعتَدِلٍ أرَقَّ مِنَ الهَواءِ[2]
ومَدّتْ راحةً ، كالماءِ ، منها ، إلى ماءٍ مُعَدٍّ في إناءِ[3]
فلَمّا أن قضَتْ وطَراً ، وهَمّتْ على عَجَلٍ إلى أخذِ الرّداءِ
رأتْ شَخصَ الرّقيبِ على التّداني ، فأسبَلَتِ الظّلامَ على الضّياءِ[4]
فغابَ الصّبحُ منها تحتَ لَيلٍ ، وظَلّ الماءُ يَقطِرُ فوقَ ماءِ
فسُبحانَ الإلَهِ ، وقد بَراها كأحسَنِ ما يكونُ مِنَ النّساءِ

حب بين نارين

قال هذه الأبيات في دنانير جارية البرامكة :

صَليتُ مِن حُبّها نارَينِ : واحدةً في وَجنَتَيها ، وأخرى بينَ أحشائي
وقد حَمَيتُ لساني أن أبينَ بهِ ، فَما يُعَبّرُ عَنّي غَيرَ إيماءِ

....

١ نضت : خلعت .
٢ بمعتدل : أي بقوام معتدل .
٣ راحة : كفاً .
٤ الظلام : أي شعرها الأسود . قيلت هذه القصيدة في إحدى جواري القصر في خلافة الرشيد لا في خلافة الأمين إذ قص جواري القصر شعورهن متشبهات بالغلمان .

يا وَيحَ أهليَ أبلَى بَينَ أعيُنِهِمْ ، على الفِراشِ ، وما يَدرونَ ما دائي
لو كان زُهدُكِ في الدّنيا كزُهدِكِ في حُبّي ، مَشَيتِ بلا شكّ على الماءِ

يزيدك وجهه حسناً

كَأنّ ثِيابَهُ أطلَعْنَ مِن أزرارِهِ قَمَرَا
يَزيدُكَ وجهُهُ حُسناً ، إذا ما زِدْتَهُ نَظَرَا
بوَجْهٍ سابرِيٍّ ، لو تَصَوّبَ ماؤهُ ، قَطَرَا[1]
وعَينٍ خالَطَ التّفتيرُ في أجفانِها الحَوَرَا[2]
وقد خَطّتْ حَواضِنُهُ لهُ مِن عَنبرٍ طُرَرَا[3]

١ سابري : رقيق ، وأصله الثوب الرقيق نسبة إلى سابور على غير قياس . وسابور كورة في بلاد الفرس . تصوب : تحدر . يقول : له وجه رقيق ريان بماء الصبا ، فلو تحدر هذا الماء لقطر قطراً لعظم فيضه ورونقه على وجهه .
٢ التفتير : انكسار الطرف وضعف الجفون . الحور : شدة سواد المقلة في شدة بياضها .
٣ الحواضن : جمع الحاضنة وهي الداية التي تقوم على الصغير في تربيته . العنبر : طيب وهو مادة بقامة الشمع الصغير ، إذا سحقت أو أحرقت انبعثت منها رائحة ذكية . الطرر : جمع الطرة وهي الناصية . يقول : إن حواضنه تعنى بتزيينه فتجعل له من شعره طرراً مطيبة بالعنبر .

المدح

مدح الرشيد

حَيِّ الدّيارَ إذِ الزّمانُ زَمانُ ، وإذِ الشَّباكُ لَنا حَوًى ومَعانُ[1]
يا حَبّذا سَفَوانُ من مُتَرَبَّعٍ ، ولَرُبّما جَمَعَ الهوى سَفَوانُ[2]
وإذا مَرَرتَ على الدّيارِ مُسَلِّماً ، فلِغَيرِ دارِ أُمَيمَةَ الهِجرانُ
إنّا نَسَبْنا والمَناسِبُ ظِنّةٌ ، حتى رُميتِ بنا ، وأنتِ حَصانُ[3]
لمّا نزَعتُ عن الغَوايَةِ والصِّبَا ، وخَدَتْ بيَ الشَّدَنيّةُ المِذْعانُ[4]
سَبِطٌ مَشافِرُها، دَقيقٌ خَطمُها ، وكأنّ سائرَ خَلقِها بُنيانُ[5]
واحتازَها لَونٌ جَرَى في جِلدِها ، يَقَقٌ، كقرطاسِ الوليدِ ، هِجانُ[6]
وإلى أبي الأمَناءِ هارونَ الذي يَحيا، بصَوبِ سَمائِه، الحَيوانُ[7]

. . .

١ الشباك : طريق حاج البصرة قريبة من سفوان . الحوى : الأرض اللينة . وقد وردت في الديوان حرى وهو تحريف ، لأن حرى لغة في حراء : جبل في مكة . وليس من جامع بينه وبين الشباك وسفوان وهما في البصرة. فاعتمدنا رواية ياقوت في معجم البلدان ، استشهد بشعر أبي نواس في كلامه على الشباك . المعان : المنزل . يحيي الديار إذ كان الزمان مؤاتياً ، وإذ كان الشباك بأرضه اللينة منزلا له وللأحبة .

٢ سفوان : ماء على قدر مرحلة من باب المربد بالبصرة .

٣ نسب بالمرأة : شبب بها في الشعر . المناسب : جمع المنسبة وهي التشبيب بالمرأة . الظنة : التّهمة . رميت بنا : اتّهمت بنا . حصان : متعففة مصونة .

٤ نزعت : انتهيت عنه . الغواية : الضلال . الصبا : جهلة الفتوة . الشدنية : الناقة ، منسوبة إلى شدن وهو فحل ، أو موضع باليمن . مذعان : منقادة سلسة الرأس .

٥ سبط : مسترسل . خطمها : مقدم أنفها وفمها .

٦ احتازها : جمعها وضمها . يقق : شديد البياض . هجان : ناقة كريمة بيضاء .

٧ أبي الأمناء : كنية هارون الرشيد والد محمد الأمين وعبد الله المأمون ، والقاسم المؤتمن . الصوب : مجيء السماء بالمطر . السماء : المطر ، ويريد بذلك جود الممدوح .

مَلِكٌ تَصَوَّرَ في القُلوبِ مِثالُهُ ، فكأنَّما لم يَخلُ منهُ مكانُ

ما تَنطَوي عنهُ القُلوبُ بفَجرَةٍ ، إلاّ يُكَلِّمُهُ بها اللَّحَظانُ[1]

فيَظَلُّ لاستِنبائِهِ ، وكأنّهُ عَيْنٌ على ما غَيَّبَ الكِتمانُ[2]

هارونُ ألَّفَنا ائتِلافَ مَوَدّةٍ ، ماتَتْ لها الأحقادُ والأضغانُ

في كلّ عامٍ غَزوَةٌ ، ووِفادَةٌ ، تَنبَتُّ ، بَينَ نَواهُما ، الأقرانُ[3]

حَجٌّ وغَزوٌ ماتَ بَينَهُما الكَرَى ، باليَعمَلاتِ شِعارُها الوَخَدانُ[4]

يَبرِمي بهِنّ نِياطَ كلّ تَنُوفَةٍ ، في اللهِ ، رَحّالٌ بها ، ظَعّانُ[5]

حتّى إذا واجَهنَ أقبالَ الصَّفا ، حَنَّ الحَطيمُ ، وأطَّتِ الأركانُ[6]

لأغرّ ، يَنفرِجُ الدُّجى عن وَجهِهِ ، عَدلِ السِّياسَةِ ، حُبُّهُ إيمانُ[7]

يَصلَى الهَجيرَ بغُرّةٍ مَهديّةٍ ، لو شاءَ صانَ أديمَها الأكنانُ[8]

---

١ الفجرة : الكذب والعصيان والمخالفة . اللحظان : مصدر لحظ : نظر بمؤخر عينيه . أي يعرف ما في القلوب من نظره إلى أصحابها .

٢ لاستنبائه : لاستخباره . أي يظل يلحظ من يطوي الكذب والخلاف ، ليستخبر أمره .

٣ الوفادة : الحج إلى البيت الحرام . تنبت : تنقطع . نواهما : قصدهما أي قصد الحج والغزو . الأقران : الحبال واحدها القرن . وقوله : تنبت الأقران : أي الصلة بينه وبين أهله .

٤ مات بينهما الكرى : أي عاف النوم من أجلهما . اليعملات : جمع اليعملة وهي الناقة التي يعمل عليها في الأسفار . الوخدان : إسراع النوق .

٥ النياط : الفؤاد . التنوفة : الفلاة البعيدة الأطراف لا ماء فيها ولا أنيس . في الله : أي في سبيل الله حجاً لبيت الله الحرام . ظعان ، من ظعن : سار .

٦ الأقبال : أوائل الشيء مفردها القبل . أو هي جمع القبل : وهو ما استقبلك من الشيء . الصفا : من مشاعر مكة بلحف أبي قبيس . الحطيم : حجر الكعبة أو جداره . أطت : أنت حنيناً . الأركان : أي أركان الكعبة ، وهي الحجارة المكرمة كالركن الأسود ، والركن اليماني ، والركن الشامي ، والركن العراقي .

٧ لأغر : الجار متعلق بأطت . الأغر : الأبيض الوجه . العدل : العادل .

٨ يصلى : يقاسي الحر . الهجير : شدة الحر . الغرة : الوجه . مهدية : منسوبة إلى والده المهدي . أديمها : جلدها . الأكنان : جمع كن وهو البيت .

لكِنّهُ في اللهِ مُبتَذِلٌ لها ، إنّ التّقيّ مُسَدَّدٌ ، ومُعانُ
ألِفَتْ مُنادَمَةَ الدّماءِ سُيوفُهُ ، فلَقَلّما تَحتازُها الأجفانُ[1]
حتّى الذي في الرّحمِ ، لم يكُ صورَةً ، لفُؤادِهِ ، من خَوفِهِ ، خَفَقانُ
حَذَرَ امرىءٍ نُصرَتْ يداه على العدى كالدّهرِ ، فيهِ شَراسَةٌ ولَيانُ
مُتبرّجُ المَعروفِ ، عريّضُ النّدى ، حَصِرٌ ، بلا ، منهُ فَمٌ ولِسانُ[2]
للجُودِ مِن كِلتا يدَيهِ مُحَرّكٌ ، لا يَستَطيعُ بُلُوغَهُ الإسكانُ .

مدح الخصيب

أتى أبو نواس مصر ومدح الخصيب بن عبد الحميد العجمي عامل الخراج فيها من قبل هارون الرشيد . فمن مدائحه هذه القصيدة التي يذكر فيها المواضع التي مر بها في طريقه من العراق إلى الفسطاط عاصمة مصر يومذاك :

أجارَةَ بَيتَينا ، أبُوكِ غَيُورُ ، ومَيسُورُ ما يُرجَى لدَيكِ عَسيرُ[3]
فإنْ كُنتِ لا خِلماً ولا أنتِ زَوجَةٌ ، فلا بَرِحَتْ ، دوني ، علَيكِ سُتورُ[4]
وجاوَرتُ قوماً ، لا تَزاوُرَ بَينَهُمْ ، ولا وَصلَ ، إلاّ أن يكونَ نُشُورُ[5]
فما أنا بالمَشغوفِ ضَربَةَ لازِبٍ ؛ ولا كلُّ سُلطانٍ عَليّ قَديرُ[6]
فإنّي لطَرفِ العَينِ بالعَينِ زاجِرٌ ، فقَد كِدتُ لا يَخفَى عليّ ضَميرُ[7]
....

١ الأجفان : جمع الجفن وهو غمد السيف .
٢ متبرج : ظاهر للناس . عريض الندى : يتعرض للناس بالكرم . الحصر : البخيل بالشيء ، ومن يضيق بالكلام . يريد أن الممدوح يبخل ويضيق بقول لا لطالب معروفه .
٣ قوله : بيتينا ، على عادتهم في تثنية المفرد .
٤ الخلم : الصديق والصاحب .
٥ النشور : يوم القيامة .
٦ ضربة لازب : أي شغفاً لازماً شديداً .
٧ يقول : إنه يرد بعينه الصادقة النظر كل عين مخاتلة يضمر صاحبها له شراً .

كَما نَظَرَتْ ، والرّيحُ ساكِنَةٌ ، لها ، عُقابٌ ، بأرساغِ اليَدَيْنِ ، نَدورُ[1]
طوَتْ ، لَيلتَيْنِ ، القوتَ عن ذي ضرورَةٍ ، أُزَيغِبَ ، لم يَنبُتْ عليهِ شَكيرُ[2]
فأوفَتْ على عَلياءَ ، حينَ بَدا لها ، من الشّمسِ ، قَرنٌ ، والضّريبُ يَمورُ[3]
تُقَلِّبُ طَرفاً في حَجاجَيْ مَغارَةٍ ، من الرّأسِ ، لم يَدخُلْ عليهِ ذَرُورُ[4]
تَقولُ الّتي من بَيتِها خَفَّ مَركَبي : عَزيزٌ علينا أنْ نَراكَ تَسيرُ[5]
أمَا دونَ مِصرٍ للغِنى مُتَطَلَّبٌ ؟ بَلى إنَّ أسبابَ الغِنى لَكَثيرُ
فقُلتُ لها ، واستَعجَلَتها بَوادِرٌ ، جرَتْ فجرَى في جَريِهِنَّ عَبيرُ :[6]
ذَريني أُكَثّرْ حاسِديكِ برِحلَةٍ إلى بَلَدٍ فيهِ الخَصيبُ أميرُ[7]
إذا لم تَزُرْ أرضَ الخَصيبِ رِكابُنا ، فأيَّ فتًى ، بَعدَ الخَصيبِ ، نَزورُ[8]
فتًى ، يَشتري حُسنَ الثّناءِ بمالِهِ ، ويَعلَمُ أنّ الدّائراتِ تَدورُ[9]

....

١ الأرساغ ، جمع الرسغ : المفصل ما بين الساعد والكف ، والساق والقدم . الندور : خروج العظم من موضعه . في هذا البيت تقديم وتأخير . ووجه الكلام : كما نظرت عقاب لها ندور بأرساغ اليدين . يشبه صدق نظره بصدق نظر العقاب وهي موصوفة عند العرب بحدة البصر . والظاهر أنه يشير إلى جوعها في خروج عظم يديها من موضعه .

٢ قوله : عن ذي ضرورة أي محتاج إلى غيره ليأتيه بالقوت . الأزيغب : تصغير أزغب وهو الفرخ ذو الزغب أي الريش الدقيق اللين . الشكير : الريش أول نبته .

٣ قرن الشمس : أول شعاعها . الضريب : الثلج والجليد . يمور : يتحرك ليسيل ويجري .

٤ الحجاج : العظم الذي ينبت عليه الحاجب . المغارة : الكهف ، استعارها لعينيها الغائرتين . ذرور : ما يذر من الدواء في العين ليشفيها من الرمد وغيره . يقول : إن هذه العقاب بقيت ليلتين لا تجد قوتاً لها ولفرخها الصغير حتى إذا سكنت الريح ، ولاح شعاع الشمس ، وأخذ الجليد يذوب ، أشرفت من عل تقلب طرفها السليم الصادق النظر تبحث عن صيد لتنقض عليه .

٥ خف : ارتحل مسرعاً . المركب : ما يركب في البحر أو البر وهنا بمعنى المطية .

٦ بوادر : سوابق من الدمع . العبير : أخلاط من الطيب ، أي امتزج العبير بدمعها .

٧ ذريني : دعيني . وقوله : أكثر حاسديك ، أي حينما يأتيها بالمال فتصبح غنية .

٨ الركاب : الإبل ، واحدتها راحلة .

٩ الدائرات تدور : أي تتغير الأيام على الإنسان ، فلا يبقى له إلا الذكر الحسن إذا استطاع أن يكتسبه في أيام عزه ورخائه .

فما جازَهُ جُودٌ ، ولا حَلّ دونَهُ ، ولكنْ يَصيرُ الجُودُ حَيثُ يَصيرُ[١]

فلَم ترَ عَيْني سُؤدُداً مثلَ سُؤدُدٍ ، يَحُلُّ أبو نَصرٍ بهِ ، ويَسيرُ

وأطرَقَ حَيّاتُ البِلادِ لحَيّةٍ ، خَصيبيّةِ التّصميمِ حينَ تَسُورُ[٢]

سَمَوتَ لأهلِ الجَورِ في حالِ أمنِهِم ، فأضحَوا ، وكلٌّ في الوَثاقِ أسيرُ

إذا قامَ ، غَنّتهُ على السّاقِ حِليَةٌ ، لها خَطوُهُ ، عندَ القِيامِ ، قَصيرُ[٣]

فمَنْ يَكُ أمسَى جاهلاً بمَقالَتي ، فإنّ أميرَ المؤمنينَ خَبيرُ

فَما زِلتَ تُوليهِ النّصيحَةَ يافِعاً ، إلى أن بَدا في العارِضَينِ قَتيرُ[٤]

إذا غالَهُ أمرٌ ، فإمّا كَفَيتَهُ ، وإمّا علَيهِ بالكِفاءِ تُشيرُ[٥]

إلَيكَ رَمَتْ بالقَومِ هُوجٌ ، كأنّما جَماجِمُها ، تحتَ الرِّحالِ ، قُبُورُ[٦]

رَحَلنَ بنا من عَقرَقُوفَ ، وقد بَدا ، من الصّبحِ ، مَفتوقُ الأديمِ ، شَهيرُ[٧]

فما نجِدَتْ بالماءِ ، حتى رأيتُها ، معَ الشّمسِ ، في عَينَيْ أُباغَ ، تَغورُ[٨]

....

١ قوله : فما جازه جود ، ولا حل دونه ، أي ما عدا عنه جود ، ولا حل في غيره .

٢ التصميم : المضي في الأمر . تسور : تثب وتثور . كان أهل مصر قد شغبوا على الخصيب ، وشنعوا عليه لزيادة في أسعارهم . فشبههم أبو نواس في إفكهم وبهتانهم ، بحيات السحرة الذين كانوا عند فرعون ، وشبه الخصيب بعصا موسى التي انقلبت حية بأمر الله وتلقفت الحيات الكاذبة . وله مثل ذلك قصيدة يخاطب بها أهل مصر :

فإن يك باقي إفك فرعون فيكمُ ؛ فإن عصا موسى بكف خصيب

٣ حلية : أراد بها سيفه في غمد محلى بالذهب ، يرن على ساقه إذا قام يمشي ، فكأنه يغني له ، ويخطو معه خطواً قصيراً . يصف الممدوح بالرزانة ، لا يوسع الخطى في مشيه .

٤ يافعاً : فتى راهق العشرين . والمراد : وأنت يافع . العارضين : جانبي الوجه . قتير : بياض الشيب .

٥ غاله الأمر : أخذه من حيث لا يدري . كفيته : قمت به دونه . الكفاء : دفع الأمر .

٦ بالقوم: بالوافدين إلى الممدوح ومنهم الشاعر. هوج: جمع الهوجاء وهي الناقة المسرعة حتى كأن بها هوجاً.

٧ عقرقوف : قرية من نواحي دجيل بينها وبين بغداد أربعة فراسخ . أديم الصبح : بياضه ، وقوله : مفتوق : أي منشق عن سواد الليل .

٨ نجدت بالماء : نضحت بالعرق . عين أباغ : مثلثة ، واد على طريق الفرات إلى الشام . وقوله : عيني أباغ ، على تثنية المفرد . روي عن أبي نواس أنه قال : جهدت على أن تقع في الشعر عين أباغ فامتنعت علي ، فقلت عيني أباغ ليستوي الشعر .

وغُمِّرْنَ من ماءِ النُّقَيبِ بشُربَةٍ ، وقد حانَ من ديكِ الصّباحِ زَميرُ[1]

ووافَينَ إشراقاً كَنائِسَ تَدمُرٍ ، وهُنّ إلى رَعنِ المُدَخَّنِ صُورُ[2]

يُؤمّمنَ أهلَ الغُوطَتَينِ ، كأنّما لها ، عندَ أهلِ الغُوطَتَينِ ، ثُؤُورُ[3]

وأصبحنَ بالجَولانِ يرضَخنَ صَخرَها ، ولم يَبقَ من أجراحِهِنّ شُطورُ[4]

وقاسَينَ لَيلاً دونَ بَيسانَ ، لم يَكَدْ سَنا صُبحِهِ ، للنّاظرينَ يُنيرُ[5]

وأصبحنَ ، قد فوّزنَ من نَهرِ فُطرُسٍ ، وهُنّ عنِ البَيتِ المُقدّسِ زُورُ[6]

طَوالِبُ بالرُّكبانِ غَزّةَ هاشِمٍ ، وفي الفَرَما من حاجِهِنّ شُقُورُ[7]

ولمّا أتَتْ فُسطاطَ مِصرَ أجارَها ، على رَكبِها ، أنْ لا تَزالَ ، مُجيرُ[8]

مِنَ القَومِ بَسّامٌ ، كأنّ جَبينَهُ سَنا الفَجرِ ، يَسري ضوءُهُ ويُنيرُ[9]

. . . .

١ غمرن : أسقين قليلا ، أو أسقين بالقدح لضيق الماء . النقيب ، تصغير النقب : الثقب وهو كما يظهر اسم موضع في طريق تدمر غير النقيب الذي ذكره ياقوت بين تبوك ومعان . الزمير : الغناء ؛ وأراد به صياح الديك .

٢ الرعن : أنف يتقدم الجبل . المدخن : جبل لم يذكره ياقوت . صور : جمع أصور وهو المائل إلى الشيء .

٣ يؤممن : يقصدن . الغوطتين : أراد بهما غوطة دمشق على تثنية المفرد . ثؤور : ثارات .

٤ الجولان : كانت يومئذ من أعمال حوران ، وهي إلى الجنوب من إقليم البلان ، كثيرة القرى خصبة المراعي . يرضخن : يكسرن ، أي بوطء أخفافهن . وقوله : لم يبق من أجراحهن شطور : يريد أن الأنساع أي السيور التي تشد بها الأحمال ، أثرت في ظهور الإبل فجعلت فيها جراحاً اتسعت لطول السفر فتلاقت أجزاؤها .

٥ بيسان : مدينة بالأردن عند الغور الشامي في الجنوب الشرقي من مرج ابن عامر . يقول : كان الليل طويلا لشدة ما لقيت به المطايا من العناء .

٦ فوزن : مضين ناجيات . نهر فطرس : أي بطرس ، موضع قرب الرملة من فلسطين . زور ، جمع أزور : وهو المائل عن الشيء والمنحرف عنه .

٧ غزة : جنوبي يافا من فلسطين . ويقال لها غزة هاشم لرواية تزعم أن هاشم بن عبد مناف القرشي ، والد جد النبي محمد ، مدفون فيها . الفرما : مدينة على الساحل من ناحية مصر . حاجهن : أي حاجاتهن جمع حاجة . ويريد بذلك حاجتهن إلى الراحة . الشقور : جمع الشقر وهو الأمر اللاصق بالقلب المهم له .

٨ الفسطاط : عاصمة مصر قبل القاهرة ، بناها عمرو بن العاص . على ركبها : أي مع ركبها .

٩ من القوم : الجار متعلق بمجير .

زَها بالخَصيبِ السّيفُ والرّمحُ في الوغى ، وفي السِّلمِ يَزهو مِنبَرٌ وسَريرُ[1]
جوادٌ، إذا الأيدي كفَفنَ عن النّدى ، ومِن دونِ عَوراتِ النّساءِ غَيورُ
لَهُ سَلَفٌ في الأعجَمينَ كأنّهُمْ ، إذا استُوْذِنوا ، يومَ السّلامِ ، بُدورُ[2]
وإنّي جَديرٌ ، إذ بَلَغتُكَ ، بالمُنى ، وأنتَ ، بما أمّلتُ منكَ ، جَديرُ
فإنْ تولِني منكَ الجَميلَ ، فأهلُهُ ، وإلاّ فإنّي عاذِرٌ ، وشَكُورُ

مدح الخليفة محمد الأمين

كان للأمين خمس من السفن المعروفة بالحراقات : إحداها على مثال الأسد ، والثانية على مثال العقاب ، والثالثة على مثال الدلفين ، والرابعة على مثال الفيل ، والخامسة على مثال الحية . فركب ذات يوم في سفينة الأسد متنزهاً ، وركب أبو نواس معه ينادمه ؛ فقال في ذلك :

سَخّرَ اللهُ للأمينِ مَطايا ، لمْ تُسَخَّرْ لصاحبِ المِحرابِ[3]
فإذا ما رِكابُهُ سِرنَ بَرّاً ، سارَ في الماءِ راكباً ليثَ غابِ[4]
أسَداً باسِطاً ذِراعَيهِ يَعدو ، أهرَتَ الشّدقِ ، كالحَ الأنيابِ[5]
لا يُعانيهِ باللّجامِ ، ولا السّو طِ ، ولا غَمزِ رِجلِهِ في الرِّكابِ
عجبَ النّاسُ ، إذ رأوه، على صُو رَةِ لَيثٍ ، يَمُرُّ مَرَّ السّحابِ
سَبّحوا، إذ رأوكَ سرتَ علَيه، كيفَ لو أبصَروكَ فوقَ العُقابِ
ذاتِ زَورٍ ، ومَنسِرٍ، وجَناحَيْ نِ تَشُقُّ العُبابَ بَعدَ العُبابِ[6]

---

١ السرير : تخت الملك وعرشه .
٢ يقول : تشرق وجوههم كالبدور متهللة ، وهم يستقبلون الذين يدخلون للسلام .
٣ المحراب : موضع الإمام من المسجد ، وأراد بصاحب المحراب سليمان الحكيم لأنه بنى الهيكل .
وقوله : لم تسخر لصاحب المحراب : إشارة إلى ما يروى من أن الريح كانت مطية له ولأصحابه .
٤ ركابه : مطاياه .
٥ أهرت الشدق : واسعه . كالح الأنياب : متكشر في عبوس .
٦ الزور : الصدر . المنسر : المنقار . العباب : تدفق المياه وكثرتها .

تَسبقُ الطّيرَ في السّماءِ ، إذا ما اسـ تَعجَلوها . بجيئةٍ وذَهابِ
بارَكَ اللهُ للأمينِ . وأبقـا هُ . وأبقَى لهُ رِداءَ الشّبابِ
مَلِكٌ تَقصُرُ المَدائحُ عَنهُ . هاشميٌّ . مُوَفَّقٌ للصّوابِ[1]

الهجاء

هجاء اليمانية

كان أبو نواس قد ادعى أنه من العدنانية ، فأخذ يتعصب لها ، وهجا هاشم بن حديج الكندي :

يا هاشِمَ بنَ حُديجٍ . ليسَ فَخرُكُمُ . بقَتلِ صِهرِ رَسولِ اللهِ . بالسّدَدِ[2]
أدرَجتُمُ في إهابِ العَيرِ جُثّتَهُ . فبِئسَ ما قَدّمَتْ أيديكُمُ لغَدِ[3]
إن تَقتُلوا ابنَ أبي بَكرٍ . فقد قتَلَتْ حُجراً . بدارَةِ مَلحوبٍ . بَنو أسَدِ[4]
وطَرّدوكُمْ إلى الأجبالِ من أجَإٍ . طَرْدَ النّعامِ إذا ما تاهَ في البَلَدِ[5]

١ تقصر : تكف عاجزة .
٢ الصهر : هنا بمعنى الختن وهو من كان من قبل المرأة كالأب والأخ . والمراد بصهر الرسول محمد ابن أبي بكر أخو عائشة زوج النبي محمد ، وكان عامل علي بن أبي طالب على مصر ، قتله معاوية ابن حديج الكندي ، وقطع رأسه ، ثم أدرج الجثة في جلد حمار وأحرقها بالنار ، وبعث بالرأس إلى معاوية . قيل : وكان أول رأس طيف به في الإسلام سنة ٣٨ هـ (٦٥٨ م) .
٣ الإهاب : الجلد . العير : الحمار . وقوله : قدمت أيديكم لغد أي للآخرة .
٤ حجر : والد امرىء القيس الشاعر . ثارت به بنو أسد القبيلة العدنانية فقتلته وأزالت عنها ملك بني كندة . دارة ملحوب : اسم موضع .
٥ أجأ : أحد جبلي بني طي . وثانيهما سلمى . وطي : قبيلة يمانية . البلد : قطعة من الأرض عامرة أو غامرة .

وقد أصابَ شَراحيلاً أبُو حَنَشٍ ، يومَ الكُلابِ ، فما دافعتُمُ بيَدِ[1]
ويومَ قُلتُمْ لزَيدٍ ، وهوَ يَقتُلُكُمْ قَتلَ الكِلابِ: لقد أبرَحتَ من وَلَدِ[2]
وكلُّ كِنديّةٍ قالتْ لجارتِها ، والدّمعُ يَنهلُّ، من مَثنَى ومن وَحَدِ :
ألهَى امرأ القَيسِ تَشبيبٌ بغانيةٍ ، عن ثأرِهِ ، وصِفاتُ النّؤيِ والوَتَدِ

هجو العدنانية

وقال من قصيدة يهجو بها قبائل نزار العدنانية ويفخر بالقحطانية بعد انتسابه إلى اليمن :

أحبِبْ قُرَيشاً لحُبِّ أحمَدِها ، واعرِفْ لها الجَزلَ من مَواهِبِها[3]
إنّ قُرَيشاً ، إذا هيَ انتَسَبَتْ ، كانَ لَنَا الشّطرُ من مَناسِبِها
فأمُّ مَهديِّ هاشِمٍ ، أمُّ موسَى الـ خَيرُ مِنّا ، فافخَرْ ، وسامِ بها[4]
إن فاخَرَتنا ، فلا افتِخارَ لها إلاّ التّجاراتُ من مَكاسِبِها
وإنّها ، إن ذكَرتَ مَكرُمَةً ، جاءَتْ تِجاراتُها بغالِبِها
واهجُ نِزاراً . وأفرِ جِلدَتَها . وهَتِّكِ السّترَ عن مَثالِبِها[5]

١ شراحيل : كذا في الأصل، وهو في الأغاني والعقد الفريد شرحبيل أي شرحبيل بن الحارث الكندي قتله أبو حنش عصيم بن مالك التغلبي يوم الكلاب الأول . والكلاب : ماء بين الكوفة والبصرة .
٢ أبرحت من ولد : يقال : أبرحت فارساً ، وأبرحت كرماً أي فضلت وعظمت .
٣ الجزل : الكثير .
٤ يقول : إن أم الخليفة المهدي منا أي قحطانية . وأم المهدي هي أروى بنت منصور الحميرية . وكانت تكنى أم موسى . وقوله الخير : في معنى أفعل التفضيل .
٥ افر : اقطع وشق . هتك الستر : شقه . مثالبها : معايبها ، واحدتها مثلبة .

هجاء الخصيب

خُبزُ الخَصيبِ مُعَلَّقٌ بالكَوكَبِ ، يُحمَى بكُلّ مُثَقَّفٍ ، ومُشَطَّبِ[1]
جعَلَ الطّعامَ على بَنيهِ مُحَرَّماً قُوتاً ، وحَلّلَهُ لمَنْ لم يَسغَبِ[2]
فإذا هُمُ راؤوا الرّغيفَ ، تَطَرّبُوا طَرَبَ الصّيامِ إلى أذانِ المَغرِبِ[3]

هجو الرقاشي

قُلْ للرّقاشيّ ، إذا جِئتَهُ : لو مِتَّ ، يا أحمَقُ ، لم أهجُكَا
لأنّني أُكرِمُ عِرضي ، ولا أقرِنُهُ يَوماً إلى عِرضِكَا
إن تَهجُني ، تَهجُ فتًى ماجِداً ، لا يَرفَعُ الطّرفَ إلى مِثلِكَا
واللهِ ، لو كنتُ جَريراً ، لَمَا كُنتُ بأهجَى لكَ من أصلِكَا

١ المثقف : الرمح المقوم . المشطب : السيف فيه شطب أي طرق .
٢ يسغب ، من سغب : جاع .
٣ راؤوا : بمعنى رأوا من باب القلب المكاني .

الطرديات

نعت كلب

لمّا تبدّى الصبحُ من حجابهِ ، كطلعةِ الأشمطِ من جلبابهِ[١]
وانعدلَ الليلُ إلى مآبهِ ، كالحبشيِّ افترّ عن أنيابهِ[٢]
هجنا بكلبٍ ، طالما هجنا بهِ ، ينتسفُ المقودَ من كلاّبهِ[٣]
كأنّ متنيهِ ، لدى انسلابهِ ، متنا شجاعٍ ، لجَّ في انسيابهِ[٤]
كأنّما الأظفورُ ، في قنابهِ ، موسى صناعٍ ، رُدّ في نصابهِ[٥]
تراهُ في الحضرِ ، إذا هاها بهِ ، يكادُ أن يخرجَ من إهابهِ[٦]
شدّاً ببطنِ القاعِ ، من ألهى بهِ ، يتركُ وجهَ الأرضِ ، في إلهابهِ[٧]

١ تبدى : في كتب اللغة أقام بالبادية وصار من أهلها ، وهنا يستعملها الشاعر بمعنى بدا أي ظهر . الأشمط : من خالط سواد شعره بياض الشيب . جلبابه : قميصه أو ثوبه . والمعنى أن الصبح في أوله يخالط بياضه سواد الليل ، كرأس الأشمط الخارج من قميصه .

٢ انعدل : حاد وتنحى . مآبه : مرجعه . افترّ : تبسم . والمعنى أن الليل في ذهابه عند قدوم الصباح يشبه حبشياً أسود يبتسم عن أسنانه البيض ، فيبدو بريقها على سواده .

٣ هجنا بكلب : أي أثرناه من مرقده . ينتسف : يقتلع . الكلاب : قائد الكلب . يصف حمية كلبه ونشاطه ، فيقول : إنه يشد بحبله حتّى يقتلعه من يد كلابه .

٤ متنيه : ما اكتنف الظهر من اليمين والشمال . انسلابه : إسراعه في السير . الشجاع : ضرب من الحيات دقيق .

٥ الأظفور ، والظفر واحد . القناب : موضع الظفر . صناع : ماهر في عمل اليدين ، ويريد به الحلاق . نصابه : مقبضه وقرابه .

٦ الحضر : الارتفاع في الركض . هاها : مخفف هأهأ أي زجر . إهابه : جلده . أي يكاد يخرج من جلده لحميته ونشاطه .

٧ شداً : عدواً . القاع : أرض سهلة قد انفرجت عنها الجبال والآكام . ألهى به : يريد أن الكلب ألهى الكلاب به ، وجعله يقفز وراءه ليستطيع لحاقه لشدة عدوه . إلهابه : إسراعه في العدو .

كأنّ نَشوانَ ، تَوَكّلنا بهِ ، يَعفو على ما جَرّ مِن ثِيابِهِ[1]
إلاّ الذي آثَرَ مِن هُدّابِهِ ، ترى سَوامَ الوَحشِ تُحتَوى بهِ[2]

نعت ديك

أنعَتُ ديكاً من دُيوكِ الهِندِ ، كَريمَ عَمٍّ ، وكَريمَ جَدّ
لِنِسبَةٍ لَيستَ إلى مَعَدّ ، ولا قُضاعيٍّ ، ولا في الأزْدِ[3]
مُفَتَّحُ الرّيشِ ، شَديدُ الزّندِ ، ضَخمُ المَخاليبِ، عظيمُ العَضْدِ[4]
حتّى إذا الدّيكُ ارتأى من بُعدِ ، ونجمُهُ في النّحسِ ، لا في السّعدِ[5]
رأيتَــهُ كالفارِسِ المُعِدّ ، يَخطِرُ خَطْراً مثلَ خَطْرِ الأُسدِ
يَقُثُّهُ بالكَدّ بَعدَ الكَدّ ، وتَعَبٍ مُوَصَّلٍ بجَهْــدِ[6]
حتّى ترَى الدّيكَ لهُ كالعَبدِ ، مُفَكَّراً ، يُعظِمُهُ بالسّجدِ[7]
يا لكَ مِن ديكٍ رَبي في المَهدِ

---

١ نشوان : سكران . يعفو : يمحو . يقول: إن هذا الكلب لعدوه الشديد يشق التراب بقوائمه، ثم يتمرغ ويتقلب فيمحو تلك الآثار بجسمه ، فكأنه سكران يرتدي ثياباً طويلة الأذيال تجر على الأرض فتترك أثراً ، فإذا مشى وقع من سكره وتقلب فمحا آثار أذياله .

٢ آثر : فضل . الهداب : طرف الثوب . السوام : الراعية . الوحش : أي حمار الوحش . يقول : يمحو هذا السكران آثار ما جر من ثيابه إلا بعضها فضله على غيره فأبقاه ، أي أن الكلب في تمرغه لا يمحو جميع آثار قوائمه بل يبقى بعضها ظاهراً . ثم يقول : إن هذا الكلب ، وهو على هذه الحال من النشاط والحمية ، إذا بلغ الصيد تراه يحتوي على الحمر الراعية حتى تصبح في حوزته .

٣ معد : مجموع القبائل العدنانية . قضاعة والأزد من القبائل القحطانية الجامعة . تظهر هنا شعوبية الشاعر في سخره بالقبائل التي تفاخر بأنسابها ، فيقول : إن ديكه هندي لا عربي ، ومع ذلك فهو كريم العم والجد .

٤ العضد : ما بين المرفق إلى الكتف .

٥ ارتأى : أخذها بمعنى تراءى أي ظهر .

٦ يقثه : يجره ويسوقه .

٧ مفكراً : هكذا وردت في الديوان ، ولعلها مكفراً ، والتكفير : خضوع الشخص لغيره .

الزهديات

خداع الدنيا

ألا رُبّ وَجهٍ ، في التّرابِ ، عَتيقِ ؛ ويا رُبّ حُسنٍ ، في التّرابِ ، رَقيقِ[1]

ويا رُبّ حزمٍ ، في التّرابِ ، ونَجدةٍ ؛ ويا رُبّ رأيٍ ، في التّرابِ ، وَثيقِ

فقُل لقَريبِ الدّارِ : إنّكَ راحِلٌ إلى مَنزِلٍ نائي المَحَلّ سَحيقِ[2]

وما النّاسُ إلاّ هالكٌ وابنُ هالكٍ ، وذو نَسَبٍ ، في الهالِكينَ ، عَريقِ

إذا امتَحنَ الدّنيا لَبيبٌ ، تكَشّفتْ له عن عَدوٍّ في ثيابِ صَديقِ

العمل الصالح

أيّةَ نارٍ قَدَحَ القادِحُ ، وَأيَّ جِدٍّ بَلَغَ المازِحُ ؟[3]

لِلّهِ دَرُّ الشّيْبِ مِنْ واعِظٍ ، وناصِحٍ ، لَوْ خُطّيءَ النّاصِحُ[4]

يأبَى الفَتَى إلاّ اتّباعَ الهَوَى ، وَمَنْهَجُ الحَقّ لَهُ وَاضِحُ

فَاسْمُ بِعَيْنَيْكَ إلى نِسْوَةٍ ، مُهُورُهُنّ العَمَلُ الصّالِحُ

لا يَجْتَلي العَذْراءَ مِنْ خِدرِها إلاّ امرُؤٌ مِيزانُهُ راجِحُ[5]

مَنِ اتّقَى اللهَ ، فَذاكَ الّذي سِيقَ إلَيْهِ المَتجَرُ الرّابِحُ

١ عتيق : كريم .
٢ سحيق : بعيد .
٣ النار : يريد بها الشيب . يقال : اشتعل الرأس شيباً . الجد : أي جد الشيخوخة بعد مزح الشباب .
٤ يقول : لو قلت لمن وعظك ونصحك أخطأت ، فأنت لا تقول ذلك للشيب .
٥ اجتلى العروس : أخرجها من خدرها بأحسن جلوة . ميزانه راجح : أراد به العقل الراجح لأنه يقال : فلان راجح الوزن أي كامل العقل .

شَمِّرْ ، فَما في الدِّينِ أُغلوطةٌ ، ورُحْ بِما أنتَ لَهُ رائِحُ[1]

صلاة خاطىء

يا رَبِّ ، إن عَظُمتْ ذنوبي كَثرَةً ، فلَقَد علِمتُ بأنَّ عَفوَكَ أعظَمُ
إن كانَ لا يَرجوكَ إلاّ مُحسِنٌ ، فبِمَن يَلوذُ ويَستَجيرُ المُجرِمُ ؟
أدعوكَ ، رَبِّ ، كما أمَرتَ ، تضرّعاً ، فإذا رَدَدتَ يَدي ، فمَن ذا يرحَمُ ؟
ما لي إلَيكَ وسيلَةٌ إلاّ الرَّجا ، وجَميلُ عَفوِكَ ، ثمّ إنّي مُسلِمُ

على سرير الموت

دَبَّ فيَّ السّقامُ سُفلاً وعُلوّا ، وأراني أمُوتُ عُضواً فعُضوَا
ليسَ تَمضي من لحظةٍ بيَ ، إلاّ نَقَصَتني ، بمرّها فيّ ، جُزوَا[2]
ذهَبَتْ جِدّتي بِحاجةِ نفسي ، وتَطَلّبتُ طاعةَ اللهِ نِضوَا[3]
لَهفَ نَفسي على لَيالٍ وأيّا مٍ ، تَجاوَزتُهُنّ لِعباً ولَهوَا
قد أسأنا كلَّ الإساءَةِ ، فاللّـ هُمّ صَفحاً عنّا ! وغَفراً ! وعَفوَا !

١ شمر : امضِ في أمرك جاداً مجتهداً .
٢ نقصتني : أي أنقصت مني . جزوا : يريد به جزءاً .
٣ الجدة : حالة الشيء الجديد ، ويريد به شبابه وصحته . نضواً : ضعيفاً مهزولا .

ابو تمام

المدح

فتح عمورية

قال يمدح المعتصم ، ويذكر انتصاره على الروم في واقعة عمورية سنة ٨٣٧ م :

ألسّيفُ أصدَقُ أنباءً مِنَ الكُتُبِ ،	في حَدّهِ الحَدُّ بينَ الجِدِّ واللّعِبِ[١]
بيضُ الصّفائحِ ،لا سودُ الصّحائفِ،في	مُتونِهِنّ جَلاءُ الشّكّ والرِّيَبِ[٢]
والعِلمُ في شُهُبِ الأرماحِ ، لامِعَةً ،	بينَ الخَميسَينِ، لا في السّبعةِ الشُّهُبِ[٣]
أينَ الرِّوايَةُ ، بل أينَ النّجومُ وما	صاغوهُ من زُخرُفٍ فيها،ومن كَذِبِ؟
تَخَرُّصاً ، وأحاديثاً مُلَفّقَةً ،	لَيسَتْ بنَبعٍ ، إذا عُدّتْ،ولا غَرَبِ[٤]
عَجائِباً ، زَعَموا الأيّامَ مُجفِلَةً ،	عَنهنّ ، في صَفَرِ الأصفارِ، أو رَجَبِ[٥]

---

١ الكتب : أي كتب السحر والتنجيم . الحد : الفاصل .

٢ الصفائح : جمع الصفيحة وهي السيف العريض . الصحائف : جمع الصحيفة وهي القرطاس المكتوب . المتون : جمع المتن ، ومتن السيف : صفحته .

٣ الشهب الأولى : أسنة الرماح لما فيها من البريق . الخميسين : الجيشين . الشهب الثانية : السيارات السبع ، وهي عندهم : زحل ، والمشتري ، والمريخ ، والشمس ، والزهرة ، وعطارد ، والقمر .

٤ تخرصاً : كذباً . النبع : شجر صلب تصنع منه القسي . الغرب : شجر هش أي رخو لين . يقول : أحاديث ملفقة ليس لها أصل قوي ولا ضعيف .

٥ مجفلة : ذاهبة منقلعة . عنهن : الضمير يعود على عجائباً . والمراد ما تحدثه عجائب النجوم من تدمير العالم فتمضي معه الأيام. صفر ورجب: من الأشهر العربية . الأصفار: جمع صفر ، يقال صفر ←

وخوّفوا النّاسَ مِن دهياءَ مُظلِمَةٍ ،	إذا بَدا الكَوكَبُ الغربيُّ ذو الذّنَبِ
وصيّروا الأبرُجَ العُليا مُرَتَّبَةً ،	ما كانَ مُنقَلِباً ، أو غَيرَ مُنقَلِبِ[1]
يَقضونَ بالأمرِ عَنها ، وهيَ غافِلَةٌ ،	ما دارَ في فَلَكٍ ، منها، وفي قُطُبِ[2]
لو بَيّنَتْ قَطُّ أمراً ، قَبلَ مَوقِعِهِ ،	لم يَخفَ ما حَلَّ بالأوثانِ والصُّلُبِ[3]
فَتحُ الفُتوحِ ، تَعالى أنْ يُحيطَ بهِ ،	نَظمٌ منَ الشّعرِ ، أو نَثرٌ من الخُطَبِ[4]
فَتحٌ ، تَفَتّحُ أبوابُ السّماءِ لَهُ ،	وتَبرُزُ الأرضُ في أثوابِها القُشُبِ[5]
يا يَومَ وَقعَةِ عَمّوريّةَ ، انصَرَفَتْ	عَنكَ المُنى حُفّلاً ، مَعسولَةَ الحَلَبِ[6]
أبقَيتَ جَدَّ بَني الإسلامِ في صُعُدٍ ،	والمُشرِكينَ ودارَ الشّركِ في صَبَبِ[7]

الأصفار : وهو يدل على الخلو لأن الأصفار أيضاً جمع الصفر وهو الخالي . جعل المنجمون هذا الشهر ميقاتاً لتدمير العالم وخلوه من السكان ، وجعلوا رجب كذلك لأن مادته تدل على الخوف والعظمة . يقال : رجب : فزع وهاب وعظم .

١ الأبرج : جمع البرج . وبروج السماء اثنا عشر ، وهي عند المنجمين مرتبة على ثلاثة أقسام : المنقلبة ، وهي أربعة : الحمل والسرطان والميزان والجدي . والثابتة ، وهي أربعة : الثور والأسد والعقرب والدلو . وذوات الجسدين ، وهي أربعة أيضاً : الجوزاء والسنبلة والقوس والحوت .

٢ ما ، في قوله ما دار : مفعول به من يقضون . القطب : كوكب لا يبرح مكانه يدور عليه الفلك ، وهو بين الجدي والفرقدين .

٣ الصلب : جمع الصليب . يقول : لو صح أن الكواكب تبين الأمور قبل وقوعها ، لما خفي على المنجمين مصير الروم يوم عمورية . وكان المعتصم قد استشار المنجمين قبل زحفه ، فزعموا أن الزمان غير موافق للفتح ، فلم يحفل بأقوالهم ، وغزا عمورية ، وافتتحها .

٤ أن يحيط به : أي أن يحيط بوصفه .

٥ القشب : الجدد . يقول : إنه فتح من الله تعيد له الأرض والسماء .

٦ المنى : جمع المنية وهي الرغبة . حفلا جمع حافل ، مأخوذ من قولهم : ناقة حافل أي مجتمعة اللبن . معسولة : ممزوجة بالعسل . الحلب : اللبن المحلوب . يقول : ذهبنا إلى هذه الحرب ، ونحن نتمنى الانتصار والفتح ، فرجعنا وأمانينا حافلة بأطيب العواقب وأحلاها .

٧ الجد : الحظ . المشركين : الذين يجعلون لله شريكاً ويريد بهم الروم . دار الشرك : أي عمورية . صبب : ما انحدر من الأرض ضد صعد .

أمٌّ لهم، لو رَجَوْا أن تُفتَدَى ، جَعَلوا   فِداءَها كلَّ أمٍّ بَرّةٍ وأبِ[1]

وبَرزَةُ الوَجهِ ، قد أعيَتْ رِياضَتُها   كِسرَى، وصَدّتْ صُدوداً عن أبي كرِبِ[2]

مِنْ عَهدِ إسكَندرٍ، أو قَبلَ ذلكَ، قد   شابَتْ نَواصي اللّيالي ، وهيَ لم تَشِبِ[3]

بِكرٌ ، فَما افترَعَتها كَفُّ حادِثَةٍ ،   ولا ترَقّتْ إليَها هِمّةُ النُّوَبِ[4]

حتّى إذا مَخّضَ اللهُ السّنينَ لها ،   مَخضَ البَخيلةِ ، كانتْ زُبدةَ الحُقُبِ[5]

أتَتهُمُ الكُربَةُ السّوداءُ سادِرَةً ،   مِنها ، وكانَ اسمُها فَرّاجَةَ الكُرَبِ[6]

جرَى لها الفألُ نَحساً ، يومَ أنقِرَةٍ ،   إذْ غُودِرَتْ وَحشةَ السّاحاتِ والرُّحَبِ[7]

لمّا رأتْ أُختَها بالأمسِ قد خَرِبَتْ ،   كانَ الخَرابُ لها أعدى من الجَرَبِ[8]

كم بَينَ حيطانِها من فارِسٍ بَطَلٍ ،   قاني الذّوائبِ مِنْ آني دَمٍ سَرَبِ[9]

---

١ برة : صادقة كثيرة البر . هذه رواية الديوان . ورواية الصولي في أخبار أبي تمام : كل أم منهم .

٢ البرزة : الحيية . وقيل هي المرأة البارزة المحاسن التي تظهر للرجال . فعلى المعنى الأول يقول : إن عمورية كانت كالمرأة المتخفرة تصد عن كل طالب وراغب . وعلى المعنى الثاني يقول : هي مع بروزها ممتنعة لا يقدر عليها ، أعجزت كسرى فارتد عنها ، وامتنعت على أبي كرب اليماني أحد الملوك التبابعة .

٣ وهي لم تشب : أي بقيت على جدتها ، مع تقدم زمانها ، لسلامتها من نكبات الغزو والفتح .

٤ يقول : بقيت عذراء لم تنلها يد حادثة من حوادث الدهر ، ولا سمت إليها همة النوائب .

٥ مخض اللبن : حركه ليستخرج زبدته . مخض البخيلة : أي الحريصة على لبنها لا تفرط فيه . الحقب : الدهر .

٦ الكربة : الحزن يأخذ في النفس . سادرة : لا تبالي ما تصنع . يقول : أتتهم (أي الروم) الكربة السوداء القاسية من عمورية عندما سقطت بيد المسلمين ، وكانوا لمناعتها يسمونها فراجة الكرب .

٧ نحساً : رواية الديوان ، ورواية الصولي : برحاً . الرحب : جمع الرحبة وتسكن الحاء ، وهي من المكان ساحته ومتسعه . غودرت : الضمير يعود إلى أنقرة . وكان المعتصم قد استولى عليها قبل بلوغه عمورية .

٨ أختها : أي أنقرة .

٩ القاني : الأحمر . الذوائب : الشعر المنسدل من وسط الرأس إلى الظهر . الآني : الذي انتهى حره . السرب : السائل .

بسُنّةِ السّيفِ والخَطّيِّ ، مِن دَمِهِ ، لا سُنّةِ الدّينِ والإسلامِ ، مُختَضِبِ[1]

لقَد تَرَكتَ ، أميرَ المُؤمنينَ ، بها ، للنّارِ يَوماً ذَليلَ الصّخرِ والخَشَبِ[2]

غادَرتَ فيها بَهيمَ اللّيلِ ، وهوَ ضُحًى يَقُلُّهُ ، وَسطَها ، صُبحٌ منَ اللّهَبِ[3]

حتّى كأنّ جَلابيبَ الدّجَى رَغِبَتْ عن لَونِها ، أو كأنّ الشّمسَ لم تغِبِ[4]

ضَوءٌ منَ النّارِ ، والظّلماءُ عاكِفَةٌ ، وظُلمَةٌ من دُخانٍ ، في ضُحًى شحبِ[5]

فالشّمسُ طالعَةٌ من ذا ، وقد أفَلَتْ ، والشّمسُ واجِبَةٌ من ذا ، ولم تَجِبِ[6]

تَصَرّحَ الدّهرُ ، تَصريحَ الغَمامِ ، لها ، عن يومِ هَيجاءَ ، منها ، طاهرٍ جُنُبِ[7]

لم تَطلَعِ الشّمسُ فيهِ ، يومَ ذاكَ ، على بانٍ بأهلٍ ، ولم تَغرُبْ على عَزَبِ[8]

ما رَبعُ مَيّةَ ، مَعمُوراً ، يُطيفُ بهِ غَيلانُ ، أبهَى رُبًى من رَبعِها الخَرِبِ[9]

... .

١ الخطي : الرمح . يقول : هو مختضب من دمه بحكم السيف والرمح ، وهذه هي السنة التي أجريت عليه أحكامها لا سنة الدين الإسلامي لأنه نصراني .

٢ يوماً : مفعول به من تركت .

٣ بهيم الليل : ليل لا ضوء فيه . يقله : يحمله . هذه رواية الديوان ، ورواية أخبار أبي تمام للصولي : يشله : أي يطرده . وسطها : أي وسط عمورية .

٤ الجلابيب : الثياب الواسعة ، ويريد بها كثافة الظلام وشدته . رغب عن الشيء : ضد رغب فيه .

٥ شحب : متغير اللون . يقول : ضوء النار ظهر ليلا فصيره نهاراً ، وتحول إلى دخان في الصباح فجعله شاحب اللون . الضحى : يغلب عليها التأنيث ، وتذكر .

٦ طالعة من ذا : أي من ضوء النار . أفلت : غابت . واجبة : غائبة . من ذا : أي من الدخان . لم تجب : لم تغب .

٧ تصرح : انكشف وانجلى . تصريح الغمام : انجلاؤه وظهور الشمس . جنب : نجس . يقول : انجلى الدهر لعمورية عن يوم حرب طاهر نجس منها . ويريد بذلك أنه طاهر لما فيه من جهاد ديني ظافر ، نجس لما فيه من انتهاك الأعراض .

٨ بان بأهل : متزوج . يريد أنه قتل في هذا اليوم كل متزوج وعزب من الروم .

٩ مية : هي مي بنت مقاتل صاحبة ذي الرمة الشاعر . غيلان : اسم ذي الرمة ، وهو من محسني شعراء صدر الإسلام ، يتصور الشاعر دار مية عامرة تكتنفها البهجة والنضارة ، وغيلان يطيف بها ، يغني صاحبته بشعره ، فيزيد الديار بهجة ورواء . ثم يقول : إن ديار مي على جمالها وبهجتها وهي في مثل هذه الحال ، ليست أبهى عندي من ربع عمورية الخرب . جعل منظر الخراب أجمل من منظر العمران.

ولا الخُدودُ ، وإن أُدمينَ من خَجَلٍ ،	أشهى إلى ناظري مِن خَدّها التّرِبِ[1]
سَماجَةٌ ، غَنِيَتْ مِنّا العُيونُ بها	عَن كلّ حُسنٍ بَدا ، أو مَنظرٍ عجبِ[2]
وحُسنُ مُنقَلَبٍ تَبدو عَواقِبُهُ ،	جاءَتْ بَشاشتُهُ عن سوءِ مُنقَلَبِ[3]
لم يَعْلَمِ الكُفرُ كَم من أعصُرٍ كَمَنَتْ	لَهُ المَنيّةُ ، بَينَ السُّمرِ والقُضُبِ[4]
تَدبيرُ مُعتَصِمٍ باللهِ ، مُنتَقِمٍ	للهِ ، مُرتَقِبٍ في اللهِ ، مُرتَهِبِ[5]
ومُطعِمُ النّصلِ ، لم تَكهَمْ أسِنّتُهُ	يوماً ، ولا حُجِبَتْ عن روحِ مُحتَجِبِ[6]
لم يَغزُ جَيشاً ، ولم يَنهَضْ إلى بَلَدٍ ،	إلاّ تَقَدَّمَهُ جَيشٌ مِنَ الرُّعُبِ[7]
لو لم يَقُدْ جَحفَلاً يومَ الوَغى ، لَغَدا	من نَفسِهِ وحدَها في جَحفَلٍ لَجِبِ[8]
رَمَى بكَ اللهُ بُرجَيها ، فهَدَّمَها ،	ولو رَمَى بكَ غيرُ اللهِ ، لم تُصِبِ[9]

١ وإن ادمين : رواها الصولي ولو ادمين . الترب : الكثير التراب . يقول : وليست الحسان ، إذا زادها احمرار الخجل جمالا ، أشهى إلى ناظري من أرض عمورية التي كثر فيها التراب بعد خرابها .

٢ السماجة : ضد الملاحة . يقول : إن الخراب قبيح بذاته ، ولكن خراب عمورية أغنى عيوننا عن كل حسن يبدو لها ، لأن فيه يتمثل ظفر المسلمين بأعدائهم .

٣ المنقلب : التحول والتغير من حال إلى حال . تبدو عواقبه : رواها الصولي تبقى عواقبه .

٤ لم يعلم : وتروى لو يعلم . السمر والقضب : الرماح والسيوف .

٥ منتقم لله : أي ينتقم له من أعداء دينه ، ويريد به الإسلام . مرتقب في الله ، مرتهب : أي أنه يراقب في الله العقاب فيخشاه ويحذره . ورواية الصولي : مرتقب بدلا من مرتهب . وفي هذا البيت نوع من البديع يعرف بالتشطير ، وهو أن يجعل كل شطر سجعة مخالفة لصاحبتها في الشطر الآخر .

٦ لم تكهم : لم تكل . محتجب : أي مدرع ممتنع بسلاحه .

٧ لم يغز جيشاً : في رواية لم يغز قوماً . ورواها الصولي : لم يرم قوماً ولم ينهد إلى بلد . يقول : إن العدو إذا بلغه أن المعتصم خرج لقتاله استولى عليه الرعب قبل أن يصل إليه الخليفة .

٨ الجحفل : الجيش . لجب : كثير العدد ، عظيم الجلبة . وقوله : في جحفل لجب : تجريد .

٩ كانت أسوار عمورية قد تهدم جانب منها بين برجين ، قبل أن يهاجمها المعتصم . فبنى بطريقها ظاهره بالحجارة ، وترك الخلل في باطنه . فلما جاءها المعتصم ، خرج إليه رجل من المسلمين كان قد أسره الروم ، فتنصر وتزوج فيهم ، فدله على ثلمة السور ، فسدد إليها المجانيق ، فصدعها ، واستولى على البرجين ، ثم على المدينة فهدمها .

مِن بَعدِ ما أشَّبوها ، واثقِينَ بها ، والله مِفتاحُ بابِ المَعقِلِ الأشِبِ[1]

وقالَ ذو أمرِهِمْ : لا مَرتَعٌ صَدَدٌ للسّارِحينَ ، وليسَ الوِردُ من كَثَبِ[2]

أمانياً ، سَلَبَتهُمْ نُجحَ هاجِسِها ، ظُبَى السّيوفِ ، وأطرافُ القَنا السُّلُبِ[3]

إنّ الحِمامَينِ : من بيضٍ ومن سُمُرٍ ، دلوَا الحياتَينِ : مِن ماءٍ ومن عُشُبِ[4]

لَبّيتَ صَوتاً زِبَطريّاً ، هَرَقتَ لَهُ كأسَ الكَرَى ، ورُضابَ الخُرَّدِ العُرُبِ[5]

عَداكَ حَرُّ الثّغورِ المُستَضامَةِ عن بَردِ الثّغورِ ، وعن سَلسالِها الحَصِبِ[6]

أجَبتَهُ مُعلِناً بالسّيفِ ، مُنصَلِتاً ، ولَو أجَبتَ بغَيرِ السّيفِ ، لم تُجِبِ[7]

---

١ أشبوها : حصنوها . المعقل : الحصن . الأشب : الحصين . أخذ عليه تشبيه الله بالمفتاح .

٢ ذو أمرهم : صاحب أمرهم ، رئيسهم ، والضمير يعود على الروم . المرتع : الموضع المخصب . صدد : قريب . للسارحين : أي للمسلمين الذين سرحوا مطاياهم لترعى . وليس الورد من كثب : أي ليس الماء قريباً منهم .

٣ أمانياً : منصوبة على المصدرية . الهاجس : الذي يحدث نفسه بما يخطر ويوسوس لها والمراد به ذو أمرهم . والضمير في هاجسها يعود إلى الأماني . ظبى السيوف : شفارها . القنا : الرماح . السلب : الطويلة .

٤ يقول : إن موت الأعداء بالسيوف وموتهم بالرماح كانا كدلوين يستقيان لنا حياة الماء وحياة العشب ، أي أن سيوفنا ورماحنا كذبت أماني رئيس الروم ، فحملت لهم الموت ، وحملت لنا الحياة إذ قربتنا من الماء والعشب .

٥ زبطرياً : نسبة إلى زبطرة ، وهي بلدة في تركية اسيا بين ملطية وسميساط . وكان ملك الروم قد خرج إليها قبل واقعة عمورية ، فاستباحها قتلا وسبياً . وقوله صوتاً زبطرياً : إشارة إلى ما روي من أن هاشمية سبيت ، فصاحت وهي في أيدي الروم : « وا معتصماه ! » . الرضاب : الريق . الخرد : جمع الخريدة وهي المرأة الطويلة ، السكوت الخفرة ، والبكر . العرب : جمع العروب وهي المرأة المتحببة لزوجها . والمعنى : أنه منع نفسه راحة النوم وفارق نساءه تلبية لذلك الصوت .

٦ عداك عنه : صرفك عنه . الثغور : المواضع التي يخاف منها هجوم العدو . المستضامة : التي أصابها ضيم ، ويريد بها زبطرة وغيرها من الأماكن التي أوقع بها قيصر الروم . وقوله : حر الثغور : قد يراد به الحر بمعناه ، وقد يراد به حر نار الحرب . الثغور الثانية : المباسم ، أي ثغور نسائه اللواتي صرفته الحرب عنهن ، وتستحسن البرودة في الثغر . السلسال : العذب البارد ، استعاره للريق . الحصب : المكان الكثير الحصى ، والمراد هنا الأسنان البيض في ثغور النساء .

٧ أجبته : الضمير يعود إلى صوتاً زبطرياً . منصلتاً : مجرداً . وقوله : لم تجب ، أي لم يكن ذلك منك جواباً للصوت الصارخ .

حتى تَرَكْتَ عَمودَ الشِّرْكِ مُنْقَعِراً، ولم تُعَرِّجْ على الأوتادِ والطُّنُبِ[1]

لمَّا رأى الحَرْبَ رأْيَ العَيْنِ تَوفَلِسٌ، والحَرْبُ مُشْتَقَّةُ المَعْنى منَ الحَرَبِ[2]

غَدا يُصَرِّفُ بالأموالِ حَزْيَتَها ، فعَزَّهُ البَحرُ ذو التَّيّارِ والعُبُبِ[3]

هَيهاتِ ، زُعزِعَتِ الأرضُ الوَقُورُ بهِ عن غزوِ مُحتسِبٍ، لا غزوِ مُكتسِبِ[4]

لم يُنفِقِ الذَّهَبَ المُرْبي بكَثْرَتِهِ على الحَصَى ، وبهِ فَقْرٌ إلى الذَّهَبِ[5]

إنَّ الأُسُودَ أُسُودَ الغابِ ، هِمَّتُها يَومَ الكَرِيهَةِ في المَسلُوبِ لا السَّلَبِ[6]

وَلّى ، وقد أَلجَمَ الخَطِّيُّ مَنطِقَهُ ، بسَكْتَةٍ تَحتَها الأحشاءُ في صَخَبِ[7]

أحسَى قَرابينَهُ صَرفَ الرَّدى، ومضَى يَحُثُّ أنجَى مَطاياهُ منَ الهَرَبِ[8]

مُوَكِّلاً بيَفاعِ الأرضِ ، يُشرِفُهُ من خِفَّةِ الخَوفِ، لا من خِفَّةِ الطَّرَبِ[9]

١ عمود الشرك : أي عمورية . منقعراً : مقطوعاً من أصله . الطنب : حبال طويلة تشد بها الخيمة ، وأراد بالأوتاد والطنب بقية المدن والقرى في الأنضول . يقول : إن المعتصم اكتفى بعمورية فلم يغز بقية المدن والقرى لأنه متى سقط عمود الخيمة فلا قيمة بعده للحبال والأوتاد .

٢ توفلس : تيوفيل بن ميخائيل قيصر الروم . الحرب : ذهاب المال والحرمان منه .

٣ يصرف : يدفع . خزيتها : ذلها وبليتها . عزه : غلبه وقهره . التيار : موج البحر الهائج . العبب : المياه المتدفقة . يقول : لما رأى ملك الروم حصار عمورية حاول أن يدفع بلية الحرب وعار الانكسار بالمال ، وهو يعلم أن المال ذاهب : « الحرب مشتقة المعنى من الحرب » . فراسل المعتصم يطلب الصلح ويعرض عليه مالا ليرتد عنه ، فأبى المعتصم وسما عليه وغلبه بما عنده من مال وفر يبذله ولا يسأل عنه ، وهو البحر الفياض بجوده وكثرة أمواله .

٤ هيهات : أي هيهات أن يقبل المال . الوقور : الرزينة التي لا تتزعزع . به : الضمير راجع إلى المعتصم . المحتسب : طالب الأجر عند الله .

٥ المربي : الزائد .

٦ همتها : مقصدها . الكريهة : الحرب . يقول : إن الفارس الشجاع يقصد في الحرب إلى خطف الأرواح لا إلى سلب المال . وهذا مثل أرسله الشاعر .

٧ يقول : هرب توفلس ساكتاً كأن رمح المعتصم وضع لجاماً في فمه ، فلا يستطيع الكلام . ولكن قلبه كان في وجيب واضطراب من شدة الرعب .

٨ أحسى : سقى . قرابينه : خواصه وقواده . يحث : يسوق . أنجى : أسرع .

٩ اليفاع : ما ارتفع من الأرض . يشرفه : يعلوه .

إنْ يَعدُ من حَرّها عَدوَ الظّليمِ ، فقد أوسَعتَ جاحِمَها من كَثرَةِ الحَطبِ[1]

تِسعونَ ألفاً ، كآسادِ الشّرى ، نضِجتْ جُلودُهم ، قبلَ نَضجِ التّينِ والعنَبِ[2]

يا رُبّ حَوباءَ ، لمّا اجتُثّ دابِرُهُم ، طابَتْ ، ولو ضُمّخَتْ بالمِسكِ ، لم تَطِبِ[3]

ومُغضَبٍ ، رَجَعَتْ بِيضُ السّيوفِ به حَيَّ الرّضَى عن رَداهم ، مَيّتَ الغضَبِ

والحَربُ قائِمَةٌ في مأزِقٍ لَجِبٍ ، تَجثُو الرّجالُ به ، صعراً ، على الرُّكَبِ[4]

كم نِيلَ تحتَ سَناها ، من سنَى قمَرٍ ، وتحتَ عارِضِها ، من عارِضٍ شَنِبِ[5]

كم كانَ في قَطعِ أسبابِ الرّقابِ بها ، إلى المُخَدَّرَةِ العَذراءِ مِن سَبَبِ[6]

كم أحرَزَتْ قُضُبُ الهِنديّ ، مُصلَتَةً ، تَهتَزّ مِن قُضُبٍ ، تَهتَزّ في كُثُبِ[7]

١ حرها : الضمير يعود على الحرب . الظليم : ذكر النعام . أوسعت : ملأت وأشبعت . جاحمها : وقودها وشدة اشتعالها . يقول للمعتصم : إن هرب توفلس لم يخمد نار الحرب لأنك أحرقت المدينة ، فزدت نارها اشتعالا .

٢ الشرى : مأسدة ، يضرب المثل بشدة أسودها . يشير إلى كذب المنجمين الذين زعموا أن المدينة لا تؤخذ إلا في الصيف بعد نضج التين والعنب .

٣ الحوباء : النفس ، أو النفس الآثمة ، ويريد بها نفساً من نفوس المسلمين المحاربين . اجتث : اقتلع من أصله . دابرهم : آخرهم ، والضمير عائد إلى الأعداء . طابت : طهرت وزكت ، والتذت .

٤ المأزق : المكان الضيق . اللجب : ذو الجلبة . صعراً : جمع أصعر وهو الذي يميل وجهه كبراً وغطرسة . يقول : كانت الحرب قائمة في مضيق يصعب فيه الانتقال والكر ، فكان المتقاتلون على كبريائهم وغطرستهم ، يجثون على ركبهم ليتجالدوا بالسيوف .

٥ سناها : ضياؤها ، والضمير يعود على الحرب . وأراد بالسنى : ضياء نار الحريق . سنى قمر : أي ضياء وجه كالقمر ، ويريد به وجه السبية الرومية . عارضها : سحابها المعترض في الأفق ، ويريد به دخان نار الحريق . العارض الثانية : السن التي في عرض الفم ، وما يبدو من الوجه عند الضحك . الشنب : البارد ، والمراد : أسنان باردة الريق . والوصف هنا للسبايا أيضاً .

٦ أسباب الرقاب : حبالها ، أي عروقها . بها : الضمير يعود على الحرب . من سبب : أي من وسيلة يتوصل بها إلى العذراء ، ويريد بها السبية .

٧ القضب : جمع القضيب وهو السيف اللطيف والقطاع . مصلتة : مسلولة . تهتز : أي مهتزة ، والمراد : سبيات تهتز من قدود كالقضب أي كالأغصان . الكثب : جمع الكثيب ، وهو التل من الرمل . يريد أن هذه القدود قائمة على أوراك ثقيلة ، فهي كالأغصان في كثبان من الرمل .

بِيضٌ ، إذا انتُضِيتْ من حُجبها ، رَجعتْ أحَقَّ بالبِيضِ أبداناً ، من الحُجُبِ[1]

خَليفَةَ اللهِ ، جازَى اللهُ سَعيَكَ عَنْ جُرثومَةِ الدّينِ والإسلامِ ، والحَسَبِ[2]

بَصُرتَ بالرّاحةِ الكُبرى ، فلم تَرَها تُنالُ إلاّ على جِسرٍ منَ التّعَبِ[3]

إن كانَ بينَ صروفِ الدّهرِ من رَحِمٍ ، مَوصُولَةٍ ، أو ذِمامٍ غيرِ مُنقَضِبِ[4]

فبَينَ أيّامِكَ اللاّتي نُصِرتَ بها ، وبَينَ أيّامِ بَدرٍ أقرَبُ النّسَبِ[5]

أبقَتْ بني الأصفَرِ المُصفَرِّ ، كاسمِهمُ صُفرَ الوُجوهِ ، وجَلّتْ أوجُهَ العرَبِ[6]

---

١ بيض : سيوف . انتضيت : جردت . من حجبها : من أغمادها . بالبيض أبداناً : أي بالسبيات البيض الأبدان . الحجب : ستور النساء .

٢ سعيك : عملك ودفاعك . الجرثومة : الأصل . الحسب : الشرف .

٣ الراحة الكبرى : أي راحة الآخرة ونعيم الجنة . جسر من التعب : إشارة إلى الصراط ، وهو عند المسلمين جسر ممدود على متن جهنم ، يعبر عليه الناجون إلى الجنة بتعب وجهد ؛ وهو يرمز إلى أن الجنة لا تنال بدون تعب ومشقة .

٤ صروف الدهر : ورواها الصولي : مرور الدهر . من رحم : أي من صلة وقرابة . الذمام : العهد . منقضب : منقطع .

٥ يجعل بين غزوة عمورية وغزوة بدر التي انتصر فيها النبي على القرشيين ، صلة من النسب المقدس ، على اعتبار أن قريشاً والروم كليهما من المشركين .

٦ أبقت : الضمير يعود إلى أيامك . الأصفر : جد ملوك الروم ويسميه العرب الأصفر بن روم بن يعصو بن إسحق ، كما ذكر القاموس . المصفر : الذي به صفرة والمراد بها شقرة الشعر ولونه الذهبي . والظاهر أن العرب أطلقوا على الروم هذا الاسم نظراً للون شعورهم ، وهم يستنكرون الشقرة ويعيرون بها بعضهم بعضاً ، ولا يمدحون غير الشعر الأسود . صفر الوجوه : أي صفر الوجوه مثل اسمهم ، من الرعب والانكسار . جلت : من فعل جلى الشيء : أظهره وجعله يتجلى .

احراق الافشين

من قصيدة يمدح بها المعتصم ويصف إحراق قائده حيدر بن كاوس المعروف بالأفشين ، سنة ٨٣٩ م بعد أن ظهرت خيانته وزندقته . وكان المعتصم قد سجنه وقطع عنه الطعام والشراب حتى مات . ثم صلبت جثته على باب العامة ، وأضرمت تحتها نار عالية ، فتساقطت قطعاً قطعاً :

ما زالَ سرُّ الكُفرِ بينَ ضُلوعِهِ ، حتى اصطَلى سرَّ الزِّنادِ الواري[1]

ناراً ، يُساوِرُ جسمَهُ ، من حرِّها ، لهَبٌ ، كما عَصفَرتَ شِقَّ إزارِ[2]

طارَتْ لها شُعَلٌ ، يُهَدِّمُ لَفحُها أركانَهُ ، هَدماً ، بغَيرِ غُبارِ[3]

فصَّلنَ منهُ كلَّ مَجمَعِ مَفصِلٍ ، وفعَلنَ فاقِرَةً بكُلِّ فَقارِ[4]

للهِ مِن نارٍ رأيتُ ضِياءَها ضاقَ الفَضاءُ بها على النُّظّارِ !

مَشبوبةٍ ، رُفِعَتْ لأعظَمِ مُشرِكٍ ، ما كانَ يَرفَعُ ضوءَها للسّاري[5]

صَلّى لها حَيّاً ، وكانَ وَقُودَها مَيتاً ، ويَدخُلُها معَ الفُجّارِ[6]

١ اصطلى : لقي النار . الزناد : جمع الزند : العود الذي يقدح به النار . وقوله : سر الزناد ، أي النار الكامنة في العود . للواري : المشتعل ، وهو نعت سر .

٢ ناراً : بدل أو عطف بيان من سر الثانية . يساور : يواثب . عصفرت : صبغت بالعصفر ، وهو نبت صبغه أصفر . شق إزار : رواية الصولي : نصف إزار . والمعنى أن لهب النار كان يثب إلى الخشب المصلوب عليه الافشين فيوقده طولاً ، فشبه اشتعال الجانب الذي استند إليه الجسم بإزار عصفرت أحد شقيه طولاً .

٣ لفحها : إحراقها . يقول : كانت شعل النار تحرق جوانب جسمه ، فيتساقط قطعاً محترقة دون أن يثير تهدمها غباراً .

٤ فصلن : رواية الصولي : ففصلن . والضمير يعود إلى الشعل . الفاقرة : الداهية التي تكسر الفقار . الفقار : خرزات الظهر ، مفردها الفقرة والفقارة . قال أبو بكر الصولي : « إنما قال : وفعلن ، فخص هذه اللفظة لقول الله عز وجل : « تظن أن يفعل بها فاقرة » ولقول الناس : فعل به الفواقر ، أي الدواهي » .

٥ مشبوبة : موقدة . المشرك : من يجعل لله شريكاً . الساري : السائر ليلا . يقول : هذه النار أوقدت عالية اللهب لأعظم مشرك كان يرفع ضوءها ليعبدها ، ولا يرفعه للطارقين ليلا كما يفعل العرب الأجواد في باديتهم .

٦ هذا نوع من البديع المعنوي يسمى الاستخدام ، فقد استخدم ضمائر النار لثلاثة معان : نار المجوس ، ونار الإحراق ، ونار جهنم .

وكَذاكَ أهلُ النّارِ في الدّنيا هُمُ ، يَومَ القيامةِ ، جُلُّ أهلِ النّارِ[1]

يا مَشهَداً، صَدرَتْ، بفَرحتِه إلى أمصارِها القُصوى، بَنو الأمصارِ[2]

رَمَقوا أعاليَ جِذعِه ، فكأنّما وَجَدوا الهِلالَ ، عَشيّةَ الإفطارِ[3]

واستَنشَقوا منهُ قُتاراً ، نَشرُهُ مِن عَنبَرٍ ذَفِرٍ ، ومِسكِ داري[4]

وتحدّثوا عن هُلكِه ، كحديثِ من بالبَدْوِ عَن مُتتابِعِ الأمطارِ[5]

وتَباشَروا ، كتَباشرِ الحَرَمينِ ، في قُحَمِ السِّنينَ ، بأرخصِ الأسعارِ[6]

مدح ابن الزيات

قال من قصيدة يمدح بها الكاتب الأديب محمد بن عبد الملك الزيات ، وزير المعتصم ، ويصف قلمه :

لَكَ الخَلَواتُ اللاءِ ، لولا نَجيُّها ، لمَا احتَفَلَتْ، للمُلكِ ، تلكَ المَحافِلُ[7]

لَكَ القَلَمُ الأعلى الذي بشَباتِه تُصابُ ، من الأمرِ ، الكُلى والمَفاصِلُ[8]

... ...

١ أهل النار الأولى : المجوس أصحاب النار وعبادها . جل : أكثر . أهل النار الثانية : سكان جهنم .

٢ صدرت : رجعت . أمصارها : بلدانها . والضمير يعود إلى متأخر وهو بنو . القصوى : البعيدة .

٣ رمقوا : أطالوا النظر . الجذع : الخشب الذي صلب عليه . يقول : كانوا يطيلون النظر إلى أعالي جذعه المحترق ، مبتهجين ، كأنهم رأوا الهلال عشية حيث يفطرون بعد صيام يومهم ؛ فبشرهم الهلال بالعيد ، وانقضاء رمضان .

٤ القتار : رائحة اللحم المشوي . نشره : فوحه . ذفر : طيب الرائحة . داري : نسبة إلى دارين ، بلدة بالشام معروفة بعطرها .

٥ البدو : البادية . والمعنى : أن فرحهم بموته كفرح أهل البادية بالأمطار المتتابعة .

٦ تباشروا : بشر بعضهم بعضاً . الحرمين : مكة والمدينة ، وفيهما تجارة وصناعة وزراعة . القحم : جمع القحمة ، وهي السنة الشديدة والقحط .

٧ لك الخلوات : هذه رواية الديوان ، ورواية البديعي في هبة الأيام : له الخلوات . وموضع هذا البيت بعد قوله : لك القلم الأعلى . نجيها : حديثها السري . احتفلت : أحسنت القيام بالأمور . المحافل : المجالس ، واحدها : محفل. يقول : إن أعمال الدولة التي تحفظ أسرارها في خلواتك هي التي يقوم بها نظام الملك .

٨ شباته : حده أي رأس القلم . شبه حد قلمه بحد السيف ، وجعله يفتك بالأمر المعضل فيفصله ويذلل صعابه ، وينال منه ما لا ينال الحسام .

لُعابُ الأفاعيَ القاتِلاتِ لُعابُهُ ، وأرْيُ الجَنَى اشتارَتهُ أيْدٍ عَواسِلُ[1]
لَهُ رِيقَةٌ طَلٌّ ، ولكِنْ وَقعَها بآثارِهِ في الشَّرقِ والغربِ وابِلُ[2]
فَصيحٌ إذا استَنطَقتَهُ ، وهوَ راكِبٌ ، وأعجَمُ إن خاطَبتَهُ ، وهوَ راجِلُ[3]
إذا ما امتَطَى الخمسَ اللِّطافَ ، وأفرِغتْ عليْهِ شِعابُ الفِكرِ ، وَهيَ حَوافِلُ[4]
أطاعتهُ أطرافُ القَنا ، وتَقَوّضَتْ لنَجواهُ ، تَقويضَ الخِيامِ ، الجَحافلُ[5]
إذا استَغزَرَ الذّهنَ الذّكيَّ ، وأقبَلَتْ أعاليهِ ، في القرطاسِ ، وهيَ أسافِلُ[6]
وقد رَفَدَتهُ الخِنصِرانِ ، وسَدّدَتْ ثَلاثَ نَواحيهِ الثّلاثُ الأنامِلُ[7]
رأيتَ جَليلاً شأنُهُ ، وهوَ مُرهَفٌ ضَنًى ، وسَميناً خَطبُهُ ، وهوَ ناحلُ[8]

١ لعاب الأفاعي : سمها . لعابه : ريقه أي مداده . الأري : العسل . الجنى : كل ما يجنى أي يقطف . اشتارته : جنته . العواسل : جمع عاسلة وهي التي تجني العسل . يقول : إن مداد قلمه في تهديد الأعداء قاتل كسم الأفاعي ، وفي التلطف للإخوان كالعسل . وقوله : أري الجنى ، على إضافة الموصوف إلى الصفة . ويصح أن يكون الجنى بمعنى العسل ، وتكون الإضافة للتخصيص ، لأن الأري يأتي أيضاً بمعنى ما لزق بأسفل القدر من الطبيخ .

٢ الطل : الندى أو المطر الخفيف ، وهو هنا صفة لريقة . يقول : إن ما يجري من ريق هذا القلم على القرطاس تافه يحكي الندى في قلته ، ولكنه يشبه المطر الغزير بقوته ، إذا نظرت إلى خيره ، ووقع آثاره في الشرق والغرب .

٣ راكب : أي راكب على أصابع الكاتب . أعجم : ضد فصيح . راجل : ضد راكب .

٤ الخمس اللطاف : أي أنامل الوزير . شعاب : جمع شعب وهو مسيل الماء ، استعارها لمجاري الفكر . الحوافل : جمع حافلة وهي الشعبة كثر سيلها .

٥ القنا : الرماح . تقوضت : تهدمت . لنجواه : لحديثه السري . الجحافل : الجيوش . يقول : إن قلم الوزير يفعل في الحروب أكثر مما تفعل الرماح ، فإن الجيوش الجرارة تخر له ذليلة ، كما تخر الخيام إذا تقوضت . يظهر تأثير رسائله التي يبعث بها إلى الأعداء يدعوهم إلى الطاعة والاستسلام .

٦ استغزر : استعان . يقول : إذا استعان هذا القلم بذهن الوزير ، فأمسكه الوزير ليكتب به ، وجعل رأسه على القرطاس منحدراً إلى أسفل .

٧ رفدته : أعانته . الخنصران : مثنى الخنصر ، وهي الاصبع الصغرى من الكف . وقوله : الخنصران ، على التغليب والمراد منهما الخنصر والبنصر التي تليها. سددت : وجهت. ثلاث نواحيه : أي زواياه الثلاث. الثلاث الأنامل : أي الوسطى والسبابة والإبهام ، وهي التي يسدد بها القلم للكتابة ، وتسندها الخنصر والبنصر .

٨ مرهف : محدد مرقق ، أي مبري . ضنى : مرضاً . خطبه : أمره . ناحل : هزيل . يقول : إن الوزير إذا سدد قلمه للكتابة ، رأيت من هذا القلم الذي رقت شفرتاه ، شأناً جليلا ، وأمراً عظيماً على ما فيه من سقام ونحول .

الرثاء

مصرع محمد بن حميد الطوسي

قال يرثي نسيبه محمد بن حميد الطوسي الطائي الذي قتل في خلافة المأمون وهو يحارب الخرمية سنة ٨٢٩م:

كذا فليَجِلِّ الخَطبُ، وليَفدحِ الأمرُ، فليسَ لعَينٍ ، لم يَفِض ماؤها، عُذرُ[1]

تُوُفِّيَتِ الآمالُ ، بَعدَ مُحَمَّدٍ ، وأصبَحَ في شُغلٍ عن السَّفَرِ السَّفْرُ[2]

وما كانَ إلاّ مالَ مَن قلّ مالُهُ ، وذُخراً لمَن أمسَى ، وليسَ لهُ ذُخْرُ

وما كانَ يَدري مُجتَدي جودِ كَفّهِ ، إذا ما استَهَلّتْ ، أنّهُ خُلِقَ العُسرُ[3]

ألا في سَبيلِ اللهِ مَنْ عُطِّلَتْ لَـهُ فِجاجُ سَبيلِ اللهِ ، وانثَغَرَ الثّغرُ[4]

فتًى ، كلّما فاضَتْ عُيونُ قَبيلَةٍ دَماً، ضَحِكَتْ عنه الأحاديثُ والذِّكرُ[5]

فتًى ، دَهرُهُ شَطرانِ فيما يَنُوبُهُ : فَفي بأسِهِ شَطرٌ ، وفي جودِهِ شَطرُ[6]

....

١ فليجل : فليعظم . وليفدح : وليثقل . أخذ عليه قوله : كذا فليجل . . . لأن في هذا الطلب تمنياً ، فكأنه يتمنى حلول الخطوب الفادحة ليصح بكاء العيون على الميت .

٢ السفر : المسافرون . يقول : ذهبت آمال الناس ، بعد وفاته ، وأصبح الذين كانوا يقصدونه لنيل عطاياه في شغل عن الأسفار ، لأنه لم يبق بعده من يرجى نواله فيرحل إليه العفاة .

٣ المجتدي : طالب العطاء . وفي رواية : من بلا : أي خبر . جود : رواية البديعي : يسر . استهلت : مطرت أي مطرت جوداً ، والضمير عائد إلى كفه .

٤ الفجاج : جمع الفج : الطريق الواسع الواضح بين جبلين ، والمراد بذلك طريق الجهاد الديني . انثغر : انشق واتسع . الثغر : موضع الخوف من الأعداء على حدود البلاد . والمعنى : أن الميت كان يحمي الثغر ، فيضيق على الأعداء طريق اجتياز الحدود ، فانشق المضيق واتسع بعد وفاته ، وهان على الأعداء دخول البلاد .

٥ يقول : لئن بكت عليه القبائل دماً ، فمآثره الطيبة ، يتهلل لها وجه أخباره وذكرياته ، نيابة عنه .

٦ ينوبه : يصيبه من الأحداث . بأسه : شجاعته . يقول : إن حياته على شطرين من الأحداث : لقاء الأعداء ، ولقاء المجتدين ، فهو أبداً معرض لحرب أو لبذل مال .

فتًى ، ماتَ بينَ الضّربِ والطّعنِ ميتَةً ... تَقومُ مَقامَ النّصرِ، إنْ فاتَهُ النّصرُ

وما ماتَ ، حتى ماتَ مَضرِبُ سَيفِهِ ، ... من الضّربِ، واعتلّتْ، عليه، القنا السُّمرُ[1]

وقد كانَ فَوتُ المَوتِ سَهلاً ، فرَدّهُ ... إلَيهِ الحِفاظُ المُرُّ ، والخُلُقُ الوَعرُ[2]

ونَفسٌ تَعافُ العارَ ، حتى كأنّما ... هوَ الكُفرُ، يومَ الرّوعِ، أو دونه الكفرُ[3]

فأثبَتَ في مُستَنقَعِ الموتِ رِجلَهُ ، ... وقالَ لها: من تحتِ أخمَصِكِ الحَشرُ[4]

غَدا غُدوَةً ، والحَمدُ نَسجُ رِدائِهِ ، ... فلَم يَنصرِفْ ، إلاّ وأكفانُهُ الأجرُ[5]

تَرَدّى ثِيابَ المَوتِ حُمراً ، فما دَجا ... لها اللّيلُ، إلاّ وَهيَ، من سُندُسٍ، خضرُ[6]

كأنّ بَني نَبهانَ ، يومَ وَفاتِهِ ، ... نُجُومُ سَماءٍ ، خَرّ مِن بَينِها البَدرُ[7]

---

١ مضرب السيف : حده . ومات مضربه : أي تثلم وكل . اعتلت : مرضت . القنا : الرماح . السمر : الصلاب . والمعنى : أنه لم يمت إلا بعد أن تعطل سيفه ، وتكسرت رماح الأعداء على هذا السيف .

٢ الحفاظ : المحافظة على الأعراض والمحارم . وقوله : المر ، أي الشديد . الخلق : الطبع . الوعر : الصعب . يقول : لو أراد النجاة لسهل عليه ذلك ، ولكن رده إلى الموت محافظته الشديدة على شرفه ودينه ، وطبعه الصعب الذي لا يلين للهرب .

٣ تعاف : تكره . الروع : الخوف ، أي خوف الحرب .

٤ الأخمص : ما لا يصيب الأرض من باطن القدم . الحشر : القيامة . يقول : أثبت رجله في ساحة القتال ، وقال لها : مكانك ، لا تبرحي من هنا إلى يوم الحشر .

٥ الحمد نسج ردائه : أي تحمده الناس لمسيره إلى قتال الكفار . رواية الصولي : حشو ردائه . قوله : وأكفانه الأجر : لأنه مات شهيداً في الجهاد .

٦ تردى : لبس . دجا : أظلم . السندس : نسيج رقيق . يقول : تلطخت ثيابه بالدم عند موته ، ولم ينقض يوم قتله ويدخل في الليل إلا وقد صارت ثيابه خضراً ، وهي ثياب أهل الجنة . وأخذ عليه في هذا البيت قوله : فما دجا لها الليل . . . لأنه جعل دخول الجنة مقيداً بمجيء الليل ، وترك روحه في النهار معلقة بين الأرض والسماء . قال صاحب معاهد التنصيص : (لو قال أبو تمام : « فما اختفى عن العين ، إلا وهي ، الخ . . . » لكان أبلغ في القصد) وعندي أن هذا التصحيح غير بليغ أيضاً ، لأن تبدل أحوال الميت إلى خير أو شر ، لا يناط بدفنه وتغييبه عن العيون . وفي هذا البيت نوع من الطباق يسمى التدبيج ، وهو أن تذكر عدة ألوان لقصد الكناية أو التورية . فإنه ذكر هنا لون الحمرة والخضرة ، والمراد من الأول : الكناية عن القتل ، ومن الثاني : الكناية عن دخول الجنة .

٧ بنو نبهان : قوم الميت ، بطن من طي . خر : سقط . عيب هذا البيت على الشاعر ، فقال خصومه : ان النجوم تكون أكثر نوراً وأحسن حالاً ، إذا غاب عنها البدر . فبنو نبهان إذاً لم يخسروا بفقد الميت ←

يُعَزَّوْنَ عن ثاوٍ ، تُعَزّى بهِ العُلى ، ... ويَبكي عليهِ البأسُ والجُودُ والشِّعرُ[1]

وأنّى لهمْ صَبرٌ عليهِ ، وقد مضَى ... إلى المَوتِ ، حتّى استُشهِدا : هوَ والصّبرُ[2]

فتًى ، كانَ عَذبَ الرّوحِ ، لا من غضاضَةٍ ، ... ولكِنّ كِبراً أنْ يُقالَ بهِ كِبرُ[3]

فتًى ، سلَبَتهُ الخَيلُ ، وهوَ حِمًى لها ، ... وبَزّتهُ نارُ الحَربِ ، وهوَ لها جَمرُ[4]

وقد كانتِ البِيضُ المآثيرُ ، في الوَغَى ، ... بَواتِرَ ، فهْيَ الآنَ ، من بَعدهِ ، بُتْرُ[5]

أمِنْ بَعدِ طَيّ الحادِثاتِ مُحَمّداً ، ... يكونُ لأثوابِ النّدى ، أبداً ، نَشرُ ؟[6]

إذا شَجَراتُ العُرْفِ جُذّتْ أُصُولُها ، ... فَفي أيّ فَرعٍ يوجدُ الوَرَقُ النّضرُ ؟[7]

لَئِنْ أبغَضَ الدّهرُ الخَؤونُ لفَقدِهِ ، ... لَعَهدي بهِ مِمّنْ يُحَبّ لهُ الدّهرُ[8]

لَئِنْ غَدَرَتْ ، في الرَّوعِ ، أيّامُهُ بهِ ، ... فَما زالَتِ الأيّامُ شيمَتُها الغَدرُ[9]

بل ربحوا . وعندي أن في هذا النقد تعنتاً غير مقبول ، فالشاعر يريد أن يشبه الميت بالبدر ، وقومه بالنجوم ، والبدر بين النجوم زينة السماء ، فإذا غاب خسرت السماء درتها الوسطى ، وإن ازداد نورها بهاء ولمعاناً . فظهور الضعيف في غياب القوي ، لا يعني أن هذا الضعيف تحسنت أحواله عن ذي قبل ، بل خلا له الجو فظهر ، ولكن لا عوض في ظهوره من الرزء بالقوي .

١ ثاو : ميت .

٢ استشهد : قتل في سبيل الله . المعنى : أن الصبر قتل معه فكيف لبني نبهان أن يتعزوا . وقوله : استشهدا : هو والصبر ، جائز على اعتبار أن الضمير فسر بالظاهر فكان الظاهر بدلا منه أو عطف بيان . وعلى كل فإن هذا التجوز لا يتخذ قياساً .

٣ غضاضة : مذلة . كبراً : تجبراً . يقول : كان لطيفاً من غير ضعف ومذلة ، فهو قوي عزيز من دون تكبر ، ومن المكابرة أن يقال : به كبرياء .

٤ سلبته : اختلسته . بزته : أخذته وغلبته بجفاء وقهر .

٥ البيض : السيوف . المآثير : جمع مأثور ، وهو السيف في متنه أثر . والأثر : جوهر السيف. بواتر : قواطع . بتر : مقطوعة ، واحدها أبتر .

٦ الندى : الجود .

٧ العرف : المعروف . جذت : قطعت . النضر : الحسن والأخضر .

٨ يقول : لئن أبغضنا الدهر بعد وفاته ، لقد كنا نحب هذا الدهر في حياته بجوده وحسن أعماله .

٩ الروع : الحرب .

لَئِنْ أَلبسَتْ فيهِ المُصيبةَ طَيِّءٌ، فَما عَرِيَتْ منها تَميمٌ ، ولا بَكرُ[1]

كَذلِكَ ما نَنفَكُّ نَفقِدُ هالِكاً ، يُشارِكُنا في فَقدِهِ البَدوُ والحَضْرُ[2]

سقى الغَيثُ غَيثاً وارَتِ الأرضُ شخصَهُ ؛ وإنْ لم يكُنْ فيهِ سَحابٌ ولا قَطرُ[3]

وكيفَ احتِمالي للغُيُوثِ صَنيعَةً ، بإسقائِها قبراً ، وفي لحدِهِ البَحرُ[4]

مضَى طاهرَ الأثوابِ، لم تَبقَ رَوضَةٌ ، غَداةَ ثوَى ، إلاّ اشتَهَتْ أنّها قَبرُ

ثوَى في الثّرَى مَن كانَ يَحيا بهِ الثّرَى، ويَغمُرُ صَرْفَ الدّهرِ نائِلُهُ الغَمرُ[5]

عَلَيْكَ سَلامُ اللهِ ، وَقْفاً ، فإنّني رَأيْتُ الكَريمَ الحُرَّ لَيْسَ لَهُ عُمْرُ

رثاء ابنه أبي علي

كانَ الذي خِفتُ أن يكونَا، إنّا إلى اللهِ راجِعونَا !

أمسَى المُرَجّى أبو عَلِيٍّ مُوَسَّداً ، في الثّرى ، يَمينَا[6]

حينَ انتَهَى واستوى شَباباً ، وحَقّقَ الرّأيَ والظُّنُونَا

أُصِبتُ فيهِ ، وكانَ عِندي على المُصيباتِ أنْ يُعينَا

كُنتُ عَزيزاً بهِ كَثيراً ، وكُنتُ صَبّاً ، بهِ ضَنينَا

....

١ طي : قبيلة الشاعر والمرثي ، وهي قحطانية يمانية . تميم : قبيلة مضرية عدنانية . بكر : قبيلة ربعية عدنانية . يقول : إن المصاب بالميت لم يقتصر على قحطان بل شمل عدنان بفرعيه ربيعة ومضر .

٢ الحضر : أي الحضَر، بفتح الضاد ، سكنها للشعر .

٣ الغيث : المطر . غيثاً : مستعار منه ، والمستعار له المرثي . يقول هو الغيث في الجود ، لا في ارتكام الغيوم وهطل السيول .

٤ للغيوث : في هبة الأيام : للسحاب . الصنيعة : الاحسان . يقول : كيف أحتمل احسان الأمطار إذا سقت قبره ؟ وفي هذا القبر بحر ثاو ، وهل بالبحر من حاجة إلى الماء ؟

٥ يغمر : يغطي . صرف الدهر : حوادثه . نائله : عطاؤه . الغمر : الكثير . يقول : إنه كان بجوده يحيي الأرض الموات ، فتصبح خصيبة ؛ ويدفع عن الناس صروف الدهر ، فلا يشعرون بقحط الأرض وبلايا الأيام ، فكأنه أحيا الأرض ودفع كوارث الدهر .

٦ يميناً : مفعول موسداً ، وهو التيمن : أي وضع الميت في قبره على جنبه الأيمن .

دافَعتُ، إلاّ المَنونَ، عَنهُ، والمَرءُ لا يَدفَعُ المَنُونَا

آخِرُ عَهدي بهِ صَريعاً ، للمَوتِ بالدّاءِ ، مُستَكينَا[1]

إذا شَكا غُصّةً وكَرْباً ، لاحَظَ ، أو راجَعَ الأنينَا[2]

يُديرُ ، في رَجعِهِ ، لساناً ، يَمنَعُهُ المَوتُ أن يُبينَا[3]

يَشخَصُ، طَوراً، بناظِرَيهِ، وتارَةً ، يُطبِقُ الجُفونَا[4]

ثمّ قَضَى نَحبَهُ ، فأمسَى ، في جَدَثٍ ، للثّرَى ، دَفينَا[5]

بَعيدَ دارٍ ، قَريبَ جارٍ ، قد فارَقَ الإلفَ والقَرينَا[6]

باشَرَ بُرْدَ الثّرَى بوَجهٍ ، قد كانَ،من قَبلِهِ ، مَصُونَا[7]

بُنَيّ ، يا واحِدَ البَنينَا ! غادَرتَني مُفرَداً حَزينَا

هَوّنَ رُزئي بكَ الرّزايا عَليّ ، في النّاسِ أجمَعينَا[8]

آلَيتُ أنساكَ ، ما تَجلّى صُبحُ نَهارٍ لمُصبِحينَا[9]

وما دَعا طائرٌ هَديلاً ، ورَجّعَتْ والِهٌ حَنينَا[10]

....

١ مستكيناً : خاضعاً ، أي مستكيناً للموت .

٢ لاحظ : نظر بمؤخر عينه ، أي نظر إلى أهله شاكياً أو مستغيثاً .

٣ رجعه : رده ، أي رجعه الأنين . ان يبين : ان يفصح .

٤ يشخص بناظريه : يفتح عينيه ولا يطرف .

٥ الجدث : القبر . الثرى : الأرض والتراب . واللام الجارة بمعنى التمليك أو شبه التمليك ، أي دفيناً ، في جدث ، ملكاً للثرى .

٦ بعيد دار : لأنه ميت لا وصول إليه. قريب جار : أي مكان القبر قريب. الإلف : الأليف. القرين : المصاحب.

٧ من قبله : الضمير يعود إلى برد الثرى .

٨ رزئي : مصابي . الرزايا : المصائب ، مفردها رزية . علي : الجار متعلق بهون .

٩ آليت : حلفت . أنساك : أي لا أنساك ؛ يجوز حذف لا النافية بعد القسم .

١٠ الهديل : صوت الحمام ، وفرخه ، وفي أساطير العرب أنه فرخ على عهد نوح مات عطشاً وضيعة أو صاده جارح من الطير فما من حمامة إلا وهي تبكي عليه . فهديلا على المعنى الأول : نائب عن المفعول المطلق ، وعلى المعنى الثاني : مفعول به . الواله : التي ذهب عقلها من الحزن . والمراد بها الناقة التي فقدت ولدها ، فوجدت به ، وأخذت ترجع الحنين .

تَصرّفَ الدّهرُ بي صُروفاً ،   وعادَ لي شأنُهُ شُؤونَا
وحَزّ في اللّحمِ ، بَل بَراهُ ،   واجتَثّ مِن طَلحَتي فُنونَا[1]
أصابَ منّي صَميمَ قَلبي ،   وخِفتُ أن يَقطَعَ الوَتينَا[2]
فالمَرءُ رَهْنٌ بحالَتَيهِ :   فَشِدّةٌ مَرّةً ، ولِينَا

أغراض مختلفة

وصف الربيع

من قصيدة يصف بها الطبيعة في فصل الربيع ثم يتخلص إلى مدح المعتصم :

يا صاحبَيّ ، تَقَصّيَا نَظَرَيكُما ،   تَرَيَا وُجوهَ الأرضِ كيفَ تَصَوّرُ[3]
تَرَيَا نَهاراً مُشمِساً ، قد شابَهُ   زَهرُ الرُّبَى ، فكأنّما هوَ مُقمِرُ[4]
دُنيا مَعاشٌ للوَرَى ، حتى إذا   حَلّ الرّبيعُ ، فإنّما هيَ مَنظَرُ[5]
أضحَتْ تَصوغُ بُطونُها لظُهورِها   نَوراً ، تَكادُ لهُ القُلوبُ تُنَوِّرُ[6]

....

1 براه : نحته ، وهزله . اجتث : قطع . طلحتي : أي شجرتي ، والطلح : نوع من الشجر . الفنون : الغصون ، مفردها فنن .
2 الوتين : عرق في القلب يجري منه الدم إلى سائر العروق ، وقطع الوتين : كناية عن الموت .
3 تقصى الشيء : تتبعه وبلغ غايته ومداه . تصور : أي تتصور .
4 شابه : خالطه . الربى : التلال ، شبه زهر الربيع في الجبال بنجوم السماء ، والنجوم لا تظهر مع الشمس ، فكأن النهار مقمر لا مشمس .
5 معاش الورى : أي هي عمل لتحصيل المعاش ، في جميع فصول السنة إلا فصل الربيع ، فالدنيا فيه متعة النظر .
6 بطونها : أي بطون الأرض . نوراً : زهراً .

مِن كلِّ زاهرةٍ ترقرقُ بالنّدى . فكأنّها عينٌ إليكَ تُحدَّرُ[1]

تبدو ، ويحجبُها الجميمُ ، كأنّها عذراءُ . تبدو تارةً ، وتَخفَّرُ[2]

حتى غدتْ وَهَداتُها ونِجادُها فِئتين في حُلَلِ الرّبيعِ تبخترُ:[3]

مُصفرّةٌ ، مُحمرّةٌ . فكأنّها عُصَبٌ تيمّنُ ، في الوغى ،وتَمضّرُ[4]

مِن فاقعٍ غضٍّ النّباتِ . كأنّهُ دُرَرٌ تُشقّقُ قبلُ ، ثمّ تُزَعفَرُ[5]

أو ساطعٍ في حُمرةٍ . فكأنّما يدنُو إليه ، من الهواءِ ، مُعصفرُ[6]

صُنعُ الذي ، لولا بدائعُ لُطفِه . ما عادَ أصفرَ ، بعدَ إذ هوَ أخضرُ[7]

خلْقٌ أطلَّ منَ الرّبيعِ . كأنّهُ خُلُقُ الإمامِ ، وهَديُهُ المُتنشّرُ[8]

١ زاهرة : متلألئة حسناً أو حمراء ، والمراد : زهرة زاهرة . ترقرق: تتحرك وتجيء وتذهب. وقوله: عين إليك تحدر ، أي تحدر الدمع إليك ، أو عين ناظرة إليك تحدر الدمع .

٢ الجميم : النبت الكثير أو الناهض المنتشر يغطي الأرض . تخفر : تستحي ، والمراد تختبىء بأوراق العشب حياء .

٣ وهداتها : منخفضاتها ، مفردها وهدة . نجادها : مرتفعاتها ، مفردها نجد . الحلل: الثياب، مفردها حلة . تبختر : تتمايل .

٤ مصفرة ، محمرة : أي حلل الربيع بلونيها الأصفر والأحمر . عصب : جمع عصبة: جماعة من الرجال ما بين العشرة إلى الأربعين . تيمن : تنتسب إلى اليمن . الوغى : الحرب . تمضر : تنتسب إلى مضر الحمراء . شبه فئة أزهار الربيع المصفرة بجيوش يمانية لأن راية اليمن صفراء ؛ وشبه فئة الأزهار المحمرة بجيوش مضرية لأن راية مضر حمراء .

٥ فاقع : شديد الصفرة . غض : رطب . تشقق قبل : أي تشقق أولا . زعفر : تصبغ بالزعفران .

٦ ساطع : أي منتشر فائح ، من قولهم : سطع البرق ، وسطعت الرائحة . معصفر : صابغ بالعصفر ، وهو نبت صبغه أصفر . والمعنى : أن الزهرة الحمراء تخالطها صفرة .

٧ أي هو صبغ الله تعالى يبدع بلطف صنعه الألوان ، فيجعل نباتها الأخضر زهراً أصفر .

٨ الامام : الخليفة المعتصم . الهدي : الرشاد . المتنشر : المنتشر . يقول : إن الله خلق من الربيع خلقاً جميلا كخلق الخليفة ، منتشراً في الأرض كهداه .

مولى يعذب عبده

أعطاكَ دَمعُكَ جُهدَهُ ، فَشَكَا فُؤادُكَ وَجدَهُ
حَمّلتَ نَفسَكَ، في الهوَى، ما لا تُطيقُ ، فهَدّهُ[1]
يا شامِتاً بي ، إذْ رأى هَجرَ الحَبيبِ وصَدّهُ ،
لا تَشمَتَنّ ، فإنّهُ مَوْلًى يُعَذّبُ عَبدَهُ

الحبيب الأول

ألبَينُ جَرّعَني نَقيعَ الحَنظَلِ ، والبَينُ أثكلَني ، وإن لم أُثْكَلِ[2]
ما حَسرَتي أنْ كِدتُ أقضي ، إنّما حَسَراتُ قَلبي أنّني لم أفعَلِ[3]
نَقّلْ فؤادَكَ حيثُ شئتَ من الهوَى ، ما الحُبُّ إلاّ للحَبيبِ الأوّلِ
كم مَنزِلٍ ، في الأرضِ، يألَفُهُ الفتى ، وحَنينُهُ ، أبَداً ، لأوّلِ مَنزِلِ

زيارة في المنام

إسْتَزَارَتْهُ فِكْرَتي في المَنامِ ، فأتاني في خِيفَةٍ وَاكْتِتامِ
فَاللّيالي أخْفَى بقَلْبي ، إذا ما جَرّعَتْهُ النّوَى ، مِنَ الأيّامِ[4]

---

١ فهده : أي هد الهوى فؤادك .
٢ وان لم أثكل : أي لم أصب بولد .
٣ لم أفعل : أي لم أقض .
٤ الأيام : النهُر ، فالنهار اسم لكل يوم ، وضد اليوم ليلة . يقول : إذا جرعت الليالي قلبي فراق الحبيب ، فإنها أستر له من الأيام إذ تخفي ما به من لوعة لا تزال تلح عليه تصوراً وتفكيراً حتى تفضي إلى الأحلام وزيارة طيف الخيال .

يا لهَا ليْلَةً ، تنَزّهَتِ الأرْوَاحُ فِيهَا سِرّاً عَنِ الأجْسامِ ![1]
مجْلسٌ، لم يكنْ لنا فيهِ عيْبٌ ، غَيرَ أنّا في دَعْوَةِ الأحْلامِ

هجاء عياش

قال يهجو عياش بن لهيعة :

صَدّقْ مَقالَتَهُ ، إنْ قالَ مُجتَهِداً: «لا ،والرّغيفِ !» فذاكَ البِرُّمن قَسَمِه[2]
وإنْ هَمَمتَ بهِ ، فافتُكْ بخُبْزَتِهِ ، فإنّها قِطعَةٌ مِن لَحمِهِ ودَمِه[3]

لسان الحسود

وإذا أرادَ اللهُ نَشرَ فَضيلَةٍ طُوِيَتْ ، أتاحَ لها لسانَ حَسُودِ
لولا اشتِعالُ النّارِ فيما جاوَرَتْ ، ما كانَ يُعرَفُ طِيبُ عَرْفِ العُودِ[4]

---

١ تنزهت : ترفعت وتباعدت .
٢ البر : الصدق .
٣ وإن هممت به : أي هممت بقتله .
٤ عرف العود : رائحته . شبه لسان النار ، يمتد إلى ما يجاوره من الأشياء ، ليحرقها ، بلسان الحسود ، يمتد إلى أعراض الناس ، ليمزقها . فقد يمر لسان النار بعود طيب الرائحة ، ولكن رائحته كامنة فيه ، فإذا أحرقه ، انتشرت رائحته ، فعرف فضله . وهكذا لسان الحسود فإنه يمر بعرض طيب لم تشهر فضائله ، فيحاول تمزيقه وتقبيحه ، فتنتشر هذه الفضائل ، ويلتفت إليها الناس .

دعبل

الهجاء

هجاء المطلب

قال دعبل يهجو المطلب بن عبد الله بن مالك الخزاعي أمير مصر بعد أن كان مدحه :

أمُطّلِبٌ ، أنتَ مُستَعذِبٌ حُمَيّا الأفاعي ، ومُستَقبِلُ[1]
ستأتيكَ ، إمّا وَرَدتُ العِرا قَ ، صَحائفُ، يأثُرُها دِعبِلُ[2]
مُنَمَّقَةٌ ، بَينَ أثنائِها مَخازٍ تَحُطّ ، فَلا تَرحَلُ
وَضَعتَ رِجالاً ، فَما ضَرّهم ، وشَرّفتَ قَوماً ، فلَمْ يَنبُلُوا
تُنَوّطُ مِصرُ بكَ المُخزِيا تِ، وتَبصُقُ في وَجهكَ الموصلُ[3]
إذا الحَربُ كنتَ أميراً لها ، فحَظّهُمُ مِنكَ أنْ يُقتَلُوا[4]
فمِنكَ الرّؤوسُ غَداةَ اللّقا ، ومِمّنْ يُحارِبُكَ المُنصُلُ
شِعارُكَ في الحربِ، يومَ الوَغى ، إذا انهزَموا : عَجّلوا! عجّلوا[5]
فأنتَ ، إذا ما التَقَوْا ، آخرٌ ، وأنتَ ، إذا انهزَموا ، أوّلُ

---

١ حميا الأفاعي : سمها ، ويريد به الهجاء الموجع .
٢ يأثرها : ينقلها ويرويها .
٣ تنوط : تعلق .
٤ حظهم أي حظ الجنود الذين أنت أمير عليهم .
٥ الوغى : الصوت والجلبة في الحرب ، وتطلق على الحرب .

هجاء عبد الله بن طاهر

كان عبد الله بن طاهر ينتمي إلى خزاعة بالولاء ، وهو من كبار رجال الدولة في خلافة المأمون ، ثم صار أميراً على خراسان بعد أبيه طاهر بن الحسين . وكان قد وعد دعبلا بعطية فلم ينجزها فقال فيه :

يا جَوادَ اللّسانِ من غَيرِ فِعلٍ ، لَيتَ في راحَتَيكَ جُودَ اللّسانِ
عَينَ مِهرانَ قد لَطَمتَ مِراراً ، فاتّقِ ذا الجَلالِ في مِهرانِ[1]
عُرتَ عَيناً ، فَدَعْ لِمِهرانَ عَيناً، لا تَدَعهُ يَطُوفُ في العُميانِ[2]

هجاء مسلم بن الوليد

تخرج دعبل في الشعر على مسلم بن الوليد ، ولزمه مصافياً حتى ولي البريد بجرجان من قبل ذي الرئاستين الفضل بن سهل ، فقصده دعبل مؤملا منه شيئاً فلم ينله ، فكتب إلى الفضل بيتين يحرضه بهما على إقصاء مسلم لأنه لا يحفظ مودة . فعرف بهما مسلم فجافى دعبلا ، فتهاجيا وتقاطعا . فمن ذلك قول دعبل في أستاذه :

أبا مَخلَدٍ كُنّا عَقيدَيْ مَوَدّةٍ ، هَوانا ، وقَلبانا جَميعاً ، مَعاً مَعَا
أحوطُكَ بالغيبِ الذي أنتَ حائطي ، وأجزَعُ إشفاقاً مِنَ انْ تَتَوَجّعَا[3]
فصَيّرتَني ، بعدَ انتكاثِكَ ، مُتهِماً لنَفسي ، علَيها أرهَبُ الخَلقَ أجمَعَا[4]
غشَشتَ الهوى حتى تداعتْ أُصولُهُ بنا ، وابتَذلتَ الوَصلَ حتى تَقَطّعَا
وأنزَلتَ من بَينِ الجوانحِ والحَشَى ، ذَخيرَةَ وُدٍّ طالمَا قد تَمَنّعَا[5]

....

١ من أمثال العرب : فلان يلطم عين مهران ، يضرب للرجل الذي يكذب في حديثه .
٢ عرت عيناً : صيرتها عوراء ، يريد بها عين مهران لكثرة كذبه . وقوله في العميان : أي مع العميان .
٣ اشفاقاً : خوفاً .
٤ انتكاثك : انتقاضك وانصرافك عني .
٥ الجوانح : الأضلاع تحت الترائب مما يلي الصدر ، سميت بذلك لميلها وانحنائها ، واحدتها جانحة . وقوله : من بين الجوانح والحشى ، أي القلب .

فلا تَلحيَنّي، ليس َلي فيك َمطمَعٌ، تخَرّقتَ، حتى لم أجِدْ لكَ مَرقَعَا
فهَبكَ يَميني استأكَلَتْ، فقطَعتُها، وصَبّرتُ قَلبي بَعدَها، فتَشَجّعَا[1]

هجاء ابي عباد

كان أبو عباد ثابت بن يحيى كاتب المأمون، وكان فيه عجلة وسرعة وغضب وانتقام. فقال فيه دعبل:

أولى الأُمورِ بضَيعَةٍ وفَسادِ، أمرٌ يُدَبّرُهُ أبُو عَبّادِ
خَرِقٌ على جُلَسائِهِ، فكأنّهم حضَروا لمَلحَمَةٍ ويوم ِجِلادِ[2]
يَسطو على كُتّابِهِ بِدَواتِهِ، فمُضَمَّخٌ بدَمٍ، ونَضحِ مِدادِ[3]
وكأنّهُ من ديرِ هِزقِلَ مُفلِتٌ، حَرِدٌ يَجُرّ سَلاسِلَ الأقيادِ[4]
فاشدُدْ، أميرَ المُؤمنينَ، وَثاقَهُ، فأصَحّ منهُ بَقيّةُ الحَدّادِ[5]

آكل الديك

كان صالح بن علي بن عبد القيس جاراً لدعبل في بغداد، فوقع على ديك له دخل إلى داره، فطعمه وأطعم ضيوفه، فقال دعبل فيهم:

أسرَ المُؤذّنَ صالحٌ وضُيوفُهُ، أسرَ الكَميّ هَفا خِلالَ الماقطِ[6]

---

١ استأكلت: هنا بمعنى أكلت. يقال: أكل العضو وائتكل وتأكل: أكل بعضه بعضاً. والأكِلة داء في العضو يأتكل منه.
٢ الخرق: الأحمق.
٣ روي أن أبا عباد غضب يوماً على بعض كتابه فرماه بدواة كانت بين يديه، فلما رأى الدم يسيل منه ندم. فبلغ ذلك المأمون فعتب عليه، وقيل إنه أخرجه من الديوان.
٤ دير هزقل، وأصله حزقل، أي حزقيال، نقل إلى هزقل: دير مشهور بين البصرة وعسكر مكرم. وكانت تشد فيه المجانين طلباً للشفاء.
٥ أصح منه: أي أصح عقلا. بقية الحداد: اسم مجنون كان في البيمارستان.
٦ المؤذن: الديك. يروى عن النبي أنه نهى عن سب الديك لأنه يؤذن للصلاة، وفي حديث آخر أن صياح الديكة تسبيح لله. الكمي: الشجاع اللابس السلاح. هفا: زل. الماقط مخفف مأقط: اضيق المواضع في الحرب.

بَعَثُوا علَيه بَنيهِمُ وبَناتِهِمْ ، من بَيْنِ ناتِفَةٍ ، وآخَرَ سامِطِ
يتَنازَعونَ ، كأنَّهُم قد أوثَقُوا خاقانَ ، أو هزَمُوا قَبائلَ ناعطِ[1]
نَهَشُوهُ ، فانتُزِعتْ له أسنانُهم ، وتَهَشَّمتْ أقفاؤهم بالحائطِ[2]

هجاء الرشيد والعباسيين

هجا دعبل هارون الرشيد سنة ٨١٨ م أي بعد موته بنحو عشر سنوات ، على أثر وفاة علي الرضا ، واتهام المأمون بأنه دس له السم ليتخلص منه . ودفن علي الرضا في طوس عند قبر هارون الرشيد :

ولَيسَ حيٌّ منَ الأحياءِ نَعلَمُهُ ، من ذي يَمانٍ ، ومن بكرٍ ، ومن مُضَرِ[3]
إلاّ وهُمْ شُرَكاءُ في دِمائِهِمُ ، كمَا تَشارَكَ أيسارٌ على جُزُرِ[4]
قَتلٌ ، وأسرٌ ، وتَحريقٌ ، ومَنهَبَةٌ ، فِعلَ الغُزاةِ بأرضِ الرّومِ والخَزَرِ[5]
أرى أُمَيّةَ مَعذورينَ إنْ قَتَلُوا ، ولا أرَى لبَني العَبّاسِ من عُذُرِ[6]
ارْبَعْ بطُوسَ ، على القَبرِ الزّكيِّ ، إذا ما كنتَ تَربَعُ من دينٍ ، على وَطَرِ[7]

....

١ خاقان : اسم لكل ملك من ملوك الترك . ناعط : جبل في اليمن نزلت به قبائل همدان ، فنسبوا إليه ، وهم أهل شرف وشجاعة .

٢ الاقفاء : جمع القفا ، مؤخر العنق . وقوله : وتهشمت أقفاؤهم بالحائط ، أي لشدة نهشهم كانوا يخبطون اقفاءهم بالحائط .

٣ من ذي يمان : أي من اليمانية . ومن بكر ومن مضر : أي من العدنانية .

٤ أيسار : جمع يسر وهم القوم المجتمعون على الميسر أي القمار . الجزر : جمع الجزور وهي ما يجزر من النوق والغنم ، وكانوا إذا نحروها ، قسموها أقساماً يقامرون عليها . يقول : اشتركت قبائل قحطان وعدنان بدماء أبناء علي كما يتشارك المقامرون في اقتسام الجزر .

٥ الخزر : البلاد المجاورة بحر قزوين ، وهم خليط من الوثنيين والنصارى واليهود . يريد أن المسلمين نكلوا بالعلويين كما ينكل الغزاة المسلمون بأعداء الدين الإسلامي .

٦ يعذر بني أمية لأنهم ليسوا من هاشم كالعباسيين أبناء عم العلويين .

٧ اربع : قف . طوس : مدينة بخراسان . الزكي : الطاهر . الوطر : الحاجة والبغية . يقول : إذا مررت بطوس فقف على القبر الطاهر أي قبر علي الرضا ، إن كنت ممن يعتقد أن في وقوفه طاعة للدين وتحقيقاً لما يبتغيه من الشفاعة في الآخرة .

قبران في طوس، خير الناس كلهم، وقبر شرهم . هذا من العبر ![1]

ما ينفع الرجس من قرب الزكي، ولا على الزكي بقرب الرجس من ضرر[2]

هيهات ! كل امرىء رهن بما كسبت له يداه . فخذ ما شئت أو فذر[3]

هجاء المأمون

أيسومني المأمون خطة عاجز ؟ أوما رأى بالأمس رأس محمد[4]

نوفي على روس الخلائق مثلما توفي الجبال على رؤوس القردد[5]

ونحل في أكناف كل ممنع ، حتى نذلل شاهقاً لم يصعد[6]

إني من القوم الذين سيوفهم قتلت أخاك . وشرفتك بمقعد[7]

رفعوا محلك بعد طول خموله ، واستنقذوك من الحضيض الأوهد[8]

إن الترات مسهد طلابها ، فاكفف مذاقك عن لعاب الأسود[9]

١ قوله : خير الناس ، أي قبر خير الناس ، حذف المضاف واستغنى عنه بالمضاف إليه ، ويريد به قبر علي الرضا . قبر شرهم : أي قبر الرشيد .
٢ الرجس : الشيء القذر الأثيم .
٣ هيهات : اسم فعل بمعنى بعد . فذر : فدع . يقول : هيهات أن ينتفع الرجس من قرب الزكي أو يتأذى الزكي من قرب الرجس ، فالإنسان يلقى جزاء ما صنعت يداه ، فخذ ما شئت أو فدعه فأنت ملاق فيه عاقبة أعمالك .
٤ يسومني : يكلفني . الخطة : الحالة والطريقة . يقول : أيعاملني المأمون كما يعامل الرجل العاجز ، أوما رأى بالأمس رأس أخيه محمد الأمين كيف طار عن جسده . يهدده بالقتل كما قتل أخوه .
٥ نوفي : نشرف . القردد : ما ارتفع من الأرض .
٦ أكناف كل ممنع : أي جوانب كل جبل منع .
٧ يقول . إني من بني خزاعة الذين قتلوا أخاك ، وشرفوك بمقعد الخلافة . يشير إلى طاهر بن الحسين الخزاعي قائد المأمون ، وقاتل الأمين .
٨ الحضيض : القرار من الأرض عند أسفل الجبل . الأوهد : الكثير الانخفاض .
٩ الترات ، جمع الترة : الثأر . اللعاب : سم الحية . الأسود : العظيم من الحيات وفيه سواد .

هجاء إبراهيم بن المهدي

كان إبراهيم بن المهدي عم المأمون قد طمع في الخلافة ، وبايعه العباسيون في بغداد ، ثم خلعوه وبايعوا المأمون . فقال فيه دعبل :

نَفَرَ ابنُ شِكْلَةَ بالعِراقِ وأهلِهِ ، فهَفَا إليهِ كلُّ أطيَشَ مائِقِ[1]
أنّى يَكونُ ، وليسَ ذاكَ بكائنٍ ، يَرِثُ الخِلافَةَ فاسِقٌ عن فاسِقِ
إن كانَ إبراهيمُ مُضطَلِعاً بها ، فلتَصلُحَنْ، من بَعدِه، لمُخارِقِ[2]
ولتَصلُحَنْ،من بعدِ ذاكَ،لزَلزَلٍ ، ولتَصلُحَنْ ، من بَعدِه ، للمارِقي[3]

هجاؤه أيضاً

يا مَعشَرَ الأجنادِ لا تَقنَطُوا ، وارضَوا بما كان، ولا تَسخَطُوا
فسَوفَ تُعطَونَ حُنَينِيّةً ، يَلتَذُّها الأمرَدُ والأشمَطُ[4]
والمَعبَدِيّاتُ لقُوّادِكُمْ . لا تَدخُلُ الكيسَ، ولا تُربَطُ[5]

---

١ نفر : غلب ، هذه رواية الصولي في الأوراق . وفي ابن خلكان ومعاهد التنصيص : نعر أي صاح . شكلة ، بفتح السين وكسرها : أم إبراهيم ، جارية سوداء . هفا : أسرع وذهب . المائق : الأحمق ، ورواية الصولي : أطيش مائق . وفي ابن خلكان : أطلس ، وهو الذي يرمى بالقبيح . وفي المعاهد : أخرق أي أحمق .

٢ مضطلعاً بها : ناهضاً بها . مخارق : أحد المغنين في صدر الدولة العباسية . وكان ابراهيم بن المهدي مشهوراً بالغناء والضرب على العود ، فالشاعر يتهكم به ويقول : إذا صلحت الخلافة له ، وهو مغن عواد ، فأجدر بها أن تصلح لغيره من المغنين فيكون مخارق ولي عهده .

٣ زلزل : هكذا ضبطه الفيروزابادي في القاموس ، وقال : وإليه تضاف بركة زلزل في بغداد . أما ابن خلكان فضبطه بضم الزايين . ولم يضبطه ياقوت في ذكره بركة زلزل. وهو منصور زلزل كان مغنياً واشتهر بالضرب على العود . ولتصلحن من بعده : في أوراق الصولي : ولتصلحن ورائه . المارقي:هو زرزور غلام علي بن المارقي، كان من المغنين.وهو وزلزل ومخارق من معاصري إبراهيم.

٤ حنينية : أي ألحاناً منسوبة إلى حنين المغني . يقول : إن الجنود سيتقاضون أرزاقهم أصواتاً . الأشمط : من خالط رأسه البياض .

٥ المعبديات : يريد بها أصواتاً منسوبة إلى معبد المغني .

وهكذا يرزُقُ قُوّادَهُ ، خليفةٌ ، مُصحفُهُ البربَطُ[1]
قد ختَمَ الصكَّ بأرزاقكُمْ ، وصحّحَ العزمَ ، فلا تسخطُوا
بيعةُ إبراهيمَ مشؤومةٌ ، يُقتَلُ فيها الخلقُ ، أو يقحطُ

هجاء المعتصم

بكَى لشتّاتِ الدّينِ مُكتئِبٌ صَبٌّ ، وفاضَ بفرطِ الدّمعِ من عينِهِ غربُ[2]
وقامَ إمامٌ ، لم يكُنْ ذا هدايةٍ ، فليسَ لهُ دينٌ ، وليسَ لهُ لُبُّ[3]
وما كانتِ الأنباءُ تأتي بمثلِهِ ، يُملّكُ يوماً ، أو تَدينُ لهُ العُربُ
ولكنْ ، كما قالَ الذينَ تتابعوا من السّلَفِ الماضينَ ،إذ عظُمَ الخطبُ[4]
مُلوكُ بني العبّاسِ ، في الكُتبِ ،سبعةٌ ، ولم تأتِنا ، عَن ثامنٍ لَهُمُ ، كُتْبُ[5]
كذلكَ أهلُ الكهفِ ، في الكهفِ ،سبعةٌ خيارٌ إذا عُدّوا ، وثامنُهُمْ كَلْبُ[6]

١ مصحفه : قرآنه . البربط : العود .
٢ الصب : العاشق المشتاق . الغرب : مسيل الدمع من العين . يقول : تشتت الدين في خلافة بني العباس ، فبكيت عليه كئيباً مشتاقاً لجمع شمله .
٣ لب : عقل .
٤ إذ عظم الخطب : يريد بذلك الشقاق الذي وقع بين المسلمين من أجل الخلافة . وأراد بأنباء السلف الماضين : ما رواه العباسيون تأييداً لحقهم في الخلافة ، من أن أبا هاشم عبد الله بن محمد بن الحنفية قال إن أباه قال إنه سمع أباه علي بن أبي طالب يقول : إن الخلافة صائرة إلى بني العباس، عرف ذلك بما كان له من العلم بالحوادث الغيبية وبما سمعه من النبي . ويروون أيضاً أنه لما ولد عبد الله بن عباس ولده علياً ، سماه علي بن أبي طالب أبا الأملاك أي أبا الملوك . وهذه الرواية عن محمد بن الحنفية جعلت العباسيين يستفيدون من الشيعة الكيسانية ، ويجدون عندهم مناصرة .
٥ الكتب : يراد بها الأحاديث النبوية ، وأقوال الصالحين الذين ينظرون إلى المستقبل بما في نفوسهم من هداية ونور . عن ثامن : أي عن المعتصم وهو ثامن الخلفاء العباسيين .
٦ الكهف : المغارة . وأهل الكهف ورد ذكرهم في القرآن ، وهم سبعة شبان صالحون لجأوا إلى مغارة خوفاً من ملك اضطهدهم ، وكان معهم كلب ، فسد باب الكهف ، وأنزل الله عليهم سباتاً فناموا ثم بعثوا بعد زمن طويل . شبه الخلفاء العباسيين السبعة بالسبعة الفتيان ، ولم يشبههم بهؤلاء توقيراً لهم ، بل ليشبه ثامنهم المعتصم بالكلب .

وإنّي لأُعلي كَلبَهُمْ عَنكَ رِفعَةً ، لأنّكَ ذُو ذَنْبٍ ، ولَيسَ لهُ ذَنْبُ
لقد ضاعَ مُلكُ النّاسِ ،إذ ساسَ مُلكَهم وَصيفٌ وأشناسٌ،وقد عَظُمَ الكَرْبُ[1]
وفَضلُ بنُ مَروانٍ يُثَلِّمُ ثُلمَةً، يَظَلُّ لها الإسلامُ ليسَ لهُ شَعبُ[2]

موت المعتصم وقيام الواثق

ألحَمدُ للهِ ، لا صَبرٌ ، ولا جَلَدُ ، ولا عَزاءٌ ، إذا أهلُ البِلى رَقَدُوا
خَليفَةٌ ماتَ،لم يَحزَنْ لَهُ أحَدٌ، وآخَرٌ قامَ ، لم يَفرَحْ بهِ أحَدُ

دفن المعتصم وبيعة الواثق

قد قُلتُ ، إذ غَيّبوهُ ، وانصرَفوا، في شَرّ قَبرٍ ، لشَرّ مَدفونِ :
إذْهَبْ إلى النّارِ والعَذابِ ، فَما خِلتُكَ إلاّ مِنَ الشّياطينِ
ما زِلتَ ، حتى عَقَدتَ بَيعَةَ مَن أضَرّ بالمُسلِمينَ والدّينِ

---

١ وصيف واشناس : غلامان تركيان كانت لهما منزلة رفيعة عند المعتصم، ويد مستطيلة في سياسة الملك.
٢ الفضل بن مروان : وزير المعتصم وكان عامياً لا علم عنده ولا معرفة ، وكان رديء السيرة جهولا بالأمور . يثلم : يكسر ويهدم . الثلمة : فرجة المكسور والمهدوم . الشعب : الإصلاح .

المدح

براعة الاستجداء

وقف دعبل ببعض امراء الرقة ، فمدحه بقوله :

مَاذا أقولُ ، إذا أتيتُ مَعاشِري   صِفراً يَداي مِنَ الجَوادِ المُجزِلِ ؟
إن قُلتُ : أعطاني ، كذَبتُ ، وإن أقل :   ضَنَّ الأميرُ بمالِهِ ، لم يَجمُلِ
ولأنتَ أعلَمُ بالمَكارِمِ والعُلا ،   مِن أن أقولَ فعَلتَ ما لم تَفعَلِ
فاختَرْ لنَفسِكَ ما أقولُ ، فإنّني ،   لا بُدَّ ، مُخبِرُهمْ ، وإن لم أُسألِ

مدح عبد الله بن طاهر

عرض دعبل لعبد الله بن طاهر بن الحسين وهو راكب في حراقة له في دجلة ، فأشار إليه برقعة فأمر بأخذها فإذا فيها :

عَجِبتُ لِحَرّاقَةِ ابنِ الحُسَيْـ   نِ كَيفَ تَسيرُ ولا تَغرَقُ
وبَحرانِ : من تَحتِها واحدٌ ،   وآخَرُ من فَوقِها مُطبِقُ
وأعجَبُ مِن ذاكَ عِيدانُها ،   إذا مَسّها ، كيفَ لا تُورِقُ ؟

رثاء أهل البيت

مَدارِسُ آياتٍ خَلَتْ مِنْ تِلاوَةٍ ، ومَنْزِلُ وَحيٍ مُقْفِرُ العَرَصاتِ[1]

لآلِ رَسولِ اللهِ ، بالخَيفِ، من مِنًى ، وبالرّكنِ ، والتّعريفِ ، والجَمراتِ[2]

ديارُ عليٍّ ، والحُسَينِ ، وجَعفَرٍ ، وحَمزَةَ ، والسَّجّادِ ذي الثَّفِناتِ[3]

ديارٌ ، عَفاها كلُّ جَوْنٍ مُباكِرٍ ، ولم تُعفَ للأيّامِ والسَّنَواتِ[4]

قِفَا ، نَسألِ الدّارَ الّتي خَفّ أهلُها : متى عَهدُها بالصّومِ والصّلَواتِ ؟[5]

وأينَ الأُولى شطّتْ بهم غُربةُ النّوَى ، أفانِينَ ، في الآفاقِ ، مُفتَرِقاتِ ؟[6]

همُ أهلُ ميراثِ النّبيِّ ، إذا اعتَزَوا ، وهُمْ خَيرُ قاداتٍ ، وخَيرُ حُماةِ[7]

١ المدارس : المواضع التي يدرس فيها القرآن ، مفردها مدراس . التلاوة : قراءة القرآن . ومنزل وحي : أي منزل النبوة . العرصات : جمع العرصة وهي البقعة الواسعة بين الدور ليس فيها بناء .

٢ الخيف : غرة بيضاء في الجبل الأسود الذي خلف أبي قبيس بمكة ، وبها سمي مسجد الخيف . منى : موضع بمكة . الركن : جانب حجر الكعبة أو جداره . التعريف : وقوف الحجاج بعرفات على اثني عشر ميلا من مكة . الجمرات : الحصى التي ترمى في مناسك الحج . يقول : أقفرت وخلت هذه المواضع التي هي لآل رسول الله ، والتي كانت مدارس لآيات القرآن .

٣ علي بن أبي طالب . الحسين بن علي . جعفر الصادق من نسل علي . حمزة عم النبي قتل في غزوة أحد . السجاد : الكثير السجود . الثفنات ، جمع الثفنة : وهي من البعير ما لاصق الأرض إذا استناخ ، ومن الإنسان الركبة ، ومجتمع الساق والفخذ . وذو الثفنات : لقب زين العابدين بن علي بن الحسين ، وإنما قيل له ذلك لأنه كان يصلي كل يوم ألف ركعة فصار في ركبتيه مثل ثفن البعير في الخشونة والغلظ .

٤ الجون : السحاب الأسود الممطر . يريد أن هذه الديار عفت لكثرة ما تسقيها الأمطار ، وتجود عليها السماء بخيرها لقدسية أماكنها ، ولم تعف لكرور الأيام والسنين ، لأن عاديات الأيام لا تأتي عليها .

٥ خف : ارتحل . والمراد بعد عهدها بالصوم والصلوات بعد موت من ذكرهم .

٦ شطت : بعدت . أفانين : حال من شطت ، مفردها أفنون وهو الحال والنوع من الشيء . أي بعدت بهم على أحوال وأنواع متفرقة .

٧ ميراث النبي : الخلافة ، وسواها من أرض ومال كان للرسول . اعتزوا : انتسبوا . قادات : جمع قادة ، جمع قائد .

وما النّاسُ إلاّ حاسِدٌ ، ومُكَذِّبٌ ، ومُضطَغِنٌ ، ذو إحنَةٍ ، وتِراتِ[1]

إذا ذَكَروا قَتلى ببَدْرٍ ، وخَيبَرٍ ، ويَومِ حُنَيْنٍ ، أسبَلُوا العَبَراتِ[2]

قُبُورٌ بكُوفانٍ ، وأُخرى بطَيبَةٍ ، وأُخرَى بفَخٍّ ، نالَها صَلَواتي[3]

وقَبرٌ ببَغدادٍ ، لنَفسٍ زكيّةٍ ، تَضَمّنَها الرّحمنُ في الغُرُفاتِ[4]

فأمّا المُصِمّاتُ التي لَستُ بالِغاً مَبالِغَها مِنّي بكُنْهِ صِفاتِ[5]

١ وما الناس : أي أعداؤهم الذين ينكرون عليهم حقهم . مكذب : أي مكذب بالحق . المضطغن : صاحب الضغينة . الإحنة : الحقد . الترات : جمع الترة ، وهي الثأر .

٢ وقعة بدر : في السنة الثانية للهجرة . انتصر فيها المسلمون على مشركي قريش ، وشهدها من بني هاشم جماعة أبلوا فيها بلاء حسناً . في مقدمتهم حمزة عم النبي وعلي بن أبي طالب . روي أن عدد قتلى المشركين يوم بدر كان تسعة وأربعين ، وقيل بل نيف على الستين . وذكروا أن علياً قتل وحده ثلاثة وعشرين أو اثنين وعشرين ، والباقون لسائر الناس . وقعة خيبر : في السنة السابعة للهجرة ، انتصر فيها المسلمون على اليهود ، واستنزلوهم من حصونهم . وكان لعلي بن أبي طالب شأن عظيم في هذه الواقعة ولا سيما أمام حصني الوطيح والسلالم حيث سلمه النبي اللواء بعد أن انكشف عمر بن الخطاب وأصحابه . وقعة حنين : في السنة الثانية للهجرة بين المسلمين وبني هوازن تضايق المسلمون في بدء هذه المعركة ، فانهزموا ولم يثبت مع الرسول إلا سبعة من أهل بيته ، منهم علي بن أبي طالب يضرب أمامه بسيفه ، والعباس بن عبد المطلب آخذ بلجام بغلته . والباقون محدقون به خوفاً عليه ، وثبت عمر وأبو بكر وبعض الأنصار . وفي هذه الواقعة رمى علي بن أبي طالب حامل اللواء من هوازن عن ظهر جمله ، فقطع بعض الأنصار ساقه . وأخيراً تم النصر للمسلمين . قوله : إذا ذكروا : الضمير يعود على أهل البيت ، أي إذا ذكروا قتلاهم أو ما قتلوا من أعداء الدين في هذه المواقع جهاداً في سبيل الإسلام ، بكوا قهراً عندما يرون أنفسهم مضطهدين ، مهضومي الحقوق .

٣ كوفان والكوفة واحد . في معجم الأدباء : كوفات جمع كوفة ، وفيها قبر علي بن أبي طالب . طيبة : المدينة ، وفيها قبر النبي ، وقبر فاطمة وولدها الحسن ، وزين العابدين ، ومحمد الباقر ، ومحمد بن عبد الله بن الحسن الملقب بالنفس الزكية . فخ : واد بمكة ، وفيه قتل الحسين بن علي بن الحسن سنة ١٦٩ هـ . (٧٨٥ م) قتلته جيوش العباسيين لطلبه الخلافة . وتركت جثته وجثث أهل بيته مكشوفة حتى افترستها السباع .

٤ وقبر ببغداد لنفس زكية : يريد به قبر الإمام موسى الكاظم . قيل مات مسموماً ، وقيل مات في الحبس . في الغرفات : أي غرفات النعيم .

٥ المصمات : أي نفوس من أهل البيت دعت الناس إلى نصرتها ، فصمت الآذان عن سماع صوتها . يقال : أصم دعاؤه : أي وافق قوماً صماً لا يسمعون منه . يقول : إنه عاجز عن إظهار حقيقة صفاتها الحسنى .

إلى الحَشرِ ، حتى يَبعَثَ اللهُ قائِماً ، ... يُفَرِّجُ منها الهَمَّ والكُرُباتِ[1]

نفوسٌ لدى النَّهرَينِ ، من أرضِ كرْبلا ، ... مُعَرَّسُهُمْ فيهـا بِشَطِّ فُراتِ[2]

تَقَسَّمَهُمْ رَيبُ الزّمانِ ، كما ترَى ، ... لَهُمْ عُمرَةٌ مَغشيّةُ الحُجُراتِ[3]

سِوى أنّ مِنهُمْ بالمَدينَةِ عُصبَةً ، ... مَدَى الدّهرِ ، أنضاءً منَ الأزَماتِ[4]

قَليلَةَ زُوّارٍ ، سِوَى بَعضِ زُوَّرٍ ، ... منَ الضَّبعِ ، والعِقبانِ ، والرَّخَماتِ[5]

لَهُمْ كلَّ حِينٍ نَومَةٌ بمَضاجعٍ ... لهُمْ ، في نَواحي الأرضِ ، مُختَلِفاتِ

وقد كانَ منهُمْ ، بالحِجازِ وأهلِها ، ... مَغاويرُ ، يُختارونَ في السَّرَواتِ[6]

تَنَكَّبُ لأواءُ السّنينَ جِوارَهمْ ، ... فلا تَصطَلِيهِمْ جَمرَةُ الجَمَراتِ[7]

إذا وَرَدوا خَيلاً ، تَشَمَّسَ بالقَنا ... مَساعِرُ جَمرِ المَوتِ ، والغَمَراتِ[8]

وإن فَخَرُوا يوماً ، أتَوا بمُحَمَّدٍ ، ... وجِبريلَ ، والفُرقانِ ذي السُّوَراتِ

مَلامَكَ في أهلِ النّبيِّ ، فإنّهم ... أحِبّايَ ، ما عاشوا ، وأهلُ ثِقاتي[9]

تَخَيّرتُهُمْ رُشداً لأمري ، فإنّهُمْ ، ... على كلِّ حالٍ ، خيرَةُ الخِيَراتِ

---

١ إلى الحشر : الجار متعلق بمصمات . القائم : أي الإمام المنتظر عند الشيعة . يريد أن هذا الإمام هو الذي يسمع صوتها ، ويظهر حقها المهضوم ، ويفرج همها .

٢ نفوس : خبر المصمات ، جرد من الفاء الرابطة ، ووجه الكلام أن يقال : فنفوس . كربلا : موضع في طرف البرية عند الكوفة ، وفيه قتل الحسين بن علي وأصحابه . معرسهم : أي منزلهم .

٣ العمرة : الزيارة ، يريد : أن قبر الحسين مشهد يزار وتغشى حجره تبركاً .

٤ أنضاء : جمع النضو ، وهو المهزول والبالي ، ويريد بالعصبة : المدفونين في المدينة من أهل البيت ، ونعتهم بالأنضاء لما يلاقون من الشدة والحيف ، فقبورهم لا تزار ولا تكرم كقبر الحسين .

٥ الرخمات : جمع الرخمة ، واحدة الرخم : طائر أبقع يشبه النسر في الخلقة ، وتسميه العامة الشوحة .

٦ مغاوير : جمع مغوار ، كثير الغارات . السروات : جمع السراة ، جمع السري ، وهو السيد الشريف ذو المروءة .

٧ تنكب : تتجنب . اللأواء : الشدة وضيق العيش . الجمرة : أي جمرة الحرب . الجمرات : جمع الجمرة وهي القوم انضموا فصاروا يداً واحدة ولم يحالفوا غيرهم . وجمرات العرب قبائل معروفة .

٨ تشمس : امتنع . مساعر : فاعل تشمس . الغمرات : جمع الغمرة وهي شدة الموت وكرائهه .

٩ ملامك : منصوب على التحذير أي كف ملامك .

فيا رَبِّ، زِدني ، من يقيني ، بَصيرةً ، وزِدْ حُبّهمْ ، يا ربِّ ، في حَسَناتي

بنَفسيَ أنتُمْ ، من كُهُولٍ وفِتيةٍ ، لفَكّ عُناةٍ ، أو لحَملِ دِياتِ[1]

أُحبُّ قصِيَّ الرَّحمِ ، من أجلِ حبّكم ؛ وأهجُرُ فيكُمْ أسرَتي وبَناتي[2]

وأكتُمُ حُبّيكُمْ مَخافَةَ كاشِحٍ عَنيدٍ ، لأهلِ الحَقّ غَيرِ مُواتِ[3]

لقَدْ حَفّتِ الأيّامُ حَولي بشَرّها ، وإنّي لأرجو الأمنَ بَعدَ وَفاتي

ألم ترَ أنّي ، مِن ثَلاثينَ حِجّةً ، أروحُ ، وأغدو دائِمَ الحَسَراتِ

أرَى فَيأهُمْ في غَيرِهِمْ مُتَقَسَّماً ، وأيديَهُمْ ، مِن فَيئِهِمْ ، صَفِراتِ[4]

فآلُ رَسولِ اللهِ نُحفٌ جُسُومُهُمْ ، وآلُ زِيادٍ حُفَّلُ القَصَراتِ[5]

بَناتُ زِيادٍ في القُصورِ مَصونَةٌ ، وآلُ رَسولِ اللهِ في الفَلَواتِ

إذا وُتِروا ، مَدّوا إلى أهلِ وِترِهِمْ أكُفّاً عَنِ الأوتارِ مُنقَبِضاتِ[6]

---

١ العناة : جمع العاني أي الأسير .

٢ قصي الرحم : أي القريب لا تجمعك به قرابة . يريد أنه ليس بينه وبين أهل البيت قرابةُ رحم ، وهو يحبهم حتى أصبح يحب كل بعيد الرحم من أجل حبهم .

٣ الكاشح : العدو . موات : مجار .

٤ فيأهم : مالهم الذي أفاءه الله عليهم في الجهاد أو مال الجزية والخراج . صفرات : خاليات .

٥ آل زياد : دولة ملكت اليمن في أيام المأمون ، ونسبتهم إلى زياد ابن أبيه . وذلك أن شخصاً منهم يقال له محمد بن إبراهيم بن عبيد الله بن زياد ابن أبيه كان مع جماعة من بني أمية قد سلمهم المأمون إلى الفضل بن سهل ، وقيل إلى أخيه الحسن . وفي ذلك الوقت اختلت أمور اليمن فبلغ المأمون ذلك ، فأثنى الفضل بحضرة المأمون على محمد بن زياد المذكور ، ومدح همته وشجاعته . فأرسله المأمون ومعه جماعة لإصلاح أمر اليمن . فسار وأرسل الهدايا إلى الخليفة . فبعث إليه المأمون ألفي فارس ليكونوا في إمرته ، فعظم شأنه ، وانتقل ملكه بعده إلى أولاده . وكانت مدة دولتهم ٢٠٤ سنوات . القصرات ، جمع القصرة : أصل العنق . يؤلم الشاعر أن يكون أهل البيت ضعاف الأجسام لما بهم من عوز وهم أبناء عم العباسيين ، في حين أن آل زياد غلاظ الرقاب من النعمة التي أولاهم إياها العباسيون ، مع أنهم أمويون .

٦ وتروا : كان لهم ثأر عند غيرهم . وترهم : ثأرهم . الأوتار : جمع الوتر ، وهنا بمعنى الظلم والاعتداء . نعتهم بالمسامحة وحب السلام .

فلَولا الذي أرجوهُ في اليَومِ ، أو غَدٍ ، لَقَطَّعَ قَلبي ، إثرَهُمْ ، حَسَراتي[1]
خُرُوجُ إمامٍ ، لا مَحالَةَ خارِجٌ ، يَقُومُ على اسمِ اللهِ والبَرَكاتِ[2]
يُمَيِّزُ فينا كلَّ حَقٍّ وباطِلٍ ، ويَجزي على النَّعماءِ والنَّقَماتِ
سأقصُرُ نَفسي ، جاهداً، عن جِدالِهِم ، كَفَانيَ ما ألقَى مِنَ العَبَراتِ[3]
فَيا نَفسِ طِيبي ، ثُمّ يا نفسِ أبشِري ، فغَيرُ بَعيدٍ كلُّ ما هوَ آتِ
فإنْ قَرّبَ الرّحمَنُ من تِلكَ مُدّتي ، وأخّرَ مِن عُمري لطولِ حَياتي[4]
شُفيتُ ، ولم أترُكْ لنَفسي رَزِيّةً ، ورَوّيتُ مِنهُمْ مُنصُلي وقَناتي[5]
أُحاوِلُ نَقلَ الشّمسِ من مُستَقَرّها ، وأسمِعُ أحجاراً مِنَ الصَّلَداتِ[6]
فَمِنْ عارِفٍ لم يَنتَفِعْ ، ومُعانِدٍ يَميلُ مَعَ الأهواءِ والشُّبُهاتِ[7]
قُصارايَ مِنهُمْ أن أمُوتَ بغُصّةٍ ، تَرَدَّدُ بينَ الصّدرِ واللّهَواتِ[8]
كأنّكَ بالأضلاعِ قَد ضاقَ رَحبُها ، لِمَا ضُمِّنَتْ مِن شِدّةِ الزّفَراتِ

١ حسراتي : فاعل قطع .
٢ خروج إمام : أي الإمام المنتظر الذي يخرج من أهل البيت ليطهر الأرض من الجور والفساد .
٣ عن جدالهم : أي عن جدال من ينكرون مجيء الإمام المنتظر . العبرات : جمع العبرة ، أي العبارة فالمعنى : كفاني ما ألقى من الكلام . أو هي عِبرات : جمع عِبرة ، أي العجب والموعظة يتعظ بها .
٤ تلك : أي تلك الساعة التي يخرج فيها الإمام .
٥ منهم : اي من الذين ينكرون مجيئه .
٦ احاول نقل الشمس : اي أن صعوبة اقناع المنكرين كصعوبة نقل الشمس من مكانها الصلدات : الصلاب ، مفردها صلدة . اي واسماع المنكرين كاسماع الحجارة الصلاب .
٧ يقول : من المنكرين من عرف الحقيقة ، ولكنه يجحدها ولا ينتفع بها . الشبهات : الظنون .
٨ قصاراي : غايتي وجهدي . وقوله : اموت بغصة ، اي اذا مات متشوقاً الى ظهور الامام .اللهوات : جمع اللهاة ، وهي اللحمة المشرفة على الحلق .

اغراض مختلفة

غزل

أينَ الشّبابُ ، وأيّةً سَلَكا ؟ ... بل أينَ يُطلَبُ؟ ضَلَّ أم هلَكا ؟
لا تَعجَبي يا سَلْمَ من رَجُلٍ ، ... ضَحِكَ المَشيبُ برأسِهِ ، فبكَى
يا سَلْمَ ما بالشّيبِ مَنقَصَةٌ ، ... لا سُوقَةً يُبقي ، ولا مَلِكا[1]
قَصَرَ الغَوايَةَ عَن هَوَى قَمَرٍ ، ... أجِدُ السّبيلَ إلَيهِ مُشتَرَكا[2]
يا لَيتَ شِعري ، كيفَ نَومُكُما ، ... يا صاحبيّ ، إذا دَمي سُفِكا؟[3]
لا تأخُذا بظُلامَتي أحداً ، ... قَلبي وطَرفي في دَمي اشتَرَكا[4]

حنين

ألم يأنِ ، للسَّفْرِ الذينَ تحَمّلُوا ، ... إلى وَطَنٍ ، قبلَ المَماتِ ، رُجوعُ ؟[5]
فقُلتُ ، ولم أملِكْ سَوابقَ عَبرَةٍ ، ... نَطَقنَ بما ضُمّتْ علَيهِ ضُلُوعُ :
تَبَيّنْ ، فكَم دارٍ تَفَرّقَ شَملُها ، ... وشَملٍ شَتيتٍ عادَ وهْوَ جَميعُ
كَذاكَ اللّيالي ، صرفُهنّ كما تَرَى ، ... لكُلّ أُناسٍ جَدبَةٌ وربيعُ

---

١ المنقصة : النقص والعيب . السوقة : الرعية من الناس ، للواحد والجمع والمذكر والمؤنث . سموا بذلك لأن الملك يسوقهم ويصرفهم إلى ما شاء من أمره ومراده .

٢ قصره عن الشيء : كفه عنه قسراً لا طوعاً . الغواية : الضلالة . يقول : إن وقار الشيب رده عن الحب كرهاً ، لأنه أبى عليه أن يتبذل في حب مليح يشاركه فيه كثير من العشاق .

٣ يقول : إن حب هذا المليح الذي أقصر عنه مكرهاً سيقتله ، ولذلك يسأل صاحبيه كيف يصبران عنه إذا سفك دمه .

٤ الظلامة : ما تطلبه عند الظالم ، وهو ما يأخذه منك ظلماً .

٥ ألم يأن : ألم يحن ، ماضيه أنى . تحملوا : ترحلوا .

الشعر الخالد

نَعَوْني ، ولمّا يَنعَني غيرُ شامِتٍ ، وغَيرُ عَدوٍّ قد أُصيبَتْ مَقاتِلُه[1]

يَقولونَ : «إن ذاقَ الرّدى ماتَ شِعرُهُ» ، وهَيهاتَ ، عُمرُ الشّعرِ طالتْ طَوائلُه[2]

سأقضي ببَيتٍ يَحمَدُ النّاسُ أمرَهُ ، ويَكثُرُ مِن أهلِ الرّوايةِ حامِلُه[3]

يَموتُ رَديءُ الشّعرِ من قَبلِ أهلِهِ ، وجَيّدُهُ يَبقَى ، وإنْ ماتَ قائِلُه

فضيلة العطاء

لئِنْ كُنْتَ لا تُولي يَداً دونَ إمرَةٍ ، فلَستَ بِمُولٍ نائِلاً آخِرَ الدّهْرِ[4]

فأيُّ إناءٍ لمْ يَفِضْ عِندَ مَلْئِهِ ، وأيُّ بَخِيلٍ لم يُنِلْ ساعَةَ الوَفْرِ ؟

ولَيس الفتى المُعطي على اليُسرِ وَحدَهُ ، ولَكِنّهُ المُعطي على العُسْرِ واليُسْرِ

لذة العيش

[1] كتب دعبل الى نهشل ابن حميد الطوسي يقول :

إنّما العَيْشُ في مُنَادَمَةِ الإخْـ وانِ لا في الجُلُوسِ عِنْدَ الكَعَابِ

وَبِصِرْفٍ كَأنّهَا ألسُنُ البَرْ قِ ، إذا استَعرَضَتْ رَقيقَ السّحَابِ[5]

إنْ تَكُونوا تَرَكتُمُ لَذّةَ العَيْـ شِ ، حِذارَ العِقابِ ، يوْمَ العِقابِ

فَدَعُوني ، ومَا ألَذُّ وَأهْوَى ، وادْفَعُوا بي في صَدْرِ يَوْمِ الحِسابِ

١ لما : بمعنى لم الجازمة . المقاتل : جمع المقتل وهو العضو الذي لا يستطيع المقاومة إذا أصيب . وقوله : أصيبت مقاتله : أراد هنا الهجاء الذي أصاب الأماكن الضعيفة من عرضه وشرفه .

٢ الطوائل : جمع الطائلة ، وهي القدرة والسعة .

٣ سأقضي : سأموت . ببيت : الباء سببية .

٤ اليد : العطاء والنعمة . الامرة : الولاية والملك . النائل : العطاء . آخر الدهر : اي مدى الدهر .

٥ استعرض : طلب العريض من الاشياء . شبه لألاء الخمرة بألسن البرق ، وحببها برقيق السحاب . يقول : ان لألاءها يلوح في الحبب كما تلوح ألسن البرق في رقيق السحاب .

ابن المقفع

كليلة ودمنة

باب عرض الكتاب

وضعه عبد الله بن المقفع

الحض على تفهم الكتاب

هَذا كِتابُ كَليلَةَ ودِمنَةَ وهوَ مِمّا وَضَعَتهُ عُلَماءُ الهِندِ مِنَ الأمثالِ والأحاديثِ التي أُلهِموا أنْ يُدخِلُوا فيها أبلَغَ ما وَجَدوا مِنَ القَولِ في النَّحْوِ[1] الذي أرادوهُ . ولم تَزَلِ العُلَماءُ والحُكَماءُ مِن كلّ أمّةٍ ولِسانٍ يَلتَمِسونَ أنْ يُعقَلَ عنهُمْ . ويَحتالونَ لذلكَ بصُنوفِ الحِيَلِ ، ويَبتَغونَ إخراجَ ما عِندَهم مِنَ العِلَلِ[2] ، في إظهارِ ما لدَيهِم مِنَ العُلومِ والحِكَمِ ، حتى كانَ مِن تِلكَ العِلَلِ وَضعُ هذا الكِتابِ على أفواهِ البَهائِمِ والطّيورِ . فاجتَمَعَ لهُ بِذَلِكَ خِلالٌ[3] منها: أنّهُمْ وَجَدوا مُنصَرَفاً[4] في القَولِ ، وشِعاباً[5] يأخُذونَ مِنها ، ووُجوهاً يَسلُكونَ فيها . وأمّا الكِتابُ فجَمَعَ حِكمَةً ولَهواً ، فاختارَهُ الحُكَماءُ لحِكمَتِهِ ، والأغرارُ[6] للَهوِهِ . والمُتَعَلِّمُ مِنَ الأحداثِ ناشِطٌ في

......

١ النحو : [illegible] .

٢ العلل : الأسباب .

٣ الخلال : [illegible] ، مفردها الخلة .

٤ منصرفاً : متسعاً [illegible] ادة من الكلام .

٥ شعاباً : طرقاً ، مفردها [illegible] .

٦ الأغرار ، جمع الغر [illegible] لشاب لا تجربة له ، يغتر بالأباطيل .

حِفْظِ ما صارَ إليهِ مِن أمرٍ يُربَطُ في صَدرِهِ ، ولا يَدري ما هُوَ ، بَلْ عَرَفَ أنّهُ قَد ظَفِرَ مِنْ ذَلكَ بمَكتوبٍ مَرقومٍ[1] . وكان كالرّجُلِ الذي لمّا استَكمَلَ الرّجوليّةَ وَجَدَ أبَوَيهِ قد كَنَزا لهُ كُنوزاً ، وعَقَدا لهُ عُقَداً[2] استَغنى بها عَنِ الكَدحِ[3] ، فيما يَعمَلُهُ مِنْ أمرِ مَعيشَتِهِ ؛ فأغناهُ ما أشرَفَ علَيهِ مِنَ الحِكمَةِ عنِ الحاجَةِ إلى غَيرِها مِن وُجوهِ الأدَبِ .

فأوّلُ ما يَنبَغي لمَن قرأ هذا الكِتابَ أنْ يَعرِفَ الوُجوهَ التي وُضِعَتْ لَهُ ، والرّموزَ التي رُمِزَتْ فيهِ ، وإلى أيّ غايَةٍ جرَى مؤلّفُهُ فيهِ ، عندَما نَسبَهُ إلى البَهائِمِ وأضافَهُ إلى غَيرِ مُفصِحٍ[4] ، وغَيرَ ذلكَ[5] مِنَ الأوضاعِ التي جعَلَها أمثالاً . فإنّ قارِئَهُ ، متى لم يَفعَلْ ذلكَ ، لم يَدرِ ما أُريدُ بتلكَ المَعاني ، ولا أيَّ ثَمرَةٍ يَجتَني منها ، ولا أيَّ نَتيجَةٍ تَحصُلُ لهُ مِن مُقَدّماتِ ما تَضَمّنَهُ هذا الكِتابُ . وإنّهُ ، إنْ كانتْ غايَتُهُ منهُ استِتمامَ قراءَتِهِ ، والبُلوغَ إلى آخِرِهِ ، دونَ تَفَهّمِ ما يَقرأُ منهُ ، لم يَعُدْ علَيْهِ[6] بشَيءٍ يَرجِعُ إليهِ نَفعُهُ .

ومَنِ استَكثَرَ مِنْ جَمعِ الكُتُبِ وقراءَةِ العُلومِ ، مِن غيرِ إعمالِ الرّويّةِ فيما يَقرؤهُ ، كانَ خَليقاً أنْ لا يُصيبَهُ إلاّ ما أصابَ الرّجُلَ الذي زَعَمَتِ العُلَماءُ أنّهُ اجتازَ ببَعضِ المَغاوِرِ[7] ، فظَهَرَ لَهُ مَوضِعُ آثارِ كَنزٍ ، فجَعَلَ يَحفِرُ ويَطلُبُ ، فوَقَعَ على شيءٍ كَثيرٍ مِن عَينٍ[8] ووَرِقٍ[9] ، فقالَ في نَفسِهِ : إنْ أنا أخَذتُ في نَقلِ هذا المالِ قَليلاً قَليلاً ، طالَ عَليَّ ،

---

١ المرقوم : الكتاب المعجم المبين .
٢ العقد : جمع العقدة ، وهي ما يعقد من البيع . والعقار الذي اعتقده صاحبه ملكاً .
٣ الكدح : الجد والاجتهاد .
٤ المفصح : ضد الأعجم غير الناطق .
٥ وغير ذلك : أي وأن يعرف غير ذلك .
٦ لم يعد عليه : لم ينفعه ، والفاعل يعود إلى الكتاب .
٧ المغاور : جمع المغارة .
٨ العين : الذهب .
٩ الورق : الدراهم من الفضة .

وقَطَعَني الاشتِغالُ بنَقلِه عَنِ اللّذّة بما أصَبتُ منهُ . ولكِنْ أستأجِرُ قوماً يَحمِلونَهُ إلى مَنزِلي ، وأكونُ أنا آخِرَهُمْ ، ولا يَكونُ بَقيَ وَرائي شيءٌ يَشغَلُ فِكري بنَقلِه ، وأكونُ قد استَظهَرتُ[1] لنَفسي ، في إراحةِ بَدَني عَنِ الكَدِّ ، بيَسيرِ أُجرَةٍ أُعطيها إيّاهُمْ . ثمّ جاءَ بالحَمّالينَ فجَعَلَ يُسَلِّمُ إلى كلِّ واحِدٍ مِنهُمْ ما يَقدُرُ على حَمْلِه ويَقولُ لهُ : إذهَبْ بهِ إلى مَنزِلي . فيَنطَلِقُ بهِ الحَمّالُ إلى مَنزِلِهِ هُوَ ، حتى إذا لم يَبقَ في الكَنزِ شيءٌ ، انطَلَقَ خَلفَهُمْ إلى مَنزِلِهِ ، فلَمْ يَجِدْ فيهِ مِنَ المالِ شيئاً ؛ وإذا كلُّ واحدٍ مِنَ الحَمّالينَ قد فازَ بما حَمَلَهُ لنَفسِهِ ، ولم يكُنْ للرَّجُلِ مِنْ ذلكَ إلاّ العَناءُ والتَّعَبُ ، لأنّهُ لم يُفَكِّرْ في آخِرِ أمرِهِ .

وكَذلكَ مَنْ قرأ هذا الكِتابَ ولم يَفهَمْ ما فيهِ ولم يَعلَمْ غَرَضَهُ ظاهراً وباطِناً ، لم يَنتَفِعْ بما يَبدو لهُ مِنْ خَطِّهِ ونَقشِهِ[2] كما لوَ انّ رَجُلاً قُدِّمَ لَهُ جَوزٌ صَحيحٌ لم يَنتَفِعْ بهِ إلاّ أنْ يَكسِرَهُ ويَستَخرِجَ ما فيهِ . وكانَ أيضاً كالرّجُلِ الذي طَلَبَ عِلْمَ الفَصيحِ مِن كَلامِ النّاسِ ، فأتى صَديقاً لهُ مِنَ العُلَماءِ ، لَهُ عِلْمٌ بالفَصاحَةِ ، فأعلَمَهُ حاجَتَهُ إلى عِلمِ الفَصيحِ ، فرَسَمَ لهُ صَديقُهُ في صَحيفَةٍ صَفراءَ فَصيحَ الكَلامِ وتَصاريفَهُ ووُجوهَهُ . فانصَرَفَ بها إلى مَنزِلِه ، فجَعَلَ يُكثِرُ قِراءَتَها ، ولا يَقِفُ على مَعانيها ، ولا يَعلَمُ تأويلَ[3] ما فيها ، حتى استَظهَرَها كلَّها . فاعتَقَدَ أنّهُ قد أحاطَ بعِلمِ ما فيها . ثمّ إنّهُ جَلَسَ ذاتَ يومٍ في مَحفِلٍ مِن أهلِ العِلمِ والأدَبِ ، فأخَذَ في مُحاوَرَتِهِمْ ، فجَرَتْ لهُ كَلِمَةٌ أخطأ فيها ، فقالَ لهُ بَعضُ الجماعَةِ : « إنّكَ قد أخطأتَ ، والوَجهُ غيرُ ما تكَلّمتَ » فقالَ : « كيفَ أُخطِىءُ وقد قرأتُ الصّحيفَةَ الصّفراءَ ، وهيَ في مَنزِلي ؟ » فكانَتْ مَقالَتُهُ هذهِ أوجَبَ للحُجّةِ عليهِ ، وزادَهُ ذلكَ قُرباً مِنَ الجَهلِ ، وبُعداً مِنَ الأدَبِ . . . الخ .

١ استظهرت : استعنت .
٢ نقشه : تلوينه .
٣ التأويل : تدبير الكلام وتقديره وتفسيره .

أغراض الكتاب

ويَنبَغي للنّاظِرِ في هذا الكتابِ أنْ يَعلَمَ أنّهُ يَنقَسِمُ إلى أربعَةِ أغراضٍ : أحَدُها ما قُصِدَ فيهِ إلى وَضعِهِ على ألسِنَةِ البَهائِمِ غيرِ النّاطِقَةِ ، مِنْ مُسارَعَةِ أهلِ الهَزْلِ مِنَ الشبّانِ إلى قِراءَتِهِ ، فتُستَمالُ بهِ قُلُوبُهُمْ ، لأنّ هذا هوَ الغَرَضُ بالنّوادِرِ مِن حِيَلِ الحَيَوانات . والثّاني إظهارُ خَيالاتِ الحَيوانات بصُنوفِ الأصباغِ والألوانِ[1] ، ليَكونَ أُنساً لقُلوبِ المُلوكِ ، ويكونَ حِرصُهُمْ عليهِ أشَدّ ، للنُّزهَةِ في تلكَ الصّوَرِ . والثّالثُ أن يكونَ على هذه الصّفَةِ ، فيَتّخِذَهُ المُلوكُ والسُّوقَةُ[2] ، فيَكثُرَ بذلكَ انتِساخُهُ ، ولا يَبطُلَ فيَخلُقَ[3] على مُرورِ الأيّامِ ، وليَنتَفِعَ بذلكَ المُصَوِّرُ والنّاسِخُ أبداً. والغرَضُ الرّابعُ ، وهُوَ الأقصى ، مَخصوصٌ بالفَيْلَسوفِ خاصّةً .

قالَ عَبدُ اللهِ بنُ المُقَفَّعِ : لمّا رأيتُ أهلَ فارِسَ قد فَسّروا[4] هذا الكتابَ مِنَ الهِنديّةِ إلى الفارسيّةِ ، وألحَقوا بهِ باباً ، وهوَ بابُ بَرْزَوَيْهِ الطّبيبِ ، ولم يَذكُروا فيهِ ما ذكَرنا في هذا البابِ لمَن أرادَ قراءَتَهُ واقتِباسَ عُلومِهِ وفَوائِدِهِ ، وضَعنا لهُ هذا البابَ . فتأمّلْ ذلكَ تُرْشَدْ ، إنْ شاءَ اللهُ تعالى .

---

١ يتبين من ذلك أن الكتاب كان ذا صور وألوان في الأصل .
٢ السوقة : الرعية وعامة الشعب .
٣ يخلق : يبلى .
٤ فسروا : المراد هنا أظهروا الكتاب بالترجمة ، وكشفوا عن مغطاه .

باب الاسد والثور

وهو أول الكتاب في الأصل الهندي

مملكة الأسد

قال دَبْشَليمُ المَلِكُ لبَيْدَبَا الفَيْلَسُوفِ، وَهُوَ رَأسُ البَراهِمَةِ: إضْرِبْ لي مَثَلاً لمُتَحابَّيْنِ يَقْطَعُ بَيْنَهُما الكَذوبُ المُحتالُ، حتى يَحمِلَهُما على العَداوَةِ والبَغضاءِ.

قالَ بَيْدَبَا: إذا ابتُلِيَ المُتَحابّانِ بأنْ يَدخُلَ بَيْنَهُما الكَذوبُ المُحتالُ، لم يَلبَثا أنْ يَتَقاطَعا ويَتَدابَرا[1]. ومِنْ أمثالِ ذلكَ أنّهُ كانَ بأرضِ دَستاوَنْدَ رَجُلٌ شَيخٌ لهُ ثَلاثَةُ بَنينَ. فلَمّا بَلَغوا أشُدَّهمْ، أسرَفوا في مالِ أبيهِمْ، ولم يكونوا احتَرَفوا حِرفَةً يَكسِبونَ بها لأنفُسِهِمْ خَيراً. فلامَهُمْ أبوهُمْ ووَعَظَهُمْ على سوءِ فِعلِهِمْ. وكانَ مِن قَولِهِ لهُمْ: يا بَنِيَّ، إنَّ صاحبَ الدّنيا يَطلُبُ ثَلاثَةَ أمورٍ، لَن يُدرِكَها إلاّ بأربَعَةِ أشياءَ. أمّا الثّلاثَةُ الّتي يَطلُبُ: فالسَّعَةُ في الرِّزقِ، والمَنزِلَةُ في النّاسِ، والزّادُ[2] للآخرَةِ. وأمّا الأربَعَةُ الّتي يَحتاجُ إلَيها في دَرَكِ هذهِ الثّلاثَةِ: فاكتِسابُ المالِ من أحسنِ وَجهٍ يكونُ، ثمّ حُسنُ القِيامِ على ما اكتَسَبَ منهُ، ثمّ استِثمارُهُ، ثمّ إنفاقُهُ فيما يُصلِحُ المَعيشَةَ، ويُرضي الأهلَ والإخوانَ، فيَعودُ علَيهِ نَفعُهُ في الآخرَةِ. فمَنْ ضَيَّعَ شَيئاً من هذهِ الأحوالِ، لم يُدرِكْ ما أرادَ مِنْ حاجَتِهِ. لأنّهُ، إنْ لم يَكتَسِبْ، لم يَكُنْ لهُ مالٌ يَعيشُ بهِ. وإنْ هوَ كانَ ذا مالٍ واكتِسابٍ ثمّ لم يُحسِنِ القِيامَ علَيهِ، أوشَكَ المالُ أنْ يَفنى ويَبقى[3] مُعدِماً[4].

1 يتدابرا: أي يولي كل واحد ظهره للآخر متقاطعين.
2 الزاد: أي التزود من الأعمال الصالحة.
3 يبقى: الضمير يعود على صاحب المال.
4 المعدم: الفقير.

وإنْ هوَ وَضعَهُ ولم يَستَثمِرْهُ ، لم تَمنعْهُ قِلّةُ الإنفاقِ من سُرعةِ الذّهابِ ، كالكُحلِ الذي لا يُؤخَذُ منهُ إلاّ غُبارُ الميلِ ، ثمّ هوَ معَ ذلكَ سريعٌ فَناؤهُ . و إنْ هوَ اكتَسَبَ وأصلَحَ وأثمَرَ، ثمّ أمسَكَ عن إنفاقِه[1] في وُجوهِه ومَنافعِه، صارَ بمَنزِلةِ الفَقيرِ الذي لا مالَ لَهُ . ثمّ لم يَمنَعْ ذلكَ أيضاً مالَهُ مِنَ التّلَفِ بالحَوادِثِ والعِلَلِ التي تَجري علَيهِ : كَمَحبَسِ الماء الذي لا تَزالُ المياهُ تَنصَبّ فيهِ . فإنْ لم يكُنْ لهُ مَخرَجٌ ومَفاضٌ ومُتَنَفَّسٌ يَخرُجُ منهُ الماءُ بقَدْرِ ما يَنبَغي . خَرِبَ وسالَ ونَزّ مِن نَواحٍ كَثيرَةٍ . ورُبّما انبَثَقَ[2] البَثْقَ العَظيمَ ، فذهَبَ الماءُ ضَياعاً .

ثمّ إنّ بَني الشّيخِ اتّعَظوا بقَولِ أبيهِمْ ، وأخذوا بهِ ، وعَلِموا أنّ فيهِ الخَيرَ ، وعَوّلوا علَيهِ . فانطَلَقَ أكبَرُهمْ في تِجارَةٍ نحوَ أرضٍ يُقالُ لها مَيّونُ . فأتَى في طَريقِه على مَكانٍ فيهِ وَحْلٌ كَثيرٌ ، وكانَ معَهُ عَجَلَةٌ يَجُرُّها ثَورانِ يُقالُ لأحَدِهما شَتْرَبَةُ ، وللآخَرِ بَنْدَبَةُ . فوَحِلَ شَتْرَبَةُ في ذلكَ المَكانِ ، فعالجَهُ الرّجُلُ وأصحابُهُ حتى بَلَغَ منهُمُ الجَهدُ فلَمْ يَقدُروا على إخراجِه . فذَهَبَ الرّجلُ ، وخلّفَ عِندَهُ رَجُلاً يُشارِفُهُ[3] ، لَعَلّ الوَحلَ يَنشَفُ ، فيَتبَعَهُ بهِ . فلَمّا باتَ الرّجلُ بذلكَ المَكانِ تَبَرّمَ[4] بهِ واستَوحَشَ ، فتَركَ الثّورَ والتَحَقَ بصاحِبِه ، فأخبَرَهُ بأنّ الثّورَ قد ماتَ .

وأمّا الثّورُ فإنّهُ خلَصَ مِنْ مَكانِه وانبَعَثَ ، فلَمْ يزَلْ حتى انتَهَى إلى مَرْجٍ مُخصِبٍ كَثيرِ الماءِ والكَلإِ ، فأقامَ فيهِ . فلَمّا سَمِنَ وأمِنَ جَعَلَ يَخُورُ ويَرفَعُ صَوتَهُ بالخُوارِ . وكانَ قريباً منهُ أجَمَةٌ[5] فيها أسَدٌ عَظيمٌ ، وهُوَ مَلِكُ تلكَ النّاحيَةِ ، ومَعَهُ سِباعٌ كَثيرَةٌ مِنَ الذّئابِ والدِّبَبَةِ وبَنات

...

١ انفاقه : الضمير يعود على المال المكتسب .
٢ انبثق : تكسرت جوانبه ، وانفجر الماء .
٣ يشارفه : يقوم عليه .
٤ تبرم : مل وضجر .
٥ الأجمة : الشجر الكثير الملتف .

آوَى والثّعالبِ وسائرِ السّباعِ . وكانَ الأسَدُ مَزْهُوّاً[1] مُنفَرِداً برأيِهِ ، ورأيُهُ غيرُ كامِلٍ . فلَمّا سَمِعَ خُوارَ الثّورِ ، ولم يكنْ رأى ثَوراً قَطّ ، ولا سَمِعَ خُوارَهُ ، خامَرَهُ[2] منهُ هَيبَةٌ وخَشيَةٌ . وكَرِهَ أن يَفطَنَ لذلكَ جُندُهُ . فأقامَ بمَكانِهِ لا يَبرَحُ ولا يَنشَطُ ، بل يُؤتَى برِزقِهِ كلَّ يومٍ على يَدِ جُندِهِ . وكانَ ، فيمَنْ معَهُ منَ السّباعِ ، ابنَا آوَى يُقالُ لأحَدِهما كَليلَةُ ، وللآخَرِ دِمنَةُ ، وكِلاهُما ذو أدَبٍ ودَهاء . وكانَ دِمنَةُ شرَّهُما نَفساً ، وأشدَّهما تَطلّعاً إلى الأشياءِ . ولم يكُنِ الأسَدُ عرَفَهُما .

فقالَ دِمنَةُ يَوماً لأخيهِ كَليلَةَ : يا أخي ، ما شأنُ الأسَدِ مُقيماً مَكانَهُ لا يَبرَحُ ولا يَنشَطُ خِلافاً لعادَتِهِ ؟ قالَ لهُ كَليلَةُ : ما شأنُكَ أنتَ والمسألَةَ عَن هذا ؟ نحنُ على بابِ مَلِكِنا ، آخِذَينِ بما أحَبَّ ، وتارِكَينِ ما يَكرَهُ . ولَسنا مِن أهلِ المَرتَبَةِ التي يَتَناوَلُ أهلُها كَلامَ المُلوكِ ، والنّظَرَ في أمورِهم . فأمسِكْ عَن هذا واعلَمْ أنّهُ مَنْ تَكَلّفَ مِنَ القَولِ والفِعلِ ما لَيسَ مِن شأنِهِ ، أصابَهُ ما أصابَ القِردَ مِنَ النّجّارِ . قالَ دِمنَةُ : وكيفَ كانَ ذلك ؟

قالَ كَليلَةُ : زَعَموا أنّ قِرداً رأى نجّاراً يَشُقّ خَشَبَةً ، وهوَ راكِبٌ علَيها . وكُلّما شَقّ منها ذِراعاً ، أدخَلَ فيها وَتَداً . فوَقَفَ يَنظُرُ إلَيهِ ، وقد أعجَبَهُ ذلكَ . ثمّ إنّ النّجّارَ ذهبَ لقَضاءِ حاجَتِهِ ، فقامَ القِردُ فتكَلّفَ ما لَيسَ من شأنِهِ ، فرَكِبَ الخَشَبَةَ ، وجَعَلَ وجهَهُ قِبَلَ الوَتَدِ ، وظَهرَهُ قِبَلَ طَرَفِ الخَشَبَةِ . فتَدَلّى ذَنَبُهُ في الشّقّ . ونَزَعَ الوَتَدَ ، فلَزِمَ الشّقُّ علَيهِ ، فكادَ يُغشَى علَيهِ مِنَ الألَمِ . ثمّ إنّ النّجّارَ وافاهُ ، فأصابَهُ على تِلكَ الحالَةِ ، فأقبَلَ علَيهِ يَضرِبُهُ . فكانَ ما لَقيَ منَ النّجّارِ منَ الضّربِ أشَدَّ ممّا أصابَهُ منَ الخَشَبَةِ .

قالَ دِمنَةُ : قد سَمِعتُ مَثَلَكَ وفَهِمتُهُ . ولكِنِ اعلَمْ أنّهُ لَيسَ

... .

[1] مزهواً : معجباً بنفسه .
[2] خامره : داخله .

كلُّ مَنْ دَنا منَ المُلوكِ إنّما يَدنو منهُمْ لبَطنِهِ ، إنّما البَطنُ قد يُحشَى بكُلِّ مكانٍ . ولكنّهُ يَلتَمِسُ الرِّفعَةَ والمَنزِلَ الذي يَسُرُّ الصَّديقَ ويَسوءُ العَدوَّ . وإنَّ أدنَى النّاسِ وضعفاءَهُم القَليلَةَ مُروءَتُهُمْ هُمُ الذينَ يَرضَونَ بالدُّونِ[1] ، ويَفرَحونَ بهِ ، كالكَلْبِ الذي يُصيبُ عَظماً يابِساً ، فيَفرَحُ بهِ . فأمّا أهلُ الفَضلِ والمُروءَةِ فلا يُغنيهِمُ القَليلُ ، ولا يَرضَونَ بالدُّونِ حتّى يَسمُوا إلى ما هُمْ لَهُ أهلٌ كالأسَدِ الذي يَفترِسُ الأرنَبَ ، فإذا رأى الأتانَ[2] ، تَرَكَ الأرنَبَ وطَلَبَ الأتانَ .

دمنة يحرش الثور على الأسد

قالَ دِمنَةُ : دَعْ عَنكَ هذا الكَلامَ واحتَلْ لنَفسِكَ . قالَ شَتْرَبَةُ : بأيِّ شيءٍ أحتالُ لنَفسي إذا أرادَ الأسَدُ أكلي ، معَ ما عَرَّفتَني مِن رأيِ الأسَدِ وسُوءِ أخلاقِهِ . واعلَمْ أنّهُ لو لم يُرِدْ بي إلاّ خَيراً ، ثمّ أرادَ أصحابُهُ بمكرِهم وفُجورِهِمْ هَلاكي ، لَقَدَروا على ذلكَ ، فإنّهُ إذا اجتَمَعَ المَكَرَةُ الظَّلَمَةُ على البريءِ الصّالحِ كانوا خُلَقاءَ[3] أنْ يُهلِكوهُ ، وإن كانوا ضُعَفاءَ ، وهوَ قَويّ ، كما أهلَكَ الذّئبُ والغُرابُ وابنُ آوَى الجَمَلَ ، حينَ اجتَمَعوا عليهِ بالمَكرِ والخِلابَةِ[4] . قالَ دِمنَةُ : وكيفَ كانَ ذلكَ ؟ قالَ شَتْرَبَةُ : زَعموا أنّ أسَداً كانَ في أجَمَةٍ[5] مُجاوِرَةٍ لطَريقٍ مِنْ طُرُقِ النّاسِ . وكانَ لهُ أصحابٌ ثَلاثَةٌ : ذِئبٌ وغُرابٌ وابنُ آوى ؛ وأنّ رُعاةً مَرّوا بذلكَ الطّريقِ ، ومَعَهم جِمالٌ ، فتَخَلّفَ عنهم جَمَلٌ ، فدَخَلَ تلكَ الأجَمَةَ ، حتّى انتَهَى إلى الأسَدِ . فقَالَ لهُ الأسَدُ : مِن أينَ أقبَلتَ ؟ قال : مِن مَوضِعِ

١ الدون : الخسيس .
٢ الأتان : أنثى الحمار ، وهي هنا أنثى الحمار الوحشي .
٣ خلقاء ، جمع خليق : جدير .
٤ الخلابة : الخداع .
٥ الأجمة : الشجر الكثير الملتف .

كَذا . قال : فَما حاجتُكَ ؟ قال : ما يأمُرُني به المَلِكُ . قالَ : تُقيمُ عِندَنا في السَّعَةِ والأمنِ . فأقامَ الجَمَلُ معَ الأسَدِ زَماناً طَويلاً . ثمّ إنّ الأسَدَ مضَى في بَعضِ الأيّامِ لطَلَبِ الصَّيدِ ، فلَقيَ فيلاً عَظيماً ، فقاتَلَهُ قِتالاً شَديداً ، وأفلَتَ منهُ مُثْقَلاً[1] مُثخَناً بالجِراحِ يَسيلُ منهُ الدّمُ ، وقد خَدَشَهُ[2] الفيلُ بأنيابِهِ . فلَمّا وصَلَ إلى مَكانِهِ وَقَعَ لا يَستَطيعُ حَراكاً ، ولا يَقدُرُ على طَلَبِ الصّيدِ . فلَبِثَ الذّئبُ والغُرابُ وابنُ آوَى أيّاماً لا يَجدونَ طَعاماً ، لأنّهُم كانُوا يأكُلونَ مِن فَضَلاتِ الأسَدِ وطَعامِهِ . فأصابَهُم وأصابَهُ جُوعٌ شَديدٌ وهُزالٌ . وعرَفَ الأسَدُ منهُم ذلكَ ، فقالَ : لقَد جَهَدتُم[3] واحتَجتُم إلى ما تأكُلونَ . فقالوا : لا تَهُمُّنا أنفُسُنا ، لكِنّا نرَى المَلِكَ على ما نَراهُ ، فلَيتَنا نَجِدُ ما يأكُلُهُ ويُصلِحُهُ . قالَ الأسَدُ : ما أشُكُّ في موَدّتِكم وصُحبَتِكُم ، ولكِنْ إنِ استَطَعتُم فانتَشِروا لَعَلّكُم تُصيبونَ صَيداً تأتوني بهِ ، فيُصيبَني ويُصيبَكُم منهُ رِزقٌ . فخرَجَ الذّئبُ والغُرابُ وابنُ آوَى مِن عِندِ الأسَدِ ، فتَنَحَّوا ناحيَةً وائتَمَرُوا فيما بَينَهُم وقالوا : ما لَنا ولهذا الجَمَلِ الآكِلِ العُشبَ الذي لَيسَ شأنُهُ مِن شأنِنا ، ولا رأيُهُ مِنْ رأيِنا . ألا نُزَيّنُ للأسَدِ فيأكُلَهُ ، ويُطعِمَنا مِن لحمِهِ ؟ قالَ ابنُ آوَى : هذا ما لا نَستَطيعُ ذِكرَهُ للأسَدِ ، لأنّهُ قد أمّنَ الجَمَلَ ، وجعَلَ لهُ ذِمّةً[4] . قالَ الغُرابُ : أنا أكفيكُم أمرَ الأسَدِ . ثمّ انطَلَقَ فدَخَلَ علَيهِ . فقالَ لَهُ الأسَدُ : هَلْ حَصّلتُم شيئاً ؟ قالَ الغُرابُ : إنّما يَجِدُ مَنْ يَسعَى ويُبصِرُ ، أمّا نحنُ فَلا سَعْيَ لَنا ولا بَصَرَ لِما بِنا مِنَ الجُوعِ . ولكِنْ قد وُفّقنا إلى أمرٍ واجتَمَعنا علَيهِ ، إنْ وافَقَنا المَلِكُ ، فنَحنُ لهُ مُجيبونَ . قالَ الأسَدُ : وما ذاكَ ؟ قالَ الغرابُ : هذا الجَمَلُ الآكِلُ العُشبَ المُتَمَرِّغُ بَينَنا مِنْ

١ المثقل : من اشتد عليه المرض والألم .
٢ خدشه : مزق جلده .
٣ جهدتم : أصابتكم الشدة .
٤ ذمة : حرمة وعهداً .

غَيرِ مَنفَعَةٍ لَنا مِنهُ ، ولا رَدٌّ عائدَةٍ[1] ، ولا عَمَلٍ يُعقِبُ مَصلَحَةً . فلَمّا سَمِعَ الأسَدُ ذلكَ غَضِبَ ، وقالَ : ما أخطأَ رأيَكَ ! وما أعجزَ مَقالَكَ ، وأبعَدَكَ عَنِ الوَفاءِ والرَّحمَةِ ! وما كُنتَ حَقيقاً[2] أنْ تَجتَرِئَ عَلَيَّ بِهَذهِ المَقالَةِ ، وتستَقبِلَني بهذا الخِطابِ ، معَ ما عَلِمتَ مِن أنّي قَدْ أمّنتُ الجَمَلَ وجَعَلتُ لهُ مِن ذِمّتي . أوَلم يَبلُغكَ أنّهُ لم يَتَصَدَّقْ مُتَصَدِّقٌ بِصَدَقَةٍ هيَ أعظَمُ أجراً مِمَّنْ أمَّنَ نَفساً خائِفَةً وحَقَنَ دَماً مَهدوراً؟ وقد أمّنتُهُ ولَستُ بِغادِرٍ بهِ ، ولا خافِرٍ[3] لهُ ذِمّةً . قالَ الغُرابُ : إنّي لأعرِفُ ما يَقولُ المَلِكُ . ولكِنَّ النَّفسَ الواحدَةَ يُفتَدَى بها أهلُ البَيتِ ، وأهلُ البَيتِ تُفتَدَى بِهِمُ القَبيلَةُ ، والقَبيلَةُ يُفتَدى بها أهلُ المِصْرِ[4] ، وأهلُ المِصْرِ فِدى المَلِكِ . وقد نَزَلَتْ بالمَلِكِ الحاجَةُ ، وأنا أجعَلُ لهُ مِنْ ذِمّتِهِ مَخرَجاً ، على أنْ لا يَتَكَلّفَ المَلِكُ ذلكَ ، ولا يَلِيَهُ[5] بِنَفسِهِ ، ولا يأمُرَ بهِ أحَداً . ولكِنّا نَحتالُ بِحيلَةٍ لَنا ولهُ فيها صَلاحٌ وظَفَرٌ . فسَكَتَ الأسَدُ عن جَوابِ الغُرابِ عَن هذا الخِطابِ . فلَمّا عَرَفَ الغُرابُ إقْرارَ[6] الأسَدِ ، أتَى صاحِبَيهِ فقالَ لهما : قد كَلّمتُ الأسَدَ في أكلِهِ الجَمَلَ ، على أنْ نَجتَمِعَ نَحنُ والجَمَلُ عندَ الأسَدِ . فنَذكُرَ ما أصابَهُ ونَتَوَجَّعَ لهُ اهتماماً منّا بأمرِهِ ، وحِرصاً على صَلاحِهِ ؛ ويَعرِضَ كلٌّ واحدٍ منّا نَفسَهُ عليهِ تَجَمُّلاً[7] ليأكُلَهُ ؛ فيَرُدَّ الآخَرانِ عليهِ ، ويُسَفّها[8] رأيَهُ ، ويُبَيّنا الضَّرَرَ في أكلِهِ . فإذا جاءَتْ نَوبَةُ الجَمَلِ صَوّبنا رأيَهُ ، فهَلَكَ وسَلِمنا كُلُّنا ، ورَضِيَ الأسَدُ

....

١ العائدة : المنفعة .
٢ حقيقاً : جديراً .
٣ خافر : ناقض .
٤ المصر : الكورة والمدينة المحددة .
٥ يليه : يتولاه .
٦ الإقرار : الإذعان والموافقة .
٧ تجملا : مجاملة وإحساناً العشرة .
٨ سفهه : نسبه إلى السفه ، أي خفة الحلم ، والجهل .

عَنّا . ففَعَلوا ذلكَ وتَقَدَّموا إلى الأسَدِ . فقالَ الغُرابُ : قَدِ احتَجتَ ، أيّها المَلِكُ ، إلى ما يَقُوتُكَ . ونَحنُ أحَقُّ أن نَهَبَ أنفُسَنا لكَ ، فإنّا بكَ نَعيشُ . فإذا هَلَكتَ ، فلَيسَ لأحَدٍ مِنّا بَقاءٌ بَعدَكَ ، ولا لَنا في الحَياةِ خَيرٌ . فلْيأكُلْني المَلِكُ فقَد طِبتُ بذلكَ نَفْساً . فأجابَهُ الذّئبُ وابنُ آوَى : أنِ اسكُتْ ، فلا خَيرَ للمَلِكِ في أكلِكَ ، ولَيسَ فيكَ شِبَعٌ[1] . قال ابنُ آوَى : لكِنْ أنا أُشبِعُ المَلِكَ ، فلْيأكُلْني ، فقَد رَضيتُ بذلكَ وطِبتُ نَفساً . فرَدَّ علَيهِ الذّئبُ والغُرابُ بقَولِهِما : إنّكَ لَمُنتِنٌ قَذِرٌ . قالَ الذّئبُ : إنّي لَستُ كذلكَ ، فلْيأكُلْني المَلِكُ ، فقَد سَمَحتُ بذلكَ وطابَتْ بهِ نَفسي . فاعتَرَضَهُ الغُرابُ وابنُ آوَى ، وقالا : قد قالَتِ الأطِبّاءُ : مَن أرادَ قَتلَ نَفسِهِ ، فلْيأكُلْ لَحمَ ذئبٍ ، فإنّهُ يأخُذُهُ منهُ الخُناقُ[2] . وظَنَّ الجَمَلُ أنّهُ ، إذا عَرَضَ نَفسَهُ على الأكلِ ، التَمَسوا لهُ عُذراً كما التَمَسَ بَعضُهُم لبَعضٍ الأعذارَ ، فيَسلَمُ ويَرضَى الأسَدُ عَنهُ بذلكَ ، ويَنجو منَ المَهالِكِ . فقالَ : لكِنْ ، أنا فيَّ للمَلِكِ شِبَعٌ وريٌ[3] ، ولَحمي طَيّبٌ ومَريءٌ ، وبَطني نَظيفٌ ، فلْيأكُلْني المَلِكُ ويُطعِمْ أصحابَهُ وخَدَمَهُ ، فقَد رَضيتُ بذلكَ وطابَتْ نَفسي بهِ ، فقالَ الذّئبُ وابنُ آوَى والغُرابُ : لقَد صَدَقَ الجَمَلُ ، وكَرُمَ ، وقالَ ما عَرَفَ . ثمّ إنّهُمْ وَثَبوا علَيهِ فمَزّقُوهُ .

وإنّما ضرَبتُ هذا المَثَلَ لتَعلَمَ أنّهُ إنْ كانَ أصحابُ الأسَدِ قَدِ اجتَمَعوا على هَلاكي فإنّي لَستُ أقدِرُ أنْ أمتَنِعَ مِنهُم ولا أحتَرِسَ ، وإنْ كانَ رأيُ الأسَدِ فيّ على غَيرِ ما هُمْ علَيهِ مِنَ الرّأيِ فإنّ ذلكَ لا يَنفَعُني ولا يُغني عَنّي شَيئاً . فإنّهُ قَد قيلَ إنّ خَيرَ السّلطانِ مَنْ أشبَهَ النَّسرَ وحَوْلَهُ الجِيَفُ ، لا مَنْ أشبَهَ الجِيفَةَ وحَوْلَها النّسورُ . ولوْ أنّ الأسَدَ لم يَكُنْ في نَفسِهِ لي

---

١ الشبع ، بتحريك الباء وتسكينها : اسم لما يشبع .
٢ الخناق : داء يمتنع معه نفوذ النفس إلى الرئة والقلب (الدفتريا) .
٣ الري : اسم لما يروي .

إلاّ الخيرُ والرّحمةُ ، لَغيّرتْهُ كثرةُ الأقاويلِ ، فإنّها إذا كثُرتْ ، لم تلبثْ أنْ تُذهِبَ الرّقّةَ والرّأفةَ . ألا ترى أنّ الماءَ ليسَ كالقولِ ؟ وأنّ الحجرَ أشدُّ مِنَ الإنسانِ ؟ والماءُ ، إذا طالَ تَحدّرُهُ على الحجرِ الصّلدِ[1] ، لم يزلْ بهِ حتى يثقُبَهُ ويُؤثّرَ فيهِ ؟ وكذلكَ القولُ في الإنسانِ يُؤثّرُ فيهِ . قالَ دِمنةُ : فماذا تُريدُ أنْ تصنعَ ؟ قالَ شتربةُ : ما أرى إلاّ الاجتهادَ والمُجاهدةَ بالقتالِ ، فإنّهُ ، ليسَ للمُصلّي في صلاتِهِ ، ولا للمُتصدّقِ في صدقتِهِ ، ولا للورِعِ في ورعِهِ مِنَ الأجْرِ ما للمُجاهِدِ عنْ نفسِهِ ، إذا كانتْ مُجاهدتُه على الحقّ . فإنّهُ منْ جاهدَ عنْ نفسِهِ ودافعَ عنها كانَ أجرُهُ في ذلكَ عظيماً ، وذِكرُهُ رفيعاً ، إنْ ظفِرَ أو ظُفِرَ بهِ .

قالَ دِمنةُ : لا ينبغي لأحدٍ أنْ يُخاطِرَ بنفسِهِ ، وهوَ يستطيعُ غيرَ ذلكَ . ولكنّ ذا الرّأيِ جاعِلٌ القتالَ آخرَ الحِيلِ . وبادِىءٌ قبلَ ذلكَ بما استطاعَ مِنْ رِفْقٍ وتمحُّلٍ[2] . وقد قيلَ : لا تحقِرنّ العدوّ الضّعيفَ المَهينَ[3] ؛ ولا سيّما إذا كانَ ذا حيلةٍ ، ويقدِرُ على الأعوانِ ، فكيفَ بالأسدِ على جراءتِهِ وشِدّتِهِ . فإنّ منْ حقّرَ عدوّهُ لضُعفِهِ ، أصابَهُ ما أصابَ وكيلَ البحرِ[4] مِنَ الطّيطوَى[5] . قالَ شتربةُ : وكيفَ كانَ ذلكَ ؟

قالَ دِمنةُ : زعموا أنّ طائراً من طُيورِ البحرِ يُقالُ لهُ الطّيطوَى ، كانَ وطنُهُ على ساحلِ البحرِ ، ومعهُ زوجةٌ لهُ . فلمّا جاءَ أوانُ إفراخِهِما ، قالتِ الأُنثى للذّكرِ : لوِ التمسنا مكاناً حريزاً غيرَ هذا نُفرِخُ فيهِ ؛ فإنّني أخافُ مِنَ البحرِ ، إذا مدّ الماءُ ، أنْ يذهبَ بفِراخِنا . فقالَ لها : ما أراه

....

١ الصلد : الصلب الأملس .
٢ التمحل : الاحتيال .
٣ المهين : الحقير الذليل .
٤ وكيل البحر : المراد به إله البحر عند الهنود واسمه فاروتا (Varuna). والظاهر أن ابن المقفع لم يشأ أن يصرح باسمه لما فيه من وثنية ؛ وهو يريد أن يجعل كتابه ملائماً لروح الإسلام .
٥ الطيطوى : ضرب من القطا او غيره من طير البحر .

يَحملُ عليْنا ؛ فإنَّ وكيلَ البَحرِ يَخافُني أنْ أنتَقِمَ مِنهُ . فأفرخي في مكانِك ، فإنّهُ مُوافِقٌ لَنا ، والماءُ والزَّهرُ منّا قَريبٌ . قالَتْ لَهُ : يا غافِلُ ، ما أشَدَّ عِنادَكَ وتَصَلُّبَكَ ، أمَا تَذكُرُ وَعيدَهُ وتَهدُّدَهُ إيّاكَ ، ألا تَعرِفُ نَفسَكَ وقَدْرَكَ في وَعيدِ مَن لا طاقَةَ لكَ بهِ ؟ فأبَى أنْ يُطيعَها . فلَمّا أكثَرَتْ علَيهِ ، ولم يَسمَعْ قَولَها ، قالَتْ لهُ : إنَّ مَنْ لم يَسمَعْ قَولَ النّاصِحِ يُصيبُهُ ما أصابَ السُّلَحْفاةَ حينَ لم تَسمَعْ قَولَ البَطّتَينِ . قالَ الذَّكَرُ : وكيفَ كانَ ذلكَ ؟

قالَتِ الأُنثى : زَعَموا أنَّ غَديراً كانَ عندَهُ عُشبٌ . وكانَ فيهِ بَطّتانِ . وكانَ في الغَديرِ سُلَحفاةٌ ، بَينَها وبَينَ البَطّتَينِ مَوَدّةٌ وصَداقَةٌ . فاتّفَقَ أنْ غيضَ[1] ذلكَ الماءُ ، فجاءَتِ البَطّتانِ لوَداعِ السُّلَحفاةِ ، وقالَتا : السّلامُ علَيكِ ، فإنّنا ذاهبَتانِ عن هذا المَكانِ لأجلِ نُقصانِ الماءِ عَنهُ . فقالَتْ : إنّما يَبينُ نُقصانُ الماءِ على مثلِيَ التي كأنّي السَّفينَةُ ، لا أقدِرُ على العَيشِ إلاّ بالماءِ ، فأمّا أنتُما فتَقدِرانِ على العَيشِ حَيثُ كُنتُما ، فاذهَبَا بي مَعَكُما . قالَتا : نَعَمْ . قالَتْ : كيفَ السَّبيلُ إلى حَملي ؟ قالَتا : نأخُذُ بطَرَفَيْ عُودٍ ، وتَقبِضينَ بفِيكِ على وَسَطِهِ ، ونَطيرُ بكِ في الجوّ . وإيّاكِ ، إذا سَمِعتِ النّاسَ يتَكلّمونَ ، أن تَنطِقي ! ثمّ أخذَتاها فطارَتا في الجَوّ . فقالَ النّاسُ : عَجَبٌ ! سُلَحفاةٌ بَينَ بَطّتَينِ حَمَلَتاها ! فلَمّا سَمِعَتْ ذلكَ ، قالَتْ فَقَأ اللهُ أعيُنَكُمْ أيّها النّاسُ ! فلَمّا فتَحَتْ فاها بالنُّطقِ ، وقَعَتْ على الأرضِ فَماتَتْ .

قالَ الذَّكَرُ : قد سَمِعتُ مَقالَتَكِ ، فلا تَخافي وكيلَ البَحرِ . فلَمّا مَدَّ الماءُ دَنا وكيلُ البَحرِ ، فذَهَبَ بفِراخِهِما . فقالَتِ الأنثى : قد عَرَفتُ في بَدءِ الأمرِ أنّ هذا كائنٌ ، وما أصابَنا إنّما هوَ بتَفريطِكَ . قالَ الذّكَرُ : قد قُلتَ ما قُلتُ ، وأنا على قَولي ، وسَوفَ تَرَينَ صُنعي بهِ وانتِقامي منهُ . ثمّ مضَى إلى

[1] غيض : نقص ، بالبناء على المجهول ، كما يقال غاض الماء .

جَماعَةَ الطَّيرِ ، فقالَ لَهُنَّ : إنَّكُنَّ أخَواتي وثِقاتي ، فأعِنَّني . قُلنَ : ماذا تُريدُ أنْ نَفعَلَ ؟ قالَ : تَجتَمِعنَ وتَذهَبنَ مَعي إلى سائرِ الطَّيرِ ، فنَشكو إليهِنَّ ما لَقيتُ مِن وَكيلِ البَحرِ . ونَقولُ لَهُنَّ : إنَّكُنَّ طَيرٌ مِثلُنا ، فأعِنَّنا . فقالَتْ لَهُ جَماعةُ الطَّيرِ : إنَّ العَنقاءَ[1] بِنتَ الرِّيحِ[2] هيَ سَيِّدَتُنا ومَلِكَتُنا . فاذهَبْ بنا إليها ، حتى نَصيحَ بِها ، فتَظهَرَ لَنا ، فنَشكوَ إليها ما نالَكَ مِنْ وَكيلِ البَحرِ ، ونَسألَها أنْ تَنتَقِمَ لَنا مِنهُ بقُوَّةِ مُلكِها . ثمَّ إنَّهنَّ ذهَبنَ إليها معَ الطَّيطَوَى فاستَغَثنَها ، وصِحْنَ بها ، فتَراءَتْ لهُنَّ ؛ فأخبَرنَها بقِصَّتِهِنَّ . وسألنَها أنْ تَطيرَ مَعَهُنَّ إلى مُحارَبَةِ وَكيلِ البَحرِ . فأجابَتْهُنَّ إلى ذلكَ . فلَمَّا علِمَ وكيلُ البَحرِ أنَّ العَنقاءَ قَد قَصَدَته في جَماعةِ الطَّيرِ ، خافَ مِنْ مُحارَبَةِ مَلِكٍ لا طاقَةَ لَهُ بهِ . فرَدَّ فِراخَ الطَّيطَوَى وصالَحَهُ . فرَجَعَت العَنقاءُ عَنهُ .

وإنَّما حَدَّثتُكَ بذلكَ لتَعلَمَ أنَّ القِتالَ لا أراهُ لكَ رأياً . قالَ شَترَبَةُ : فَما أنا بمُقاتِلٍ الأسَدَ ، ولا ناصِبٍ لهُ العَداوَةَ سِرّاً ولا عَلانِيَةً ، ولا مُتَغَيِّرٍ لهُ عَمَّا كنتُ علَيهِ ، حتى يَبدوَ لي منهُ ما أتَخَوَّفُ فأُغالِبُهُ .

---

[1] العنقاء : طائر خرافي . جاء في القاموس : العنقاء طائر معروف الاسم مجهول الجسم ، أو طائر عظيم يبعد في طيرانه ؛ أو من الألفاظ الدالة على غير معنى . ويقال لها العنقاء المغرب . وعنقاء مغرب ومغربة ، وعنقاء مغرب مضافة .

[2] قوله . بنت الريح ، يدل على أنها في الأصل الهندي من الأرباب ؛ ولا يخفى ما بين الريح والبحر من العداء المستمر ، فهي تحاربه أبداً ، وتقلق راحته . ولذلك نرى إله البحر يخاف حينما يعلم أن العنقاء بنت عدوه الأبدي تريد محاربته ، فيرد إلى الطيطوى فراخه ويصالحه . وكان الهنود يعتقدون أن إله الريح طائر عظيم يسمونه ماتاريسفان (Matarisvan) ويزعمون أن الريح مخلوقة من اصطفاق جناحيه .

باب الحمامة المطوقة

قالَ دَبْشَليمُ المَلِكُ لبَيْدَبا الفَيْلَسوفِ : قَدْ سَمِعْتُ مَثَلَ المُتَحابَّيْنِ كيفَ قَطَعَ بَيْنَهُما الكَذوبُ ، وإلى ماذا صارَ عاقِبَةُ أمرِهِ مِن بَعْدِ ذلكَ . فحَدِّثْني ، إنْ رأيتَ ، عن إخوانِ الصَّفاءِ كيفَ يَبتَدِىءُ تَواصُلُهُمْ ، ويَستَمتِعُ بَعضُهُمْ ببَعضٍ ؟ قالَ الفَيْلَسوفُ : إنَّ العاقِلَ لا يَعدِلُ[1] بالإخوانِ شَيئاً . فالإخوانُ هُمُ الأعوانُ على الخَيرِ كُلِّهِ ، والمُؤاسُونَ عِندَما يَنُوبُ مِنَ المَكروهِ . ومِنْ أمثالِ ذلكَ مَثَلُ الحَمامَةِ المُطَوَّقَةِ[2] والجُرَذِ والسُّلَحفاةِ والظَّبْيِ والغُرابِ . قالَ المَلِكُ : وكيفَ كانَ ذلكَ ؟

قالَ بَيْدَبا : زَعَموا أنَّهُ كانَ بأرضِ سَكاوَنْدَجِينَ ، عِندَ مَدينَةِ داهَرَ ، مَكانٌ كَثيرُ الصَّيدِ يَنتابُهُ الصَّيّادونَ . وكانَ في ذلكَ المَكانِ شجَرَةٌ كثيرَةُ الأغصانِ مُلتَفَّةُ الوَرَقِ ، فيها وَكْرُ غُرابٍ . فبَيْنَما هوَ ذاتَ يومٍ ساقِطٌ في وَكْرِهِ ، إذْ بَصُرَ بصَيّادٍ قَبيحِ المَنظَرِ ، سَيِّىءِ الخُلُقِ ، وقُبحُ مَنظَرِهِ يَدُلُّ على سُوءِ مَخبَرِهِ ؛ على عاتِقِهِ[3] شَبَكَةٌ ، وفي يَدِهِ عَصاً ، مُقبِلاً نحوَ الشَّجَرَةِ . فذُعِرَ منهُ الغُرابُ . وقالَ : لقد ساقَ هذا الرَّجُلَ إلى هذا المَكانِ إمّا حَيْني[4] ، وإمّا حَيْنُ غَيري . فلأثْبُتَنَّ مَكاني حتى أنظُرَ ماذا يَصنَعُ . ثمَّ إنَّ الصَّيّادَ نَصَبَ شَبَكَتَهُ ، ونَثَرَ علَيها الحَبَّ ، وكَمَنَ قَريباً مِنها . فلَمْ يَلبَثْ إلاَّ قَليلاً حتى مَرَّتْ بهِ حَمامَةٌ يُقالُ لها المُطَوَّقَةُ ، وكانَتْ سَيِّدَةَ الحَمامِ ، ومَعَها حَمامٌ كَثيرٌ . فعَمِيَتْ هيَ وصاحِباتُها عَنِ الشَّرَكِ ، فوَقَعنَ على الحَبِّ يَلتَقِطنَهُ ، فعَلِقنَ في الشَّبَكَةِ كُلُّهُنَّ .

١ لا يعدل : لا يساوي .
٢ المطوقة : التي لها في عنقها من التلوين ما يشبه الطوق .
٣ العاتق : ما بين المنكب والعنق .
٤ الحين : الهلاك والمحنة .

وأقبَلَ الصيّادُ فَرِحاً مَسروراً. فجعَلَتْ كلُّ حَمامةٍ تتَلَجْلَجُ[1] في حَبائِلِها[2]، وتَلتَمِسُ الخَلاصَ لنَفسِها. قالَتِ المُطَوَّقةُ: لا تَخاذَلْنَ[3] في المُعالجَةِ، ولا تَكُنْ نَفسُ إحداكُنَّ أهمَّ إلَيها مِنْ نَفسِ صاحِبَتِها. ولكِن نَتَعاوَنُ جَميعاً ونَطيرُ كَطائرٍ واحدٍ، فيَنجو بَعضُنا ببَعضٍ. فجَمَعنَ أنفُسَهُنَّ، ووَثَبنَ وثبَةً واحدَةً، فقَلَعنَ الشَّبَكَةَ جَميعُهُنَّ بتَعاوُنِهِنَّ، وعَلَونَ بها في الجَوِّ. ولم يَقطَعِ الصيّادُ رَجاءَهُ مِنهُنَّ، وظَنَّ أنّهُنَّ لا يُجاوِزنَ إلاّ قَريباً حتى يَقَعنَ. فقالَ الغُرابُ: لأتبَعُهُنَّ وأنظرُ ما يَكونُ مِنهُنَّ.

فالتَفَتَتِ المُطَوَّقَةُ، فرأتِ الصيّادَ يَتبَعُهُنَّ، فقالَتْ للحَمامِ: هذا الصيّادُ جادٌّ في طَلَبِكُنَّ، فإنْ نحنُ أخَذنا في الفَضاءِ لم يَخفَ علَيهِ أمرُنا؛ وإنْ نحنُ تَوَجَّهنا إلى العُمرانِ خَفيَ علَيهِ أمرُنا وانصَرَفَ. وبمكانِ كذا جُرَذٌ هوَ لي أخٌ، فلَوِ انتَهَينا إلَيهِ قَطَعَ عنّا هذا الشَّرَكَ. ففَعَلنَ ذلكَ. وأيِسَ[4] الصيّادُ مِنهُنَّ وانصَرَفَ. وتَبِعَهُنَّ الغُرابُ ليَنظُرَ إلَيهِنَّ، لَعَلّهُ يتَعَلَّمُ مِنهُنَّ حيلَةً تَكونُ لَهُ عُدّةً عندَ الحاجَةِ. فلَمّا انتَهَتِ الحَمامَةُ المُطَوَّقةُ إلى الجُرَذِ، أمَرَتِ الحَمامَ أنْ يَقَعنَ، فوَقَعنَ.

وكانَ للجُرَذِ مائةُ جُحْرٍ[5] أعَدَّها للمَخاوفِ. فنادَتهُ المُطَوَّقَةُ باسمِهِ، وكانَ اسمُهُ زَيرَكَ، فأجابَها الجُرَذُ مِنْ جُحرِهِ: مَنْ أنتِ؟ قالَتْ: أنا خَليلَتُكَ المُطَوَّقَةُ. فأقبَلَ إلَيها الجُرَذُ يَسعَى، فقالَ لها: ما أوقَعَكِ في هذهِ الوَرْطَةِ[6]؟ قالَتْ لهُ: ألَمْ تَعلَمْ أنّهُ لَيسَ مِنَ الخَيرِ والشّرِّ شيءٌ إلاّ وَهوَ مُقَدَّرٌ على مَنْ تُصيبُهُ المَقاديرُ، وهيَ التي أوقَعَتني في هذهِ الوَرطَة

---

١ تتلجلج: أي تضطرب وتتردد، من تلجلج الكلام في الفم.
٢ الحبائل: الأشراك، مفردها حبالة.
٣ تخاذلن: على حذف إحدى التائين، والتخاذل: ضد التعاون.
٤ أيس منه: قطع رجاءه.
٥ الجحر: مختبأ الجرذ وغيره، يحتفره لنفسه.
٦ الورطة: الهلكة وكل أمر تعسر النجاة منه.

فقَدْ لا يَمتَنِعُ مِنَ القَدَرِ مَنْ هوَ أقوى منّي وأعظَمُ أمراً . وقد تَنكَسِفُ الشّمسُ ويَنخَسِفُ القَمَرُ ، إذا قُضيَ ذلكَ علَيهِما . ثمّ إنّ الجُرَذَ أخَذَ في قَرْضِ[1] العُقَدِ التي كانَتْ فيها المُطَوّقَةُ . فقالَتْ لهُ المُطَوّقَةُ : ابدأ بقَطْعِ عُقَدِ سائرِ الحَمامِ ، وبَعدَ ذلكَ أقبِلْ على عُقَدي . فأعادَتْ علَيهِ ذلكَ مِراراً ، وهوَ لا يَلتَفِتُ إلى قَولِها . فلَمّا أكثَرَتْ علَيهِ القَولَ وكَرّرَتْ ، قالَ لها : لقَدْ كَرّرتِ القَولَ عليّ ، كأنّكِ لَيسَ لكِ في نَفسِكِ حاجَةٌ ، ولا لكِ علَيها شَفَقَةٌ ، ولا تَرْعَينَ لها حَقّاً . قالَتِ المُطَوّقَةُ : لا تَلُمني على ما أمَرْتُكَ بهِ ، فإنّهُ لم يَحمِلْني على ذلكَ إلاّ أنّي تَكَلّفتُ بجَماعَةِ هذا الحَمامِ الرّئاسةَ ؛ فلذلكَ لَهنّ عليّ حَقّ ، وقَدْ أدّينَ إليّ حَقّي في الطّاعَةِ والنّصيحَةِ ؛ وبطاعَتِهِنّ ومَعونَتِهِنّ نَجّانا اللهُ مِنْ صاحبِ الشّرَكِ . وتَخَوّفتُ إنْ أنتَ بَدأتَ بقَطعِ عُقَدي ، أنْ تَمَلّ وتَكسَلَ عَن قَطعِ ما بَقيَ ؛ وعَرَفتُ أنّكَ ، إنْ بدأتَ بهِنّ قَبلي ، وكنتُ أنا الأخيرَةَ ، لم تَرضَ ، وإنْ أدرَكَكَ الفُتورُ ، أنْ أبقَى في الشّرَكِ . قالَ الجُرَذُ : هذا ممّا يَزيدُ الرّغبَةَ فيكِ والمَوَدّةَ لكِ . ثمّ إنّ الجُرَذَ أخَذَ في قَرْضِ الشّبَكَةِ ، حتّى فرَغَ مِنها . فانطَلَقَتِ المُطَوّقَةُ وحَمامُها مَعَها . فلَمّا رأى الغُرابُ صَنيعَ الجُرَذِ وتَخليصَهُ الحَمامَ ، رَغِبَ في مُصادَقَةِ الجُرَذِ ، وقالَ : ما أنا لمِثلِ ما أصابَ الحَمامَ بآمِنٍ ، ولا أنا عنِ الجُرَذِ ومَوَدّتِهِ بغَنيّ . . .

....

[1] القرض : القطع .

باب الناسك وابن عرس[1]

قالَ دَبْشَليمُ المَلِكُ لبَيدَبَا الفَيلَسوفِ : قَدْ سَمِعتُ هذا المَثَلَ ، فاضرِبْ لي مَثَلَ الرّجُلِ العَجْلانِ في أمْرِهِ مِنْ غَيرِ رَوِيّةٍ ولا نَظَرٍ في العَواقِبِ .

قالَ الفَيلَسوفُ : إنّهُ مَنْ لمْ يكُنْ في أمرِهِ مُتَثَبّتاً لم يَزَلْ نادِماً ، ويَصيرُ أمرُهُ إلى ما صارَ إلَيهِ النّاسِكُ مِنْ قَتْلِ ابنِ عِرْسٍ ، وقد كانَ لهُ وَدوداً .
قالَ المَلِكُ : وكيفَ كانَ ذلكَ ؟

قالَ الفَيلَسُوفُ : زَعَمُوا أنّ ناسِكاً مِنَ النُّسّاكِ كانَ بأرضِ جُرْجانَ . وكانَتْ لَهُ امرأةٌ صالحةٌ لَبِثَتْ عندَهُ زَماناً لا تَحمِلُ . ثمّ حَمَلَتْ بَعدَ الإيّاسِ[2] ، فَسُرّتِ المَرأةُ وسُرّ النّاسِكُ بذلكَ وحَمِدَ اللهَ تَعالى وسَألَهُ أنْ يَكُونَ الحَمْلُ[3] ذَكَراً . وقالَ لزَوجَتِهِ : أبْشِري ، فإنّي أرجو أنْ تَلِدي غُلاماً لَنا فيهِ مَتاعٌ[4] وقُرّةُ عَينٍ ؛ أختارُ لهُ أحسَنَ الأسماءِ ، وأُحضِرُ لهُ جَميعَ المُؤدّبينَ . فقالَتِ المَرأةُ : ما يَحمِلُكَ أيّها الرّجُلُ على أنْ تَتَكَلّمَ بما لا تَدري : أيَكُونُ أمْ لا ؟ ومَنْ فَعَلَ ذلكَ أصابَهُ ما أصابَ النّاسِكَ الذي أهْرَقَ[5] على رأسِهِ السّمنَ والعَسَلَ . قالَ لها : وكَيفَ كانَ ذلكَ ؟

قالَتِ المَرأةُ : زَعَمُوا أنّ ناسِكاً كانَ يُجرَى[6] علَيهِ مِنْ بَيتِ رَجُلٍ تاجِرٍ ، في كلّ يَومٍ ، رِزْقٌ مِنَ السّمنِ والعَسَلِ . وكانَ يأكُلُ منهُ قُوتَهُ

١ ابن عرس : دويبة أكبر من الفأرة وتشبهها ، الجمع بنات عرس .
٢ الإياس : قطع الرجاء .
٣ الحمل : الولد في البطن .
٤ متاع : منفعة .
٥ أهرق : صب .
٦ يقال : أجرى عليه الرزق : واصله به دون انقطاع .

وحاجَتَهُ ، ويرفعُ الباقيَ ويجعلُهُ في جرّةٍ ، فيُعلّقُها في وَتَدٍ ، في ناحيةِ البيتِ ، حتى امتلأتْ . فبينما النّاسكُ ، ذاتَ يومٍ ، مُستلقٍ على ظَهرِهِ ، والعُكّازةُ[1] في يدِهِ ، والجرّةُ مُعلّقةٌ فوقَ رأسِهِ ، تفكّرَ في غلاءِ السّمْنِ والعسلِ ، فقالَ : سأبيعُ ما في هذهِ الجرّةِ بدينارٍ ، وأشتري بهِ عشرَ أعنُزٍ[2] ، فيحبلْنَ ويلدنَ في كلّ خمسةِ أشهرٍ مرّةً ، ولا تلبثُ إلاّ قليلاً حتى تصيرَ معزاً كثيراً ، إذا ولدتْ أولادَها . ثمّ حرّرَ[3] على هذا النّحوِ بسنينَ ، فوجدَ ذلكَ أكثرَ مِن أربعِ مائةِ عنزٍ . فقالَ : أنا أشتري بها مائةً مِنَ البقرِ : بكُلّ أربعِ أعنُزٍ ثوراً أو بقرةً ، وأشتري أرضاً وبذْراً ، وأستأجرُ أكَرةً[4] ، وأزرعُ على الثّيرانِ ، وأنتفعُ بألبانِ الإناثِ ونتائجِها[5] . فلا تأتي عليّ خمسُ سنينَ إلاّ وقد أصبتُ مِنَ الزّرعِ مالاً كثيراً ، فأبني بيتاً فاخراً ، وأشتري إماءً[6] وعبيداً ، وأتزوّجُ امرأةً صالحةً جميلةً ؛ فتحملُ ثمّ تأتي بغلامٍ سويّ[7] نجيبٍ[8] ، فأختارُ لهُ أحسنَ الأسماءِ . فإذا ترعرعَ[9] أدّبتُهُ وأحسنتُ تأديبَهُ . وأشدّدُ عليهِ في ذلكَ ، فإنْ قبلَ منّي ، وإلاّ ضربتُهُ بهذهِ العُكّازةِ . وأشارَ بيدِهِ إلى الجرّةِ فكسّرَها ، فسالَ ما فيها على وجهِهِ .

وإنّما ضربتُ لكَ هذا المثَلَ لكَيْ لا تعجلَ بذِكْرِ ما لا ينبغي ذِكْرُهُ ، وما لا تدري : أيَصِحُّ أمْ لا يصِحّ ؟ ولكنِ ادعُ ربّكَ وتوسّلْ إليهِ وتوكّلْ عليهِ . فاتّعظَ النّاسكُ بقولِها . ثمّ إنّ المرأةَ ولدتْ غلاماً سويّاً ، فسُرّ بهِ أبوهُ . حتى إذا كانَ بعدَ أيّامٍ قالتِ المرأةُ لزوجِها : اقعُدْ عندَ ابنِكَ

١ العكازة : عصا طويلة ذات زج (حديدة) في أسفلها .
٢ الأعنز : جمع عنز وهي الأنثى من المعز .
٣ حرر : قوم وضبط .
٤ الأكرة : الحراثون ، مفردها آكار .
٥ نتائجها : أولادها .
٦ الإماء : الجواري ، مفردها أمة .
٧ السوي : التام الخلق الذي أحسنت تسويته .
٨ النجيب : الكريم الحسيب .
٩ ترعرع : نشأ .

حتى أذهبَ إلى الحمّامِ فأغتسلَ وأعودَ . ثمَّ إنّها انطلقَتْ إلى الحمّامِ ، وخلّفتْ زوجَها والغلامَ . فلَمْ يَلبثْ أنْ جاءَ رسولُ الملِكِ يستدعيه . ولمْ يجدْ مَنْ يُخلّفُهُ عندَ ابنِه غيرَ ابنِ عِرْسٍ داجنٍ عندَهُ ، كانَ قد ربّاهُ صغيراً ، فهوَ عندَهُ عديلُ[1] ولدِه . فتركَهُ النّاسكُ عندَ الصّبيّ ، وأغلقَ عليهما البابَ ، وذهبَ معَ الرّسولِ . فخرجَ من بعضِ أجحارِ[2] البيتِ حيّةٌ سوداءُ ، فدنَتْ مِنَ الغلامِ ، فضرَبها ابنُ عِرْسٍ ، فوثبَتْ عليه ، فقتلَها ثمّ قطّعَها ، وامتلأَ فمُهُ مِن دمِها . ثمّ جاءَ النّاسكُ وفتحَ البابَ ، فتلقّاهُ ابنُ عِرسٍ كالمُبَشّرِ لهُ بما صنَعَ من قتلِ الحيّةِ . فلمّا رآهُ مُلوّثاً بالدّمِ وهوَ مذعورٌ[3] ، طارَ عقلُهُ وظنّ أنّهُ قد خنَقَ ولدَهُ . ولم يتثبّتْ في أمرِه ولم يتروّ فيه ، حتى يعلَمَ حقيقةَ الحالِ ، ويعمَلَ بغيرِ ما ظنّ منْ ذلكَ . ولكنْ عجِلَ على ابنِ عِرْسٍ وضربَهُ بعُكّازةٍ كانَتْ في يدِه على أمّ رأسِه[4] ، فوقعَ ميتاً . ودخلَ النّاسكُ فرأى الغلامَ سليماً حيّاً ، وعندَهُ أسوَدُ[5] مُقطّعٌ . فلمّا عرفَ القِصّةَ وتبيّنَ لهُ سوءُ فعلِه في العجلةِ ، لطَمَ على رأسِه وقالَ : ليتَني لم أُرزَقْ هذا الولَدَ ولم أغدُرْ هذا الغدرَ . ودخلَتِ امرأتُهُ فوجدَتهُ على تلكَ الحالِ ، فقالَتْ لهُ : ما شأنُكَ ؟ فأخبرَها بالخبَرِ مِنْ حُسنِ فعلِ ابنِ عِرْسٍ وسوءِ مُكافأتِه لهُ . فقالَتْ : هذه ثمَرَةُ العجلَةِ ، لأنّ الأمرَ ، إذا فرَطَ[6] ، مِثلُ الكلامِ إذا خرَجَ ، والسّهمَ إذا مرَقَ[7] لا مرَدّ لهُ .

فهذا مثَلُ مَنْ لا يتثبّتُ في أمرِه ، بل يفعَلُ أغراضَهُ بالسّرعةِ .

١ عديل : مثل .
٢ الأجحار : جمع الجحر وهو ما تحتفره الحية وسواها لنفسها .
٣ مذعور : خائف .
٤ أم الرأس : الدماغ .
٥ الأسود : الحية العظيمة .
٦ فرط : سبق من غير روية .
٧ مرق السهم من الرمية : اخترقها ونفذ من الجانب الآخر .

الادب الصغير

تأديب النفس

وعلى العاقِلِ أنْ يَعرِفَ أنَّ الرَّأيَ والهَوَى مُتَعادِيانِ ، وأنَّ مِنْ شأنِ النّاسِ تَسويفَ[1] الرّأيِ وإسعافَ الهَوى : فيُخالِفَ[2] ذلكَ ويَلتَمِسَ انْ لا يَزالَ هَواهُ مُسَوَّفاً ورأيُهُ مُسْعَفاً .

وعلى العاقِلِ ، إذا اشتَبَهَ علَيهِ أمرانِ فلَم يَدرِ في أيّهِما الصَّوابُ ، أنْ يَنظُرَ أهْواهُما عِندَهُ فيَحذَرَهُ . مَنْ نَصَبَ نَفسَهُ للنّاسِ إماماً في الدّينِ فعَلَيهِ أنْ يَبدأ بتَعليمِ نَفسِهِ وتَقويمِها في السِّيرَةِ والطُّعمَةِ[3] والرَّأيِ واللَّفظِ والأخدانِ[4] فيَكونَ تَعليمُهُ بسيرَتِهِ أبلَغَ مِنْ تَعليمِهِ بلِسانِهِ . فإنّهُ ، كمَا أنَّ كَلامَ الحِكمَةِ يُونِقُ[5] الأسماعَ ، فكَذلكَ عَمَلُ الحِكمَةِ يَرُوقُ العُيونَ والقُلوبَ . ومُعَلِّمُ نَفسِهِ ومؤدِّبُها أحَقُّ بالإجلالِ والتَّفضيلِ مِنْ مُعَلِّمِ النّاسِ ومُؤدِّبِهِمْ .

رجل الدولة

لا يُستَطاعُ السّلطانُ[6] إلاّ بالوُزراءِ والأعوانِ ، ولا تَنفَعُ الوُزراءُ إلاّ بالمَوَدّةِ والنَّصيحَةِ ، ولا المَوَدّةُ إلاّ مَعَ الرّأيِ والعَفافِ . وأعمالُ السّلطانِ

١ تسويف : تأخير .
٢ فيخالف : معطوفة على أن يعرف .
٣ الطعمة : المأكل .
٤ الأخدان ، جمع خدن : الصاحب .
٥ يونق : يعجب .
٦ السلطان : السلطة

كثيرةٌ ، وقلّما تُستجمعُ الخصالُ المحمودةُ عندَ أحدٍ ، وإنّما الوجهُ في ذلكَ والسّبيلُ إليهِ الذي يستقيمُ بهِ العملُ أنْ يكونَ صاحبُ السّلطانِ عالماً بأمورِ مَنْ يُريدُ الاستعانةَ بهِ ، وما عندَ كلّ رجلٍ منَ الرّأيِ والغَناء[1] ، وما فيهِ منَ العيوبِ . فإذا استقرّ ذلكَ عندَهُ عن علمهِ وعلمِ مَنْ يأتمنُ ، وجّهَ لكلّ عملٍ مَنْ قد عرفَ أنّ عندَهُ منَ الرّأيِ والنّجدةِ[2] والأمانةِ ما يحتاجُ إليهِ فيهِ ؛ وأنّ ما فيهِ منَ العيوبِ لا يضرّ بذلكَ . ويتحفّظُ منْ أنْ يُوجّهَ أحداً وجْهاً لا يُحتاجُ فيهِ إلى مروءةٍ ، إنْ كانتْ عندَهُ ، ولا يأمَنُ عيُوبَهُ وما يُكرَهُ منهُ .

ثمّ على الملوكِ ، بعدَ ذلكَ ، تعهّدُ عمّالهمْ وتفقّدُ أمورهمْ ، حتّى لا يخفَى عليهمْ إحسانُ محسنٍ ولا إساءةُ مسيءٍ .

ثمّ عليهمْ ، بعدَ ذلكَ ، أنْ لا يتركُوا محسناً بغيرِ جزاءٍ ، ولا يُقرّوا مسيئاً ولا عاجزاً على الإساءةِ والعجزِ ؛ فإنّهمْ إنْ تركُوا ذلكَ تهاونَ المحسنُ ، واجترأ المسيءُ ، وفسدَ الأمرُ ، وضاعَ العملُ .

الكذب

رأسُ الذّنوبِ الكذبُ ، هوَ يؤسّسُها ، وهوَ يتفقّدُها ، ويُثبّتُها . ويتلوّنُ ثلاثةَ ألوانٍ : بالأمنيّةِ والجُحودِ[3] والجدلِ . يبدأُ صاحبُهُ بالأمنيّةِ الكاذبةِ فيما يُزيّنُ لهُ منَ السّوءاتِ ، فيُشجّعُهُ عليها بأنّ[4] ذلكَ سيخفَى . فإذا ظهرَ عليهِ قابلَهُ بالجُحودِ والمكابرةِ . فإنْ أعياهُ ذلكَ ختمَ بالجدلِ فخاصمَ عنِ الباطلِ ، ووضعَ لهُ الحُججَ ، والتمسَ بهِ التّثبّتَ ، وكابرَ الحقّ حتّى يكونَ مُسارعاً للضّلالةِ ومُكابراً بالفواحشِ .

١ الغناء : الكفاية .
٢ النجدة : الشجاعة ، والمضي في الأمور العسيرة .
٣ الجحود : النكران .
٤ بأن : الباء زائدة وحذفها أولى .

الجاهل

لا يُؤمِنَنّكَ شَرَّ الجاهِلِ قَرابَةٌ ولا جِوارٌ ولا إلفٌ . فإنَّ أخوَفَ ما يكونُ لحَريقِ النّارِ أقرَبُ ما يَكونُ منها . وكذلكَ الجاهلُ ، إنْ جاوَرَكَ أنصَبَكَ[١] ، وإنْ ناسَبَكَ[٢] جنى علَيكَ ، وإنْ ألِفَكَ حَمَلَ علَيكَ ما لا تُطيقُ ، وإنْ عاشَرَكَ آذاكَ وأخافَكَ . معَ أنّهُ عندَ الجوعِ سَبُعٌ ضارٍ ، وعِندَ الشِّبَعِ مَلِكٌ فَظّ ، وعندَ المُوافَقَةِ في الدّينِ قائِدٌ إلى جَهَنّمَ . فأنتَ بالهَرَبِ منهُ أحَقّ منكَ بالهَرَبِ مِنْ سُمِّ الأساوِدِ[٣] ، والحَريقِ المَخوفِ ، والدَّينِ الفادحِ ، والدّاءِ العَياءِ[٤] .

المال[٥]

ما التَّبَعُ[٦] والأعوانُ والصّديقُ والحَشَمُ[٧] إلاّ للمالِ . ولا يُظهِرُ المُرُوءَةَ إلاّ المالُ . ولا الرّأيُ والقُوّةُ إلاّ بالمالِ . ومَنْ لا إخوانَ لَهُ فلا أهلَ لَهُ . ومَنْ لا أولادَ لَهُ فلا ذِكْرَ لَهُ . ومَنْ لا عَقلَ لَهُ فلا دُنيا لَهُ ولا آخِرَةَ . ومَنْ لا مالَ لَهُ فلا شيءَ لهُ . والفَقرُ داعيَةٌ إلى صاحِبِهِ مَقْتَ[٨] النّاسِ ، وهوَ مَسلَبَةٌ للعَقْلِ ، ومَذهَبَةٌ للعِلْمِ والأدَبِ ، ومَعدِنٌ للتّهمَةِ ، ومَجمعةٌ للبَلايا . ومَنْ نَزَلَ بهِ الفَقرُ والفاقَةُ[٩] لم يَجِدْ بُدّاً مِن تَركِ الحَياءِ . ومَن

---

١ أنصبك : أعياك .
٢ ناسبك : تقرب إليك بصلة النسب .
٣ الأساود : جمع الأسود وهو الحية العظيمة .
٤ الداء العياء : أي الذي لا يبرأ منه .
٥ وردت هذه القطعة في باب الحمامة المطوقة من كتاب كليلة ودمنة مع بعض تغيير .
٦ التبع : التابع ، للواحد والجمع .
٧ الحشم : خاصة الرجل الذين يغضبون له من أهل وعبيد .
٨ المقت : الكره .
٩ الفاقة : الفقر والحاجة .

ذَهَبَ حَيَاؤُهُ ذهبَ سرُورُهُ ، ومَنْ ذَهَبَ سرورُهُ مُقِتَ ، ومَن مُقِتَ أُوذيَ ، ومَن أُوذيَ حَزِنَ ، ومَنْ حَزِنَ ذَهَبَ عَقْلُهُ واستُنكِرَ حِفظُهُ وفَهمُهُ ، ومَن أُصيبَ في عَقلِهِ وفَهمِهِ وحِفظِهِ كانَ أكثرُ قَولِهِ وعَمَلِهِ فيما يَكونُ عليهِ لا لَهُ . فإذا افتَقَرَ الرّجُلُ اتّهَمَهُ مَن كانَ لَهُ مُؤتَمِناً ، وأساءَ بهِ الظّنَّ مَن كانَ يَظُنُّ بهِ حَسَناً . فإن أذنَبَ غَيرُهُ أظَنّوه[1] ، وكانَ للتهمَةِ وسُوءِ الظّنِّ مَوضِعاً . وليسَ خَلّةٌ[2] هيَ للغَنيّ مَدْحٌ إلاّ هيَ للفَقيرِ عَيبٌ : فإنْ كانَ شُجاعاً سُمّيَ أهوَجَ ، وإنْ كانَ جَواداً سُمّيَ مُفسِداً ، وإنْ كانَ حَليماً سُمّيَ ضَعيفاً ، وإنْ كانَ وَقُوراً سُمّيَ بَليداً ، وإنْ كانَ لَسِناً سُمّيَ مِهْذاراً[3] ، وإنْ كانَ صَموتاً سُمّيَ عَيِيّاً .

....

١ أظنوه : اتهموه .
٢ الخلة : الخصلة .
٣ المهذار : كثير الرديء الساقط من الكلام .

الادب الكبير

أقسام الملك

إعْلَمْ أنَّ المُلْكَ ثَلاثَةٌ : مُلْكُ دِينٍ ومُلْكُ حَزْمٍ ومُلْكُ هَوًى . فأمّا مُلْكُ الدِّينِ فإنّهُ إذا أُقيمَ لأهلِهِ دينُهُمْ ، وكانَ دينُهُمْ هوَ الذي يُعطيهِمْ ما لَهُمْ ، ويُلحِقُ بهِمُ الذي عليهِم[1] ، أرضاهُمْ ذلكَ ، ونزّلَ السّاخِطُ مِنهُمْ مَنْزِلَةَ الرّاضي في الإقرارِ والتّسليمِ . وأمّا مُلْكُ الحَزْمِ فإنّهُ يَقومُ بهِ الأمرُ ، ولا يَسلَمُ مِنَ الطّعنِ والتّسَخّطِ . ولَنْ يَضُرَّ طَعنُ الذّليلِ معَ حَزْمِ القَويّ . وأمّا مُلْكُ الهوَى فلَعِبُ ساعةٍ ودَمارُ دَهرٍ .

الدولة الجديدة

إذا كانَ سُلطانُكَ[2] عندَ جِدّةِ[3] دَوْلَةٍ ، فرَأيتَ أمراً استقامَ بغَيرِ رأيٍ ، وأعواناً جَزَوا[4] بغَيرِ نَيلٍ[5] وعَمَلاً أنجَحَ[6] بغَيرِ حَزْمٍ ، فلا يَغُرّنّكَ ذلكَ ، فلا تَستَنِمْ[7] إليهِ . فإنّ الأمرَ الجَديدَ مِمّا تكونُ لهُ مَهابَةٌ في أنفُسِ أقوامٍ ، وحَلاوَةٌ في أنفُسِ آخَرينَ ، فيُعينُ قَومٌ بأنفُسِهِمْ ، ويُعينُ قَومٌ بما قِبَلَهُمْ[8] .

---

١ الذي عليهم : أي ما عليهم أن يؤدوا من المال للملك .
٢ السلطان : السلطة والولاية .
٣ الجدة : حالة الشيء الجديد .
٤ جزوا : كافأوا .
٥ النيل : العطاء .
٦ أنجح : نجح .
٧ استنام : اطمأن .
٨ قبلهم : أي عندهم .

ويَستَتِبَّ بذلكَ الأمرُ غيرَ طَويلٍ . ثمّ تَصيرُ الشّؤونُ إلى حقائقِها وأصولِها . فما كانَ منَ الأمرِ بُنيَ على غيرِ أركانٍ وثيقةٍ ، ولا عِمادٍ[1] مُحكَمٍ ،أوشكَ أنْ يتَداعى ويتَصدَّعَ .

صحبة والي السوء

إنِ ابتُليتَ بصُحبةِ والٍ لا يُريدُ صَلاحَ رعيّةٍ ، فاعلَمْ أنّكَ قد خُيِّرتَ بَينَ خَلّتَينِ[2] ليسَ بينَهُما خيارٌ[3] : إمّا مَيلُكَ معَ الوالي على الرّعيّةِ ، وهذا هَلاكُ الدّينِ ؛ وإمّا الميلُ معَ الرّعيّةِ على الوالي ، وهذا هَلاكُ الدّنيا ؛ ولا حيلةَ لكَ إلاّ بالموتِ أوِ الهرَبِ . واعلَمْ أنّهُ لا ينبَغي لكَ ، وإنْ كانَ الوالي غيرَ مَرضيِّ السّيرةِ إذا علِقتْ حِبالُكَ بحَبلِهِ ، إلاّ المُحافظةُ عليهِ إلاّ أنْ تَجِدَ إلى الفِراقِ الجَميلِ سَبيلاً .

مصانعة الملوك

لا تَكونَنّ صُحبتُكَ للمُلوكِ إلاّ بَعدَ رياضةٍ منكَ لنَفسِكَ على طاعتِهِم في المَكروهِ عندَكَ ، ومُوافَقتِهِمْ فيما خالَفَكَ ، وتَقديرِ الأمورِ على مَيلِهِمْ دونَ مَيْلِكَ ،وعلى أنْ لا تَكتُمَهُمْ سِرّكَ ،ولا تَستَطلِعَ ما كتَموهُ ،وتُخفيَ ما أطلَعوكَ عليهِ مِنَ النّاسِ كُلِّهِم ، حتّى تَحميَ نَفسَكَ الحَديثَ بهِ ؛ وعلى الاجتِهادِ في رِضاهُمْ ، والتّلَطّفِ[4] لحاجاتِهِمْ ، والتّثبيتِ لحُجّتِهِمْ ، والتّصديقِ لمَقالتِهِمْ ، والتّزيينِ لرأيِهِمْ ؛ وعلى قِلّةِ الاستِقباحِ لِما فعَلوا ، إذا أساؤوا ، وتَركِ الاستِحسانِ[5] لِما فعَلوا ، إذا أحسَنوا ، وكَثرَةِ النّشرِ

١ العماد : الأبنية الرفيعة ، يذكر ويؤنث ، مفرده عمادة .
٢ خلتين : خصلتين .
٣ ليس بينهما خيار : أي ليس بينهما اختيار لشيء سواهما .
٤ التلطف : الترفق .
٥ وترك الاستحسان : أي وعلى قلة ترك الاستحسان .

لمَحاسِنِهِمْ ، وحُسنِ السَّترِ لمَساوئِهِمْ ؛ والمُقارَبَةِ لمَن قارَبوا ، وإنْ كانَ بَعيداً ، والمُباعدَةِ لمَنْ باعَدوا ، وإن كانوا أقرِباءَ ؛ والاهتِمامِ بأمرِهِم ، وإنْ لم يَهتَمّوا بهِ ، والحِفظِ لهُ ، وإنْ ضَيّعوهُ ، والذّكرِ لهُ ، وإنْ نَسوهُ ؛ والتّخفيفِ عَنهُمْ لمَؤونَتِكَ ، والاحتِمالِ لَهم كلَّ مَؤونَةٍ ؛ والرّضَى عَنهم بالعَفوِ[1] ، وقِلّةِ الرّضَى مِنْ نَفسِكَ لهم بالمَجهودِ[2] . فإنْ وَجدتَ عَنهُمْ وعن صُحبَتِهِمْ غِنًى ، فأغنِ عن ذلكَ نَفسَكَ ، واعتَزِلهُ[3] جُهدَكَ . فإنّ مَن يأخُذُ عَمَلَهم يَحولُ بَينَهُ وبينَ لَذّةِ الدّنيا ، وعَمَلِ الآخرَةِ . ومَن لا يأخذُ بحَقّهِ[4] يَحتَمِلُ الفَضيحَةَ في الدّنيا ، والوِزرَ[5] في الآخرة . إنّكَ لا تأمَنُ أنفَهم[6]، إنْ أعلَمتَهُمْ[7] ، ولا عقوبَتَهُمْ ، إنْ كَتَمتَهُم. ولا تأمَنُ غَضَبَهم ، إنْ صَدَقتَهُمْ . ولا تأمَنُ سَلوَتَهم[8] ، إنْ حَدّثتَهُم . إنْ لَزِمتَهُم ، لم تأمَنْ تَبَرّمَهُمْ[9] بكَ . وإنْ زايَلتَهُمْ[10] لم تأمَنْ عِقابَهُم. إنّكَ إن تَستأمِرْهم[11] حَمّلتَ المَؤونَةَ علَيهِم ؛ وإن قطَعتَ الأمرَ دونَهُمْ لم تأمَنْ فيهِ مُخالفَتَهم . إنّهمْ إنْ سَخِطوا علَيكَ أهلَكوكَ . وإنْ رَضوا عَنكَ تَكَلّفتَ مِن رِضاهم ما لا تُطيقُ . فإن كنتَ حافِظاً إن بَلَوْكَ[12]، جَلْداً[13] إنْ قَرّبُوكَ ، أميناً إنِ

---

١ المراد : أن تظهر رضاك لأن عفوهم يشملك .
٢ أي أن لا تظهر الرضى عن نفسك مهما تبذل في خدمتهم من المجهود .
٣ واعتزله : أي اعتزل ذلك .
٤ بحقه : أي بحق عملهم .
٥ الوزر : الإثم .
٦ أنفهم : استكبارهم واستنكافهم .
٧ إن أعلمتهم : أي أعلمتهم الحق في عملهم الذي تتولى أمره .
٨ سلوتهم : نسيانهم إياك وتسليهم بسواك .
٩ تبرمهم : تضجرهم .
١٠ زايلتهم : فارقتهم .
١١ تستأمرهم : تشاورهم .
١٢ بلوك : جربوك .
١٣ جلداً : قوياً شديداً .

ائتَمَنُوكَ ، تَشكُرُهم ْ ولا تُكَلِّفُهُمُ الشُكرَ ، بَصيراً بأهوائِهِم ْ مُؤْثِراً لمَنافعِهم ، ذَليلاً إن ْ ظَلَموكَ ، راضياً إن ْ أسخَطوك ؛ وإلاّ فالبُعدَ منهُم كلَّ البُعدِ ، والحَذَرَ كلَّ الحَذَرِ .

باب الصديق

معاملة الناس

أُبذُلْ لصَديقِكَ دَمَكَ ومالَكَ ، ولمَعرِفَتِكَ[1] رِفدَكَ[2] ومَحضَرَكَ[3] . وللعامّةِ بِشرَكَ وتَحَنُّنَكَ . ولعَدوِّكَ عَدلَكَ . واضنِنْ[4] بدينِكَ وعِرْضِكَ عَن كلِّ أحَدٍ .

انتحال الكلام

إنْ سَمِعتَ مِنْ صاحِبِكَ كَلاماً أو رأياً يُعجِبُكَ ، فلا تَنتَحِلْهُ تَزَيُّناً بهِ عندَ النّاسِ ؛ واكتَفِ منَ التّزَيّنِ بأن تَجتَنيَ الصّوابَ ، إذا سَمِعتَهُ ، وتَنسُبَهُ إلى صاحبِهِ . واعلَمْ أنّ انتِحالَكَ ذاكَ سَخطَةٌ لصاحبِكَ ، وأنّ فيهِ ، معَ ذلكَ ، عاراً ؛ فإنْ بلَغَ ذلكَ بكَ أنْ تُشيرَ برأيِ الرّجلِ وتتَكَلَّمَ بكَلامِهِ ، وهوَ يَسمَعُ ، جَمَعتَ ، معَ الظّلمِ ، قِلّةَ الحَياءِ ؛ وهذا من سوءِ الأدَبِ الفاشي بَينَ النّاسِ . ومن تَمامِ حُسنِ الخُلُقِ والأدَبِ أنْ تَسخوَ

---

١ معرفتك : أي من تعرفه من الناس .
٢ رفدك : عطاءك .
٣ محضرك : حضورك .
٤ واضنن : وابخل .

نَفسُكَ لأخيكَ بما انتَحَلَ مِن كَلامِكَ ورأيكَ ، وتَنسُبَ إلَيهِ رأيَهُ وكلامَه ، وتُزَيّنَهُ ، معَ ذلكَ ، ما استَطَعتَ .

حسن الاستماع

تَعَلّمْ حُسنَ الاستِماعِ كَمَا تَتَعَلّمُ حُسنَ الكَلامِ . ومِن حُسنِ الاستِماعِ إمهالُ المُتَكَلّمِ حتّى يَقضيَ حَديثَهُ ، وقِلّةُ التَلَفّتِ إلى الجَوابِ ، والإقبالُ بالوَجهِ والنّظَرِ إلى المُتَكَلّمِ ، والوَعيُ[1] لِما يَقولُ .

من ادب المجالس

وإذا كنتَ في جَماعةِ قَومٍ أبَداً ، فلا تَعُمّنّ جيلاً منَ النّاسِ أو أُمّةً بشَتمٍ ولا ذَمٍ ، فإنّكَ لا تَدري ، لَعَلّكَ تَتَناوَلُ بَعضَ أعراضِ جُلَسائِكَ ولا تَعلَمُ[2] . ولا تَذُمّنّ ، معَ ذلكَ ، اسماً من أسماءِ الرّجالِ أوِ النّساءِ بأنْ تَقولَ : إنّ هذا لَقَبيحٌ منَ الأسماءِ ، فإنّكَ لا تَدري ، لَعَلّ ذلكَ مُوافِقٌ لبَعضِ جُلَسائِكَ في بَعضِ أسماءِ الأهلينَ والحُرَمِ[3] . ولا تَستَصغِرَنّ مِنْ هذا شَيْئاً ، فكُلّهُ يَجرَحُ في القَلبِ ، وجَرْحُ اللّسانِ أشَدُّ مِنْ جَرْحِ اليَدِ .

الاخلاق المحمودة

إنّي مُخبِرُكَ عن صاحبٍ كانَ أعظَمَ النّاسِ في عَيني . وكانَ رأسُ ما أعظَمَهُ عندي صِغَرَ الدّنيا في عَينِه . كانَ خارِجاً من سُلطانِ بَطنِه ، فلا يَشتَهي ما لا يَجِدُ ، ولا يُكثِرُ إذا وَجَدَ . وكانَ خارِجاً مِنْ سُلطانِ

... .

١ الوعي : الحفظ .
٢ ولا تعلم : جملة حالية أي حال كونك غير عالم بذلك .
٣ الحرم : الحريم .

الجَهالَةِ ، فلا يُقدِمُ إلاّ على ثِقَةٍ أو مَنفَعَةٍ . وكانَ أكثَرَ دَهرِهِ صامتاً ، فإذا قالَ بَذّ[1] القائلينَ . كانَ يُرَى مُتَضَعَّفاً[2] مُستَضعَفاً[3] ، فإذا جاءَ الجِدّ[4] ، فَهوَ كاللّيثِ عادِياً[5] . وكانَ لا يَدخُلُ في دَعوَى ، ولا يَشرَكُ[6] في مِراءٍ[7] ، ولا يُدلي بحُجّةٍ ، حتى يَجِدَ قاضياً عَدلاً وشُهوداً عُدولاً . وكانَ لا يَلومُ أحَداً على ما قَد يَكونُ العُذرُ في مِثلِهِ ، حتى يَعلَمَ ما اعتِذارُهُ . وكانَ لا يشكو وَجَعاً إلاّ إلى مَن يَرجو عِندَهُ البُرءَ ، ولا يَصحَبُ إلاّ مَنْ يَرجو عندَهُ النّصيحَةَ لهما[8] جَميعاً . وكانَ لا يتَبَرَّمُ ، ولا يَتَسخّطُ ، ولا يتَشَهّى ، ولا يتَشَكّى ، ولا يَنتَقِمُ منَ الوَليّ[9] ، ولا يَغفُلُ عَنِ العَدوّ ، ولا يَخُصّ نَفسَهُ ، دونَ إخوانِهِ ، بشيءٍ مِنِ اهتِمامِهِ بحيلَتِهِ[10] وقُوّتِهِ . فعَلَيكَ بهذه الأخلاقِ ، إنْ أطَقتَ ، ولنْ تُطيقَ ؛ ولكنّ أخذَ القَليلِ خَيرٌ مِنْ تَرْكِ الجَميعِ ، وباللهِ التّوفيقُ .

---

١ بذ : غلب .
٢ المتضعف : من تضعفه الناس أي عدوه ضعيفاً وتجبروا عليه .
٣ المستضعف : المعدود ضعيفاً .
٤ الجد : ضد الهزل .
٥ عادياً : ساطياً .
٦ يشرك : يشترك .
٧ مراء : جدال .
٨ لهما : أي للوجع والبرء .
٩ الولي : الصديق .
١٠ الحيلة : السياسة والتدبير .


To: www.al-mostafa.com

العصر العباسي الثاني

البحتري (٨٣٠ – ٨٩٧ م و ٢٠٥ – ٢٨٤ هـ)

ابن الرومي (٨٣٥ – ٨٩٦ م و ٢٢١ – ٢٨٣ هـ (؟))

الجاحظ (٧٧٥(؟) – ٨٦٨ م و ١٥٩ (؟) – ٢٥٥ هـ)

البحتري

المدح

وصف الموكب

قال يمدح المتوكل ، ويصف موكبه في عيد الفطر :

أَخْفِي هَوًى لكِ في الضّلوعِ ،وأُظهِرُ، وألامُ في كَمَدٍ علَيكِ ، وأُعذَرُ
وأراكِ خُنتِ، على النّوى، من لم يخُن عَهدَ الهوَى،وهَجَرتِ مَن لا يَهجُرُ
وطَلَبتُ مِنكِ مَوَدّةً لم أُعطَهـا ؛ إنّ المُعَنّى طالِبٌ لا يَظفَرُ[1]
هَل دَينُ عَلوَةَ يُستَطاعُ فيُقتَضَى ، أو ظُلمُ عَلوَةَ يَستَفيقُ فيَقصُرُ ؟[2]
بَيضاءُ يُعطيكَ القَضيبُ قوامَها ، ويُريكَ عَينَيها الغَزالُ الأحوَرُ[3]
تَمشي فتَحكُمُ في القُلوبِ بِدَلّها ، وتَميسُ ، في ظِلّ الشّبابِ، وتَخطِرُ[4]
وتَميلُ مِنْ لِينِ الصّبَى ، فيُقيمُها قَدٌّ ، يُؤنَّثُ تارَةً ، ويُذَكَّرُ[5]
إنّي ، وإنْ جانَبتُ بَعضَ بَطالَتي ، وتَوَهّمَ الواشُونَ أنّي مُقْصِرُ[6]

. . . .

١ المعنّى : المهموم المتعب ، من عناه الأمر : أنصبه .
٢ علوة الحلبية : صاحبة الشاعر . يَقصر ويُقصر : ينتهي .
٣ الأحور : هو الذي يكون في عينيه حور ، والحور اشتداد سواد العين وبياضها ، واستدارة حدقتها ورقة جفونها .
٤ تخطر : ترفع يديها في مشيتها وتضمهما .
٥ جعل أنوثة قدها في ميله وتثنيه وذكورته في استقامته .
٦ البطالة : الهزل في الحديث .

لَيَشوقُني سِحرُ العُيُونِ المُجتَلَى، ويَروقُني وَرْدُ الخُدودِ الأحمَرُ[1]
أللهُ مَكّنَ للخَليفَـةِ جَعفَرٍ مُلْكاً، يُحَسّنُهُ الخَليفَةُ جَعفَرُ[2]
نُعمَى منَ اللهِ اصطَفاهُ بفَضلِها، واللهُ يَرزُقُ مَنْ يَشاءُ ويَقدُرُ[3]
فاسلَمْ، أميرَ المُؤمنينَ، ولا تزَلْ تُعطَى الزّيادَةَ في البَقاءِ وتَشكُرُ[4]
عَمّتْ فَواضِلُكَ البَرِيّةَ، فالتَقَى فيها المُقِلُّ، على الغِنَى، والمُكثِرُ
بالبِرّ صُمتَ، وأنتَ أفضَلُ صائِمٍ، وبسُنّةِ اللهِ الرّضِيّـةِ تُفْطِرُ
فانعَمْ بيَومِ الفِطرِ عَيناً، إنّـهُ يَومٌ أغَرُّ، مِنَ الزّمانِ، مُشَهَّرُ
أظهَرتَ عِزَّ المُلْكِ، فيهِ، بجَحفَلٍ لَجِبٍ، يُحاطُ الدّينُ فيهِ ويُنصَرُ[5]
خِلنا الجِبالَ تَسيرُ فيهِ، وقد غدَتْ عُدَداً، يَسيرُ بها العَديدُ الأكثَرُ
فالخَيلُ تَصهَلُ، والفوارِسُ تدّعي، والبِيضُ تَلمَعُ، والأسِنّةُ تَزهَرُ[6]
والأرضُ خاشِعَةٌ تَميدُ بثِقلِها، والجَوّ مُعتَكِرُ الجَوانبِ أغبَرُ[7]
والشّمسُ ماتِعَةٌ، تَوَقّدُ بالضّحَى، طَوراً، ويُطفِئُها العَجاجُ الأكدَرُ[8]
حتى طَلَعتَ بضَوءِ وجهِكَ، فانجَلَتْ تلكَ الدّجَى، وانجابَ ذاكَ العِثيَرُ[9]
وافتَنّ فيكَ النّاظِرُونَ، فإصبَعٌ يُومَا إلَيكَ بها، وعَينٌ تَنظُرُ[10]

1 المجتلى : الذي ينظر إليه .
2 جعفر : اسم المتوكل على الله .
3 يقدر : يقسم ، أي يقسم الرزق .
4 في عجز البيت تلميح إلى آية القرآن : لئن شكرتم لأزيدنكم .
5 جحفل لجب : جيش كثير ذو جلبة .
6 تدعي : تذكر أنسابها زهواً وفخراً ، فيقول الفارس منهم : أنا فلان ابن فلان . تزهر : تتلألأ وتلمع .
7 تميد : تتحرك مضطربة . بثقلها : بحملها الثقيل ، أي موكب الخليفة . والجو معتكر الجوانب أغبر : أي من الغبار المنعقد .
8 ماتعة : مرتفعة . العجاج : الغبار .
9 انجاب : انكشف . العثير : الغبار .
10 افتن : بمعنى تفنن . وفي رواية : ورنا إليك : أي أدام النظر إليك بسكون الطرف .

يَتَجِدونَ رؤيَتَكَ التي فازوا بها مِنْ أنعُمِ اللهِ التي لا تُكفَرُ
ذَكَرُوا بطَلعَتِكَ النّبيّ ، فهَلّلوا لمّا طَلَعتَ منَ الصّفوفِ وكَبّرُوا
حتى انتَهَيتَ إلىَ المُصَلّى لابِساً نُورَ الهُدَى ، يَبدو علَيكَ ويَظهَرُ[1]
ومَشَيتَ مِشيَةَ خاشِعٍ ، مُتَواضِعٍ للهِ ، لا يُزهَى ولا يَتَكَبّرُ
فلَوَ انّ مُشتاقاً تَكَلّفَ غيرَ ما في وُسعِهِ ، لَسَعَى إلَيكَ المِنبَرُ[2]
أبدَيتَ مِن فَصلِ الخِطابِ بحِكمَةٍ ، تُنبي عنِ الحَقّ المُبينِ وتُخبِرُ[3]
ووقَفتَ في بُردِ النّبيّ مُذَكِّراً باللهِ ، تُنذِرُ تارَةً ، وتُبَشّرُ[4]
ومَواعِظٌ شَفَتِ الصّدورَ منَ الذي يَعتادُها ، وشِفاؤها مُتَعَذّرُ[5]
حتى لقَد عَلِمَ الجَهُولُ ، وأخلَصَتْ نَفسُ المُرَوّي ، واهتَدَى المُتَحَيّرُ[6]
صَلّوا وراءَكَ ، آخذينَ بعِصمَةٍ مِن رَبّهِمْ ، وبذِمّةٍ لا تُخفَرُ[7]
فاسلَمْ بمَغفِرَةِ الإلَهِ ، فلَمْ يزَلْ يَهَبُ الذّنوبَ ، لمَنْ يَشاءُ ، ويَغفِرُ[8]
أللهُ أعطاكَ المَحَبّةَ في الوَرَى ، وحَباكَ بالفَضلِ الذي لا يُنكَرُ
ولأنتَ أملأُ للعُيونِ لَدَيْهِمُ ، وأجَلُّ قَدراً ، في الصّدورِ ، وأكبَرُ[9]

---

١ المصلى : مكان الصلاة ، والمراد المسجد .
٢ الوسع : الجهد والطاقة ، يشير إلى آية القرآن : « لا يكلف الله نفساً إلا وسعها . »
٣ فصل الخطاب : أي الفصل بين الحق والباطل ، وعليه آية القرآن : « وآتيناه (أي سليمان) الحكمة وفصل الخطاب . »
٤ كان الخلفاء يلبسون البردة النبوية في العيدين الكبيرين .
٥ يعتادها : ينتابها ، أي ما ينتابها من الشك والحيرة .
٦ المروي : من يفكر في نفسه ، ويزوّر في القول والعمل .
٧ لا تخفر : لا ينقض عهدها .
٨ وهب له الذنب : سامحه به .
٩ لديهم : أي لدى الورى . وقوله : أملأ وأجل وأكبر : أي من سواك ، فلما صارت في موضع الخبر استغني عن من لقوة الخبر ، وخرجت مخرج الله أكبر للمبالغة والتعظيم .

وصف البركة

قال يمدح المتوكل ، ويصف بركته :

مِيلُوا إلى الدّارِ . مِن لَيلى ، نُحَيّيها ، نَعَمْ ، ونَسألُها عَن بَعضِ أهليهَا[1]
يا دِمنَةً . جاذَبَتْها الرّيحُ بَهجتَها ، تَبيتُ تَنشُرُها ، طَوْراً ، وتَطويها[2]
لا زِلتِ في حُلَلٍ ، للغَيثِ، ضافيَةٍ ، يُنيرُها البَرقُ ، أحياناً ، ويُسديها[3]
تَروحُ بالوابِلِ الدّاني رَوائِحُها ، على رُبُوعِكِ ، أو تَغدو غَواديها[4]
إنّ البَخيلَةَ لم تُنعِمْ لسائِلِها ، يَومَ الكَثيبِ ، ولم تَسمَعْ لداعيها[5]
مَرّتْ تأوّدُ ، في قُرْبٍ ، وفي بُعُدٍ ، فالهَجرُ يُبعِدُها ، والدّارُ تُدْنيها[6]

* * *

يا مَن رأى البِركةَ الحَسناءَ رُؤيَتُها ، والآنِساتِ ، إذا لاحَتْ مَغانيها[7]
بحَسبِها أنّها ، في فَضلِ رُتبَتِها ، تُعَدّ واحدَةً ، والبَحرُ ثانيها
ما بالُ دِجلَةَ كالغَيرَى تُنافِسُها في الحُسنِ ، طَوراً، وأطواراً تُباهيها
أمَا رأتْ كالىءَ الإسلامِ يَكْلَؤُها مِن أنْ تُعابَ ، وباني المَجدِ يَبنيها ؟[8]

. . . . .

١ من ليلى : أي الخالية من ليلى .
٢ الدمنة : ما اسود من آثار الدار بالبعر والرماد وغيرهما . يقول : إن الريح تهب عليها من جهات مختلفة ، فحيناً تكشف التراب عن رسومها ، وحيناً تغطيها .
٣ الحلل : الثياب لها بطانة ، مفردها حلة ، والمراد هنا بالثياب : الغيوم . ينيرها : يمد خيوطها عرضاً . يسديها : يمد خيوطها طولا .
٤ الروائح : غيوم المساء . الغوادي : غيوم الصباح .
٥ البخيلة : حبيبته . الكثيب : المرتفع من التل ، وقوله : يوم الكثيب : أي يوم رآها هناك .
٦ تأود : تتثنى .
٧ رؤيتها : فاعل الحسناء . المغاني : المنازل ، واحدها مغنى . والظاهر أنه كان حول البركة بيوت لاغتسال الجواري .
٨ الكالىء : المانع والحارس . وكالىء الإسلام : الخليفة .

كأنّ جنّ سُليمانَ الذينَ وَلُوا ... إبداعَها ، فأدقّوا في مَعانيها[1]

فلَوْ تَمُرّ بها بِلْقيسُ عَن عُرُضٍ ... قالتْ : «هيَ الصّرْحُ» تَمثيلاً وتَشبيها[2]

تَنصَبّ فيها وُفودُ الماءِ مُعجِلَةً ، ... كالخَيلِ جاريَةً مِن حَبْلِ مُجريها

كأنّما الفضّةُ البَيضاءُ سائلَةً ... مِنَ السّبائكِ تَجري في مَجاريها

إذا عَلَتها الصَّبا ، أبدَتْ لَها حُبُكاً ... مثلَ الجَواشِنِ ، مَصقُولاً حَواشيها[3]

فحاجبُ الشّمسِ ، أحياناً، يُضاحِكُها، ... ورَيّقُ الغَيثِ ، أحياناً ، يُباكيها

إذا النّجومُ تَراءَتْ في جَوانبِها ... لَيلاً ، حَسِبتَ سَماءً رُكّبتْ فيها

لا يَبلُغُ السّمَكُ المَحصورُ غايتَها ، ... لبُعدِ ما بَينَ قاصِيها ودانيها[4]

يَعُمْنَ فيها بأوساطٍ مُجَنَّحَةٍ ، ... كالطّيرِ تَنقَضّ في جَوٍّ خَوافيها[5]

لَهنّ صَحنٌ رَحيبٌ في أسافِلِها ، ... إذا انحطَطْنَ ، وبَهوٌ في أعاليها[6]

صُورٌ إلى صُورَةِ الدُّلْفينِ ، يُؤنِسُها ... منهُ انزِواءٌ بعَينَيهِ ، يُوازيها[7]

١ الذين : خبر كأن لا نعت الجن . ولوا : من ولي الأمر أي تولاه .

٢ بلقيس : ملكة سبأ وكانت معاصرة لسليمان الحكيم . وفدت عليه من اليمن لتسمع حكمته . وتقول الرواية العربية إن سليمان كان يسخر الجن فتطيعه . فأمرهم أن يبنوا له صرحاً يستقبلها فيه . فبنوا صرحاً من قوارير أخضر ، وجعلوا له طوابيق (قطع الآجر الكبير) من قوارير كأنها الماء . وجعلوا في باطن الطوابيق صوراً من أجناس سمك البحر ودوابه . ثم أطبقوه . فلما دخلت بلقيس ، حسبته لجة وماء فرفعت ثيابها . فالشاعر يشبه بركة المتوكل في جمالها ودقة صنعها بصرح سليمان . عن عرض : من جانب .

٣ الحبك : تجعد الماء وتكسره ، واحدتها حبيكة . الجواشن : الدروع ، مفردها جوشن .

٤ غايتها : نهايتها .

٥ الخوافي : الريش الصغار في جناح الطائر بعد القوادم ، مفردها خافية . شبه أجنحة السمك النابتة في أوساطها بخوافي الطير حين تنقض كاسرة أجنحتها للانحدار .

٦ الصحن : الساحة . البهو : البيت الواسع .

٧ صور : مائلة بوجهها وأعناقها . الدلفين : دابة بحرية ، كان يعتقد الأقدمون أنها صديقة للإنسان تنجيه من الغرق . الانزواء : الانحراف . يوازيها : يجاريها . يقول : إن السمك تمر مائلة بأنظارها إلى صورة الدلفين المنقوشة على جدار البركة خشية منه أن يسطو عليها . ولكنها تستأنس في مرورها ، لأن نظره منحرف عنها يرافقها في انحرافه ، فلا يقع عليها .

تَغنى بَساتينُها القُصوى برُؤيَتِها ، عَنِ السّحائبِ ، مُنحلاً عَزاليها[1]

كأنّها ، حينَ لَجّتْ في تَدَفّقِها ، يَدُ الخَليفَةِ ، لمّا سالَ واديها[2]

وزادَها رُتبَةً ، مِن بَعدِ رُتبَتِها ، أنّ اسمَهُ ، يومَ يُدعى ، من أساميها[3]

مَحفوفَةٌ برِياضٍ ، لا تَزالُ تَرَى ريشَ الطّواويسِ ، تَحكيهِ ، ويَحكيها

ودَكّتَينِ كَمِثلِ الشّعرَيَينِ ، غَدَتْ إحداهُما بإزا الأُخرَى ، تُساميها[4]

إذا مَساعي أميرِ المُؤمنينَ بَدَتْ للواصِفينَ ، فلا وَصفٌ يُدانيها[5]

إنّ الخِلافَةَ ، لمّا اهتزّ مِنبَرُها بجَعفَرٍ ، أُعطِيَتْ أقصَى أمانيها

أبدَى التّواضُعَ ، لَمّا نالَها ، دَعَةً عَنها ، ونالَتْهُ ، فاختالَتْ بهِ تيها[6]

إذا تَحَلّتْ لهُ الدّنيا بحِليَتِها ، رأتْ مَحاسِنَها الدّنيا مَساويها[7]

يا ابنَ الأباطحِ ، من أرضٍ ، أباطِحُها ، في ذِروَةِ المَجدِ ، أعلى مِن رَوابيها[8]

ما ضَيّعَ اللهُ ، في بَدوٍ وفي حَضَرٍ ، رَعيّةً ، أنتَ بالإحسانِ راعيها

....

١ العزالي : جمع عزلاء وهي مصب الماء من القربة . يقال : أنزلت السماء عزاليها ، إشارة إلى شدة المطر على التشبيه بنزوله من أفواه القرب . وقوله : منحلا عزاليها ، أي منحلا عقدها فتدفق ماؤها .

٢ واديها : الضمير يعود إلى يد الخليفة . والوادي هنا كناية عن باطن الكف . وقوله : سال ، أي سال بالعطاء .

٣ اسم المتوكل جعفر ، ومعنى جعفر : النهر . فاسم البركة مشرف باسم الخليفة على اعتبار أنها نهر .

٤ الدكة : بناء يسطح أعلاه للجلوس عليه . الشعريان : كوكبان متقابلان يقال لأحدهما الشعرى العبور ، وللثاني الشعرى الغميصاء . بإزا الأخرى ، أي بإزائها : بمقابلها . يقول : إن بجانبي البركة دكتين للجلوس متقابلتين كالشعريين ، تتنافسان بالاتقان والجمال . وقوله : ودكتين : معطوفة على رياض .

٥ المساعي : المكارم والمعالي في أنواع المجد ، مفردها مسعاة .

٦ دعة عنها : أي سعة وغنى .

٧ أي رأت الدنيا محاسنها مساوىء أمام محاسنه .

٨ الأباطح : جمع الأبطح ، ومؤنثه البطحاء ، وهو المسيل الواسع فيه دقاق الحصى ، أو الأرض السهلة مما جرته السيول من التراب . ومن ذلك قالوا : قريش البطاح ، وهم الذين ينزلون في أباطح مكة أو بطحائها ، وهم أشرف قريش ، والعباسيون منهم . ودونهم قريش الظواهر ، وهم الذين ينزلون بظهر مكة حيث تغلظ الأرض وترتفع . ولذلك قال الشاعر : أباطحها في ذروة المجد أعلى من روابيها .

وأمّةً ، كانَ قُبحُ الجَوْرِ يُسخِطُها دَهراً، فأصبحَ حُسنُ العدلِ يُرضيها

بَثَثتَ فيها عَطاءً ، زادَ في عَـددِ العَليا ، ونَوّهتَ باسمِ المَجدِ تَنويها

ما زِلتَ بَحراً لِعافينا ، فكَيفَ وقد قابلْتَنا ، ولكَ الدّنيا وما فيها[1]

أعطاكَها اللهُ عَن حَقٍّ ، رآكَ لَهُ أهلاً ، وأنتَ بحَقّ اللهِ تُعطيها[2]

وصف الكامل

من قصيدة يمدح بها المعتز بن المتوكل ، ويصف قصره « الكامل » :

لَمّا كَمَلتَ رَويّةً وعَزيمةً ، أعمَلتَ رأيَكَ في ابتِناءِ الكامِلِ

وغدَوتَ ، من بينِ الملوكِ ، موَفَّقاً منهُ لأيمَنِ حِلّـةٍ ومَنازِلِ[3]

ذُعِرَ الحَمامُ ، وقد ترَنّمَ فوقَهُ ، من مَنظَرٍ خَطِرِ المَزَلّةِ هائِلِ

رُفِعَتْ لمُختَرَقِ الرّياحِ سُمُوكُهُ ، وزَهتْ عَجائبُ حُسنِهِ المُتَخايِلِ[4]

وكأنّ حيطانَ الزّجاجِ ، بجَوّهِ ، لُجَجٌ يَمُجنَ على جُنوبِ سَواحلِ

وكأنّ تَفويفَ الرّخامِ ، إذا التَقَى تأليفُهُ بالمَنظَرِ المُتَقابِلِ[5]

حُبُكُ الغَمامِ ،رُصِفنَ بينَ مُنمَّرٍ ، ومُسَيَّرٍ ، ومُقارِبٍ ، ومُشاكِلِ[6]

لبستْ ،من الذّهبِ الصّقيلِ ،سقوفُهُ نوراً، يُضيءُ على الظّلامِ الحافلِ[7]

---

١ العافي : طالب المعروف .

٢ قوله : وأنت بحق الله تعطيها ، أي أن عطاياه لا يبذلها في سبيل التبذير والإسراف ، بل هي في سبيل الله ، زكوات وصدقات يفيد منها ذوو الحاجات .

٣ الحلة : هيئة الحلول ، وجماعة بيوت الناس ، والمجلس والمجتمع .

٤ سموكه : السقوف ، مفردها سمك . المتخايل : المتكبر .

٥ التفويف : التوشية والزخرف ، أصله من الفوف وهو نقط بياض في أظفار الأحداث ، الواحدة فوفة.

٦ حبك الغمام : تجعده ، واحدته حبيكة ، والفاعل في رصفن يرجع إلى حبك . منمر : منقط . مسير : له خطوط . مقارب : وسط ، أي بين المنمر والمسير . مشاكل : مشابه مماثل .

٧ الحافل : المجتمع .

فترى العيونَ يجُلنَ في ذي رَونَقٍ ، مُتَلَهِّبِ العالي ، أنيقِ السّافلِ
وكأنّما نُشرَتْ على بُستانِهِ سِيراءُ وَشْيِ اليُمنَةِ المُتَواصِلِ[1]
أغنَتهُ دِجلةُ ، إذ تَلاحقَ فَيضُها ، عن صَوبِ مُنسجِمِ الرّبابِ الهاطلِ[2]
وتَنَفّسَتْ فيهِ الصَّبَا ، فتَعَطّفَتْ أشجارُهُ ، مِنْ حُوّلٍ وحَوامِلِ[3]
مَشْيَ العَذارى الغيدِ ، رُحنَ عشيّةً من بَينِ حاليةِ اليَدينِ وعاطِلِ[4]

وصف الأسد

من قصيدة يمدح بها الفتح بن خاقان وزير المتوكل ، ويذكر مبارزته للأسد :

غَداةَ لَقيتَ اللّيثَ ، واللّيثُ مُخدِرٌ ، يُحَدِّدُ ناباً للّقاءِ ، ومِخلَبَا[5]
يُحَصّنُهُ ، مِن نَهرِ نَيْزَكَ ، مَعقِلٌ مَنيعٌ . تَسامَى رَوضُهُ . وتأشّبَا[6]
يَرودُ مَغاراً بالظّواهِرِ مُكْثِباً ، ويَحتَلُّ رَوضاً بالأباطِحِ مُعشِبَا[7]
يُلاعِبُ فيهِ أقحُواناً مُفَضَّضاً يَبِصُ ، وحَوذاناً ، على الماءِ ، مُذهَبَا[8]

١ السيراء : نوع من البرود فيه خطوط . اليمنة : البرد اليمني . المتواصل : نعت وشي . يشبه أزهار البستان بالبرود اليمنية الموشاة .
٢ أغنته : ضمير النصب يعود إلى البستان . الصوب : مجيء السماء بالمطر . المنسجم : القاطر السائل الرباب : السحاب ، واحدته ربابة . الهاطل : المتتابع من المطر ، العظيم القدر .
٣ الحول : الشجر الذي لا يحمل ، واحدتها : حائل .
٤ مشي : نائب عن المفعول المطلق من قوله : وتعطفت أشجاره . العاطل : ضد الحالية . شبه تعطف الأشجار بمشي العذارى الغيد ، والشجرة الحاملة بالغادة الحالية اليدين ، والشجرة الحائل بالغادة العاطل من الحلي .
٥ المخدر بفتح الدال وكسرها : الأسد الممتنع في عرينه . المخلب : ظفر كل سبع من الماشي والطائر .
٦ تأشب : أي التف شجر الروض .
٧ يرود : يطلب . المغار : المغارة . الظواهر : الأراضي الغليظة المرتفعة . وقوله : مكثباً أي مكثباً صيده . يقال : أكثبك الصيد : دنا منك وأمكنك لترميه . والمراد أن هذا المكان متوفر فيه الصيد للأسد . الأباطح ، جمع الأبطح : المسيل الواسع فيه دقاق الحصى أو الأرض السهلة مما جرته السيول من التراب .
٨ الأقحوان : نبت أصفر الزهر في وسطه وحواليه ورق أبيض . يبص : يبرق ويلمع . الحوذان : نبت زهره أصفر . مذهب : أي بلون الذهب ، من أذهبه : طلاه بالذهب .

إذا شاءَ غادَى عانَةً ، أو غَـدا على ... عَقائِلِ سِرْبٍ ، إنْ تَقَنَّصَ رَبْرَبَا[1]

يَجُرُّ إلى أشبالِـهِ ، كلَّ شارِقٍ ، ... عَبيطاً مُدَمًّى ، أو رَميلاً مُخَضَّبَا[2]

ومَن يَبغِ ظُلماً في حريمكَ ، يَنصرِفْ ... إلى تَلَفٍ ، أو يُثْنَ خَزْيانَ أخيَبَا[3]

شَهِدتُ ، لقَد أنصَفتَهُ يَومَ تَنبَري ، ... لهُ ، مُصلِتاً عَضباً منَ البِيضِ مِقضَبَا[4]

فلَم أرَ ضِرغامَينِ أصدَقَ مِنكُما ... عِراكاً ، إذا الهَيّابَةُ النِّكسُ كَذّبَا[5]

هِزَبرٌ مَشَى يَبغي هِزَبراً ، وأغلَبٌ ، ... منَ القَومِ ، يَغشَى باسلَ الوَجهِ أغلَبَا[6]

أدَلَّ بشَغبٍ ، ثمّ هالَتْهُ صَوْلَةٌ ، ... رآكَ لها أمضَى جَناناً وأشغَبَا[7]

فأحجَمَ ، لمّا لم يَجِدْ فيكَ مَطمَعاً ؛ ... وأقدَمَ لمّا لم يَجِدْ عَنكَ مَهرَبَا

فلَمْ يُغنِهِ أنْ كَرّ نَحوَكَ مُقبِلاً ؛ ... ولم يُنجِهِ أنْ حادَ عَنكَ مُنَكِّبَا[8]

حَمَلتَ علَيهِ السّيفَ ، لا عزمُكَ انثنى ، ... ولا يَدُكَ ارتَدّتْ ، ولا حَدُّهُ نَبَا

وكنتَ ، متى تَجمَعْ يَمينَكَ ، تَهتِكِ الضّريبةَ ، أو لا تُبقِ للسّيفِ مَضرِبَا[9]

....

١ غادى : باكر . العانة : القطيع من حمر الوحش . العقائل ، جمع عقيلة : وهي الكريمة من كل شيء . السرب : القطيع . تقنص : تصيد . الربرب : القطيع من بقر الوحش .

٢ العبيط : اللحم الطري بدمه . الرميل : المخضب بالدم ، والمراد وحش مخضب بالدم .

٣ الحريم : كل شيء تحميه وتدافع عنه . يريد أن هذه الوحوش التي افترسها الأسد كانت في حمى الفتح .

٤ انبرى له : اعترض . مصلتاً : مجرداً . العضب : السيف . البيض : السيوف ، واحدها أبيض . مقضب : السيف القطاع . وقوله : لقد أنصفته : يريد أن الأسد له سلاح من أنيابه وبراثنه ، فمن الانصاف أن يبارزه خصمه بالسيف .

٥ ضرغامين : أسدين . النكس : الضعيف الدنيء المقصر عن غاية المجد والكرم . كذب : جبن فلم يقدم على القتال .

٦ الهزبر : الأسد ، ويريد به الممدوح . الأغلب : الأسد . يغشى : يأتي . الباسل : الكريه ، والمراد وجه الأسد .

٧ أدل : يقال أدل على أقرانه : جاءهم من عل . الشغب : تهييج الشر وكثرة الجلبة . الصولة : السطوة . الجنان : القلب .

٨ منكباً : متنحياً .

٩ تجمع يمينك : أي تجمع أصابعها وتضمها على قبضة السيف . هتك : شق وفضح . الضريبة : الرجل المضروب بالسيف . المضرب : حد السيف .

الرثاء

رثاء المتوكل

من قصيدة يرثي بها المتوكل على الله ويذكر مصرعه سنة ٨٦١ م :

صَريعٌ تَقاضاهُ السّيوفُ حُشاشَةً ، يَجُودُ بها ، والموتُ حُمرٌ أظافِرُهْ

أُدافِعُ عَنهُ باليَدَينِ ، ولم يكُنْ ليَثْني الأعادي أعزَلُ اللّيلِ حاسِرُهْ[1]

ولو كانَ سَيفي ، ساعةَ الفَتْكِ ، في يدي ، درَى الفاتكُ العَجلانُ كيفَ أُساوِرُهْ[2]

حَرامٌ عَليّ الرّاحُ بَعدَكَ ، أو أرى دَماً بدَمٍ ، يَجري على الأرضِ مائِرُهْ[3]

وهل أرتَجي أنْ يَطلُبَ الدّمَ واتِرٌ ، يَدَ الدّهرِ ، والمَوتورُ بالدّمِ واتِرُهْ[4]

أكانَ وَليُّ العَهدِ أضمَرَ غَدرَةً ، فمِنْ عَجَبٍ أنْ وُلّيَ العَهدَ غادِرُهْ

فلا مُلّيَ الباقي تُراثَ الذي مضَى ، ولا حَمَلَتْ ذاكَ الدّعاءَ مَنابِرُهْ[5]

---

١ الاعزل : من لا سلاح معه . حاسر : منكشف لا مغفر معه ولا درع ولا ترس .

٢ اساوره : اواثبه .

٣ دماً بدم : الباء باء البدل اي دماً يراق بدلاً من دم أريق . المائر : السائل من الدم .

٤ الواتر : من أوقع بغيره مكروهاً واصابه بثأر . وفي رواية يطلب الدم طالب . يد الدهر : في رواية مدى الدهر والمعنى واحد . الموتور : من قتل له حميم فلم يدرك بدمه . ويريد بالموتور الواتر المنتصر ولي العهد .

٥ مسلي : متع به . الدعاء : أي الدعاء للخليفة على المنابر .

اغراض مختلفة

من قصيدة يفتخر بها ، ويصف ذئباً لقيه في البادية :

وليلٍ ، كأنّ الصبحَ، في أُخرياتِه ، حُشاشةُ نَصلٍ ، ضمّ إفرندَهُ غِمدُ[1]

تَسَربلتُهُ ، والذئبُ وَسنانُ هاجعٌ ، بعَينِ ابنِ لَيلٍ ما لهُ بالكَرى عَهدُ[2]

أُثيرُ القَطا الكُدريَّ عَن جثَماتِهِ ، وتأْلَفُني فيهِ الثّعالبُ والرُّبْدُ[3]

وأطلَسَ ملءِ العَينِ ، يَحمِلُ زَورَهُ وأضلاعَهُ ، من جانبَيهِ ، شَوًى نَهدُ[4]

لهُ ذَنَبٌ مثلُ الرِّشاءِ يَجُرُّهُ ، ومَتنٌ كَمَتنِ القَوسِ أعوَجُ مُنْأدُ[5]

طَواهُ الطَّوى (الجوع) ، حتى استَمَرّ مَريرُهُ ، فَما فيهِ إلاّ العَظمُ والرّوحُ والجِلدُ[6]

---

١ الأخريات : هنا بمعنى الأواخر . تقول : جاء في أخريات الناس أي في أواخرهم ، من غير نظر إلى معنى الصفة لأن أخريات في الأصل جمع أخرى. حشاشة نصل : أي بقيته. الإفرند: جوهر السيف ووشيه. يقول : إن أوائل خيط الصبح في بياضه ، يحيط به ظلام الليل ، يشبه بقية نصل سيف ضمه الغمد .

٢ تسربل الليل : لبس ظلامه سارياً فيه . ابن الليل : اللص . أي سرى ضارباً بعين لص ألفت الظلمة ، ولا تعرف النوم ليلا في حين يكون الذئب نائماً .

٣ القطا : طير تسير جماعات . وهي أسرع الطيور وأهداها إلى الماء . الكدري : ضرب من القطا ، غبر الألوان ، رقش الظهور ، صفر الحلوق ، قصار الأرجل ، سود بواطن الأجنحة ، في ذنب كل منها ريشتان أطول من سائر ريشه . الجثمات ، جمع الجثمة : الأكمة ، أي المكان الذي تجثم فيه القطا ، أي تلزمه ساكنة . وتألفني فيه : أي في الليل . الربد : الحيات الخبيثة ، واحدها الأربد .

٤ الأطلس : الذئب الأمعط ، في لونه غبرة ضاربة إلى السواد . الزور : وسط الصدر ، والمراد هنا الصدر على الإطلاق . الشوى : اليدان والرجلان . النهد : المرتفع . أي أن هذا الذئب تحمل جسمه قوائم مرتفعة ، فيملأ عين من يراه .

٥ الرشاء : الحبل ، أو حبل الدلو . المتن : الظهر . منأد : منحن .

٦ الطوى : الجوع . وطواه الطوى : جعله الجوع هزيلا مطوي البطن . استمر مريره : استحكمت عزيمته وقويت شكيمته ، أي ازداد ضراوة لشدة الجوع .

يُقَضْقِضُ عُصلاً ، في أسِرَّتِها الرَّدى ، كقَضْقَضَةِ المَقرورِ أرعَدَهُ البردُ[1]

سَمَا لي ، وبي من شِدَّةِ الجُوعِ ما به ، ببَيداءَ لم تُعرَفْ بها عيشَةٌ رَغْدُ

كِلانا بها ذِئبٌ ، يُحَدِّثُ نَفسَهُ بصاحِبِهِ ، والجَدُّ يُتعِسُهُ الجَدّ[2]

عوى ، ثمّ أقعى ؛ فارتجَزْتُ ، فهِجتُهُ ، فأقبَلَ مِثلَ البَرقِ ، يَتبَعُهُ الرّعدُ[3]

فأوجَرتُهُ خَرقاءَ ، تَحسَبُ رِيشَها على كوكبٍ يَنقَضّ ، واللّيلُ مُسوَدّ[4]

فما ازدادَ إلاّ جُرأةً وصَرامَةً ، وأيقَنتُ أنّ الأمرَ منهُ هوَ الجِدّ[5]

فأتبَعتُهُ أُخرَى ، فأضلَلتُ نَصلَها بحَيثُ يكونُ اللّبُّ والرّعبُ والحِقدُ[6]

فخَرّ ، وقد أورَدْتُهُ مَنهَلَ الرّدى ، على ظَمَإٍ ، لو أنّهُ عَذُبَ الوِرْدُ[7]

---

١ يقضقض : يكسر العظام ، فيخرج لها صوت . العصل : الأنياب العوج ، واحدها أعصل . والمراد هنا أنه يصك أنيابه بعضها على بعض لغيظه ، فيسمع لها صوت تكسر العظام . الأسرة : الخطوط ، واحدها سرار ؛ أي الموت كامن في خطوط أنيابه . المقرور : الذي أصابه البرد . والمراد : انه يشبه مقروراً يرتعد من البرد فتصطك أسنانه .

٢ الجد : الحظ . يقول : كلانا في هذه البيداء ذئب جائع يحدث نفسه بافتراس صاحبه ، ومن كان له الحظ أتعس حظ الآخر .

٣ أقعى : قعد على إليتيه ، فعل ذلك هنا مستعداً للوثوب . ارتجز : أنشد الرجز ليحمس نفسه على عادة البدو عند مباشرتهم الحرب . فاهتاج الذئب لسماع الصوت ، فأقبل على الشاعر بسرعة البرق ، وأخرج صوتاً كالرعد الذي يأتي بعد البرق .

٤ أوجره : طعنه ؛ أي أرسل إليه نبلة تطعنه . الخرقاء : الطائشة الهوجاء ؛ أي نبلة طائشة لم تصبه . الريش : هو ريش السهم يلزق على جانبيه لينطلق مستقيماً . يقول : كأن ريش هذه النبلة المنقضة على الذئب لامعة في الليل ، قد وضع على كوكب منقض في الظلام ، وبين السهم المريش والكوكب المتساقط وجه للشبه تمثيلي لانطلاق السهم في أواخر الليل .

٥ الجد : ضد الهزل .

٦ اللب : العقل ؛ وكان العرب يعتقدون أن القلب مركز العقل . فالنبلة وقعت في قلب الذئب ، حيث يكون العقل والرعب والحقد .

٧ المنهل : المورد . وقوله : على ظمإ ؛ لأن الذئب كان به ظمأ لدم الشاعر ، فأورده منهل الموت ، فشفى ظمأه ، ولكن لم يكن مورده عذباً .

وقُمتُ فجَمّعتُ الحَصَى ، فاشتَوَيتُهُ   علَيهِ ، وللرّمضاءِ مِنْ تَحتِهِ وَقْدُ[1]

ونِلتُ خَسيساً منهُ ، ثُمّ ترَكتُهُ ،   وأقلَعتُ عَنهُ ، وهوَ مُنعَفِرٌ فَرْدُ[2]

قال يصف إيوان كسرى في المدائن :

صُنتُ نَفسي عَمّا يُدَنّسُ نفسي ،   وترَفّعتُ عن جَدا كلّ جِبسِ[3]

وتَمَاسَكْتُ حَيْثُ زَعزَعَني الدّهرُ التِماساً منه لتعسي ونُكسِي[4]

بُلَغٌ مِنْ صُبابَةِ العَيشِ عندي ،   طَفّفَتها الأيّامُ تَطفيفَ بَخسِ[5]

وبَعِيدٌ ما بينَ واردِ رِفْهٍ ،   عَلَلٍ شُرْبُهُ ، ووارِدِ خِمسِ[6]

وكأنّ الزّمانَ أصبَحَ مَحمُو   لاً هَواهُ معَ الأخَسّ الأخَسِّ[7]

واشتَرائي العِراقَ خِطّةَ غَبْنٍ ،   بَعدَ بَيعي الشّآمَ بَيعَةَ وَكْسِ[8]

لا ترُزْني مُزاوِلاً لاختِباري ،   عندَ هذي البَلوَى ، فتُنكِرَ مَسّي[9]

١ الرمضاء : شدة حرارة الرمل ، ورمل البادية يخالطه حصى صغير إذا جمع وأضرمت عليه النار اتقد جمراً ، وأمكن أن يشوى عليه .

٢ خسيساً : أي قليلا حقيراً ، لأن الذئب كان مهزولا فلم يستطب الشاعر لحمه. منعفر : أي متعفر بالتراب.

٣ الجدا : العطاء . الجبس : اللئيم والجبان .

٤ نكسي : إذلالي .

٥ البلغ ، جمع البلغة : ما يكفي من العيش ، وليس فيه فضلة . الصبابة : البقية من الماء واللبن ، والمراد بقية من المال يعيش بها . طففتها : أنقصتها . البخس : الظلم وهضم الحقوق .

٦ وارد رفه أي يرد الماء كل يوم متى يشاء . علل شربه : أي يشرب تباعاً شربة بعد أخرى . وارد خمس : أي يشرب في اليوم الرابع بعد ظمإ ثلاثة أيام .

٧ محمولا هواه : أي يميل إلى الأخساء فيصافيهم دون الكرام .

٨ واشترائي العراق : معطوفة على بلغ . يتابع ذكر أحواله ، فيرى الخسارة في مجيئه إلى العراق بعد تركه الشام . الخطة : الأرض التي يختطها الإنسان لنفسه لينزل بها . الوكس : الخسارة في المتاجرة .

٩ لا ترزني : يقال راز الشيء يروزه جربه وقدره وامتحنه لينظر ثقله . مزاولا : محاولا ، يريد أن أحداث الدهر غيرت حاله فأصبح ينكره من يحاول معرفته حين يراه .

وقَديماً عَهِدْتَني ذا هَنَاتٍ   آبياتٍ ، على الدَّنيئاتِ ، شُمْسِ[١]

ولقَد رابَني نُبُوُّ ابنِ عَمّي ،   بَعدَ لِينٍ مِن جانِبَيهِ وأُنْسِ[٢]

وإذا ما جُفيتُ ، كُنتُ حَرِيّاً   أنْ أرى غَيرَ مُصبِحٍ حيثُ أُمسِي

حضَرَتْ رَحْليَ الهُمومُ ، فوَجّهْ   تُ إلى أبيَضِ المَدائنِ عَنسِي[٣]

أتَسَلّى عنِ الحُظوظِ ، وآسَى   لمَحَلٍّ مِن آلِ ساسانَ دَرْسِ[٤]

ذَكّرَتْنيهِمُ الخُطوبُ التّوالي ،   ولقَد تُذكِرُ الخُطوبُ وتُنسِي

وهُمُ خافِضونَ في ظِلِّ عالٍ   مُشرِفٍ ، يُحسرُ العيونَ ويُخسِي[٥]

مُغلَقٍ بابُهُ ، على جَبَلِ القَبْ   قِ ، إلى دارَتَيْ خِلاطٍ ومَكسِ[٦]

حِلَلٌ ، لم تكُنْ كأطلالِ سُعدى ،   في قِفارٍ مِنَ البَسابِسِ مُلْسِ[٧]

ومَساعٍ ، لولا المُحاباةُ مِنّي ،   لم تُطِقْها مَسعاةُ عَنْسٍ وعَبْسِ[٨]

نَقَلَ الدّهْرُ عَهْدَهنّ عنِ الجِدْ   دَةِ ، حتى غَدَونَ أنضاءَ لُبْسِ[٩]

---

١ الهنات : الخصال ، وتستعمل في الشر والأذى ، واحدها هنت . وقيل واحدها هنة ، تأنيث هن وهو كناية عن كل اسم جنس . شمس : جمع شموس ، أي صعب المراس على من عانده .

٢ النبو : التجافي والخشونة .

٣ حضرت رحلي الهموم : أي جعلته حاضراً وأعدته للرحيل . أبيض المدائن : أي القصر الأبيض لكسرى ؛ والمدائن : عاصمة الأكاسرة قرب بغداد وفيها الإيوان . سميت بالجمع لأنها سبع مدن قائمة على ضفتي دجلة . عنسي : ناقتي .

٤ آل ساسان : أي ملوك الفرس من نسل اردشير حفيد ساسان ، مؤسس الدولة الساسانية . درس : بال .

٥ خافضون : عائشون برفاهة ودعة . يحسر : يعيي ويكل . يخسي : مسهل يخسىء ، أي يكل ويحسر .

٦ دارتي خلاط ومكس : مكانان ؛ والدارة كل أرض واسعة بين جبال .

٧ حلل : جمع حلة وهي المحلة . البسابس : جمع البسبس وهو القفر الخالي . الملس : جمع أملس وملساء وهي الفلاة ليس بها نبات .

٨ المساعي : جمع مسعاة وهي المكرمة والمعلاة . علس : قبيلة قحطانية من اليمن . عبس : قبيلة عدنانية من نجد . يقول : لولا محاباتي العرب لأني عربي ، لقلت إن مساعي الفرس لم تستطع بلوغها قبائل العرب من قحطانية وعدنانية .

٩ الجدة : حالة الشيء الجديد . الأنضاء : جمع نضو وهو المهزول . اللبس : الاختلاط والإشكال . يقول : غير الدهر حالة هذه الحلل والمساعي ،فأصبحت بعد جدتها هزيلة بالية يشكل أمرها على الناظر إليها ، وتلتبس عليه حقيقتها ؛ فما يكاد يتبينها ويعرفها .

فكأنّ الجِرماز ، مِن عَدَم الأُنـْ ... سِ وإخلاقِهِ ، بَنِيّةُ رَمْسِ[1]

لو تَراهُ ، عَلِمتَ أنّ اللّيالي ... جَعَلَتْ فيهِ مأتَماً ، بعدَ عُرْسِ

وهوَ يُنبيكَ عن عَجائبِ قَومٍ ، ... لا يُشابُ البَيانُ فيهِم بلَبسِ[2]

فإذا ما رأيتَ صورةَ أنطا ... كيّةَ ارتَعتَ بَينَ رومٍ وفُرسِ

والمَنايا مَواثِلٌ ، وأنُوشَرْ ... وانُ يُزجي الصّفوفَ تحتَ الدِّرَفْسِ[3]

في اخضِرارٍ منَ اللّباسِ ، على أصْـ ... فَرَ يَختالُ في صَبيغَةِ وَرْسِ[4]

وعِراكُ الرّجالِ ، بَينَ يَدَيهِ ، ... في خُفُوتٍ مِنهم وإغماضِ جَرْسِ[5]

مِنْ مُشيحٍ ، يُهْوي بعاملِ رُمحٍ ؛ ... ومُليحٍ ، مِنَ السِّنانِ ، بتُرْسِ[6]

تَصِفُ العَينُ أنّهُمْ جِدُّ أحيَا ... ءٍ ، لهمْ ، بَينَهمْ ، إشارَةُ خُرْسِ[7]

يَغتَلي فيهِم ارْتِيابيَ ، حتّى ... تَتَقَرّاهُمُ يَدايَ بِلَمْسِ[8]

قد سَقاني ، ولم يُصَرِّدْ ، أبو الغَوْ ... ثِ ، على العَسكرَينِ ، شُربةَ خَلْسِ[9]

....

١ الجرماز : أحد أبهاء القصر . إخلاقه : بلاه ؛ ورويت إخلاله .

٢ لا يشاب : لا يخلط . اللبس : الاختلاط والإشكال ، وتضم لامه . يقول : إن ما بقي من آثار الجرماز حقيق بأن يحدثك عن عجائبهم بكلام واضح البيان ليس فيه التباس .

٣ يزجي : يسوق . الدرفس : راية الفرس المقدسة ، رمز تحرير بلادهم على يد بطلهم الأسطوري افريدون ، أي راية الحداد كاوي « درفشي كاويغاني » وكانت محلاة بالجواهر الكريمة .

٤ يختال : يتبختر تكبراً . الورس : نبات كالسمسم أصفر يصبغ به ، وقيل صبغ أحمر . قد تكون هذه الألوان تمثل ثياب كسرى المصبغة . وقد يكون قوله : على أصفر ، أي على جواد أصفر .

٥ الخفوت : السكوت . الجرس : الصوت الخفي .

٦ المشيح : المقبل عليك والمانع لما وراء ظهره . عامل الرمح : صدره . مليح : محاذر خوفاً .

٧ يقول : تخدع العين بدقة الرسم فتنعتهم بالأحياء يتبادلون إشارة خرس .

٨ يغتلي : يعظم . تتقراهم : تتتبعهم . يقول : يزيد ارتيابي فيهم ، فأتتبعهم باللمس لأتحقق أصور مرسومة هم أم أشخاص أحياء يتحاربون ؛ يريد المبالغة في دقة الرسم وبراعته .

٩ لم يصرد : لم يقلل . أبو الغوث : ابن البحتري . على العسكرين : على منظر العسكرين . الخلس : الاختلاس . أي شربة مختلسة سريعاً .

مِنْ مُدامٍ ، تَقولُها هيَ نَجمٌ أضوأَ اللّيلَ ، أو مُجاجةُ شمسِ[1]

وتَراها ، إذا أجَدّتْ سُروراً وارتياحاً للشّاربِ المُتَحَسّي[2]

أُفرِغَتْ في الزّجاجِ ، من كلّ قلبٍ ، فهيَ مَحبوبَةٌ إلى كلّ نَفسِ[3]

وتَوَهّمتُ أنّ كِسرَى أبَرْوِيـ زَ مُعاطِيّ ، والبَلَهْبَذُ أُنْسِي[4]

حُلُمٌ مُطْبِقٌ على الشّكّ عَيني ، أمْ أمانٍ غَيّرنَ ظَنّي وحَدسِي ؟

وكأنّ الإيوانَ مِنْ عَجَبِ الصّنْـ عَةِ جَوبٌ في جَنبِ أرعنَ جِلسِ[5]

يُتَظَنّى ، منَ الكآبةِ ، أنْ يَبْـ دو لعَينَيْ مُصَبِّحٍ أو مُمَسّ[6]

مُزعَجاً بالفِراقِ عَن أُنْسِ إلفٍ ، عَزّ . أو مُرْهَقاً بتَطليقِ عِرْسِ[7]

عَكَسَتْ حَظَّهُ اللّيالي ، وباتَ الـ مُشتري فيهِ ، وهوَ كوكبُ نَحسِ[8]

فَهوَ يُبدي تَجَلُّداً ، وعَلَيهِ كَلكَلٌ من كَلاكلِ الدّهرِ مُرْسِ[9]

---

١ تقولها : تظنها . مجاجة الشمس : ريقها أي شعاعها . يقال : مجت الشمس ريقها : رمت بشعاعها .

٢ وتراها : وتظنها . أجدت : جددت . المتحسي : المتجرع جرعة بعد أخرى .

٣ أفرغت : الجملة مفعول ثان لتراها .

٤ كسرى ابرويز : حفيد كسرى انوشروان ، ملك من سنة ٥٩٠ إلى سنة ٦٢٨ م . وقد سماه الشاعر قبلا أنوشروان ، فالظاهر أنه يخلط بين الاسمين . ونرجح أن صورة أنطاكية تمثل أبرويز في المعركة التي انكسرت فيها جيوش هرقل سنة ٦١٤ م ففتحت للفرس الطريق إلى القدس ، فاستولوا على سوريا حتى سنة ٦٢٨ . معاطي : أي يعاطيه الشراب ، يعني يشاربه . البلهبذ ويقال الفلهبذ : من كبار المغنين عند الفرس . أنسي : أي يؤنسه بصوته .

٥ الجوب : الترس . أرعن : أحمق . جلس : غليظ أحمق . يشبه شكل الإيوان وهيئته بترس في جنب رجل غليظ أحمق ، أي أنه مستدير على شكل الترس ، قائم في جنب بناء عظيم ، أو في جنب جبل يشبه الرجل الجلس في غلاظته .

٦ يتظنى : يعمل الظن فيه ، أي يظن فيه .

٧ مرهقاً : مكلفاً . العرس : الزوجة . يقول : يظن من ينظر إليه عند الصباح والمساء أنه يبدو من كآبته ، عاشقاً مزعجاً أبعد الفراق صاحبه فعز عليه أن يصل إليه ؛ أو زوجاً كلفته الأيام تطليق زوجته فطلقها على كره منه .

٨ المشتري : نجم من السيارات ، ويقال له بالفارسية برجيس ، وطالع برجه سعد عند الأقدمين .

٩ الكلكل : الصدر . مرس : ثابت.

لم يَعِبْهُ أنْ بُزَّ مِن بُسُطِ الدّيـ ... باجِ ، واستُلَّ من ستورِ الدِّمَقسِ [1]

مُشمَخِرٌّ ، تَعلو لهُ شَرَفاتٌ ، ... رُفِعَتْ في رُؤوسِ رَضوَى وقُدسِ [2]

لابِساتٌ منَ البَياضِ ، فَما تُبْـ ... صِرُ مِنها إلاّ فَلائِلَ بُرْسِ [3]

لَيسَ يُدرى : أصُنعُ إنسٍ لجِنٍّ ... سَكَنوهُ ، أمْ صُنعُ جِنٍّ لإنْسِ ؟

غيرَ أنّي أراهُ يَشهَدُ أنْ لم ... يَكُ بانيهِ ، في المُلوكِ ، بنِكسِ [4]

فكأنّي أرى المَراتِبَ والقَوْ ... مَ ، إذا ما بَلَغتُ آخرَ حِسّي [5]

وكأنّ الوُفودَ ضاحينَ حَسرَى ، ... من وُقوفٍ خَلفَ الزّحامِ ،وخُنسِ [6]

وكأنّ القِيانَ ، وَسطَ المَقاصيـ ... رِ ، يُرَجِّحنَ بينَ حُوٍّ ولُعْسِ [7]

وكأنّ اللّقاءَ أوّلُ مِن أمْـ ... سِ ، ووَشْكَ الفِراقِ أوّلُ أمسِ

وكأنّ الذي يُريدُ اتّباعاً ، ... طامعٌ في لُحُوقِهِم صُبحَ خَمسِ [8]

عَمَرَتْ للسّرورِ دَهراً ، فصارَتْ ... للتّعَزّي ، رِباعُهُمْ ، والتّأسّي

١ بز : سلب . الديباج : الحرير . استل : أخرج وعري . الدمقس : الحرير الأبيض .

٢ مشمخر : طويل عال . شرفات : مثلثات تبنى متقاربة في أعلى القصر ، واحدتها شرفة . رضوى : جبل بالمدينة . قدس : جبل وهو قدس الأسود وقدس الأبيض . يقول : إن هذه الشرفات عالية كأنها بنيت على رؤوس الجبال .

٣ فلائل : جمع فليلة وهي الشعر المجتمع . البرس : القطن أو شبيه به . يقول : إن هذه الشرفات يكسوها البياض ولكن العين لا تتبينها جيداً لعلوها فتحسبها فلائل من القطن مجتمعاً بعضها إلى بعض .

٤ النكس : المقصر عن غاية الكرم .

٥ إذا ما بلغت آخر حسي : أي إذا تمادى بي الحس والخيال .

٦ ضاحين : بارزين للشمس ، نصبت على الحال . حسرى : متلهفين معيين . خنس : متأخرين .

٧ يرجحن : يملن بالأرجوحة . حو : جمع حواء وهي السمراء الشفة . لعس : جمع لعساء وهي الجارية التي بها لعس ، وهو سواد مستحسن في الشفة .

٨ صبح خمس : أي خمس ليال . يريد أنه يستطيع اللحاق بهم بعد سفر خمس ليال لما خيل إليه من قرب عهدهم بالرحيل ؛ أو هي صبح خمس : أي يصل إليهم في اليوم الرابع ، مأخوذ من اظماء الإبل ، وهو أن ترعى ثلاثة أيام وترد الرابع .

فلَهـا أنْ أُعينَهـا بدُمُـوعٍ   مُوقَفاتٍ على الصّبابَةِ حُبْسِ[1]

ذاكَ عندي ، وليستِ الدّارُ داري ،   باقترابٍ منها ، ولا الجِنسُ جنسي

غيرَ نُعمَى لأهلِها عنـدَ أهلي ،   غرَسوا مِن ذَكائِها خيرَ غَرْسِ

أيّدوا مُلكَنا وشَدّوا قُواهُ   بكُماةٍ ، تحتَ السَّنَوّرِ ، حُمسِ[2]

وأعـانوا على كَتائبِ أرْيـا   طَ بطَعنٍ على النّحورِ ، ودَعْسِ[3]

وأراني ، من بَعدُ ، أكلَفُ بالأشْـ   ـرافِ طُرّاً ، من كلّ سِنخٍ وإسِّ[4]

وصف الربيع

من قصيدة يمدح بها الهيثم الغنوي ، ويصف الربيع مزيناً للممدوح عقد مجلس لهو وشراب :

أتاكَ الرّبيعُ الطّلْقُ يَختالُ ضاحِكاً ،   من الحُسنِ ، حتى كادَ أن يتَكَلّمَا

وقد نَبّهَ النّوروزُ ، في غلَسِ الدّجى ،   أوائلَ وَردٍ كُنّ بالأمسِ نُوَّمَا[5]

يُفَتّقُها بَردُ النّدى فكأنّهُ   يَنُثّ حديثاً ، كان ، قبلُ ، مُكَتَّمَا[6]

ومِن شَجَرٍ ، رَدّ الرّبيعُ لِباسَهُ   علَيهِ ، كما نَشّرتَ وَشياً مُنَمنَمَا[7]

....

١ يقول : إنه يبكي على ربوع الأكاسرة مع أنه وقف دموعه وحبسها ، وما تعود أن يبكي إلا شوقاً إلى الأحبة المفارقين .

٢ الكماة : جمع الكمي وهو الشجاع اللابس السلاح . السنور : نوع من الدروع . يشير إلى مساعدة الفرس لليمن في حروبها مع الحبشة ، وردهم الملك إلى عاهلها سيف بن ذي يزن .

٣ أرياط : قائد جيش الحبش . الدعس : الوطء الشديد والطعن بالرمح .

٤ السنخ : الأصل . الإس وتضم همزته : أصل كل شيء . يقول : إنه يشغف بالأشراف جميعاً من أي أصل كانوا ، من بعد مساعدة الفرس لليمن .

٥ النوروز ، ويقال له النيروز : عيد فارسي الأصل ، يقع في الشرق في أول آذار ، فيوافق ظهور نور الربيع ؛ ويقع في الأندلس في الأيام الأول من كانون الثاني فيوافق رأس السنة والغطاس . الغلس : ظلمة آخر الليل .

٦ ينث الحديث : يبوح به ويفشيه .

٧ منمنماً : مزخرفاً منقوشاً .

أحَلَّ ، فأبدَى للعيونِ بَشاشَةً ، وكانَ قَذًى للعَينِ ، إذ كانَ مُحرِمَا[1]

. ورَقَّ نَسيمُ الرّوضِ ، حتى حسِبتُه يَجيءُ بأنفاسِ الأحِبّةِ نُعَّمَا

٦ فما يَحبِسُ الرّاحَ التي أنتَ خِلُّها ، وما يَمنَعُ الأوتارَ أنْ تترَنّمَا ؟

غزل

قال يتغزل بعلوة بنت زريقة الحلبية :

يا عَلوَ ، لو شِئتِ ، أبدَلتِ الصّدودَ لنا وَصْلاً ، ولانَ لصَبٍّ قَلبُكِ القاسِي

هل لي سَبيلٌ إلى الظّهرانِ من حَلَبٍ ، ونَشوَةٌ بَينَ ذاكَ الوَردِ والآسِ ؟[2]

إذْ أقبَلُ الرّاحَ ، والأيّـامُ مُقبِلَةٌ ، مِنْ أهيَفٍ خَنِثِ العِطفَينِ مَيّاسِ[3]

أمُدّ كَفّي لأخذِ الكَـأسِ من رَشإٍ ، وحاجَتي ، كُلُّها ، في حامِلِ الكاسِ[4]

ببَرْدِ أنفاسِهِ أشفي الغَليلَ ، إذا دَنَا ، فقَرّبَها مِنْ حَرّ أنفاسِي[5]

---

١ أحل : خرج من إحرامه . المحرم : من دخل في الحرم ولبس المحرم وهو لباس الإحرام ، ذلك بأن المسلمين إذا جاؤوا مكة وأرادوا أن يدخلوا الحرم خلعوا ما عليهم من الثياب المصبغة والمخيطة : كالقمصان والبرانس والسراويلات والعمائم ، وألقوا على أجسامهم ثياب الإحرام غير مخيطة ولا مصبغة . فالشاعر يقول : إن الشجر كان محرماً في الشتاء أي عارياً من ثيابه المصبغة ، فلما جاء الربيع خرج من حرمه ، ولبس أوراقه وأزهاره الملونة ، فأبدى بشاشة للعيون بعد أن كان قذى لها .

٢ الظهران : اسم موضع .

٣ الأهيف : الرقيق الخصر . الخنث : متثني العطف لينه . العطفين : مثنى العطف ، وهو أحد الجانبين من الرأس إلى الورك .

٤ الرشأ : ولد الظبية وهو هنا على سبيل الاستعارة .

٥ الغليل : حرارة الحب .

ابن الرومي

المدح

مدح القاسم

من قصيدة يمدح بها القاسم بن عبيد الله الوهبي وزير المعتضد . وينحلل المدح عتاب وتهديد وفخر وشكوى وسؤال واستعطاف :

أيُّها القاسمُ القَسيمُ رُواءَ ، والذي ضَمَّ وُدَّهُ الأهواءَ[1]

والذي سادَ ، غيرَ مُستَنكَرِ السُّؤ دَدِ ، في النّاسِ ، واعتلى كيفَ شاءَ

قَمَرٌ ، نَجتَليه ، مِلءَ عُيونٍ وصُدورٍ ، بَراعَةً وضياءَ[2]

لم يَزَلْ يَجعَلُ المَساءَ صَباحاً ، كُلَّما بُدِّلَ الصَّباحُ مَساءَ[3]

قَتَلَ اليأسَ ، وهوَ مُستَحكِمُ الأمـ رِ ، وأحيا المطامعَ الأنضاءَ[4]

أنا مَولاكَ ، أنتَ أعتَقتَ رِقّي ، بَعدَما خِفتُ حالَةً نَكْراءَ[5]

فعَلامَ انصِرافُ وجهِكَ عَنّي ، وتناسيكَ حاجَتي إلغاءَ[6]؟

....

١ القسيم : الجميل . الرواء : المنظر . الأهواء : أي أهواء الناس على اختلافها .
٢ نجتليه : ننظر إليه .
٣ يريد أنه يضيء ظلام النفوس اليائسة .
٤ الأنضاء : الهزيلة ، واحدها نضو ، أي قتل اليأس المستحكم ، وأحيا الآمال الهزيلة .
٥ رقي : عبوديتي .
٦ الغاء : تخييباً .

كانَ يأتيني الرّسولُ ، فيُهدي ... لِي سُروراً ، ويَكبِتُ الأعداء[1]

فقَطَعتَ الرّسولَ عَنّيَ ، ضَنّاً ... باتّخاذِيه مَفخَراً وبهاء[2]

إنْ أكُنْ غيرَ مُحسنٍ كلّ ما تط ... لُبُ ، إنّي لَمُحسِنٌ أجزاءَ

فمتى ما أرَدتَ صاحبَ فَحصٍ ، ... كُنتُ ممّنْ يُشارِكُ الحكَماء[3]

ومتى ما أرَدتَ قارِضَ شِعْرٍ ، ... كُنتُ ممّنْ يُساجِلُ الشّعَراءَ

ومتى ما خَطَبتَ منّي خَطيباً ، ... جَلّ خَطبي ، ففاقَ بي الخُطَباء[4]

ومتى حاوَلَ الرّسائِلَ رَسْلي ، ... بَلّغَتني بَلاغَتي البُلَغاء[5]

يا لَقَومي ! أأثقلَ الأرضَ شخصي ، ... أم شكَتْ من جَفاءِ خَلقي امتلاء[6]؟

أنا مَن خَفّ واستَدَقّ ، فما يُثْ ... قِلُ أرضاً ، ولا يَسُدّ فَضاءَ

إنْ أكُنْ عاطِلاً ، لديكَ ، من الآ ... لاتِ ، حاشاكَ أنْ تَجورَ غَباء[7]!

فلأكُنْ عُوذَةً لمَجلِسِكَ المُو ... نِقِ ، أرْدُدْ عينَ الرّدى عَمياء[8]

أنا مَولاكَ بالمَحَبّةِ والمَيْ ... لِ ، فحَمّلْ عَواتِقي الأعباء[9]

وأنا المَرْءُ ، لا يُحَمَّلُ إلاّ ... شُكْرَ آلائِكُمْ أوِ الآلاء[10]

....

١ يكبت : يذل .
٢ يقول : قطعت رسولك عني بخلا بان اتخذه فخراً وبهاء ، اي ارفع رأسي به امام الناس .
٣ فحص : اي بحث وتنقيب في الامور .
٤ خطبت : اي دعوت . خطبي : أمري .
٥ الرسل : سهولة الترسل في النثر .
٦ يقول : أم شكت الأرض امتلاء من غلاظة خلقتي وضخامتها .
٧ الغباء : قلة الفطنة كالغباوة ، أصله الغبا مد لضرورة الشعر . يقول : إن أكن عاطلا من الوسائل التي تجعلني صالحاً لعمل من الاعمال ، وحاشاك ان تجور علي غباوة . جواب إن في البيت التالي .
٨ العوذة : الرقية . المونق: المعجب. يطلب الى الوزير ان يجعله رقية لمجلسه ، فيرد عنه الأذى والهلاك .
٩ العواتق : جمع عاتق وهو ما بين المنكب والعنق . الاعباء : الاحمال الثقال ، واحدها عبء .
١٠ الآلاء : النعم .

أدنِ شَخصي ، إذا شدَتْ لكَ بُستا — نُ ، وَغنّتْ غِناءَها غَنّاءَ[1]

فاستَثارَتْ منَ اللّحودِ المُغنّيـ — نَ ، فأضحى أمواتُهُمْ أحياءَ[2]

يا لإحضارِها ، معَ ابنِ سُرَيجٍ ، — مَعبَداً والغَريضَ والمَيلاءَ[3]

وتَلَتها عَجائبٌ ، فتغَنّتْ — مُشبِهاتِ اسمِها صِياباً وِلاءَ[4]

فحكَتْ هذهِ وتِلكَ يَمينَيْـ — كَ ، إذا ما تَبارَتا إعطاءَ[5]

وَاهوَ قُربي ، إذا شرَعتَ على دِجْـ — لَةَ ، في ظِلّ لَيلَةٍ قَمراءَ[6]

+ وحكَتْ دِجلَةُ انهِلالَكَ بالنّا — ئلِ والعِلمِ ، واكتَسَتْ لألاءَ[7]

+ وأعارَتْ هَواءَ دارِكَ ثَوباً ، — مِن نَداها ، فكانَ ماءً هَواءَ

فحكَتْ منكَ نَعمَةَ الخُلْقِ النّا — عِمِ ، في كلّ حالَةٍ ، إثناءَ[8]

وأجابَ المَلاّحُ ، في بَطنِها ، الملاّ — حَ ، يَحتَثّ بالسّفينِ الحِداءَ[9]

. . ..

١ بستان : اسم مغنية كان الشاعر يهواها . غناء : من بها غنة ، وهي خروج الصوت من الخيشوم ، والنون أشد الحروف غنة .

٢ استثارت المغنين من اللحود : أي بعثهم من القبور أحياء بحسن صوتها . والمراد أنها جددت أصواتهم جميعاً .

٣ يا لإحضارها : اللام للتعجب بعد حرف النداء ، ابن سريج ومعبد والغريض : أشهر المغنين في العصر الأموي ، وكذلك كانت عزة الميلاء من أشهر المغنيات . يقول : إن بستان تحضر بصوتها هؤلاء المغنين الأموات لأنها تحسن تمثيلهم .

٤ عجائب : اسم مغنية أخرى كانت تغني للوزير . مشبهات اسمها : أي أغاني تشبه اسمها ، يعني عجائب الأغاني . الصياب : الخالص والصميم والخيار من كل شيء . ولاء : متابعة دون انقطاع .

٥ يمينيك : على تغليب اليمين على اليسار والمراد يداك . يقول : إن بستان وعجائب تتنافسان في الغناء كما تتنافس يداك في العطاء .

٦ شرعت : أي رفعت شراع السفينة لتمخر .

٧ النائل : العطاء . اللألاء : الضوء والفرح التام . يريد أنها ضاءت وابتهجت بالوزير .

٨ فحكى : الضمير يعود إلى الماء الهواء . النعمة : التنعم . إثناء : أي مدحاً لك ، من أثنى عليه .

٩ في بطنها : الضمير يعود إلى دجلة . احتث : ساق وحض على السرعة . السفين : السفن ، جمع سفينة . وقوله : يحتث بالسفين الحداء : من القلب ، ووجه الكلام يحتث السفين بالحداء . أو أراد أن هذه السفن الماخرة في دجلة كانت تستثير غناء الملاحين .

واذكريني ، إذا استثرتَ سَحاباً، ذاتَ يومٍ : عشيّةً أو ضَحاءَ[1]	
فتعالتْ فوّارةٌ ، تحسُدُ الخَضْـراءُ إغداقَ مائها الغبراءَ[2]	
كُلّما أخلفَتْ سَماءٌ زَماناً ، خلَفَتْ فيه ديمةً هَطلاءَ[3]	
سَحسحَتْ ماءَها على كلّ أرضٍ ، بعدَما صافحَتْ به الجوزاءَ[4]	
فحكَتْ كفّكَ التي تخلفُ المُزْنَ ، علينا ، فترْغِمُ الأنواءَ[5]	
قد بغى قبلَكَ الدّعيُّ، فلم أحْفِلْ بأنْ كانَ باغياً بَغّاءَ[6]	
بل تصبّرْتُ ، وانتظَرْتُ منَ اللّهِ نآداً ، تُصيبُهُ ، دَهياءَ[7]	
فاعتبِرْ بابنِ بُلبُلٍ ، إنّ فيهِ عبرَةً لامرِئٍ أعَدّ وِعاءَ[8]	
+ والعَلاءُ بنُ صاعدٍ ، قبلَ هذا ، قد حمَى دونَ رائدي الأحماءَ[9]	
فارمِ بالطّرفِ شخصَه، هل تَراه؟ وادعُه الدّهرَ، هل يُجيبُ دُعاءَ؟	
+ ليسَ إلاّ لأنّني كنتُ شَمساً ، قابلَتْ منهُ مُقلَةً عَشواءَ[10]	

---

١ وادكرني : واذكرني . استثرت سحاباً : أي رفعته ونشرته ليمطر . وأراد بالسحاب المطر الفوارة التي يرتفع ماؤها كالسحاب ثم ينهل على الأرض ، وسيأتي ذكرها . الضحاء : دنو انتصاف النهار .

٢ الخضراء : السماء . الغبراء : الأرض . وقوله : السماء تحسد الأرض ، لأنها نافستها في المطر .

٣ أخلفت السماء : لم تأت بالمطر . خلفت : عوضت . الديمة : المطر الذي يدوم بلا برق ولا رعد . هطلاء : متتابعة المطر .

٤ سحسحت : صبت ماءها وأفاضته . الجوزاء : برج في السماء .

٥ ترغم : تذل . الأنواء : جمع نوء وهو سقوط نجم في المغرب وطلوع آخر في المشرق ، وكان العرب ينوطون نزول المطر بهذه الأنواء . والمعنى: أن يد الممدوح تغني عن المطر . وأن الفوارة تحكي كفه في انهلالهـا .

٦ الدعي : يريد به اسماعيل بن بلبل وزير المعتمد وكان ينتسب إلى شيبان ، وقيل إن في نسبه ريباً .

٧ النآد : الداهية . الدهياء : الشديدة .

٨ الوعاء : هنا الصدر ؛ أي أعد صدره وعاء للعبر .

٩ أبو عيسى العلاء بن صاعد : كان من وزراء الدولة . الرائد : الذي يرسله القوم ليطلب لهم المرعى ، ويريد به شعره . الأحماء : جمع حمى .

١٠ العشواء : الضعيفة البصر . والمعنى : أن هذا الوزير لم يهلك إلا لأنه أنكر فضل الشاعر كما تنكر المقلة العشواء نور الشمس .

فأرانيــهِ ناصري وأبــاهُ ، ولَهُ الحَمدُ ! مُثلَةً شَوْهاءَ[1]

أنا عبدُ الإنصافِ ، قِرْنُ التَعدّي ؛ فاسلُكِ القَصدَ بي ، وعَدِّ العَدَاءَ[2]

أنا ذو صَفْحَتَينِ : مَلْساءَ حَسنا ءَ ؛ وأخرَى تَمَسُّها خَشْنَاءَ[3]

خاشعٌ تَارَةً ، وَجَبّارٌ اخرَى ؛ فَتَرَاني أرْضاً ، وَطَوْراً سَمَاءَ

مدح أحمد بن ثوابة

من قصيدة يمدح بها احمد بن ثوابة ، ويعتذر من السفر اليه خوفاً من البر والبحر في الصيف والشتاء ، ويطلب اليه ان يجيزه دون ان يركبه هذا المركب الخشن :

ولَمّا دَعـاني للمَثوبَةِ سَيِّدٌ ، يرَى المَدحَ عاراً قَبلَ بَذلِ المَثاوِبِ[4]

تَنازَعَني رَغْبٌ ورَهْبٌ ، كلاهُما قَويٌ ، وأعياني اطّلاعُ المَغايِبِ[5]

فقَدّمتُ رِجلاً ، رَغبَةً في رَغيبَةٍ ، وأخّرتُ رِجلاً ، رَهبَةً للمَعاطِبِ[6]

أخافُ على نَفسي ، وأرجو مَفازَها ، وأستار غيبِ اللهِ دونَ العَواقِبِ[7]

ألا مَنْ يُريني غايَتي قَبلَ مَذْهَبي ؟ ومن أينَ ؟ والغاياتُ بَعدَ المَذاهبِ[8]

ومِن نَكبَةٍ لاقَيتُها ، بَعدَ نَكبَةٍ ، رَهِبتُ اعتِسافَ الأرضِ ذاتِ المَناكِبِ[9]

---

١ ناصري : يريد به الله . المثلة : التنكيل ، ورجل مثلة : منكل به ، وهو أن تقطع بعض أعضائه أو يسود وجهه . الشوهاء : القبيحة . يقول : أرانيه الله وأراني أباه مثلة شوهاء .
٢ القصد : الاعتدال . عد : تجاوز . العداء : الظلم والعدوان .
٣ الصفحة : جانب الشيء .
٤ المثوبة : الثواب ، أي المكافأة ، وجمعها المثاوب ؛ استعمل هذه اللفظة قصداً لأن ثوابة نسب الممدوح مشتق منها . والشاعر يعنى بمثل هذه الاشتقاقات .
٥ أعياني اطلاع المغايب : أي أعجزه عرفان الغيب ليعلم ما هو مقدر له في هذا السفر .
٦ الرغيبة : العطاء الكثير .
٧ المفاز : الفوز .
٨ غايتي : أي نهاية سفري قبل ذهابي . من أين : أي من أين لي ذلك .
٩ الاعتساف : الذهاب في الأرض على غير هداية . المناكب : النواحي ، واحدها منكب .

وصَبري على الإقتارِ أيسَرُ مَتحمِلاً   عليَّ منَ التّغريرِ بَعدَ التّجاربِ[1]

لَقيتُ منَ البَرّ التّباريحَ ، بَعدَما   لَقيتُ منَ البَحرِ ابيِضاضَ الذّوائبِ[2]

سُقيتُ على رِيٍّ بهِ ألفَ مَطرَةٍ ،   شُغِفتُ لبُغضيها بحُبّ المَجادِبِ[3]

ولم أُسقَها ، بل ساقَها لمَكيدَتي ،   تَحامُقُ دَهرٍ ، جَدّ بي كالمُلاعِبِ[4]

إلى اللهِ أشكُو سُخفَ دَهري ، فإنّهُ   يُعابِثُني ، مُذ كنتُ ، غيرَ مُطايِبِ

أبَى أن يُغيثَ الأرضَ ، حتى إذا ارتمتْ   برَحلي ، أتاها بالغُيوثِ السّواكِبِ[5]

سقَى الأرضَ ، من أجلي ، فأضحتْ مَزلّةً ،   تَمايَلَ صاحيها تَمايُلَ شارِبِ[6]

لتَعويقِ سَيري أو دُحُوضِ مَطيّتي ،   وإخصابِ مُزوَرٍّ ، عن المَجدِ ، ناكبِ[7]

فمِلتُ إلى خانٍ مُرِثٍّ بِناؤهُ ،   مَميلَ غَريقِ الثّوبِ ، لهفانَ ، لاغبِ[8]

فلَم ألقَ فيهِ مُستَراحاً لمُتعَبٍ ،   ولا نُزُلاً ، أيّانَ ذاكَ ، لساغِبِ[9]

. . . .

١ الاقتار : ضيق العيش . التغرير : تعريض النفس للمخاطر .

٢ التباريح : شدة الأذى ، واحدها تبريح . الذوائب : النواصي ، واحدتها ذؤابة .

٣ المجادب : جمع المجداب وهي الأرض التي لا تكاد تخصب . يقول : هطل علي مطر كثير وأنا مسافر في البر ، على غير حاجة بي إلى الري ؛ حتى أصبحت لبغضي هذه الأمطار أحب الأراضي المجدبة التي لا تمطرها السماء .

٤ يقول : لم تنزل هذه الأمطار لأرتوي منها ، بل ساقها الدهر الأحمق لمكيدتي ، فكان كأنه يلاعبني بجـــده .

٥ ارتمت برحلي : أي أخرجته إلى السفر .

٦ المزلة : موضع الزلل أي الزلق . صاحيها : الضمير يعود إلى الأرض .

٧ الدحوض : الزلق . المزور : المنحرف . الناكب : المتنحي . يقول : سقى الأرض لتعويق سيري ، وزلق مطيّي ، ولكي يخصب القاعدين عن طلب المجد في الترحال .

٨ الخان : محل نزول المسافرين . المرث : البالي . مميل : ميل ، أي ملت ميل . غريق الثوب : أي غرق ثوبه في الماء لكثرة ما أصابه من المطر . اللهفان : المظلوم المضطر يستغيث ويتحسر . اللاغب : الذي أعياه السير وأتعبه تعباً شديداً .

٩ النزل : قرى الضيف . أيان ذاك : هنا بمعنى حين ذاك ؛ والمشهور أن أيان تأتي بمعنى أي حين للسؤال ، وبمعنى متى لتعميم الأزمنة ، وتضمن معنى الشرط فتجزم المضارع. والأرجح أنها مصحفة عن إبان أي حين . فقوله : إبان ذاك أي حين ذاك . الساغب : الجائع .

فما زلتُ في خوفٍ وجوعٍ ووَحشَةٍ ، وفي سَهَرٍ ، يَستَغرِقُ اللّيلَ ، واصِبِ[1]

يُؤرّقُني سَقفٌ ، كأنّيَ تحتَهُ ، منَ الوَكفِ، تحتَ المُدجِناتِ الهَواضِبِ[2]

تَراهُ ، إذا ما الطّينُ أثقَلَ مَتنَهُ ، تَصِرّ نَواحيهِ صَريرَ الجَنادِبِ[3]

وكم خانِ سَفرٍ خانَ ، فانقَضّ فوقَهم ، كما انقَضّ صَقرُ الدُّجنِ فوقَ الأرانبِ[4]

ولم أنسَ ما لاقَيتُ ، أيّامَ صَحوِهِ ، منَ الصِّرّ فيهِ ، والثّلوجِ الأشاهِبِ[5]

وما زالَ ضاحي البَرّ يَضرِبُ أهلَهُ بسَوطَيْ عَذابٍ : جامدٍ بعدَ ذائبِ[6]

فإنْ فاتَهُ قَطرٌ وثَلجٌ ، فإنّهُ رَهينٌ بسافٍ ، تارَةً ، أو بحاصِبِ[7]

فَذاكَ بَلاءُ البَرّ عنديَ شاتِياً ، وكم ليَ من صَيفٍ، بهِ، ذي مَثالِبِ[8]

ألا رُبّ نارٍ بالفَضاءِ اصطَلَيتُها منَ الضِّحّ ، يودي لَفحُها بالحَواجِبِ[9]

إذا ظَلّتِ البَيداءُ تَطفو إكامُها ، وتَرسُبُ في غَمرٍ مِنَ الآلِ ناضِبِ[10]

---

١ واصب : دائم ثابت .

٢ الوكف : قطر الماء من سقف البيت . المدجنات ، جمع المدجنة : السحابة الكثيرة المطر . الهواضب : المواطر .

٣ متنه : ظهره . وقوله : أثقل متنه ، لأن اختلاط تراب السقف بماء المطر يجعله طيناً ثقيلا .

٤ السفر : المسافرون . الدجن : الظلمة . وصقر الدجن : أي الذي يصيد في الظلام .

٥ صحوه : أي صحو البر في الشتاء . الصر : شدة البرد . الأشاهب : جمع أشهب ، يقال : يوم أشهب أي ذو ريح باردة وصقيع ، والأشهب الأبيض يتخلله سواد .

٦ ضاحي البر : ما كان منه منكشفاً بادياً لا ظل له . السوط الجامد : ما تحمله الريح من تراب وحصى . السوط الذائب : المطر والثلج . وسيشرح ذلك في البيت التالي .

٧ بساف : أي بهواء ساف ، وهو الذي يحمل التراب ويذره . الحاصب : ريح شديدة تحمل الحصباء ، أي صغار الحصى ، وتذرها .

٨ المثالب : المعايب ، واحدتها مثلبة وتضم اللام .

٩ الضح : حرارة الشمس . يودي : يقال أودى به الموت : ذهب به . اللفح : الحر المحرق . والمعنى : حرها يحرق الحواجب .

١٠ تطفو : تعلو . الإكام : جمع أكمة ، وهي التل من الحجارة . ترسب : تنزل سفلا . الغمر : الماء الكثير . الآل : ما يرى كالماء في أول النهار وآخره ، ويرتفع على الأرض حتى يصير كأنه بين الأرض والسماء . الناضب : السائل الجاري وهو صفة للآل في تحركه وجريانه .

فدَعْ عَنكَ ذِكرَ البَرِّ ، إنّي رأيتُهُ ، لِمَن خافَ هَولَ البَحرِ، شرَّ المَهاوِبِ[1]

كِلا نُزُلَيهِ : صَيفُهُ وشِتاؤُهُ خِلافٌ لِما أهواهُ ، غيرُ مُصاقِبِ[2]

لُهاثٌ مُميتٌ، تحتَ بَيضاءَ سُخنَةٍ ، وريٌّ مُفيتٌ ، تحتَ أسحَمَ صائِبِ[3]

يَجِفُّ ، إذا ما أصبَحَ الرّيقُ عاصِباً ، ويُغدِقُ لي ، والرّيقُ ليسَ بعاصِبِ[4]

فيَمنَعُ منّي الماءَ ، واللُّوحُ جاهِدٌ ، ويُغرِقُني ، والرّيُّ رَطبُ المَحالِبِ[5]

وما زالَ يَبغيني الحُتوفَ مُوارِباً ، يَحُومُ على قَتلي ، وغيرَ مُوارِبِ[6]

فطَوراً يُغاديني بلِصٍّ مُصَلَّتٍ ، وطَوراً يُمَسّيني بوَردِ الشّوارِبِ[7]

إلى أنْ وَقاني اللهُ مَحذورَ شَرّهِ ، بعِزّتِهِ ، واللهُ أغلَبُ غالِبِ

فأفلَتُّ مِن ذُؤْبانِهِ وأُسُودِهِ ، وحُرّابِهِ ، إفْلاتَ أتْوَبِ تائِبِ[8]

....

١ المهاوب : جمع مهوب وهو الشيء الذي يهابه الناس والمكان الذي يهاب فيه ، أخذ من قولهم : هوب الرجل، بمعنى هيب: أي خيف جانبه. نقلوا من الياء إلى الواو ؛ والمراد أن البر أشد هولا من البحر.

٢ النزل : الفضل والعطاء . المصاقب : المواجه والمداني .

٣ اللهاث : حر العطش في الجوف . البيضاء : الشديدة الحرارة ، أي شمس شديدة الحرارة محرقة . يقال بيضاء القيظ : أي صميم الحر . الري : ما يروي العطش . المفيت : اسم فاعل من أفاته الأمر : جعله يذهب عنه . الأسحم : السحاب . الصائب : الماطر . يقول : إنه يعطش في البر وهو تحت سماء محرقة ، فلا يجد ما يبرد عطشه ؛ ويذهب عنه العطش ، وهو تحت سحاب ماطر . فريه في ذلك الوقت يفيته الماء أي يجعله يذهب عنه دون أن يستفيد منه .

٤ يجف : الضمير يعود إلى السحاب الماطر . الريق العاصب : الذي جف في الفم .

٥ اللوح : العطش وتضم اللام . المحالب : جمع المحلب وهو الإناء الذي يحلب فيه . يقول : يغرقني ماء المطر والري وافر عندي . وقوله : رطب المحالب ، أي الأواني حافلة بالماء أو اللبن .

٦ الحتوف : جمع الحتف وهو الموت . مواربا : مخاتلا ومخادعاً .

٧ المصلت : هنا بمعنى الصلت والمصلت ، ولم تذكره المعاجم التي بين أيدينا ؛ يقال : رجل صلت ومصلت ، أي شجاع ، والذي يصلت على الناس ، يعني يأتي عليهم في حوائجه ؛ ومنه: الصلت بكسر الصاد ، وهو اللص ، وقد يكون المصلت بكسر اللام وتشديدها بمعنى المصلِت أي المجرد سيفه. الورد: الضارب لونه إلى الحمرة وهو من صفات الأسد ؛ يقال : أسد ورد . الشوارب : الشعر النابت فوق الفم ؛ فقوله ورد الشوارب : أراد به الأسد .

٨ الذؤبان : جمع ذئب . الحراب : جمع حارب وهو الذي يسلب أموال الناس في الطريق . أتوب تائب : أي أعظم تائب عن سفر البر .

وأمّا بَلاءُ البَحرِ عِندي ، فإنّهُ طَواني على رَوعٍ معَ الرّوحِ ، واقِبِ[1]

ولو ثابَ عَقلي لم أدَعْ ذِكرَ بَعضِهِ ، ولكِنّهُ ، مِن هَولِهِ ، غيرُ ثائِبِ[2]

ولِمْ لا ، ولو ألقيتُ فيهِ وصَخرَةً ، لَوافَيتُ منهُ القَعرَ أوّلَ راسِبِ[3]

ولم أتَعَلّمْ قَطّ من ذي سِباحَةٍ سوَى الغَوصِ ، والمَضعوفُ غيرُ مُغالِبِ[4]

فأيسَرُ إشفاقي مِنَ الماءِ أنّني أمُرّ بهِ ، في الكُوزِ ، مَرّ المُجانِبِ[5]

وأخشَى الرّدى منهُ على كلّ شارِبٍ ، فكَيفَ بأمنيهِ على كلّ راكِبِ[6]

أظَلّ ، إذا هَزّتهُ ريحٌ ، ولألأتْ لهُ الشّمسُ أمواجاً طِوالَ الغَوارِبِ[7]

كأنّي أرى فيهنّ فُرسانَ بُهمَةٍ ، يُليحونَ ، نحوي ، بالسّيوفِ القَواضِبِ[8]

فإن قلتَ لي: «قد يُركَبُ اليَمّ طامياً ، ودِجلَةُ ، عندَ اليَمّ ، بعضُ المَذانبِ[9]

فلا عُذرَ فيها لامرىءٍ هابَ مثلَها ، وفي اللُّجّةِ الخَضراءِ عُذرٌ لِهائبِ»[10]

فإنّ احتِجاجي عَنكَ لَيسَ بنائِمٍ ؛ وإنّ بَياني لَيسَ عَنّي بعازِبِ :[11]

لدِجلَةَ خَبٌّ ، لَيسَ لليَمّ ، إنّها تُرائي بحِلْمٍ تحتَهُ جَهلُ واثِبِ[12]

١ الروع : الفزع . الواقب : الداخل . والمراد : فزع داخل فيه مع روحه .

٢ ثاب : رجع . يقول : إن عقله شرد عنه من فزع البحر ، ولذلك لا يستطيع أن يصف إلا بعض بلائه ، ولو رجع إليه عقله لما كان أهمل وصف بعضه الآخر ولكن عقله من هوله غير راجع .

٣ لم لا : سكنت الميم للشعر وهي في الأصل مفتوحة . والمعنى : لم لا أفزع من البحر ويذهب عقلي من هوله ، ولو ألقيت فيه وألقيت معي صخرة لسبقتها إلى قعره .

٤ سوى الغوص : أي سوى الغرق . المضعوف : الضعيف . غير مغالب : أي لا يغالب القوي .

٥ الإشفاق : الخوف . يقول : أقل خوفي من الماء أنني إذا رأيته في الكوز مررت به متجنباً إياه .

٦ أمنيه : أي أمني إياه . أي كيف آمنه على كل راكب ، أي كل مسافر فيه .

٧ لألأت : لاعبت . الغوارب : أعالي الموج .

٨ فيهن : أي في الأمواج . البهمة : الجيش . يليحون : يلوحون . القواضب : القواطع .

٩ اليم : البحر . طامياً : زاخراً عالياً . المذانب : جمع مذنب وهو مسيل الماء والجدول .

١٠ اللجة الخضراء : عرض البحر ومعظم مائه .

١١ العازب : الغائب .

١٢ الخب : الخداع والخبث . ترائي : تري خلاف ما هي عليه .

تَطامَنُ حَتّى تَطمَئِنَّ قُلوبُنا ، وتَغضَبُ مِن مَزحِ الرِّياحِ اللَّواعِبِ[1]

وأجرافُها رَهنٌ بكُلِّ خيانةٍ وغَدرٍ ، فَفيها كلُّ عَيبٍ لعائِبِ[2]

تَرانا ، إذا هاجَتْ بها الرِّيحُ هَيجةً ، نُزَلزِلُ ، في حَوماتِها ، بالقَوارِبِ[3]

نُوائِلُ مِنْ زِلزالِها نَحوَ خَسفِها ، فَلا خَيرَ في أوساطِها والجَوانِبِ[4]

زَلازِلُ مَوجٍ في غِمارٍ زَواخِرٍ ، وهَدّاتُ خَسفٍ في شُطوطٍ خَوارِبِ[5]

ولليَمِّ أعذارٌ بعَرضِ مُتُونِهِ ، وما فيهِ مِن آذيِّهِ المُتَراكِبِ[6]

ولَستَ تَراهُ في الرِّياحِ مُزَلزِلاً بما فيهِ ، إلاّ في الشِّدادِ الغَوالِبِ[7]

وإنْ خيفَ مَوجٌ ، عيذَ منهُ بساحلٍ خَلِيٍّ مِنَ الأجرافِ ذاتِ الكَباكِبِ[8]

ويَلفِظُ ما فيهِ ، فلَيسَ مُعاجِلاً غَريقاً بغَتٍّ ، يُزهِقُ النَّفسَ ، كارِبِ[9]

يُعَلِّلُ غَرقاهُ إلى أنْ يُغيثَهُمْ بصُنعٍ لَطيفٍ منهُ ، خَيرِ مُصاحِبِ[10]

فتُلْفَى الدَّلافينُ الكَريمُ طِباعُها ، هُناكَ ، رِعالاً ، عند نَكبِ النَّواكِبِ[11]

١ تطامن : تظهر السكون والاطمئنان .

٢ الأجراف : جمع الجرف وهو الجانب الذي أكله الماء من حاشية النهر .

٣ بها : الضمير يعود إلى دجلة . حوماتها : أي أواسطها التي يعظم الماء فيها ويشتد خطرها .

٤ نوائل : نلجأ . خسفها : أي أجرافها التي تخسف ويأكلها الماء .

٥ الغمار : المياه الكثيرة . الهدات : الهدمات .

٦ المتون : جمع المتن وهو الظهر . الآذي : الموج . المتراكب : الذي يركب بعضه بعضاً . والمعنى أنه يعذر البحر إذا زلزلت فيه السفن لأنه عظيم واسع متكاثر الأمواج .

٧ بما فيه : أي مع ما فيه من سفن ومسافرين . الشداد الغوالب : أي العواصف الشديدة الغالبة التي لا تقاوم.

٨ عيذ : لجيء . الكباكب : جمع الكبكب وهو الطين المتجمع كتلا . والمراد أن ساحل البحر ليس عرضة للانهيار كساحل النهر .

٩ يلفظه : يرمي به . الغت : الغط في الماء . كارب : محزن . والمراد : يلفظ البحر الغريق فلا يبتلعه بل يتركه طافياً ، ولا يعاجله بالإغراق كالنهر .

١٠ يقول : إن البحر يعلل غرقاه بالنجاة ، إذ يتركهم عائمين على وجهه إلى أن ينجدهم بعمل لطيف منه خير مصاحب للغرقى ؛ يشير بذلك إلى الدلافين في البيت التالي .

١١ الدلافين ، جمع دلفين : دابة بحرية كان يعتقد الأقدمون أنها صديقة للإنسان تنجيه من الغرق . الرعال : جمع رعيل وهو القطعة من الخيل أو البقر تأتي في المقدمة ، استعيرت هنا للدلافين ، ويكون عددها من العشرين إلى الخمسة والعشرين .

فهُم وسطَه غرقَى ، وهم في مراكبِ ، مَراكِبَ للقَومِ الذينَ كَبَا بِهِمْ[1]
ويَنقُضُ ألواحَ السَّفينِ ، فكُلُّها مُنَجٍّ ، لدَى نَوْبٍ ، من الكَسرِ ، ناثبِ[2]
وما أنا بالرّاضي عنِ البَحرِ مَرْكَباً ، ولكِنّني عارَضتُ شَغبَ المُشاغِبِ[3]

الهجاء

هجاء البحتري

من قصيدة يهجو بها البحتري :

قد قلتُ ، إذ يَحلُوهُ الشّعرَ: حاشَ لهُ! إنّ البُروكَ بهِ أولى مِنَ الخبَبِ[4]
ألبُحتُريُّ ذَنُوبَ الوَجهِ نَعرِفُهُ ؛ وما رأينا ذَنُوبَ الوَجهِ ذا أدَبِ[5]
أنّى يَقُولُ مِنَ الأقوالِ أثقَبَها ، مَن راحَ يَحمِلُ وَجهاً سابغَ الذّنَبِ[6]
لَهفي على ألْفِ موسَى في طَوِيلَتِهِ ، إذا ادّعَى أنّهُ مِنْ سادَةِ العَرَبِ
أو قالَ : « إنّي قَريعُ النّاسِ كُلّهِمُ في الشّعرِ » وهوَ سَقيمُ الشّعرِ والنّسَبِ[7]

---

١ كبا بهم : أي انقلب البحر بهم .
٢ يقول : إن البحر يفكك ألواح السفينة إذا نزلت بها نائبة فكسرتها ، فتكون هذه الألواح منجية للغرقى.
٣ عارضت شغب المشاغب : أي عارضت من يشاغب ، أي يهيج الشر في زعمه أن السفر في دجلة أهون من السفر في البحر .
٤ البروك : للجمل كالجلوس للإنسان . الخبب : ضرب من العدو ، وهو خطو فسيح ، ينقل فيه الفرس أيامنه جميعاً وأياسره جميعاً . والخبب عند أهل العروض بحر من بحور الشعر ، وهو فعِلن ثماني مرات ، وهو المراد هنا بصورة التورية . شبه البحتري بالجمل يصلح للبروك ، ولا يصلح لسير الخبب ، وإنما ذكر الخبب ليوري به عن الشعر مستعملا الجزء للكل .
٥ ذنوب الوجه : أي له ذنب في وجهه ، ويريد لحيته .
٦ أثقبها : أنفذها . سابغ : طويل .
٧ القريع : المقارع أي المغالب .

ألْحَظُّ أعمَى ، ولَولا ذاكَ لم تَرَهُ … لِلبُحتريِّ ، بلا عَقلٍ ولا حَسَبِ[1]

قُبحاً لأشياءَ يأتي البُحتريُّ بها ! … من شِعرِهِ الغَثّ، بعد الكدّ والتّعَبِ[2]

كأنّها ، حينَ يُصغي السّامعونَ لها ، … مِمّنْ يُمَيّزُ بَينَ النّبعِ والغَرَبِ[3]

رُقَى العَقارِبِ ، أو هَذرُ البُناةِ ، إذا … أضحَوْا على شَعَفِ الجدرانِ في صَخَبِ[4]

وقد يَجيءُ بخِلطٍ ، فالنُّحاسُ لهُ ، … وللأوائِلِ ما فيهِ مِنَ الذّهَبِ[5]

سَمينُ ما نَحلوهُ ، مِن هُنا وهنا ، … والغَثُّ منهُ صَريحٌ غيرُ مُجتَلَبِ[6]

يُسيءُ عَفّاً ، فإنْ أكدَتْ وَسائِلُهُ ، … أجادَ لِصّاً شديدَ البأسِ والكَلَبِ[7]

إنّ الوَليدَ لَمِغوارٌ ، إذا نَكَلَتْ … نَفسُ الجَبانِ ، بَعيدُ الهَمّ والسَّرَبِ[8]

عَبدٌ ، يُغيرُ على المَوتَى ، فيَسلُبُهُمْ … حُرَّ الكَلامِ بجَيشٍ غيرِ ذي لجَبِ[9]

ما إنْ تَزالُ تَراهُ لابِساً حُلَلاً ، … أسلابَ قَومٍ مَضَوا في سالِفِ الحُقُبِ[10]

. ...

١ بلا عقل ولا حسب : المراد بذلك الحظ .

٢ الغث : الضعيف الهزيل .

٣ النبع : شجر صلب تصنع منه القسي . الغرب : شجر هش رخو . يكنى بهما عن السمين والغث من الأمور .

٤ رقى العقارب : ما يرقى به من تلدغه العقارب ؛ حيث يتكلم الراقي كلاماً غير مفهوم . الهذر : سقط الكلام . البناة : البناؤون . شعف الجدران : أعاليها ، واحدتها شعفة .

٥ بخلط : أي بخلط من نحاس وذهب ، والمراد يجيء بشعر مختلط فيه القبيح والحسن .

٦ نحلوه : نسبوا إليه من الشعر . من هنا وهنا : أي مجتلب من هنا وهنا . صريح : أي خالص له .

٧ يسيء عفاً : أي يأتي بالسيء من الشعر إذا عف عن السرقة . أكدت : عجزت وقصرت . الكلب : شدة الإلحاح والحرص على الشيء .

٨ نكلت : نكصت وجبلت . الهم : العزم على عمل الشيء. وقوله: بعيد الهم، أي عزوم على الأشياء البعيدة المرام . السرب : الذهاب في الأرض . وهذا الهجو تهكمي في معرض المدح ، يفسره البيت التالي.

٩ اللجب : الصوت والجلبة . يقول : إن البحتري يغير على شعر الموتى من الشعراء فيسلبهم معانيهم الجميلة .

١٠ الحلل : الثياب . الحقب : الدهر والسنون .

قُلْ للعَلاءِ أبي عِيسَى الذي نَصَلَتْ بهِ الدّواهي ، نُصولَ الألِّ في رَجَبِ[1]

وآمَنَ اللهُ لَيلَ الخائِفينَ بهِ ، بَلْهَ النّهارَ ، وضَمَّ الأمرَ ذا الشُّعَبِ:[2]

أيَسرِقُ البُحتريُّ النّاسَ شِعرَهُمُ ، جَهراً، وأنتَ نَكالُ اللّصّ ذي الرِّيَبِ؟[3]

وتارَةً يُتْرِزُ الأرواحَ مَنطِقُهُ ، فالخَلْقُ ما بَينَ مَقتولٍ ومُغتَصَبِ[4]

نَكّلْهُ ، إنّ أناساً قَبلَهُ رُكِبُوا ، بدونِ ما قَد أتاهُ ، باسِقَ الخَشَبِ[5]

والحُكمُ فيهِ مُبينٌ غيرُ مُلْتَبِسٍ ، لو رِيمَ فيهِ خِلافُ الحَقّ لم يُصَبِ[6]

إذا أجادَ ، فأوْجِبْ قَطعَ مِقوَلِهِ ، فقَد دَهَى شُعراءَ النّاسِ بالحَرَبِ[7]

وإنْ أساءَ ، فأوجِبْ قَتلَهُ قَوَداً بمَن يُميتُ ، إذا أبقَى على السّلَبِ[8]

اللحية الطويلة

إنْ تَطُلْ لحيةٌ عليكَ، وتَعرُض، فالمَخالي مَعروفَةٌ للحَمِيرِ

علّقَ اللهُ في عِذارَيْكَ مِخْلا ةً ، ولكِنّها بغَيرِ شَعيرِ[9]

١ أبو عيسى العلاء بن صاعد وزير الدولة . نصلت : خرجت أي ذهبت . الأل : السلاح . وكان العرب يمتنعون عن الحرب في رجب فكأنهم ينزعون سلاحهم فيه .

٢ بله : اسم فعل بمعنى دع . الأمر ذا الشعب : أي النواحي المتفرقة ، واحدتها شعبة . يقول : إن الله آمن بالوزير ليل الخائف ، دع النهار فهذا من تحصيل الحاصل ، وجمع به (أي بالوزير) نواحي الأمر المتفرق .

٣ أيسرق البحتري : يرجع إلى قوله قل للعلاء . . . النكال : ما نكلت به غيرك ، أي أنزلت به من العقاب ما يحذر الآخرين . الريب : جمع الريبة وهي التهمة .

٤ يترز الأرواح : أي يزهقها ؛ يقال : أترز الشيء : أيبسه فلا روح فيه .

٥ يقول : أنزل به القصاص ، فإن قبله أناساً صلبوا على الخشب العالي وكانت جرائمهم أقل من الجريمة التي اقترفها .

٦ مبين : واضح . ريم : أريد . لم يصب : أي لم يدرك خلاف الحق .

٧ المقول : اللسان . الحرب : سلب المال ، والمراد سلب الأشعار .

٨ القود : القصاص ، يقال : قتله قوداً بالقتيل . بمن : الباء للبدل . يقول : إن البحتري إذا لم يسلب الشعراء حر كلامهم يأتي بشعر رديء سيء يقتل الناس ، لذلك يجب قتله قوداً بمن يقتلهم .

٩ عذاريك : جانبي وجهك المحاذيين للأذن .

لو غَدا حُكمُها إليّ ، لَطارَتْ   في مَهَبّ الرّياحِ كُلُّ مَطيرِ

ألقِها عَنكَ ، يا طَويلَةُ ! أو لا ،   فاحتَبِسها شَرارَةً في السّعيرِ[1]

أرْعِ فيها المُوسَى ، فإنّكَ منها ،   يَشهَدُ اللهُ ، في إثامٍ كَبيرِ[2]

أيّما كَوْسَجٍ يَراها ، فيَلقَى   رَبّهُ ، بعدَها، صَحيحَ الضّميرِ ؟[3]

هوَ أحرَى بأنْ يَشُكَّ ، ويَغرَى   باتّهامِ الحَكيمِ في التّقديرِ[4]

ما تَلَقّاكَ كَوسَجٌ قَطّ ، إلاّ   جَوّرَ اللهَ أيّما تَجويرِ[5]

لحيَةٌ أهمِلَتْ، فسالَتْ وفاضَتْ،   فإلَيها يُشيرُ كُلُّ مُشيرِ

ما رأتْها عَينُ امرىءٍ ، ما رآها   قَطّ ، إلاّ أهَلّ بالتّكبيرِ[6]

رَوعَةٌ تَستَخِفُّهُ ، لم يُرَعْها   مَن رأى وجهَ مُنكَرٍ ونَكيرِ[7]

فاتّقِ اللهَ ذا الجَلالِ ، وغَيّرْ   مُنكَراً فيكَ ، مُمكِنَ التّغييرِ

أو فَقَصّرْ منها ، فحَسبُكَ منها   نِصفُ شِبرٍ عَلامَةَ التّذكيرِ

لو رأى مثلَها النّبيّ ، لأجرى   في لِحَى النّاسِ سُنّةَ التّقصيرِ

---

١ قوله يا طويلة : التفات إلى اللحية ، ولا يخلو من غرابة في الاستعمال . فاحتبسها: فاحبسها ، أي اجعلها وقفاً للنار ، يريد بذلك أنه في إثم منها . وهذا يفسره البيت التالي .

٢ أرع : سرح ، أي سرح فيها الموسى لتأكل منها ، كما تسرح الماشية في المرعى . الاثام : الإثم .

٣ الكوسج : الخفيف اللحية الذي لا ينبت الشعر على عارضيه ، وإنما على ذقنه .

٤ يغرى بالشيء : يولع به . الحكيم : من الأسماء الحسنى . التقدير : تقسيم الأرزاق .

٥ جوره : نسب إليه الجور . والمراد أن الكوسج يكفر ويقول بأن الله غير عادل في تقسيم الأرزاق ؛ فيكون صاحب اللحية الطويلة مسؤولا لدى الله عن كفره .

٦ أهل : رفع صوته . التكبير : القول الله أكبر .

٧ الروعة : الفزعة . استخفه الفزع : حركه وأخرجه عن رباطة جأشه . منكر ونكير : هما ، عند المسلمين ، ملكان يقومان بفتنة الموتى في قبورهم ، أي بامتحانهم واختبارهم ، ويكون لهم في هذه الفتنة أشد الهول والعذاب . ومن الدعاء : أعوذ بك من عذاب القبر ، وأعوذ بك من فتنة المحيا والممات .

واستَحَبَّ الإحفاءَ فيهِنَّ والحَلْـقَ ، مَكانَ الإعفاءِ والتّوفيرِ[1]

وجه عمرو

قال يهجو عمراً النصراني ، ويستدل من أهاجيه له أنه كان حاجب الوزير ، وكان يمنع ابن الرومي فلا يأذن له بالدخول :

وَجهُكَ ، يا عَمرُو ، فيهِ طولُ ، وفي وُجُوهِ الكِلابِ طُولُ
مَقابِحُ الكَلْبِ فيكَ طُرّاً ، يَزولُ عَنها ، ولا تَزولُ[2]
وفيهِ أشياءُ صالحاتٌ ، حَمَاكَها اللهُ والرّسُولُ :[3]
فالكَلبُ وافٍ ، وفيكَ غَدرٌ ، فَفيكَ عَن قَدرِهِ سُفُولُ
وقد يُحامي عنِ المَواشي ، وما تُحامي ولا تَصولُ
وأنتَ مِن أهلِ بَيتِ سَوءٍ ، قِصّتُهُم قِصّةٌ تَطُولُ[4]
وُجوهُهُم للوَرَى عِظاتٌ ، لكِنّ أقفاءَهُم طُبُولُ[5]
نَستَغفِرُ اللهَ . قد فَعَلنا ما يَفعَلُ المائقُ الجَهُولُ[6]
ما إنْ سألناكَ ما سألنا ، إلاّ كَما تُسألُ الطُّلُولُ[7]

١ الاحفاء : هو أن يبالغ في قص الشوارب والأخذ منها . فيهن : أي في اللحى . الاعفاء : ترك اللحى تطول فلا يؤخذ منها . وفي الحديث النبوي ، إنه أمران : تحفى الشوارب ، وتعفى اللحى . التوفير : أي توفير شعر اللحية ، وهو الاعفاء . والمراد أنه لو رأى النبي مثل هذه اللحية لجعل الاحفاء في اللحى سنة مكان الاعفاء .

٢ طراً : جميعاً . يزول عنها ولا تزول : أي يترك الكلب هذه المقابح وأنت لا تتركها .

٣ حماكها : منعك إياها .

٤ سوء : شر .

٥ الأقفاء ، جمع القفا : مؤخر العنق . يقول : إن وجوههم لقبحها تعظ الناس فتدعوهم إلى الزهد في الدنيا وملذاتها . ولكن أقفاءهم تدعوهم إلى اللهو بصفعها فكأنها طبول يضرب عليها . وصفع القفا : يدل على لؤم المصفوع وذله .

٦ المائق : الأحمق .

٧ ما سألنا : أي ما سألنا من حاجة .

صَمَتَتْ وعَيَّتْ ، فلا خِطابٌ ، ولا كتابٌ ، ولا رَسُولُ
مُسْتَفعِلُنْ فاعِلُنْ فَعُولُ ، مُسْتَفعِلُنْ فاعِلُنْ فَعُولُ
بَيتٌ كَمَعْناكَ ، لَيسَ فيهِ مَعنًى ، سِوى أنّهُ فُضُولُ[1]

المديح المردود

وقال يهجو شخصاً كان قد مدحه ، فرد اليه الشعر ، وقال له امدح به غيري :

رَدَدتَ عليّ مَدحي بَعدَ مَطلٍ ، وقد دَنّستَ مَلبَسَهُ الجَديدَا
وقلتَ: «امدحْ به من شئتَ غيري » ومَن ذا يَقبَلُ المَدحَ الرّديدَا ؟
ولا سِيما ، وقد أعبَقتَ فيهِ مَخازِيَكَ اللّواتي لَن تَبيدَا[2]
وما للحَيّ ، في أكفانِ مَيتٍ ، لَبوسٌ ، بَعدَما امتلأتْ صَديدَا[3]

الفضول : جمع فضل وهو الزيادة . ويستعمل الجمع استعمال المفرد في الزيادة التي لا خير فيها . كما استعمل هنا .

لا سيما : مخفف لا سيما . أعبق : هنا بمعنى عبق أي نشر الرائحة ، ولم نجد له ذكراً في المعاجم التي وقفنا عليها ؛ وهذه رواية الديوان . وفي معاهد التنصيص : أعلقت ، أي أنشبت أو علقت .

٣ الصديد : ماء الجرح الرقيق إذا سال ، أو هو القيح المختلط بالدم . والمراد هنا ما يسيل من جثة الميت . والمعنى : أن المدح بعد أن عبقت فيه مخازي الممدوح ، صار مثل كفن الميت سال عليه الصديد ، فأي حي يلبسه من بعده حتى يمدح به غيره ؟

الرثاء

رثاء ولده الأوسط

بُكاؤكُما يَشفي ، وإن كانَ لا يُجدي ، — فجُودا ، فقد أودَى نَظيرُكما عِندي[1]

ألا قاتَلَ اللهُ المَنايا ورَميَها ، — من القَومِ ، حَبّاتِ القلوبِ ، على عَمدِ[2]

تَوَخّى حِمامُ الموتِ أوسَطَ صِبيَتي ، — فَلِلّهِ ! كيفَ اختارَ واسطَةَ العِقدِ ![3]

على حينَ شِمتُ الخَيرَ من لَمَحاتِهِ ، — وآنَستُ مِن أفعالِهِ آيَةَ الرُّشدِ[4]

طَواهُ الرّدى عنّي ، فأضحى مَزارُهُ — بَعيداً على قُربٍ ، قَريباً على بُعدِ

لقَد أنجَزَتْ فيهِ المَنايا وَعيدَها ، — وأخلَفَتِ الآمالُ ما كانَ مِن وَعدِ

لقَد قَلّ بَينَ المَهدِ واللّحدِ لُبثُهُ ، — فلم يَنسَ عهدَ المَهدِ ، إذ ضُمّ في اللّحدِ

ألَحّ علَيهِ النّزْفُ ، حتى أحالَهُ — إلى صُفرَةِ الجاديِّ عن حُمرَةِ الوَردِ[5]

وظَلّ على الأيدي تَساقَطُ نَفسُهُ ، — ويَذوي كما يَذوي القَضيبُ منَ الرّندِ[6]

فَيا لَكِ مِنْ نَفسٍ ، تَساقَطُ أنفُساً ! — تَساقُطَ دُرٍّ مِن نِظامٍ بلا عَقْدِ[7]

عَجِبتُ لقَلبي كَيفَ لم يَنفَطِرْ لهُ ، — ولو أنّهُ أقسَى منَ الحَجَرِ الصَّلْدِ[8]

وما سَرّني أنْ بِعتُهُ بثَوابِهِ ، — ولو أنّهُ التّخليدُ في جَنّةِ الخُلدِ[9]

....

١ بكاؤكما : خطاب لعينيه .

٢ الحبات : جمع حبة ؛ وحبة القلب : سويداؤه ، وهي هنة سوداء فيه .

٣ واسطة العقد : الجوهرة التي في وسطه .

٤ شمت : نظرت . آنست : نظرت وعلمت . الآية : العلامة .

٥ الجادي : الزعفران .

٦ يذوي : يذبل . الرند : شجر طيب الرائحة يشبه الآس .

٧ يقول : إن ولده تلاشى شيئاً فشيئاً ، فكأن نفسه تتساقط أنفساً مجزأة كما يتساقط الدر من سلك غير معقود .

٨ ينفطر : ينشق . الصلد : الصلب .

٩ بعته بثوابه : أي بدلا بما يلقاه من أجر أو جزاء .

ولا بِعتُهُ طَوعاً ، ولكِنْ غُصِبتُهُ ، ولَيسَ على ظُلمِ الحَوادِثِ من مُعدِ[1]

وإنّي ، وإنْ مُتِّعتُ بابنَيَّ بَعدَهُ ، لَذاكِرُهُ ما حَنّتِ النِّيبُ في نَجدِ[2]

وأولادُنا مثلُ الجَوارِحِ ، أيُّها فقَدناهُ ، كانَ الفاجعَ البَيِّنَ الفَقدِ[3]

لكُلٍّ مَكانٌ لا يَسُدُّ اختِلالَهُ مَكانُ أخيهِ مِن جَزُوعٍ ولا جَلدِ[4]

هَلِ العَينُ ، بعدَ السّمعِ ، تكفي مكانَه ؛ أمِ السّمعُ ، بعدَ العينِ ، يَهدي كما تَهدي؟[5]

لَعَمري ! لقَد حالَتْ بيَ الحالُ بعدهُ ، فيا لَيتَ شعري ، كيفَ حالتْ بهِ بعدي؟[6]

ثَكِلتُ سروري كُلّهُ ، إذ ثَكِلتُهُ ، وأصبَحتُ في لَذّاتِ عَيشي أخا زُهدِ

أرَيحانَةَ العَينَينِ والأنفِ والحَشا ، ألا ليتَ شعري ، هل تَغيّرتَ عن عهدي؟

سأسقيكَ ماءَ العَينِ ، ما أسعَدَتْ بهِ وإن كانتِ السُّقيا منَ العَينِ لا تُجدي[7]

أعَينَيّ ، جُودا لي ، فقد جُدتُ للثّرَى بأنفَسَ مِمّا تُسألانِ منَ الرِّفْدِ[8]

كأنّيَ ما استَمتَعتُ منكَ بضَمّةٍ ، ولا شَمّةٍ في مَلعَبٍ لكَ ، أو مَهدِ

ألامُ لِما أُبدي علَيكَ منَ الأسَى ، وإنّي لأُخفي منكَ أضعافَ ما أُبدي

مُحَمّدُ ! ما شيءٌ تُوُهِّمَ سَلوَةً لقَلبيَ ، إلاّ زادَ قَلبي منَ الوَجدِ

أرَى أخَوَيكَ الباقِيَيْنِ كِلَيهِما يَكونانِ للأحزانِ أورَى منَ الزَّندِ[9]

---

١ معد : معين ؛ من أعدى فلاناً على الأمر أعانه ونصره .
٢ النيب : جمع الناب ، وهي الناقة المسنة .
٣ الجوارح : أعضاء الإنسان التي تكتسب كالعين والأذن والأنف .
٤ الجزوع : الذي لا يصبر ، ضد الجلد . يقول : لكل من الجوارح مكان في جسم الإنسان ، فإذا اختل عضو منها ، لا يسد خلله العضو الآخر سواء كان في جسم شخص جزوع أو شخص جلد .
٥ مكانه : أي مكان السمع .
٦ حالت بي الحال : أي تغيرت .
٧ ما أسعدت به : أي ما أسعفت بالدمع .
٨ الرفد : الجود والعطاء . يقول لعينيه : جودا لي بالدمع واسعفاني به ، فإني جدت التراب بشيء أنفس من الدمع الذي أسألكما أن تجودا به .
٩ أورى : أكثر اتقاداً . الزند : العود الأعلى الذي تقدح به النار .

إذا لَعِبَا في مَلعَبٍ لكَ ، لَدّعَا   فُؤادي بمِثلِ النّارِ، عن غَيرِ ما قَصدِ
فَما فيهِما لي سَلوَةٌ ، بل حَرارَةٌ ،   يَهيجانِها دوني ، وأشقَى بها وَحدي[1]
وأنتَ ، وإن أُفرِدتَ في دارِ وَحشَةٍ ،   فإنّي ، بدارِ الأُنسِ ، في وَحشةِ الفَردِ
علَيكَ سَلامُ اللهِ منّي تَحيّةً ،   ومن كلّ غَيثٍ صادقِ البرقِ والرّعد

الغزل

وحيد المغنية

من قصيدة يتغزل فيها بالمغنية وحيد ، ويصف غناءها :

يا خَليلَيّ ! تَيّمَتْني وَحيدُ   فَفُؤادي بها مُعَنًّى عَميدُ[2]
غادَةٌ ، زانَها منَ الغُصنِ قَدٌّ ،   ومِنَ الظّبْيِ مُقلَتانِ وجيدُ[3]
وزَهاها ، مِن فَرعِها ومنَ الخَدّ   ينِ ، ذاكَ السّوادُ والتّوريدُ[4]
فهْيَ بَردٌ بخَدّها وسَلامٌ ؛   وهيَ للعاشقينَ جَهدٌ جَهيدُ[5]

* * *

تَتَغَنّى ، كأنّها لا تُغَنّي ،   من سكونِ الأوصالِ ،وهيَ تُجيدُ[6]

١ دوني : نحوي .
٢ تيمتني : استعبدتني بحبها . المعنى : المحزون ، المكلف ما يشق عليه . العميد : الشديد الحزن الذي هده العشق .
٣ الغادة : المرأة الناعمة اللينة الأعطاف .
٤ الفرع : الشعر التام .
٥ الجهد : التعب والمشقة ، وجهد جهيد : للمبالغة ، أي جهد جاهد .
٦ يقول : تغني ولا تتحرك أوصالها كغيرها من المغنين ، لتستعين بالحركة على الغناء ، ومع ذلك فهي تجيد.

لا تَراها ، هُناكَ ، تَجحَظُ عَينٌ لكَ ، مِنها ، ولا يَدِرُّ وَرِيدُ[1]

من هُدوٍّ ، وليسَ فيهِ انقِطاعٌ ، وسُجُوٍّ ، وما بهِ تَبليدُ[2]

مَدَّ في شأوِ صَوتِها نَفَسٌ كا فٍ ، كأنفاسِ عاشقِيها مَديدُ[3]

وأرَقَّ الدَّلالُ والغِنجُ منهُ ، وبَراهُ الشَّجا ، فكادَ يَبيدُ[4]

فتَراهُ يَموتُ طَوراً ، ويَحيَا ؛ مُستَلَذٌّ بَسيطُهُ والنَّشيدُ[5]

فيهِ وَشيٌ ، وفيهِ حَليٌ منَ النَّغْـ مِ مَصُوغٌ ، يَختالُ فيهِ القَصيدُ[6]

قمر يقبل عارض الشمس

ومُهَفهَفٍ كَمُلَتْ مَحاسِنُهُ ، حتى تجاوَزَ مُنيَةَ النَّفسِ[7]

تَصبُو الكُؤوسُ إلى مَراشِفِهِ ، وتَضِجّ في يَدِهِ منَ الحَبسِ[8]

أبصَرتُهُ ، والكأسُ بينَ فَمٍ منهُ ، وبَينَ أناملٍ خَمسِ

فكأنّها ، وكأنَّ شارِبَها قَمَرٌ يُقَبِّلُ عارِضَ الشّمسِ[9]

---

١ يقول : إذا غنت لا تجحظ عيناها من التعب . يدر : يظهر ويتوتر ويتحرك . الوريد : عرق في العنق .
٢ السجو : مد الصوت بالحنين وهنا مده بالغناء . تبليد : تردد وتحير .
٣ الشأو : الغاية والمدى . كأنفاس عاشقيها مديد : أي في حنينهم المتواصل إليها .
٤ براه : أضعفه . الشجا : يريد ما يعترض الصوت من الغصة المستحبة في الغناء .
٥ البسيط : ما يمتد به الصوت ويرق . النشيد : رفع الصوت والترنيم .
٦ الوشي : نقش الثوب ، أو خلط لون بلون . يريد أنها تتفنن في غنائها فتمزج أصواتاً بأصوات . حلي : زينة . يختال : يتزين .
٧ المهفهف : الضامر البطن ، الدقيق الخصر . حتى تجاوز منية النفس : أي تجاوز بحسنه ما تتمناه النفس .
٨ تصبو : تشتاق . مراشفه : شفاهه ، واحدها مرشف . من الحبس : أي إذا حبسها في يده ضجت لشوقها إلى مراشفه .
٩ فكأنها : أي كأس الخمرة ، وخبرها محذوف دل عليه ما بعده وهي الشمس . العارض : صفحة الخد .

الوصف

حديقة الشعر

من قصيدة طويلة قالها في مدح اسماعيل بن بلبل وزير المعتمد ، وصدرها بوصف المرأة :

أجْنَنْتَ لكَ الوَجدَ أغصانٌ وكُثبانُ ،   فيهِنَّ نَوعانِ : تُفَّاحٌ ورُمّانُ[١]

وفَوقَ ذَيْنِكَ أعنابٌ مُهَدَّلَةٌ ،   سُودٌ ، لَهُنَّ ، منَ الظَّلْماءِ ، ألوانُ[٢]

وتَحتَ هاتيكَ عُنّابٌ ، تَلُوحُ بهِ   أطرافُهُنَّ ، قُلوبُ القَومِ قِنوانُ[٣]

غُصونُ بانٍ ، عليها ، الدَّهرَ ، فاكهَةٌ ؛   وما الفَواكِهُ ممّا يَحمِلُ البَانُ[٤]

ونَرجسٌ باتَ ساري الطَّلِّ يَضرِبُهُ ،   وأُقحُوانٌ مُنيرُ النَّورِ ، رَيّانُ[٥]

. . .   . . .

١ أجنت : أعطت جناها . الوجد : الحزن . أغصان : على سبيل الاستعارة ، والمراد القدود . كثبان : جمع كثيب وهو تل الرمل ؛ والمراد هنا الردف الثقيل . تفاح : أي خدود . رمان : أي نهود .

٢ ذينك : مثنى ذا ، اسم اشارة ، والكاف حرف خطاب . والمراد: وفوق هذين النوعين، اي التفاح والرمان . الأعناب : جمع عنب ، ويريد بها الشعر المقصوص المقرب على الزي الغلامي ، فهو يشبه عناقيد العنب في تهدله . مهدلة : مدلاة .

٣ هاتيك : أي هاتيك الأعناب . العناب : أي أطراف الأصابع المخضبة بالحناء . تلوح : تبدو . أطرافهن : أي أطراف الأصابع . القنوان : جمع قنو وهو العلق من النخل كالعنقود من العنب . يقول : إن قلوب الناس أشبه بالعناقيد لهذه الفواكه ، تحملها لشغفها وهيامها بها .

٤ يقول : هذه الغصون التي أجنت لك الوجد ، هي غصون من البان ، لحسن قاماتها ، وحسن اهتزازها ، ومن الغريب أن تكون عليها فاكهة طول الدهر ، مع أن البان لا يحمل الفواكه .

٥ نرجس : أي عيون . الساري : ما جاء ليلا . الطل : الندى أو المطر الخفيف . يشبه عيون الحسان بالنرجس الريان الذي سقاه الطل فتفتح وغض . الأقحوان : نبت أصفر الزهر ، في وسطه وحواليه ورق أبيض ؛ يشبه به الأسنان . منير : مخرج نوره . النور : الزهر الأبيض . ريان : مرتو . يشبه الأسنان في بياضها ومائها بالأقحوان الريان .

أَلْفَنَ مِن كلِّ شيءٍ طَيِّبٍ حَسَنٍ ؛ فهُنَّ فاكِهةٌ شَتَّى ، ورَيْحانُ[1]
ثِمارُ صِدْقٍ ، إذا عايَنْتَ ظاهرَها ؛ لكِنَّها ، حينَ تَبلُو الطَّعمَ ، خُطْبانُ[2]
بل حُلوَةٌ مُرَّةٌ ، طَوراً يُقالُ لها : شَهْدٌ؛ وطَوراً يقولُ النّاسُ : ذَيفانُ[3]

* * *

تَغدو الفَتاةُ ، لها خِل ، وإن غدَرَتْ ، راحتْ يُنافِسُ فيها الخِلَّ خِلاّنُ
ما للحِسانِ مُسيئاتٍ بنا ، ولَنا إلى المُسيئاتِ ، طولَ الدّهرِ ، تَحنانُ ؟
يُصبِحنَ والغَدرَ بالخُلصانِ في قَرَنٍ ، حتّى كأنْ لَيسَ غيرَ الغَدرِ خُلصانُ[4]
فإنْ تُبِعنَ بعَهدٍ ، قُلنَ : مَعذِرَةٌ ، إنّا نَسينا ، وفي النّسوانِ نِسيانُ[5]
يَكفي مُطالِبَنا بالذّكرِ ناهيَةً أنّ اسمَنا الغالِبَ المَشهورَ نِسوانُ[6]
لا نُلزَمُ الذّكرَ ، إنّا لم نُسَمَّ بهِ ، ولا مُنِحناهُ ، بل للذّكرِ ذُكرانُ[7]

قوس السحاب

وَقَد نشَرَتْ أيْدي الجَنوبِ مَطارِفاً على الجوّ دُكناً ، وَالحوَاشي على الأرْضِ[8]

---

١ ألفن : الضمير يعود إلى الأغصان .
٢ تبلو : تختبر . خطبان : ضرب من الحنظل . يقول : إذا نظرت إلى الحسناء من حيث الظاهر ، خلتها حلوة الطعم كالثمار الصادقة في حسن ظاهرها وباطنها ، ولكن حين تختبر هذه الحسناء أو هذه الثمار التي تظنها صادقة ، تجدها مرة كالحنظل .
٣ شهد : عسل . الذيفان : السم القاتل .
٤ الخلصان : الخالص من الأصحاب ، يستوي فيه الواحد والجمع . القرن : الحبل الذي يجمع فيه البعيران . يقول : يصبحن مجموعات مع الغدر بالأصحاب في حبل واحد حتى كأن ليس لهن صاحب خالص الصحبة غير الغدر لطول اجتماعهن معه .
٥ تبعن بعهد : أي طولبن به .
٦ بالذكر : أي بذكر العهد . ناهية : أي ناهية تنهاه عن هذه المطالبة .
٧ الذكران : جمع ذكر ضد الأنثى . والمراد أن النسوان لا تطالب بالذكر لأن اسمهن مشتق من النسيان ، وإنما تطالب الذكور به لأن اسمهم مشتق منه .
٨ الجنوب : أي ريح الجنوب . المطارف ، جمع مطرف : رداء من خز مربع ذو أعلام ، وهو مستعار للغيوم . الدكن : ما كان لونها يضرب إلى السواد ، واحدها أدكن ودكناء .

يُطَرِّزُهَا قَوْسُ السَّحَابِ بِأخضَرٍ، على أحمَرٍ، في أصْفَرٍ، إثرَ مُبيَضٍ[1]
كأذْيَالِ خَوْدٍ ، أقبَلَتْ في غَلائلٍ مُصَبَّغَةٍ ، وَالبَعضُ أقصرُ من بعضِ[2]

البنفسج[3]

بَنَفسَجٌ ، جُمعَتْ أوراقُهُ ، فحكى كُحلاً تَشَرَّبَ دَمعاً ، يومَ تَشتيتِ[4]
ولازَوَرديةٍ تَزهُو بزُرقَتِها ، وسطَ الرِّياضِ ، على حُمرِ اليَواقيتِ[5]
كأنّها ، وضِعافُ القُضبِ تَحمِلُها ، أوائلُ النّارِ في أطرافِ كِبريتِ[6]

روضة الصباح

حَيّتكَ عَنّا شَمالٌ ،طافَ طائفُها بجَنّةٍ ، نَفَحَتْ رَوحاً وريحانَا[7]
هبّتْ سُحَيراً، فناجى الغُصنُ صاحبَه مُوَسوِساً ، وتَداعَى الطّيرُ إعلانَا[8]
وُرْقٌ تُغَنّي على خُضرٍ مُهَدَّلَةٍ ، تَسمُو بها ، وتَمَسُّ الأرضَ أحيانَا[9]

. . . .

١ يطرزها : الضمير يعود إلى المطارف أي الغيوم .
٢ الخود : الشابة الناعمة . غلائل : جمع غلالة وهي شعار يلبس تحت الثوب . وقوله البعض أقصر من بعض : يريد بذلك إظهار ألوانها المختلفة فيتألف منها قوس السحاب .
٣ رويت هذه الأبيات في معاهد التنصيص ، وليست من رواية الديوان .
٤ يوم تشتيت : أي يوم فراق . المعنى أن فتاة مكحلة بكت يوم الفراق ، فمازج الدمع كحل عينيها ، فازرق لونه وصار بنفسجياً ، وتفشى فبدت عيناها كمجموعتي بنفسج .
٥ لازوردية : أي بنفسجة بلون حجر اللازورد وهو معدن يتولد بجبال ارمينية وفارس ، وأجوده الصافي الشفاف الأزرق الضارب إلى حمرة وخضرة ، يتخذ للحلي ، وله منافع في الطب . حمر اليواقيت : أراد بها قضبان البنفسج ، وهي حمر بلون الياقوت .
٦ القضب : جمع قضيب . الكبريت : مادة بسيطة معدنية صفراء اللون يوقد بها ، فإذا أوقد عودها بدت أوائل ناره بلون أزرق لازوردي ويظل كذلك حتى يشتعل ما عليه من الكبريت .
٧ الروح : الراحة والرحمة والسرور .
٨ الموسوس : المتكلم بكلام خفي . تداعى : دعا بعضه بعضاً .
٩ الورق : جمع ورقاء وهي الحمامة التي يضرب لونها إلى خضرة الورق .

تَخالُ طائرَها نَشوانَ من طَرَبٍ ، والغُصنَ ، من هَزّهِ عِطفَيهِ ، نَشوانَا

روضة المساء

من قصيدة وصف بها الصيد ، وتطرق إلى ذكر غروب الشمس :

وقد رَنّقتْ شمسُ الأصيلِ ، ونَفّضَتْ ، على الأُفُقِ الغَربيّ وَرْساً مُزَعزَعَا[1]
ووَدّعَتِ الدّنيا ، لتَقضيَ نَحبَها ؛ وشَوّلَ باقي عُمرِها ، فتَشَعشَعَا[2]
ولاحَظَتِ النُّوّارَ ، وهيَ مَريضَةٌ ؛ وقد وضَعَتْ خَدّاً إلى الأرضِ أضرَعَا[3]
كما لاحَظَتْ عُوّادَهُ عَينُ مُدنَفٍ ، تَوَجّعَ من أوصابِهِ ما تَوَجّعَا[4]
وظَلّتْ عيونُ النَّورِ تَخضَلُّ بالنّدى ، كما اغرَوْرَقَتْ عَينُ الشّجيّ لتَدمَعَا[5]
يُراعينَها صُوراً إلَيها رَوانياً ، ويَلحَظنَ ألحاظاً منَ الشّجوِ خُشّعَا[6]
وبَيّنَ إغضاءُ الفِراقِ علَيهِما ، كأنّهُما خِلاّ صَفاءٍ تَوَدّعَا[7]
وقد ضرَبَتْ في خُضرَةِ الرّوضِ صُفرَةٌ ، منَ الشّمسِ ، فاخضرّ اخضراراً مُشعشَعَا[8]

....

١ رنقت : ضعف بصرها وجسمها . الأصيل : العشي . الورس : نبات كالسمسم أصفر ، يزرع باليمن ، ويصبغ به . والمراد هنا الصفرة التي تنشرها الشمس عند الغروب . مزعزعاً : مقلقلا محركاً . وقد يكون محرفاً عن مذعذع ، بالذال ، أي مبدد مفرق .

٢ شول : ارتفع . باقي عمرها : أي الشفق الذي تتركه مرتفعاً فوقها وهي تنحدر إلى الغروب . تشعشع : بقي منه قليل ، من قولهم تشعشع الشهر .

٣ النوار : الزهر الأبيض . إلى الأرض : لأن الشمس تغيب على البر في بغداد . الأضرع : هنا أفعل المبالغة لا للتفضيل ، أي الأذل الأخضع . ويقال : ضرعت الشمس : أشرفت على المغيب .

٤ العواد : زوار المريض . وقوله : عواده : أرجع الضمير إلى متأخر لفظاً ورتبة . المدنف : المريض المشرف على الموت . الأوصاب : الأمراض ، واحدها وصب .

٥ النور : الزهر أو الأبيض منه . تخضل : تبتل . الشجي : المهموم الحزين .

٦ يراعينها : أي عيون النور تراعي الشمس . صوراً : واحدها أصور وصوراء ، يقال رجل أصور إلى كذا : إذا مال عنقه ووجهه إليه . روانياً : مديمة إليها النظر بسكون الطرف . الشجو : الحزن . خشعاً : ضارعة ذليلة .

٧ الإغضاء : الإظلام ، يقال : أغضى الليل عليه ، أي ألبسه ظلامه ، استعاره للفراق .

٨ ضربت : مالت . مشعشعاً : ممزوجاً ، أي ممزوجاً بالصفرة .

وأذكى نَسيمُ الرّوضِ رَيعانَ ظِلّهِ ؛ وغنّى مُغنّي الطّيرِ فيهِ ، وسَجّعَا[1]
وغرّدَ رِبْعيُّ الذّبابِ خِلالَــهُ ، كما حَثْحَثَ النّشوانُ صَنجاً مُشرَّعَا[2]
فكانَتْ أرانينُ الذّبابِ هُناكُمُ ، على شَدَواتِ الطّيرِ ، ضَرْباً مُوَقَّعَا[3]
وفاضَتْ أحاديثُ الفُكاهاتِ بَينَنا ، كأحسَنَ ما فاضَ الحَديثُ وأمتَعَا

الزلابية

ومُستَقِرٍّ على كُرسيّهِ ، تَعِبٍ ، روحي الفِداءُ لهُ من مُنصَبٍ تَعِبِ[4]
رأيتُهُ سَحَراً يَقلي زَلابيَـةً ، في رِقّةِ القشرِ والتّجويفِ، كالقصَبِ
كأنّما زَيتُهُ المَقليُّ ، حينَ بَدا ، كالكيمياءِ التي قالوا ، ولم تُصِبِ[5]
يُلقي العَجينَ لُجَيناً مِن أنامِلِهِ ، فيَستَحيلُ شَبابيكاً منَ الذّهَبِ[6]

خباز الرقاق

ما أنسَ ، لا أنسَ خبّازاً مرَرتُ بهِ يَدحو الرُّقاقَةَ ، وَشْكَ اللّمحِ بالبصرِ[7]

. . . .

١ أذكاه : جعل رائحته ذكية ساطعة . الريعان : أول الشيء وأفضله . ظله : أي ظل الاخضرار المشعشع ؛ مزج الرائحة باللون . سجع : ردد صوته .

٢ الربعي : نسبة إلى الربيع . حثحث : حرك . الصنج : شيء يتخذ من النحاس الأصفر ، ويكون زوجين يضرب أحدهما على الآخر ، وآلة بأوتار يضرب بها ، وهي المقصودة هنا . المشرع : المشدود الأوتار.

٣ الأرانين : الأصوات لها رنة كرنة القوس . هناكم : أي هناك ألحق بها ميم الجماعة .

٤ المنصب : المعيي .

٥ الكيمياء : يريد بها البحث عن الحجر الفلسفي الذي يحول كل معدن ذهباً ، وكان في هذا العصر قد ظهر بطلان هذا الزعم ، فلذلك قال : ولم تصب .

٦ اللجين : الفضة . يقول : كأن زيت قالي الزلابية الكيمياء التي بحثوا عنها ليحولوا كل معدن ذهباً ؛ فإن القالي يلقي العجين الأبيض كالفضة في زيته المغلي ، فإذا هذه الفضة تتحول ذهباً .

٧ يدحو : يبسط . الرقاقة : الواحدة من الخبز الرقيق . الوشك : السرعة .

ما بَيْنَ رُؤْيَتِها في كَفِّهِ كُرَةً ، وبَيْنَ رُؤْيَتِها قَوْراءَ كالقَمَرِ[1]
إلاّ بمِقْدارِ ما تَنْداحُ دائرةٌ في صَفْحَةِ الماءِ ، يُرمَى فيه بالحَجَرِ[2]

العنب

ورازِقيٍّ مُخطَفِ الخُصورِ ، كأنّهُ مَخازِنُ البَلّورِ[3]
لم يُبقِ منهُ وَهَجُ الحَرُورِ إلاّ ضِياءً في ظُروفِ نُورِ[4]
لو أنّهُ يَبقَى على الدّهورِ ، قَرّطَ آذانَ الحِسانِ الحُورِ[5]
لهُ مَذاقُ العَسَلِ المَشُورِ ، ونَكهَةُ المِسكِ معَ الكافورِ[6]
وبَرْدُ مَسّ الخَصِرِ المَقرورِ[7]

الأحدب

قَصُرَتْ أخادِعُهُ ، وغارَ قَذالُهُ ، فكأنّهُ مُتَرَبِّصٌ أنْ يُصفَعَا[8]
وكأنّما صُفِعَتْ قَفاهُ مَرّةً ، وأحَسّ ثانيةً لها ، فتجَمّعَا[9]

١ قوراء : واسعة مستديرة .
٢ تنداح : تنبسط متسعة .
٣ الرازقي ويقال له الملاحي : عنب أبيض طويل . مخطف الخصر : منطويه .
٤ الحرور : الحر وجمعه أو هي الحرور بالفتح أي حر الشمس أو الحر الدائم .
٥ قرط الأذن : زينها بالقرط ، وهي الحلية التي تعلق في شحمتها . الحور : جمع حوراء ، وهي التي في عينيها حور ، أي أن يشتد بياض بياض العين وسواد سوادها ، وتستدير حدقتها ، وترق جفونها .
٦ المشور : المستخرج من خلاياه ، من شاره يشوره : اجتناه . الكافور : نبت طيب الرائحة ، نوره كنور الأقحوان ؛ والكافور أيضاً : طيب يكون من شجر بجبال بحر الهند والصين ، وخشبه أبيض هش خفيف جداً ويوجد في أجوافه الكافور .
٧ الخصر : البارد . المقرور : الذي أصابه القر أي برد الشتاء .
٨ الأخادع : جمع أخدع ، وهو عرق في صفحة العنق ، وهما أخدعان . القذال : جماع مؤخر الرأس . متربص : منتظر . وفي رواية : وطال قذاله ، وعليها اعتمد دارسو شعر ابن الرومي في عصرنا ، ولكننا لم نطمئن إليها ، بل فضلنا رواية معاهد التنصيص ، لأنها أصدق في تصوير الأحدب .
٩ القفا : مؤخر العنق .

اغراض مختلفة

ذكريات الشباب

قال من قصيدة يمدح بها عبيد الله بن عبد الله بن طاهر :

يُذكّرُني الشّبابَ هَوانُ عتْبي ، وصَدٌّ الغانياتِ لدى عِتابي[1]

يُذكّرُني الشّبابَ سِهامُ حَتْفٍ ، يُصِبنَ مَقاتِلي دونَ الإهابِ[2]

رَمَتْ قلبي بهِنّ ، فأقصَدَتْهُ طَلُوعُ النَّبلِ مِنْ خَلَلِ النِّقابِ[3]

فَراحَتْ ، وهيَ في بالٍ رَخيٍّ ؛ ورُحتُ بلَوعةٍ مثلَ الشِّهابِ[4]

ولو شَهِدَ الشّبابُ ، إذنْ لراحتْ وإنّ بها ، وعَيشِكَ ، ضِعفَ ما بي[5]

يُذكّرُني الشّبابَ جِنانُ عَدْنٍ ، على جَنَباتِ أنهارٍ عِذابِ[6]

تُفَيِّيءُ ظِلَّها نَفَحاتُ ريحٍ ، تَهُزّ مُتونَ أغصانٍ رِطابِ[7]

إذا ماسَتْ ذَوائبُها ، تَداعَتْ بَواكي الطيرِ ، فيها ، بانتِحابِ[8]

... ...

١ يقول : يذكره الشباب قلة احتفاء الحسان به ، فقد هان عليهن عتابه ، وإذا عاتبهن ، أعرضن عنه .

٢ الحتف : الموت . الإهاب : الجلد . والمراد بسهام الحتف ما ترسله الحسناء من نظراتها ، فتصيب منه موضع القتل في قلبه ، دون أن تخترق جلد البدن .

٣ أقصده السهم : أصابه فقتله في مكانه . طلوع : كثيرة الطلوع ، وهو فاعل رمت . الخلل : المنفرج ما بين الشيئين . النقاب : القناع على طرف الأنف تستر به المرأة وجهها ، وتبدي عينيها . المعنى : أن نبال عينيها تطلع من خلل نقابها أي من فرجته بين الأنف وأعلى الرأس .

٤ البال الرخي : أي الحال الحسنة المتسعة السهلة . الشهاب : شعلة النار الساطعة .

٥ شهد : حضر .

٦ جنان عدن : أي جنان إقامة يعني حيث تطيب الإقامة ؛ يقال عدن بالمكان عدناً : أقام ؛ وجنة عدن في الأصل : هي الموضع الذي وضع الله فيه آدم ، ولا يعلم مكانها .

٧ تفييء ظلها : تحركه ، يقال فيأت الريح الزرع والشجر : حركتهما ؛ وقوله تفييء ظلها : لأن الريح تحرك الأغصان فيتحرك ظلها معها . المتون : الظهور .

٨ ذوائبها : أي أعالي الأغصان .

يُذَكِّرُني الشبابَ رِياضُ حَزْنٍ ، تَرَنَّمُ ، بَيْنَها ، زُرْقُ الذّبابِ[1]
إذا شَمسُ الأصائلِ عارَضَتها ، وقد كَرَبَتْ تَوارَى بالحِجابِ[2]
وألقَتْ ، جُنحَ مَغرِبِها ، شُعاعاً مَرِيضاً مثلَ ألحاظِ الكَعابِ[3]
يُذَكِّرُني الشبابَ سَراةُ نِهْيٍ نَميرِ الماءِ ، مُطَّرِدِ الحَبابِ[4]
قَرَتْهُ مُزْنَةٌ بِكْرٌ ، وأضحَى تُرَقرِقُهُ الصَّبا مِثلَ السَّرابِ[5]
على حَصباءَ ، في أرضٍ هِجانٍ ، كأنّ تُرابَها ذَفِرُ المَلابِ[6]
لهُ حُبُكٌ ، إذا اطّرَدَتْ علَيهِ ، قرأتَ بها سُطوراً في كِتابِ[7]
تُذَكِّرُني الشّبابَ صَباً بَليلٌ ، رَسيسُ المَسّ ، لاغِبَةُ الرِّكابِ[8]

....

١ الحزن : ضد السهل من الأرض . زرق الذباب : هي ضرب من الذباب المغني ، أزرق اللون يألف الرياض والكلأ ويلحق بالقوافل فيغمس خراطيمه في لحم الإبل ، فيخرق الجلود الغلاظ حتى ينزف الدم نزفاً ؛ ويقال له الشعراء ؛ ومنه أحمر اللون . ومن أقوال أهل القوافل : بادروا قبل أن تتحرك ذبان الرياض والكلأ .

٢ الأصائل ، جمع الأصيل : العشي . عارضتها : قابلتها ، وضمير النصب يرجع إلى الرياض . كربت : كادت . الحجاب : الأفق ، أي كادت الشمس تختفي بالأفق . والمراد أن الرياض تذكره الشباب إذا شمس الأصائل عارضتها عند المغيب .

٣ جنح مغربها : أي أوله . الكعاب : الناهد . يقال لألحاظ الحسان مريضة وضعيفة لانكسار أجفانهن ، ورقة نظراتهن .

٤ السراة : أعلى الطريق ووسطه ، والمراد هنا : الطريق على الإطلاق . النهي : الغدير . النمير : الماء العذب الناجع . مطرد : متتابع . الحباب : نفاخات الماء التي تعلوه .

٥ قرته : جمعته ، يقال قرى الماء في الحوض : أي جمعه . المزنة : القطعة من السحاب فيها ماء . البكر : السحابة الغزيرة . ترقرقه : تحركه حتى يجيء ويذهب ويتلألأ ويلمع . الصبا : الريح الشرقية . السراب : ما تراه في نصف النهار من اشتداد الحر كالماء يلصق بالأرض ؛ يقال : ترقرق السراب .

٦ الهجان : الأرض الكريمة . الذفر : ذو الرائحة الطيبة . الملاب : ضرب من الطيب .

٧ له : أي للنهي . الحبك : تجعد الماء وتكسره ، واحدتها حبيكة . اطردت : تتابعت ، والفاعل يعود إلى الصبا . بها : أي بهذه الحبك .

٨ الصبا : الريح الشرقية . البليل : التي ابتلت بالماء وبردت . رسيس المس : لينة المس ، يقال ريح رسيس . لاغبة : تعبة . الركاب : الإبل ، واحدتها راحلة . يقال من المجاز : الرياح اللواغب ، أي المتعبة لطول سيرها ، ولأن الريح تشبه بالإبل ، فيقال لها ركاب السحاب .

أتتْ من بعدِ ما انسحبتْ مليّاً ، على زَهرِ الرُّبَى ، كُلَّ انسِحابِ[1]

وقد عَبِقَتْ بها ريّا الخُزامَى ، كَرَيّا المِسكِ ، ضُوِّعَ بانتِهابِ[2]

يُذكِّرُني الشّبابَ وميضُ بَرقٍ ، وسَجعُ حَمامَةٍ ، وحَنينُ نابِ[3]

فيا أسَفا ، ويا جزَعا عليهِ ! ويا حَزَنَا إلى يومِ الحِسابِ ![4]

أأفجَعُ بالشّبابِ ولا أُعزّى ؟ لقد غَفَلَ المُعزّي عن مُصابي

ذكر الموت

نبلُ الرّدى يَقصِدنَ قصدَكْ فأجِدَّ قَبلَ المَوْتِ جِدّكْ

قد عَدّ قَبلَكَ مَن رأيْتَ ولَستَ تَلبَثُ أن يَعُدّكْ

فَدَعِ البَطالَةَ والغَوايَةَ جانباً ، وعلَيكَ رُشدَكْ[5]

فكأنّني بكَ قد نُعيتَ وقد بكَى الباكونَ فَقدَكْ

وتَرَكتَ مَنزِلَكَ المَشيدَ مُعَطَّلاً ،وسكَنتَ لحدَكْ

وخَلَوتَ في بَيتِ البِلى وخَلا بكَ المَلَكان وَحدَكْ[6]

وسَلاكَ أهلُكَ كُلُّهُمْ ونَسُوا على الأيّامِ عَهدَكْ

....

١ ملياً : زمناً طويلا .

٢ الريا : الرائحة الطيبة . الخزامى : نبت أو خيري البر ، زهره أطيب الأزهار نفحة . والخيري : المنثور الأصفر . ضوع : هيجت رائحته . والمراد : انتهبت الأيدي هذا المسك فهيجت رائحته . يقال ضاعت الرائحة : سطعت وانتشرت .

٣ الناب : الناقة المسنة . والمراد : وميض البرق مبشراً بالمطر والخضرة وشباب الطبيعة ، وسجع الحمامة إلى إلفها ، وحنين الناقة إلى أولادها .

٤ يوم الحساب : يوم القيامة .

٥ عليك : اسم فعل للامر بمعنى الزم

٦ الملكان : اي منكر ونكير . وهما عند المسلمين ملكان يقومان بفتنة الموتى اي بامتحانهم واختبارهم . ويكون لهم في ذلك اشد الهول والعذاب .

يتَمتَّعونَ بما جَمَعتَ ولا يَرَونَ عليه حَمدَكْ
يتَمَهَّدونَ وأنتَ تَحْـ ـتَ الرَّمْس يرعى الدُّودُ جلدَكْ
قد سلَّموكَ إلى الضَّريـ ـحِ ووسَّدوا بالتُّربِ خدَّكْ
كم قد دفَنتَ أحِبَّةً حلّوا محَلَّ النَّفسِ عندَكْ
أُنظُرْ إلى أهليهِمُ فكذلكَ الباقُونَ بَعدَكْ
فانظُرْ لنَفسِكَ مُكمِلاً فيما يُحِبُّ اللهُ ، جُهدَكْ

تحليل الخمر

أحَلَّ العِراقيُّ النَّبيذَ وشُربَهُ ، وقالَ : « الحَرامانِ المُدامةُ والسُّكرُ »[1]
وقالَ الحِجازيُّ : « الشَّرابانِ واحدٌ » فحَلَّتْ لنا ، بينَ اختِلافهِما ، الخَمرُ[2]
سآخُذُ مِن قَولَيهِما طَرَفَيهِما ، وأشرَبُها ؛ لا فارَقَ الوازِرَ الوِزرُ ![3]

لا تكثر من الأصحاب

عَدُوُّكَ من صَديقِكَ مُستَفادٌ ، فلا تَستَكثِرَنَّ مِنَ الصِّحابِ
فإنَّ الدَّاءَ أكثرُ ما تَراهُ يَحُولُ مِنَ الطَّعامِ أوِ الشَّرابِ[4]

---

١ العراقي : أبو حنيفة .
٢ الحجازي : الشافعي .
٣ الوازر : مقترف الإثم . الوزر : الإثم . قوله سآخذ من قوليهما طرفيهما : أي أنه يأخذ تحليل النبيذ من قول أبي حنيفة ، ويترك تحريمه للخمر ؛ ثم يأخذ من الشافعي قوله : إن النبيذ والخمر واحد ، ويترك تحريمه لهما . ثم يشرب النبيذ على مذهب أبي حنيفة ، ويشرب الخمر أيضاً لأنها هي و النبيذ واحد في مذهب الشافعي ، فتكون قد حلت له كما حل له النبيذ على مذهب العراقي . ولا يعد نفسه مذنباً في ذلك ما دام الإمامان مختلفين ، بل يدعو على المذنب أن لا يفارقه ذنبه .
٤ يحول : يأتي ، وفي رواية : يكون . يقول : إن عدوك يأتيك من صديقك ، فلا تكثر الأصحاب ، فهم أشبه بالطعام والشراب ، فإن الإنسان يحبهما ويصادقهما ، فإذا أكثر معاشرتهما ، جاءه الداء منهما .

الجاحظ

كتاب الحيوان

باب الكلب والديك

وفاء الكلب

وأنشدَ أبو الحَسَنِ بنُ خالَوَيهِ عن أبي عُبَيدةَ لبعضِ الشُّعَراءِ :

يُعَرِّدُ عَنهُ جارُهُ وشَقيقُهُ ، ويَنبُشُ عَنهُ كلبُهُ وهوَ ضارِبُه[1]

قالَ أبو عُبَيدةَ : قيلَ ذلكَ لأنَّ رَجُلاً خَرَجَ إلى الجَبّانِ[2] ، يَنتَظِرُ رِكابَهُ[3] ، فاتَّبَعَهُ كَلْبٌ كانَ لَهُ ، فضرَبَ الكَلبَ وطَرَدَهُ ، وكَرِهَ أنْ يَتّبِعَهُ ، ورَماهُ بحَجَرٍ . فأبَى الكَلبُ إلاّ أنْ يَتَّبِعَهُ . فلَمّا صارَ إلى المَوضِعِ الذي يُريدُ فيهِ الانتظارَ ، رَبَضَ الكَلبُ قَريباً . فبَينَما هوَ كذلكَ ؛ إذ أتاهُ أعداءٌ له يَطلبونَهُ بطائلَةٍ[4] لهم عندَهُ . وكانَ معَهُ جارٌ لهُ وأخوهُ دُنيا[5] ،

1 يعرد : يحجم ويفر .
2 الجبان : المقبرة والصحراء .
3 الركاب : الإبل .
4 الطائلة : العداوة والثأر .
5 دنيا : لاصق النسب ، داني القرابة . وأخوه هنا بمعنى قريبه ، لأنه يقال : هو ابن عم أو عمة ، أو ابن خال أو خالة ، أو ابن أخ أو أخت دنيا . وإذا ضمت دالها ، منعت من الصرف لأن الألف قد تعينت للتأنيث على الأصل ، وتكون منصوبة على الحال . وإذا كسرت دالها جاز فيها الصرف ، فإذا نونت صارت منصوبة على المصدرية .

فأسلَماهُ وهَرَبا عنهُ . فجُرِحَ جراحاتٍ ، ورُمِيَ به في بئرٍ غيرِ بَعيدَةِ القَعرِ ؛ ثمّ حُثِيَ عليه[1] التّرابُ ، ثمّ غُطّيَ رأسُه ، ثمّ كُمِّمَ[2] فوقَ رأسِهِ منه[3] ؛ والكلبُ في ذلكَ يَترَحّمُ[4] ويَهِرّ . فلمّا انصرفوا أتَى رأسَ البئرِ ؛ فما زالَ يَعوي ، ويَنبُشُ عَنهُ ، ويَحثو التّرابَ بيَدِهِ ، ويَكشِفُهُ عن رأسِهِ ، حتى أظهرَ رأسَهُ فتَنَفّسَ ، ورُدّتْ إليهِ الرّوحُ ، وقد كادَ يَموتُ ، ولم يَبقَ منهُ إلاّ حُشاشَةٌ[5] . فبَينَما هوَ كذلكَ ، إذ مرّ ناسٌ ، فأنكَروا مكانَ الكلبِ ، ورأوهُ كأنّهُ يَحفِرُ عن قَبرٍ . فنَظَروا ، فإذا هم بالرّجُلِ على تلكَ الحالِ ، فاستَشالوهُ[6] ، فأخرَجوهُ حَيّاً ، وحَمَلوهُ ، حتى أدّوهُ إلى أهلِهِ . فزَعمَ أن ذلكَ المَوضِعَ يُدعَى ببئرِ الكلبِ ، وهوَ مُتَيامِنٌ[7] عن النّجَفِ[8] .

وهذا العَمَلُ يَدُلّ على وَفاءٍ طَبيعيّ ، وإلفٍ غَريزيّ ، ومُحاماةٍ شديدةٍ ، وعلى مَعرِفَةٍ وصَبرٍ ، وعلى كَرَمٍ وشُكرٍ ، وعلى غَناءٍ[9] عَجيبٍ ، ومَنفَعَةٍ تَفوقُ المَنافعَ . لأنّ ذلكَ كُلّهُ كانَ من غيرِ تكَلّفٍ ولا تَصَنّعٍ .

أعمار الكلاب

وذكورَةُ السّلوقيّهِ تَعيشُ عَشرَ سِنينَ ، والإناثُ تَعيشُ اثنتَيْ عَشرَةَ سَنَةً ، وأكثرُ أجناسِ الكِلابِ تَعيشُ أربَعَ عَشرَةَ سَنَةً ، وبَعضُ الأجناسِ تَبقَى عشرينَ سَنَةً .

---

١ حثي عليه : رمي التراب عليه .
٢ كمم : غطي ؛ ولعلها كوم .
٣ منه : أي من التراب .
٤ يرخم : يرق له ويشفق عليه .
٥ الحشاشة : بقية الروح .
٦ استشالوه : رفعوه .
٧ متيامن : أي آخذ ذات اليمين .
٨ النجف : موضع بظهر الكوفة فيه نخل كثير ، وبالقرب منه قبر علي بن أبي طالب .
٩ الغناء : النفع .

قالَ : وإناثُ الكِلابِ أطوَلُ أعماراً منَ الذّكورِ ، وكذلكَ هيَ في الجُملَةِ وليسَ يُلقي الكَلبُ منْ أسنانِهِ سِنّاً ما خلا النّابَيْنِ ، وإنّما يُلقيهِما إذا كان ابنَ أربَعةِ أشهُرٍ . قالَ : ومن أجلِ أنّ الكِلابَ لا تُلقي غيرَ هذينِ النّابَيْنِ يَشُكُّ بَعضُ النّاسِ أنّها لا تُلقي سِنّاً البَتّةَ

كلب يحسب لصّاً

قالَ بِشرُ بنُ سَعيدٍ : كانَ بالبَصرةِ شَيخٌ من بَني نَهشَلٍ[1] يُقالُ لهُ عُروَةُ بنُ مَرثَدٍ ، نزَلَ ببَني أختٍ لهُ في سِكّةِ[2] بني مازنٍ[3] وبَنو ختِهِ من قُرَيشٍ . فخرَجَ رِجالُهم إلى ضِياعِهِمْ ، وذلكَ في شَهرِ رَمَضانَ ، وبقيَتِ النّساءُ يُصَلّينَ في مَسجِدِهِمْ ، فلَمْ يبقَ في الدّارِ إلاّ كَلبٌ يَعُسّ[4] ، فرأى بَيتاً ، فدَخَلَ ، وانصَفَقَ[5] البابُ ، فسَمِعَ الحَرَكةَ بَعضُ الإماءِ ، فظَنّوا[6] أنّ لِصّاً دَخَلَ الدّارَ، فذَهبَتْ إحداهنّ إلى أبي الأعزّ[7]، ولَيسَ في الحَيِّ رجلٌ غيرُهُ ، فأخبرَتهُ ، فقالَ أبو الأعزّ : ما يَبتَغي اللّصّ منّا ؟ ثمّ أخذَ عَصاهُ وجاءَ حتى وَقَفَ على بابِ البَيتِ ، فقالَ : إيهْ[8] يا مَلأمانُ[9] ! أمَا واللهِ إنّكَ بي لَعارِفٌ ، وإنّي بكَ أيضاً لَعارِفٌ ، فهَل أنتَ إلاّ منْ لصوصِ بني مازنٍ ، شرِبتَ حامِضاً خَبيثاً[10] ، حتى إذا دارَتِ الأقداحُ في رأسِكَ ، منّتْكَ نَفسُكَ

---

١ نهشل بن دارم : بطن من تميم .
٢ السكة : الموضع فيه دور ومنازل لقوم يسكنونها وفي خلالها طريق وسبيل لهم .
٣ بنو مازن بن عمرو : من بني تميم .
٤ يعس : يطوف ليلا .
٥ انصفق : انغلق .
٦ فظنوا : هكذا وردت ووجه الكلام فظنن .
٧ أبو الأعز ، وفي رواية : أبو الأغر .
٨ إيه بسكون الهاء : كلمة زجر بمعنى حسبك .
٩ يا ملأمان بالنداء : أي يا لئيم .
١٠ حامضاً خبيثاً : أي الحامض من الخمر ، ويقال له المسطار .

الأمانيَّ[1] ، وقُلتَ : دُورَ[2] بني عَمرو[3] ، والرِّجالُ خُلوفٌ[4] ، والنِّساءُ يُصلِّينَ في مَسجِدِهنَّ ، فأسرِقُهُنَّ[5] . سَوءةً واللهِ ! ما يَفعَلُ هذا الأحرارُ ! لَبئسَ ، واللهِ ، ما مَنَّتكَ نَفسُكَ ! فاخرُجْ ، وإلاَّ دَخَلتُ علَيكَ ، فصَرَمتْكَ منّي العُقوبَةُ[6] ! لايمُ اللهِ[7] ، لتَخرُجَنَّ ، أو لأهتِفَنَّ هَتفَةً مَشؤومَةً علَيكَ ، يَلتَقي فيها الحَيّانِ عَمرٌو وحَنظَلَةُ[8] ، ويَصيرُ أمرُكَ إلى تَبابٍ[9] . ويَجيءُ سَعدٌ[10] بعَدَدِ الحَصَى ، ويَسيلُ علَيكَ الرِّجالُ من هاهُنا وهاهُنا ! ولَئِنْ فعَلتَ[11] ، لتَكونَنَّ أشأمَ مَولودٍ في بني تَميمٍ !

فلَمّا رأى أنّهُ لا يُجيبُهُ ، أخذَ باللّينِ ، وقالَ : اخرُجْ يا بُنَيَّ ، وأنتَ مَستورٌ ؛ إنّي ، واللهِ ، ما أُراكَ تَعرِفُني ، ولو عرَفتَني ، لقد قَنِعتَ بقَولي ، واطمأنَنتَ إليَّ . أنا عُروَةُ بنُ مَرْثَدٍ أبو الأعَزِّ المَرثَديُّ ، وأنا خالُ القومِ ، وجِلدَةُ ما بَينَ أعيُنِهِم[12] لا يَعصُونَني في أمرٍ ؛ وأنا لكَ بالذِّمَّةِ كَفيلٌ خفيرٌ[13] ، أُصَيِّرُكَ بَينَ شَحمَةِ أُذُني وعاتِقي[14] لا تُضارُّ[15] . فاخرُجْ ، فأنتَ في ذِمَّتي ،

١ منتك : يقال مناه الأماني وبالأماني : أي جعلها له .
٢ دور : مفعول لفعل محذوف تقديره أقصد .
٣ بني عمرو : أي عمرو بن تميم .
٤ خلوف : ذاهبون عن الحي ، واحدها خلف .
٥ فأسرقهن : أي أسرق الدور .
٦ صرم : قطع ؛ وعقوبة صارمة : أي قاطعة .
٧ لايم الله : قسم ، أي ليمين الله .
٨ حنظلة : حي من بني تميم .
٩ التباب : الخسار والهلاك .
١٠ سعد : هم بنو سعد بن زيد مناة ، من تميم .
١١ لئن فعلت : أي لئن لم تخرج وأردت السرقة .
١٢ يقال هو جلدة ما بين العين والأنف : أي هو مثلها في العزة والقرب .
١٣ الخفير : المجير والمحامي والمحافظ .
١٤ العاتق : ما بين المنكب والعنق .
١٥ لا تضار : لا تصاب بضرر .

وإلاّ ، فإنّ عندي قَوْصَرّتَينِ[1] : إحداهُما إلى ابنِ أُختي البارّ الوَصُول[2] ، فخُذْ إحداهما ، فانتَبِذْها[3] حَلالاً منَ اللهِ تَعالى ورَسولِه صَلّى اللهُ علَيهِ وسَلّمَ .

وكانَ الكَلْبُ إذا سَمعَ الكَلامَ ، أطرَقَ[4] ، وإذا سكَتَ[5] ، وَثَبَ يُريغُ[6] المَخرَجَ . فتَهانَفَ[7] الأعرابيّ ، أيْ تَضاحَكَ ، ثمّ قالَ : يا ألأمَ النّاسِ وأوضَعَهُمْ ، ألا يأنِي لكَ[8] أنّا مُنذُ اللّيلَةِ في وادٍ ، وأنتَ في آخَرَ ! إذا قلتُ لكَ السّوداءَ والبَيضاءَ[9] ، تَسكُتُ وتُطرِقُ ؛ فإذا سكَتّ عَنكَ ، تُريغُ المَخرَجَ ! واللهِ ، لتَخرُجَنّ بالعَفوِ عَنكَ ، أو لأَلجَنّ علَيكَ البَيتَ بالعُقوبةِ !

فلَمّا طالَ وُقوفُهُ ، جاءَتْ جاريةٌ من إماءِ الحَيّ ، فقالتْ : أعرابيّ مَجنونٌ ! واللهِ ما أرى في البَيتِ شَيئاً ! ودَفَعَتِ البابَ ، فخرَجَ الكَلبُ شداً[10] ، وحادَ عنهُ أبو الأعَزّ مُستَلقياً ، وقالَ : الحَمدُ للهِ الذي مَسَخَكَ كَلباً ، وكَفاني منكَ حَرْباً ! ثمّ قالَ : تاللهِ ، ما رأيتُ كاللّيلَةِ ، ما أراهُ إلاّ كَلْباً ، أما ، واللهِ ، لو علِمتُ بحالِه ، لوَلَجتُ علَيهِ .

صياح الديك

قالوا : قد أخطأ مَن زعَمَ أنّ الدّيَكَةَ إنّما تَتجاوَبُ ، بل إنّما ذلكَ منها شيءٌ يتَوافَقُ في وَقتٍ ، ولَيسَ ذلك بتَجاوُبٍ كتُباحِ الكِلابِ ؛ لأنّ

١ القوصرة : وعاء من قصب يجعل فيه التمر .
٢ الوصول : الكثير المواصلة ، أي لا يقاطع صاحبه ، والكثير العطاء .
٣ انتبذها : أي اصنعها نبيذاً من التمر ؛ أي نبيذاً محللا لا محرماً .
٤ أطرق : سكت .
٥ سكت : الضمير يعود إلى الأعرابي .
٦ يريغ : يطلب بشدة .
٧ تهانف : ضحك باستهزاء ؛ ذكرها الأساس على الإطلاق ، وخصها القاموس بالمرأة . وقد وردت في الأصل : تهافت ، وهو تحريف .
٨ يأني لك : يحين لك . وظاهر الكلام يدل على أنه يريد أن يقول : ألا يأني لك أن تعرف .
٩ السوداء والبيضاء : أي كلمة ما .
١٠ شداً : علواً .

الكَلبَ لا وَقتَ لهُ وإنّما هوَ صامتٌ ساكتٌ ما لم يُحِسَّ بشيءٍ يَفزَعُ منهُ ؛ فإذا أحَسَّ بهِ ، نَبَحَ ؛ وإذا سَمِعَ نُباحَ كَلبٍ آخرَ ، أجابَ ، ثمَّ أجابَ ذلكَ آخرُ ، ثمَّ أجابَهُما الكَلبُ الأوَّلُ ، وتَبيَّنَ أنَّهُ المُجاوِبُ جَميعَ الكلابِ . والدِّيكُ لَيسَ من أجلِ أنَّهُ أنكَرَ شَيئاً ، إذا استَجابَ ؛ أو سَمعَ صوتاً ، إذا صَقَعَ[1] ؛ وإنّما يَصقَعُ لشيءٍ في طَبعِهِ ، إذا قابَلَ ذلكَ الوَقتَ منَ اللّيلِ ، هَيَّجَهُ . فعَدَدُ أصواتِهِ ، في الوَقتِ الذي يُظَنّ أنَّهُ تتَجاوَبُ فيهِ الدِّيَكَةُ ، كَعَدَدِ أصواتِهِ في القَريَةِ ، وليسَ في القريَةِ ديكٌ غَيرُهُ ، وذلكَ هوَ في المَواقيتِ . والعِلّةُ التي لها يَصقَعُ في وَقتٍ بعَينِهِ ، شائعَةٌ فيها[2] في ذلكَ الوَقتِ ؛ ولَيسَ كذلكَ الكِلابُ . قد تَنبَحُ الكِلابُ في الحُرَيبَةِ[3] ، وكلابٌ في بني سَعد[4] غيرُ نابحَةٍ ؛ وليسَ يجوزُ أنْ تكونَ دِيَكَةُ المَهالبَةِ تَصقَعُ ، ودِيَكَةُ المَسامِعَةِ[5] ساكِتَةٌ .

أعرابي يقسم الدجاج

قالَ أبو الحَسَنِ : حَدَّثَني أعرابيٌّ كانَ يَنزِلُ بالبَصرَةِ قالَ : قَدِمَ أعرابيٌّ منَ الباديَةِ ، فأنزَلتُهُ ، وكانَ عندي دَجاجٌ كَثيرٌ ، ولي امرأةٌ وابنانِ وابنَتانِ منها . فقُلتُ لامرأتي : بادري واشوي لَنا دَجاجَةً ، وقَدِّميها إلينا نتَغدّاها . فلَمّا حضَرَ الغَداءُ جلَسنا جَميعاً أنا وامرأتي وابنايَ وابنَتايَ والأعرابيّ. قالَ : فدَفَعنا إليهِ الدَّجاجةَ ، فقُلنا لهُ : اقسِمها بيَنَنا — نُريدُ أن نَضحكَ منهُ — فقالَ : لا أُحسِنُ القِسمَةَ ؛ فإنْ رَضيتُمْ بقِسمَتي ، قَسَمتُها بَينَكُمْ.

---

١ صقع الديك : صاح .
٢ فيها : أي في الديوك .
٣ الحريبة : موضع في البصرة يسمى البصيرة الصغرى .
٤ بنو سعد : قبيلة . والظاهر أنهم من سكان البصرة .
٥ المسامعة : محلة بالبصرة تنسب إلى بني مسمع بن شهاب . والظاهر أن المهالبة محلة بالبصرة أيضاً تنسب إلى بني المهلب بن أبي صفرة .

قُلنا : إنّنا نَرضَى . فأخَذَ رأسَ الدّجاجَةِ فقَطَعَهُ ، فناوَلَنيهِ ، وقالَ : ألرّأسُ للرّأسِ . وقَطَعَ الجَناحَينِ ، وقالَ : الجَناحانِ للابنَينِ . ثمّ قَطَعَ السّاقَينِ ، فقالَ : السّاقانِ للابنَتَينِ . ثمّ قَطَعَ الزِّمِكّى[1] وقالَ : العَجُزُ[2] للعُجُزِ[3] . وقالَ : الزَّوْرُ[4] للزّائرِ . قالَ : فأخَذَ الدّجاجةَ بأسرِها ، وسَخِرَ بنا .
قال : فلَمّا كانَ مِنَ الغَدِ ، قلتُ لامرأتي : اشوي لَنا خَمسَ دَجاجات . فلَمّا حضَرَ الغَداءُ ، قلتُ : اقسِمْ بَينَنا . قالَ : إنّي أظنّ أنّكُمْ وَجَدتُمْ[5] في أنفُسِكُمْ . قُلنا : لا ، لم نَجِدْ في أنفُسِنا ، فاقسِمْ . قالَ : أقسِمُ شَفْعاً[6] أو وِتراً[7] ؟ قُلنا : اقسِمْ وِتراً . قالَ : أنتَ وامرأتُكَ ودَجاجَةٌ ثَلاثَةٌ ، ثمّ رَمَى إلَينا بدَجاجَةٍ . ثمّ قالَ : وابناكَ ودَجاجَةٌ ثَلاثةٌ ، ثمّ رَمَى إلَيهِما بدَجاجةٍ . ثمّ قالَ : وابنَتاكَ ودَجاجةٌ ثَلاثَةٌ ، ثمّ رَمَى إلَيهِما بدَجاجةٍ . ثمّ قالَ : أنا ودَجاجَتانِ ثَلاثَةٌ ، وأخَذَ دَجاجَتَينِ وسَخِرَ بنا . قالَ : فرآنا ونحنُ نَنظُرُ إلى دَجاجَتَيهِ ، فقالَ : ما تَنظُرونَ ! لَعَلّكُمْ كَرِهتُمْ قِسمَتي ، الوِترُ لا يجيءُ إلاّ هكَذا ؛ فهَل لكُم في قِسمَةِ الشّفعِ ؟ قُلنا : نَعَمْ . فضَمّهُنّ[8] إلَيهِ ، ثمّ قالَ : أنتَ وابناكَ ودَجاجَةٌ أربَعَةٌ ، ورَمَى إلَينا بدَجاجةٍ . ثمّ قالَ : والعَجوزُ وابنَتاها ودَجاجَةٌ أربعَةٌ ، ورمَى إلَيهِنّ بدَجاجَةٍ . ثمّ قالَ : أنا وثَلاثُ دَجاجاتٍ أربَعَةٌ ، وضَمّ إلَيهِ الثّلاثَ . ورفعَ يَدَيهِ إلى السّماءِ وقالَ : اللّهُمّ ، لكَ الحَمدُ ! أنتَ فَهّمتَنيها !

. . . .

١ الزمكى : مؤخر الطائر أو أصل ذنبه .
٢ العجز : مؤخر الشيء .
٣ العجز : جمع عجوز ويريد بها امرأة الرجل . وفي رواية : للعجوز .
٤ الزور : الصدر .
٥ وجدتم : غضبتم .
٦ الشفع : الزوج .
٧ الوتر ، وتفتح الواو : الفرد .
٨ فضمهن : أي ضم الدجاجات .

باب القول في أجناس الذبان

إلحاح الذباب وقاضي البصرة

كانَ لنا بالبصرةِ قاضٍ يُقالُ لهُ عبدُ اللهِ بنُ سَوّارٍ ، لم يَرَ النّاسُ حاكماً قطّ ، ولا زِمّيتاً[1] ، ولا رَكيناً[2] ، ولا وَقوراً حَليماً ضَبَطَ من نفسِهِ ، وملَكَ من حَرَكَتِه مِثْلَ الذي ضَبَطَ وملَكَ . كانَ يُصَلّي الغَداةَ في منزلِهِ ، وهوَ قريبُ الدّارِ مِن مَسجدِهِ ، فيأتي مَجلِسَهُ فيَحتَبي[3] ولا يتّكىءُ . فلا يزالُ مُنتَصِباً لا يَتحرّكُ لهُ عُضوٌ ، ولا يَلتَفِتُ ، ولا يَحُلّ حُبوتَهُ ، ولا يُحوّلُ رِجلاً عن رِجلٍ ، ولا يَعتَمِدُ على أحدِ شِقّيه[4] ؛ حتى كأنّهُ بِناءٌ مَبنيّ أو صَخرَةٌ مَنصوبَةٌ . فلا يزالُ كذلكَ حتى يَقومَ إلى صَلاةِ الظّهرِ ؛ ثمّ يَعودُ إلى مَجلِسِهِ . فلا يَزالُ كذلكَ ، حتى يَقومَ إلى العَصرِ[5] ؛ ثمّ يَرجعُ لمَجلِسِهِ . فلا يَزالُ كذلكَ حتى يَقومَ لصَلاةِ المَغربِ ؛ ثمّ رُبّما عادَ إلى مَحلّهِ ، بل كثيراً ما كانَ يَكونُ ذلكَ منهُ ، إذا بَقيَ عليهِ مِنْ قِراءَةِ العُهودِ والشّروطِ والوَثائقِ . ثمّ يُصَلّي العِشاءَ الأخيرَةَ[6] ، ويَنصرِفُ . فالحقّ يُقالُ : لم يَقُمْ في طولِ تِلكَ المُدّةِ والوِلايَةِ مَرّةً واحدَةً إلى الوُضوءِ ، ولا احتاجَ إليهِ ، ولا شربَ ماءً ولا غيرَهُ منَ الشّرابِ . كذلكَ كانَ شأنُهُ في طِوالِ الأيّامِ وفي قِصارِها ، وفي صَيفِها وفي شِتائِها . وكانَ ، معَ ذلكَ ،

---

١ الزميت : العظيم الوقار .
٢ الركين : الرزين .
٣ يحتبي : أي يجمع بين ظهره وساقيه إذا جلس ليصير كالمستند . وذلك أن يقيم ركبتيه في جلوسه فيضع عليهما سيفاً ، أو يدير بهما ثوباً ، أو يعتمد عليهما يديه ، ويستريح إليهما ؛ والاسم منه الحبوة ، يقال حل حبوته : أي قام . وعقد حبوته : أي قعد ، وهو من باب الكناية .
٤ الشق : الجانب .
٥ العصر : أي صلاة العصر .
٦ يصلي العشاء : أي صلاة العشاء .

لا يُحَرِّكُ يَدَهُ ، ولا يُشيرُ برأسِهِ . ولَيسَ إلاّ أنْ يتَكَلَّمَ ثمَّ يُوجِزَ ويَبلُغَ بالكَلامِ اليَسيرِ المَعانيَ الكَثيرَةَ .

فبَيْنا هوَ كذلكَ ، ذاتَ يَومٍ ، وأصحابُهُ حَوالَيهِ ، وفي السِّماطَينِ[1] بينَ يَدَيهِ ، إذ سَقَطَ على أنفِهِ ذُبابٌ فأطالَ المَكثَ ، ثمّ تحَوّلَ إلى مُوْقِ[2] عَينِهِ . فرامَ الصَّبرَ في سُقوطِهِ على المُوْقِ ، وعلى عَضِّهِ ونَفاذِ خُرطومِهِ ، كما رامَ منَ الصَّبرِ على سُقوطِهِ على أنفِهِ ، من غيرِ أنْ يُحَرِّكَ أرنَبَتَهُ[3] ، أو يُغَضِّنَ وجهَهُ[4] ، أو يَذُبَّ[5] بإصبَعِهِ . فلَمّا طالَ ذلكَ علَيهِ منَ الذّبابِ ، وشَغَلَهُ وأوجَعَهُ وأحرَقَهُ ، وقَصَدَ إلى مَكانٍ لا يَحتَمِلُ التّغافُلَ ، أطبَقَ جَفنَهُ الأعلى على جَفنِهِ الأسفَلِ ، فلَمْ يَنهَضْ[6] . فدَعاهُ ذلكَ إلى أنْ والى[7] بينَ الإطباقِ والفَتحِ ، فتَنَحّى رَيثَما سَكَنَ جَفنُهُ . ثمّ عادَ إلى مُوْقِهِ بأشَدَّ مِنْ مَرّتِهِ الأولى ، فغَمَسَ خُرطومَهُ في مَكانٍ كانَ قد أوهاهُ[8] قَبلَ ذلكَ . فكانَ احتِمالُهُ لَهُ أضعَفَ ، وعَجزُهُ عنِ الصَّبرِ في الثّانيَةِ أقوَى ، فحَرَّكَ أجفانَهُ وزادَ في شدّةِ الحَرَكةِ ، وفي فَتحِ العَينِ ، وفي تَتابُعِ الفَتحِ والإطباقِ. فتَنَحّى عنهُ بقَدْرِ ما سَكَنَتْ حرَكَتُهُ ثمّ عادَ إلى مَوضِعِهِ ، فما زالَ يُلِحُّ علَيهِ حتّى استفرَغَ صَبرَهُ وبَلَغَ مَجهودَهُ[9] . فلَم يَجِدْ بُدّاً من أنْ يَذُبَّ عن عَينَيهِ بيَدِهِ ، ففَعَلَ ، وعُيونُ القَومِ إلَيهِ[10] تَرمُقُهُ، وكأنّهم لا يَرَونَهُ . فتَنَحّى عَنهُ بقَدْرِ ما رَدّ يَدَهُ ، وسكَنَتْ حرَكتُهُ . ثمّ عادَ

---

١ السماط : الصف .
٢ المؤق ، وتخفف الهمزة فيقال موق : طرف العين مما يلي الأنف ، وهو مجرى الدمع منها .
٣ الأرنبة : طرف الأنف .
٤ غضن وجهه : جعل به غضوناً أي تثنيات ، من انقباض جلده .
٥ يذب : يدفع الذباب .
٦ لم ينهض : الضمير يعود إلى الذباب .
٧ والى : تابع .
٨ أوهاه : أضعفه .
٩ بلغ مجهوده : أي أجهده .
١٠ إليه : أي ناظرة إليه ، أو ما أشبه .

إلى مَوضِعِهِ . ثمّ ألجأهُ إلى أنْ ذَبّ عَن وجهِهِ بطَرَفِ كُمِّهِ . ثمّ ألجأهُ إلى أنْ تابَعَ بينَ ذلكَ ، وعَلِمَ أنّ فِعلَهُ كُلّهُ بعَينِ مَن حَضَرَهُ من أُمَنائِهِ وجُلَسائِهِ . فلمّا نَظَروا إليهِ ، قالَ : أشهَدُ أنّ الذّبابَ ألَجُّ منَ الخُنفَساءِ[1] ، وأزهَى منَ الغُرابِ[2] ! وأستَغفِرُ اللهَ فما أكثَرَ مَن أعجَبَتهُ نَفسُهُ ، فأرادَ اللهُ ، عزّ وجَلّ ، أن يُعَرِّفَهُ من ضُعفِهِ ما كانَ عَنهُ مَستوراً ! وقد عَلِمتُ أنّيَ عندَ النّاسِ من أزمَتِ النّاسِ[3] ، فقَد غلَبَني وفضَحَني أضعَفُ خَلقِهِ ! ثمّ تَلا قَولَهُ تَعالى : « وإنْ يَسلُبهُمُ الذّبابُ شَيئاً ، لا يَستَنقِذوهُ منهُ ، ضَعُفَ الطّالبُ والمَطلوبُ » .

وكانَ بيِّنَ اللّسانِ ، قَليلَ فضولِ الكَلامِ[4] ؛ وكانَ مَهيباً في أصحابِهِ ؛ وكانَ أحَدَ مَنْ لم يُطعَنْ علَيهِ في نَفسِهِ ، ولا في تَعريضِ أصحابِهِ للمَنالَةِ[5] .

حيلة الحيّة

حَدّثَنا أبو جَعفَرٍ المَكفوفُ[6] النّحْويّ العَنبرِيّ ، وأخوهُ رَوْحٌ الكاتبُ ، ورِجالٌ من بَني العَنبَرِ : أنّ عندَهمْ ، في رِمالِ بَلْعَنبرِ[7] ، حَيّةً تَصيدُ العَصافيرَ وصِغارَ الطّيرِ بأعجَبِ صَيدٍ . زَعَموا أنّها إذا انتَصَفَ النّهارُ واشتَدّ

...

١ الخنفساء : حشرة سوداء منتنة الرائحة . ومن أمثال العرب : ألج من الخنفساء ؛ لأنها تقبل نحو الإنسان فيدفعها فتبعد بقدر تلك الدفعة ، ثم تعود أيضاً . ويتكرر منه ذلك وهي لا تتحول بل تلج في العودة كلما دفعت .

٢ أزهى : أفعل التفضيل من زهي : أي تكبر وتاه . يقال أزهى من الغراب ، لأنه إذا مشى اختال ونظر في عطفيه . ويقال أزهى من ذباب ؛ لأنه يسقط على أنف الملك الجبار ، وعلى موق عينه ، فيغمس خرطومه فيه فيؤذيه ؛ ويطرده فلا ينطرد .

٣ أزمت الناس : أشدهم وقاراً ورزانة .

٤ فضول الكلام : ما لا قيمة له ولا خير فيه .

٥ المنالة : السباب وتهشيم الأعراض .

٦ المكفوف : الأعمى .

٧ بلعنبر : أي بني العنبر .

الحَرّ في رِمال بَلْعَنبَر ، وامتَنَعَتِ الأرضُ على الحافي والمُنتَعِل ، ورَمِض[1] الجُنْدُبُ ، غَمَسَتْ هذه الحَيّةُ ذَنَبَها في الرّمل ، ثمّ انتَصَبَتْ كأنّها رُمحٌ مَركوزٌ أو عودٌ ثابتٌ . فيَجيءُ الطّائرُ الصّغيرُ أو الجَرادَةُ ؛ فإذا رأى عوداً قائماً ، وكَرِهَ الوُقوعَ على الرّمل لشدّة حَرّه ، وقَعَ على رأس الحَيّة ، على أنّها عُودٌ ؛ فإذا وَقَعَ على رأسِها ، قبَضَتْ عليه . فإن كانَ جَرادَةً أو جُعَلاً[2] أو بَعضَ ما لا يُشبِعُها مِثلُهُ ، ابتَلَعَتهُ وبَقيَتْ على انتِصابِها ؛ وإن كانَ الواقعُ على رأسِها طائراً يُشبِعُها مِثلُهُ ، أكَلَتهُ وانصَرَفَتْ. وأنّ[3] ذلكَ دأبُها ما مَنَعَ الرّملُ جانبَهُ في الصّيفِ والقَيظ[4] في انتِصافِ النّهارِ والهاجرَة[5] . وذلكَ أنّ الطّائرَ لا يَشُكُّ أنّ الحَيّةَ عُودٌ ، وأنّهُ سيَقومُ لهُ مَقامَ الجِذْل[6] للحِرْباء ، إلى أنْ يَسكُنَ الحَرّ ووَهَجُ الرّمل .

وفي هذا الحَديثِ منَ العَجَبِ أن تَكونَ هذه الحَيّةُ تَهتَدي لمِثلِ هذه الحيلَةِ ؛ وفيه جَهلُ الطّائرِ بفَرقِ ما بَينَ الحَيوانِ والعودِ ؛ وفيه قِلّةُ اكتراثِ الحَيّةِ للرملِ الذي عادَ[7] كالجَمرِ ، وصَلَحَ أنْ يكونَ مَلّةً[8] ومَوضِعاً للخُبزَة[9] ؛ ثمّ أنْ يَشتَمِلَ ذلكَ الرّملُ على ثُلثِ الحَيّةِ ساعاتٍ منَ النّهارِ ، والرّملُ على هذه الصّفةِ . فهذهِ أُعجوبَةٌ من أعاجيبِ ما في الحَيّاتِ .

---

١ رمض : آلمه الرمض وأحرقه ؛ والرمض : شدة وقع الشمس على الرمل ونحوه .
٢ الجعل : دويبة سوداء ، له جناحان أسودان يطير بهما ؛ قيل إنه يموت من ريح الورد ، ويعيش إذا أعيد إلى الزبل ونحوه .
٣ وأن : بفتح همزة أن : معطوفة على قوله حدثنا أبو جعفر . . . أن .
٤ القيظ : صميم الصيف حيث يشتد الحر .
٥ الهاجرة : انتصاف النهار وشدة الحر .
٦ الجذل : أصل الشجرة بعد ذهاب الفرع .
٧ عاد : صار .
٨ الملة : الرماد الحار الذي أوقد فيه النار .
٩ الخبزة : الطلمة ، وهي عجين يوضع في الملة حتى ينضج .

وكنتُ يَوماً عندَ أبي عبدِ اللهِ أحمَدَ بنِ أبي دُؤادٍ[1] ، وكانَ عندَهُ سَلْمُويَه وابنُ ماسوَيهِ وبَختيَشوعُ بنُ جبريل[2] فقالَ[3] : هل يَنفعُ التِّرياقُ من نَهشةِ أفعىً ؟ فقالَ بَعضُهُم[4] : إذا عَضّتِ الأفعى فأدرَكتَ قَبلَ أنْ تَنقَلِبَ ، نَفَعَ التِّرياقُ . وإنْ لم تُدرِكْ لم يَنفَعْ ؛ لأنّهُمْ إنْ قَلّلوا منَ التِّرياقِ ، قَتَلَهُ[5] السّمّ ، وإنْ كثّروا منهُ ، قتَلَهُ الفاضِلُ عن مِقدارِ الحاجةِ .

قلتُ : فإنّ ابنَ العَجوزِ[6] خبّرَني بأنّها لَيسَتْ تَنقَلِبُ لمَجِّ[7] السّمّ وإفراغِهِ ، ولكنّ الأفعَى في نابِها عَصَلٌ[8] ؛ وإذا عَضّتِ استَفرَغَتْ إدْخالَ النّابِ كُلّهِ ، وهوَ أحجَنُ[9] أعصَلُ ، فيهِ مُشابِهٌ منَ الشّصِّ[10] ؛ فإذا انقَلَبَتْ ، كانَ أسهَلَ لنَزعِهِ و[سَلّ]ـهِ[11] . فأمّا لِصَبّ السّمّ وإفراغِهِ فلا . قالَ : واللهِ ، لَعَلّهُ ما قلتَ ! قُلتُ : ما أسرَعَ ما شَكَكْتَ !

ثمّ [قل]تُ لَهُ : فكأنّما وَضَعوا التِّرياقَ ، واجتَلَبوا الأفاعيَ وضَنّوا[12] ، وعزَموا [ع]لى أنّهُ لا يَنفَعُ إلاّ بدَرْكِ[13] الأفعَى قَبلَ أنْ تَنقَلِبَ ! وكيفَ صارَ التِّرياقُ بعدَ الانقِلابِ لا يَكونُ إلاّ في إحدَى مَنزِلَتَينِ : إمّا أنْ يَقتُلَ

١ أحمد بن أبي دؤاد : كان متولياً القضاء ، اتصل به الجاحظ في زمن المتوكل .
٢ هؤلاء الثلاثة من السريان النساطرة ، وهم أشهر الأطباء في ذلك العصر .
٣ قال : الضمير يعود إلى أحمد بن أبي دؤاد .
٤ بعضهم : أي بعض هؤلاء الأطباء الثلاثة .
٥ قتله : أي قتل المعضوض .
٦ ابن العجوز : أحد الحوائين . وفي رواية : ابن أبي العجوز .
٧ المج : رمي الريق من الفم .
٨ العصل : الاعوجاج .
٩ أحجن : أعقف .
١٠ الشص : حديدة عقفاء يصاد بها السمك .
١١ السل : انتزاع الشيء واستخراجه في رفق .
١١ وضنوا : أي وضنوا بها ، أي بالأفاعي .
١٣ الدرك : اللحاق ، أي إدراك الأفعى قبل أن تنقلب .

بِكَثْرَتِهِ ، وإمّا ألاّ يَنفَعَ بقِلّتِهِ ! فكأنّ التّرياقَ ليسَ نَفعُهُ إلاّ في المَنزِلَةِ الوُسطَى الّتي لا تكونُ فاضِلَةً[1] ولا ناقِصَةً ! ولكنّني أقولُ لكَ : كيفَ يكونُ نَفعُهُ ، إذا كانَ التّرياقُ جَيّداً قَوِيّاً ، وعُوجِلَ فسُقِيَ[2] المِقدارَ الأوسَطَ ، قَبلَ أنْ يَبلُغَ[3] الصّميمَ ، ويَغوصَ في العُمقِ[4] . وعلى هذا وُضِعَ[5] . وهم كانوا أحزَمَ وأحذَقَ من أن يتَكَلّفوا شَيئاً ، ومِقدارُهُ منَ النّفعِ لا يوصَلُ إلى مَعرِفَتِهِ .

ويَقولُ بَعضُ الحُذّاقِ : إنّ سَقْيَ التّرْياقِ ، بَعدَ النّهشِ بساعةٍ أو ساعَتَينِ ، مَوْتُ المَنْهُوشِ[6] .

ثمّ قلتُ لهُ : وما عَلّمَكَ ؟ وبأيّ سَبَبٍ أيقَنتَ أنّها تَمُجّ من جوفِ نابِها شَيئاً ؟ ! ولعَلّهُ ليسَ هنالكَ إلاّ مُخالطَةُ جَوهَرِ ذلكَ النّابِ لدَمِ الإنسانِ . أوَلَسنا قد نَجِدُ منَ الإنسانِ مَن يَعَضّ صاحبَهُ ، فيَقتُلُهُ ، ويكونُ مَعروفاً بذلكَ ؟ وقد تُقِرّونَ أنّ الهِندِيّةَ[7] والثّعبانَ[8] يَقتُلانِ : إمّا بمُخالطَةِ الرّيقِ الدّمَ ، وإمّا بمُخالطَةِ السّنّ الدّمَ ، من غيرِ أنْ تَدّعوا أنّ أسنانَهُما مُجَوّفةٌ . وقد أجمَعَ جَميعُ أصحابِ التّجارِبِ أنّ الحَيّةَ تُضرَبُ بقَصَبةٍ فتَكونُ أشَدّ علَيها منَ العَصا . وقد يُضرَبُ الرّجلُ على جَسَدِهِ بقُضبانِ اللّوزِ وقُضبانِ الرّمّانِ ؛ وقُضبانُ اللّوزِ أعلَكُ[9] وألدَنُ[10] ، ولكنّها أسلَمُ ؛ وقُضبانُ الرّمّانِ

....

١ فاضلة : زائدة .
٢ وعوجل فسقي : نائب الفاعل يعود إلى المنهوش المعهود .
٣ يبلغ : فاعله السم المعهود .
٤ في العمق : أي في عمق البدن .
٥ وضع : أي وضع الترياق .
٦ يريد بذلك أن السم يكون قد بلغ العمق .
٧ الهندية : ضرب من الأفاعي القاتلة ، يوجد منها في البيوت والاصطبلات والخرابات .
٨ الثعبان : الحية الضخمة الطويلة ، وهي من الأفاعي القواتل .
٩ أعلك : أمتن وألين ، ينطوي ولا ينكسر .
١٠ ألدن : ألين وأكثر تثنياً .

أخفُّ وأسخفُ[1] ، ولكنّها أعطبُ .

وقد يَطأ الإنسانُ على عَظمِ حيّةٍ أو إبرةِ عقربٍ ، وهما ميّتتانِ ، فيلقى الجَهدَ . وقد يُخرَجُ السكّينُ منَ الكيرِ[2] ، وهوَ مُحمّى ، فيُغمَسُ في اللبَنِ ؛ فمتى خالطَ الدمَ ، قامَ مقامَ السمّ من غيرِ أن يكونَ مَجَّ في الدمِ رُطوبةً غليظةً أو رقيقةً .

وبعضُ الحِجارةِ يُكوَى بها ، وهوَ[3] رِخْوٌ ، الأورامُ حتى يُفرِّقَها[4] ويحمِّصَها[5] من غيرِ أن يكونَ نَفَذَ إليها شيءٌ منهُ ، وليسَ إلاّ المُلاقاة[6] .

قُلتُ : ولعَلَّ قوّى قد انفصَلَتْ من أنيابِ الأفعى إلى دماءِ النّاسِ . وقد رَوَوْا أنّهُ قيلَ لجالينُوسَ[7] : إنّ هاهُنا رَجُلاً يَرْقي العقاربَ ، فتَموتُ أو تنحلَّ فلا تَعمَلُ ؛ فرآهُ يرقيها ويتفُلُ عليها ؛ فدَعا بهِ بحضرةِ جَماعةٍ ، وهوَ على الرّيقِ ؛ ودَعا بغَدائهِ فتَغدّى معَهُ ؛ ثمّ دُعيَ لهُ بالعقاربِ ، فتفَلَ عليها ، فلَم يَجِدْ لُعابَهُ يَصنَعُ شيئاً إلاّ أن يكونَ ريقاً . وهو حَديثٌ يَدورُ بينَ أهلِ الطبّ ، وأنتَ طبيبٌ . فلَم أرَهُ في يومِهِ ذلكَ قالَ شيئاً إلاّ من طريقِ الحَزْرِ[8] والحَدْسِ[9] والبَلاغاتِ[10] .

---

١ أسخف : أضعف وأقل متانة .
٢ الكير : ما ينفخ فيه الحداد .
٣ وهو : راجع إلى بعض .
٤ وفي رواية : يفرقها .
٥ يحمصها : يسكن الأورام ويقللها ؛ يقال انحمص الجرح : سكن ورمه وقل . وحمصه الدواء .
٦ إلا الملاقاة : أي ملاقاتها للحجر .
٧ جالينوس : طبيب يوناني قديم ترجمت كتبه إلى العربية في بني العباس .
٨ الحزر : التقدير .
٩ الحدس : الظن والتخمين .
١٠ البلاغات : التبليغات ، أي ما وصل إليه من الحديث .

الحيّة ذات الرأسين

وقد زَعَمَ صاحبُ المَنطِقِ[1] أنّهُ قد ظَهَرَتْ حَيّةٌ لها رأسانِ . فسألتُ أعرابيّاً عن ذلكَ ، فزَعَمَ أنّ ذلكَ حقّ . فقُلتُ لهُ : فمِنْ أيّ جِهَةِ الرّأسَينِ تَسعَى ، ومنْ أيّهِما تأكُلُ وتَعَضّ ؟ فقالَ : فأمّا السّعيُ فلا تَسعَى ، ولكنّها تَسعَى إلى حاجتِها بالتّقَلّبِ كما يتَقَلّبُ الصّبيانُ على الرّملِ ؛ وأمّا الأكلُ فإنّها تَتَعَشّى بِفَمٍ وتَتَغَدّى بِفَمٍ ؛ وأمّا العَضّ فإنّهَا تعَضّ برَأسَيْهَا مَعاً. فإذا بهِ أكذَبُ البريّةِ ! وهذهِ الأحاديثُ كُلّها ممّا يَزيدُ في الرّعبِ منْها[2] وفي تَهويلِ أمرِها .

الأفعى والناقة والفصيل

ومن عَجيبِ سُمّ الأفاعي ما أخبرَني بَعضُ مَنْ يُخبِرُ بشأنِ الأفاعي قالَ : « كنتُ بالباديَةِ ، ورأيتُ ناقَةً ، وفَصيلُها يَرتَضِعُ مِنْ أخلافِها[3] ، إذ نَهَشَتِ النّاقةَ على مَشافِرِها[4] أفعَى ، فبَقِيَتْ واقِفَةً سادِرَةً[5] ، والفَصيلُ يَرتَضِعُ . فبَينا هوَ يَرتَضِعُ ، إذ خرّ مَيتاً » . فكانَ مَوتُهُ ، قَبلَ موتِ أمّهِ ، من العَجيبِ ! وكانَ مُرورُ السّمّ في تلكَ السّاعةِ القَصيرَةِ ، أعجَبَ ! وكانَ ما صارَ من فُضُولِ[6] سُمّها في لَبَنِ الضّرْعِ ، حتى قَتَلَ الفَصيلَ قَبلَ أمّهِ ، عَجَباً آخرَ .

---

١ صاحب المنطق : يعني أرسطو .
٢ منها : أي من الحية .
٣ الأخلاف : جمع خلف وهو للناقة كالضرع للشاة .
٤ المشافر : جمع مشفر وهو للبعير كالشفة للإنسان .
٥ سادرة : متحيرة البصر لا تكاد تبصر .
٦ الفضول : البقايا ، جمع فضل .

كتاب البخلاء

أهل خراسان[1]

نَبدأُ بأهلِ خُراسانَ لإكثارِ النّاسِ في أهلِ خُراسانَ ؛ ونَخُصّ بذلكَ أهلَ مَرْوَ[2] ، بقَدرِ ما خُصّوا بهِ .

قالَ أصحابُنا : يَقولُ المَرْوَزيّ[3] للزّائرِ ، إذا أتاهُ ، وللجَليسِ ، إذا طالَ جُلوسُهُ : تَغَدّيتَ اليَومَ ؟ فإنْ قالَ : نَعَمْ ، قالَ : لولا أنّكَ تَغَدّيتَ ، لَغَدّيتُكَ بغَداءٍ طَيّبٍ . وإنْ قالَ : لا ، قالَ : لو تَغَدّيتَ ، لسَقَيتُكَ خَمسةَ أقداحٍ . فلا يَصيرُ في يَدِهِ ، على الوَجهَينِ ، قَليلٌ ولا كَثيرٌ .

ديكة مرو

وقالَ ثُمامَةُ[4] : لم أرَ الدّيكَ في بَلدَةٍ قَطّ إلاّ وهوَ لاقِطٌ ، يأخُذُ الحَبّةَ بمِنقارِهِ ، ثمّ يَلفِظُها قُدّامَ الدّجاجةِ ؛ إلاّ دِيَكَةَ مَرْوَ ، فإنّي رأيتُ دِيَكَةَ مَرْوَ تَسلُبُ الدّجاجَ ما في مَناقيرِها منَ الحَبّ ! قالَ : فعَلِمتُ أنّ بُخلَهُمْ شيءٌ في طَبعِ البِلادِ ، وفي جَواهرِ الماءِ . فمِنْ ثَمّ[5] عَمّ جَميعَ حَيَوانِهِمْ .

١ بدأ بذكر أهل خراسان بعد إيراده رسالة سهل بن هارون في تحسين البخل .
٢ مرو : بلد من خراسان .
٣ المروزي : نسبة إلى مرو في الأناسي على غير قياس ، ومروي في غير ذلك .
٤ هو ثمامة بن أشرس النميري من رؤساء المعتزلة .
٥ ثم : ظرف بمعنى هناك .

صبيان مرو

فحدَّثتُ بهذا الحديثِ أحمدَ بنَ رَشيدٍ ، فقالَ : كنتُ عندَ شيخٍ مِن أهلِ مَرْوَ ، وصبيٌّ له صغيرٌ يلعبُ بينَ يديه ، فقلتُ له إمّا عابثاً وإمّا مُمتحِناً : أطعِمني مِنْ خُبزِكم ، قال : « لا تُريدُهُ ، هوَ مُرٌّ . » فقلتُ : « فاسقِني من مائِكُمْ » قالَ : « لا تُريدُهُ ، هوَ مالِحٌ[1] . » قُلتُ : « هاتِ من كذا وكذا » قالَ : « لا تُريدُهُ ، هوَ كذا وكذا » . . . إلى أنْ عددتُ أصنافاً كثيرةً ، كلّ ذلكَ يمنعُنيه ويُبغِّضُهُ إليَّ. فضحكَ أبوهُ وقالَ : « ما ذنبُنا ؟ هذا مِنْ عِلْمِهِ ما تسمعُ . » يعني أنّ البُخلَ طَبعٌ فيهِمْ ، وفي أعراقِهِم[2] وطينتِهِمْ .

٨ السراج والعود

وقالَ خاقانُ بنُ صُبَيحٍ : دخلتُ على رَجلٍ من أهلِ خُراسانَ ، ليلاً ، وإذا هوَ قد أتانا بمِسرَجَةٍ فيها فَتيلةٌ في غايةِ الدِّقّةِ ، وإذا هوَ قد ألقَى في دُهنِ المِسرَجةِ شيئاً من مِلْحٍ[3] ، وقد علّقَ على عَمودِ المَنارةِ[4] ، عُوداً بخَيطٍ ، وقد حزّ فيهِ ، حتى صارَ فيه مكانٌ للرِّباطِ . فكانَ المِصباحُ إذا كادَ ينطفىءُ ، أشخَصَ[5] رأسَ الفتيلةِ بذلكَ . قالَ ، فقلتُ لهُ : « ما بالُ العُودِ مَربوطاً ؟ » قالَ : « هذا عُودٌ قد تَشرّبَ الدُّهنَ ؛ فإنْ ضاعَ ولم يُحفَظ ، احتَجنا إلى واحدٍ عَطشانَ . فإذا كانَ هذا دأبَنا ودأبَهُ ، ضاعَ مِنْ دُهنِنا في الشّهرِ بقَدْرِ كِفايةِ لَيلةٍ . »

قالَ : فبَينا أنا أتعَجّبُ في نَفسي ، وأسألُ اللهَ ، جلّ ذِكرُهُ ، العافيةَ

١ مالح : ينقل الجاحظ كلام الصبي ، وإنما يقال : ملح ، وأما مالح فلغة رديئة .
٢ الأعراق ، جمع عرق : الأصل .
٣ الظاهر أنهم كانوا يعتقدون أن الملح يخفف من استهلاك الدهن .
٤ المنارة : موضع المسرجة .
٥ أشخص : رفع .

والسَّتْرَ ، إذ دخَلَ شَيخٌ من أهلِ مَرْوَ ، فنَظَرَ إلى العودِ ، فقالَ : « يا أبا فُلانٍ ، فرَرتَ من شيءٍ ، ووقَعتَ في شَبيهٍ بهِ . أمَا تَعلَمُ أنَّ الرّيحَ والشَّمسَ تأخذانِ منْ سائرِ[1] الأشياءِ ؟ أوَليسَ قد كانَ البارِحةَ عندَ إطفاءِ السِّراجِ أرْوَى ، وهُوَ ، عندَ إسراجِكَ اللّيلَةَ ، أعطَشُ ؟ قد كنتُ جاهلاً مثلَكَ ، حتى وَفّقَني اللهُ إلى ما هوَ أرْشَدُ . ارْبِطْ ، عافاكَ اللهُ ، بَدَلَ العودِ إبرَةً ، أو مِسَلّةً صَغيرَةً . وعلى أنّ العودَ والخِلالَ[2] والقَصَبَةَ رُبّما تَعَلّقَتْ بها الشّعرَةُ مِنْ قُطنِ الفَتيلَةِ ، إذا سَوّيناها بها ، فتَشخَصُ[3] معَها[4] . وربّما كانَ ذلكَ سبَباً لانطِفاءِ السِّراجِ . والحَديدُ أملَسُ ، وهوَ ، معَ ذلكَ ، غيرُ نَشّافٍ[5] . »

قالَ خاقانُ : ففي تلكَ اللّيلَةِ عرَفتُ فضلَ أهلِ خُراسانَ على سائرِ النّاسِ ، وفَضلَ أهلِ مَرْوَ على سائرِ أهلِ خُراسانَ .

كذب بكذب

ومثلُ هذا الحَديثِ ما حَدّثَني بهِ مُحَمّدُ بنُ يَسيرٍ[6] عن والٍ كانَ بفارِسَ ، إمّا أنْ يَكونَ خالِداً أخا مَهرَوَيه ، أو غيرَهُ . قالَ : بَينا هوَ يوماً في مَجلِسٍ ، وهوَ مَشغولٌ بحسابِهِ وأمْرِهِ ، وقد احتَجَبَ جُهدَهُ[7] ، إذ نجَمَ[8] شاعرٌ من بَينِ يَدَيهِ ، فأنشَدَهُ شِعراً مَدَحَهُ فيهِ وقَرّظَهُ ومَجّدَهُ . فلَمّا فرَغَ ، قالَ : « قد أحسَنتَ » ثمّ أقبَلَ على كاتِبِهِ ، فقَالَ : « أعْطِهِ عَشرَةَ

---

١ السائر : الباقي ، وربما استعمل بمعنى الجميع كما استعمل هنا .
٢ الخلال : عود دقيق تخلل به الاسنان .
٣ تشخص : تذهب ؛ الفاعل يرجع إلى الفتيلة .
٤ معها : أي مع هذه الأشياء ، أي العود والخلال والقصبة .
٥ نشاف : ممتص ، صيغة مبالغة .
٦ محمد بن يسير : شاعر بصري .
٧ احتجب جهده : أي احتجب عن الناس على قدر ما أمكنه .
٨ نجم : ظهر .

آلافِ دِرهَمٍ . » ففَرِحَ الشّاعرُ فرَحاً قد يُستَطارُ له[1] . فلَمّا رأى حالَهُ ، قالَ : « وإنّي لأرى هذا القَولَ قد وقَعَ منكَ هذا المَوقِعَ ! اجعَلْها عشرينَ ألفَ دِرْهَمٍ . » وكادَ الشّاعرُ يَخرُجُ مِن جِلدِهِ . فلَمّا رأى فرَحَهُ قد تَضاعَفَ قالَ : « وإنّ فرَحَكَ ليَتضاعَفُ على قَدْرِ تَضاعُفِ القَولِ ! أعطِهِ يا فُلانُ أربَعينَ ألفاً . » فكادَ الفرَحُ يقتُلُهُ . فلَمّا رَجَعَتْ إليهِ نفسُهُ ، قالَ لهُ : « أنتَ ، جُعِلتُ فِداكَ ، رَجُلٌ كَريمٌ ؛ وأنا أعلَمُ أنّكَ كُلّما رأيتَني قَدِ ازدَدْتُ فرَحاً ، زِدتَني في الجائزَةِ . وقَبولُ هذا منكَ لا يكونُ إلاّ من قِلّةِ الشّكرِ لهُ[2] . » ثمّ دَعا لهُ وخرَجَ .

قالَ : فأقبَلَ علَيهِ كاتِبُهُ ، فقَالَ : « سُبحانَ اللهِ ! هذا كانَ يَرضَى منكَ بأربَعينَ دِرْهَماً ، تأمُرُ لهُ بأربَعينَ ألفَ دِرهَمٍ ! » قالَ : « ويلَكَ ! وتُريدُ أنْ تُعطيَهُ شَيئاً ؟ » قالَ : « ومِنْ إنفاذِ أمرِكَ بُدٌّ ؟ » قالَ : « يا أحمقُ ، إنّما هذا رَجُلٌ سرّنا بكَلامٍ ، وسَرَرناهُ بكَلامٍ ! هوَ حينَ زَعَمَ أنّي أحسَنُ منَ القَمَرِ ، وأشَدُّ منَ الأسَدِ ، وأنّ لساني أقطَعُ منَ السّيفِ ، وأنّ أمري أنفَذُ مِنَ السّنانِ ، جعَلَ في يدي من هذا شَيئاً أرجعُ بهِ إلى شيءٍ ؟ ألَسنا نَعلَمُ أنّهُ قد كَذَبَ ؟ ولكِنّهُ قد سرّنا حينَ كَذَبَ لَنا[3] . فنَحنُ أيضاً نسرّهُ بالقَولِ ، ونأمُرُ لهُ بالجَوائزِ ، وإن كانَ كَذِباً ، فيَكونُ كَذِبٌ بكَذِبٍ ، وقَولٌ بقَولٍ . فأمّا أنْ يكونَ كَذِبٌ بصِدْقٍ ، وقَولٌ بفِعلٍ ، فهَذا هوَ الخُسرانُ الذي ما سَمِعتُ بهِ ! »

---

١ يستطار له : أي يحمل على الطيران لأجله .
٢ قبول هذا : أي قبول هذا العمل ، أي مضاعفة الجائزة له ؛ والمراد أنه يؤثر أن يخرج من مجلسه لئلا تستمر هذه الزيادات في الجائزة ، فيكون كمن وجد العطاء قليلا ، فأقل من الشكر له لينال الزيادة فيه .
٣ لنا : أي لأجلنا .

قصة أسد بن جاني

فأمّا أسَدُ بنُ جاني فكانَ يَجعَلُ سريرَهُ في الشّتاءِ من قَصَبٍ مُقَشَّرٍ ؛ لأنَّ البراغيثَ تَزلَقُ عن لِيطِ[1] القَصَبِ ، لفَرطِ لينِهِ ومَلاستِهِ .

وكانَ ، إذا دَخَلَ الصّيفُ وحَرَّ عليهِ بَيتُهُ ، أثارَهُ[2] ، حتى يُغرِقَ المِسحاةَ[3] ثمَّ يَصُبَّ عليهِ جِراراً كثيرةً من ماءِ البِئرِ ، ويتَوَطّوهُ[4] حتى يَستَويَ. فلا يَزالُ ذلكَ البَيتُ بارِداً ، ما دامَ نَدِيّاً . فإذا امتَدَّ بهِ النّدى ، ودامَ بَردُهُ بدَوامِهِ ، اكتَفَى بذلكَ التّبريدِ صَيفَتَهُ . وإنْ جَفَّ قَبلَ انقِضاءِ الصّيفِ ، وعادَ عليهِ الحَرُّ عادَ عليهِ بالإثارةِ والصّبِّ .

وكانَ يَقولُ : « خَيشتي[5] أرضٌ، وماءُ خَيشتي من بِئري . وبَيتي أبرَدُ[6] ، ومُؤنَتي[7] أخَفُّ . وأنا أفضُلُهُمْ أيضاً بفَضلِ الحِكمَةِ وجودَةِ الآلَةِ[8] .

وكانَ طَبيباً ، فأكسَدَ[9] مَرّةً ، فقالَ لهُ قائلٌ : « السّنَةُ وبِئَةٌ[10] ، والأمراضُ فاشِيَةٌ ، وأنتَ عالمٌ ، ولكَ صَبرٌ وخِدمَةٌ ، ولكَ بَيانٌ ومَعرِفَةٌ . فمِنْ أينَ تُؤتَى[11] في هذا الكَسادِ ؟ » قالَ : أمّا واحدَةٌ[12]، فإنّي عندَهم

1 الليط : جمع ليطة وهي قشرة القصبة الملازمة لها ، أي ظاهرها اللامع الأملس .
2 أثاره : نكشه ورفع ترابه .
3 المسحاة : المجرفة . وقوله أغرق المسحاة : أي أنه حفر بعمق طولها .
4 يتوطؤه : يدوسه برجليه ، أي أنه يدوس البيت برجليه بعد أن يعيد عليه التراب .
5 خيشتي ، في محيط المحيط : مروحة الخيش : نسج خشن من الكتان كشراع السفينة يعلقها أهل العراق في سقف البيت ويعملون لها حبلا تجر به مبلولة بالماء . فإذا أراد الرجل أن ينام جذب حبلها فيهب منها نسيم بارد يذهب أذى الحر ، ويستطاب معه النوم .
6 أبرد : أي أبرد من بيوت أصحاب المراوح .
7 المؤنة : الكلفة .
8 الآلة : أي آلة التبريد التي اخترعها بحكمته .
9 أكسد الرجل : كسدت سوقه .
10 وبئة : كثيرة الأمراض .
11 فمن أين تؤتى : أي من أي وجه يأتيك البلاء في هذا الكساد .
12 واحدة : أي أولا .

مَسلِمٌ ، وقدِ اعتَقَدَ القَومَ ، قبل ان اتطبب [1] بل قبل ان [illegible] أنّ المُسلِمينَ لا يُفلِحونَ في الطّبّ . واسمي أسَدٌ ، وكانَ يَنبَغي أن يكونَ اسمي صَليبَا ، ومُرايِلَ[2] ، ويوحَنا ، وبيرَا[3] . وكُنيَتي أبو الحارِثِ ، وكانَ يَنبَغي أن تكونَ أبو عيسى وأبو زكريّا وأبو إبراهيمَ[4] . وعَلَيّ رِداءُ قُطنٍ أبيَضُ ، وكانَ يَنبَغي أن يكونَ رِداءَ حَريرٍ أسوَدَ . ولَفظي لَفظٌ عرَبيٌّ ، وكانَ يَنبَغي أن تكونَ لُغَتي لُغَةَ أهلِ جُندَيسابُورَ[5] .

آكل الرؤوس

ثمّ رَجعَ الحَديثُ إلى أعاجيبِ عَبدِ الرّحمَنِ[6] :

وكانَ أبو عَبدِ الرّحمَنِ يُعجَبُ بالرّؤوسِ ، ويَحمَدُها ويَصِفُها . وكانَ لا يأكُلُ اللّحمَ إلاّ يَومَ أضحَى ، أو من بَقيّةِ أُضحيَتِه[7] ، أو يكونُ في عُرسٍ ، أو دَعوَةٍ ، أو سُفرَةٍ[8] . وكانَ سَمّى الرّأسَ عُرساً ؛ لِمَا يَجتَمعُ فيهِ منَ الألوانِ الطّيّبَةِ ، وكانَ يُسَمّيهِ مَرّةً الجامعَ ، ومَرّةً الكاملَ .

وكانَ يَقولُ : الرّأسُ شيءٌ واحدٌ ، وهوَ ذو ألوانٍ عَجيبَةٍ ، وطُعُومٍ مُختَلِفَةٍ . وكلّ قِدْرٍ[9] ، وكلّ شِواءٍ فإنّما هوَ شيءٌ واحدٌ . والرّأسُ فيهِ

....

١ أتطبب : أي أتعاطى علم الطب وأعانيه .
٢ مرايل أي مورائيل : من أسماء الملائكة .
٣ بيرا : لعله مصحف عن بترا : الصخرة أو بطرس .
٤ أبو : رفع أبو في الكنى الثلاث على الحكاية .
٥ جنديسابور : أراد بها مدرسة جنديسابور التي أنشأها كسرى أنوشروان وأنشأ بجانبها مستشفى يعرف بالبيمارستان ، فكان علماء النساطرة يدرسون فيها علوم اليونان باللغة السريانية ، ومنها تخرج أشهر الأطباء النصارى في بني العباس كأبناء بختيشوع .
٦ هو أبو عبد الرحمن الثوري .
٧ الأضحية : الشاة التي تذبح يوم الأضحى .
٨ السفرة : طعام السفر .
٩ قدر : أي ما طبخ في القدر

الدِّماغُ ، فطَعمُ الدِّماغِ على حِدَةٍ ؛ وفيهِ العَينانِ ، وطَعمُهُما على حِدَةٍ ؛ وفيهِ الشَّحمَةُ التي بَينَ أصلِ الأُذُنِ ومُؤخرِ العَينِ ، وطَعمُها على حِدَةٍ . على أنَّ هذه الشَّحمَةَ ، خاصَّةً ، أطيَبُ منَ المُخِّ[1] ، وأنعَمُ منَ الزُّبدِ ، وأدسَمُ منَ السِّلاءِ[2] .

وفي الرَّأسِ اللِّسانُ ، وطَعمُهُ شيءٌ على حِدَةٍ ؛ وفيهِ الخَيشومُ والغُضروفُ[3] الذي في الخَيشومِ ، وطَعمُهُما على حِدَةٍ ؛ وفيهِ لحمُ الخَدَّينِ ، وطَعمُهُ شيءٌ على حِدَةٍ . حتى يُقَسِّمَ أسقاطَهُ[4] الباقيَةَ . ويَقولُ : الرَّأسُ سَيِّدُ البَدَنِ ؛ وفيهِ الدِّماغُ ، وهوَ مَعدِنُ العَقلِ ، ومنهُ يتَفَرَّقُ العَصَبُ الذي فيهِ الحِسُّ ، وبهِ قِوامُ البَدَنِ . وإنَّما القَلبُ بابُ العَقلِ ، كَما أنَّ النَّفسَ هيَ المُدرِكَةُ ، والعَينَ هيَ بابُ الألوانِ ، والنَّفسَ هيَ السَّامعَةُ الذَّائقَةُ ؛ وإنَّما الأنفُ والأذُنُ بابانِ . ولولا أنَّ العَقلَ في الرَّأسِ ، لَما ذَهَبَ العَقلُ منَ الضَّربَةِ تُصيبُهُ . وفي الرَّأسِ الحَواسُّ الخَمسُ ؛ وكانَ يُنشِدُ قَولَ الشَّاعِرِ[5] :

إذا ضرَبوا رأسي ، وفي الرَّأسِ أكثَري ؛ وغُودِرَ ، عندَ المُلتَقى ، ثَمَّ ، سائِري[6]

وكانَ يَقولُ : النَّاسُ لم يَقولوا : هذا رأسُ الأمرِ ، وفُلانٌ رأسُ الكَتيبَةِ ، وهوَ رأسُ القَومِ ، وهُم رؤوسُ النَّاسِ وخَراطيمُهُم[7] وأنفُهُم ؛ ويَشتَقّوا[8]

١ المخ : الدماغ ، ونقي العظم ، وهو ما يمص ويخرج من داخل العظم .
٢ السلاء : السمن ذهب ما فيه من أثر اللبن .
٣ الغضروف : كل عظم رخص يؤكل .
٤ الأسقاط : جمع سقط أي الأشياء التافهة التي لا تستحق الذكر .
٥ هو الشنفرى .
٦ الملتقى : مكان التقاء المتحاربين . ثم : هناك . سائري : بقية جسمي .
٧ الخراطيم : الأنوف ، وخراطيم الناس ساداتهم ، سموا بذلك لشرف الأنف في الرأس ، ومنه اشتقوا الأنفة .
٨ ويشتقوا : معطوف على لم يقولوا .

مِنَ الرّأسِ الرِّئاسَةَ ، والرَّئيسَ ، وقد رأسَ القَومَ فُلانٌ ، إلاّ والرّأسُ هوَ المَثَلُ ، وهوَ المُقَدَّمُ .

وكانَ إذا فرَغَ من أكلِ الرّأسِ ، عَمَدَ إلى القِحْفِ[1] ، وإلى الجَبينِ ، فوَضَعَهُ[2] بقُربِ بيُوتِ النّملِ والذَّرِّ ؛ فإذا اجتَمَعَتْ فيهِ ، أخَذَهُ فنَفَضَهُ في طَسْتٍ[3] فيها ماءٌ ؛ فلا يَزالُ يُعيدُ ذلكَ في تلكَ المَواضِعِ ، حتى يَقلَعَ أصلَ النّملِ والذَّرِّ من دارِهِ . فإذا فرَغَ من ذلكَ ، ألقاهُ في الحَطَبِ ، ليُوقَدَ بهِ[4] سائرَ الحَطَبِ .

وكانَ ، إذا كانَ يومُ الرّؤوسِ ، أقعدَ ابنَهُ معَهُ على الخِوانِ[5] ؛ إلاّ أنّ ذلكَ بعدَ تَشرّطٍ طَويلٍ ، وبعدَ أنْ يَقِفَ بهِ على ما يُريدُ ؛ وكانَ فيما يَقولُ لهُ : إيّاكَ ونَهَمَ[6] الصّبيانِ ، وشَرَهَ الزُّرّاعِ[7] ، وأخلاقَ النّوائِحِ[8]. ودَعْ عنكَ خَبطَ[9] المَلاّحينَ[10] والفَعَلةِ ، ونَهشَ الأعرابِ[11] والمَهَنَةِ[12]. وكلْ ما بينَ يَديكَ ؛ فإنّما هوَ حَقّكَ الذي وقعَ لكَ وصارَ أقربَ إليكَ . واعلَمْ أنّهُ ، إذا كانَ في الطّعامِ شيءٌ طَريفٌ ولُقْمَةٌ كَريمةٌ ومُضْغَةٌ شَهيّةٌ ،

١ القحف : العظم فوق الدماغ وما انفلق من الجمجمة فبان ، ولا يدعى قحفاً حتى يبين وينكسر منه شيء .
٢ فوضعه : ارجع ضمير المفعول المفرد إلى شيء مذكور ، وهذا كثير في كلامهم .
٣ الطست : مؤنثة وقد تذكر .
٤ ليوقد به : لأنه سريع الاشتعال .
٥ الخوان : ما يوضع عليه الطعام .
٦ النهم : إفراط الشهوة في الطعام .
٧ شره الزراع : يأكلون بجشع لأنهم أهل كد وتعب .
٨ النوائح : أي المستأجرات للنوح والندب ، فإذا حضر الطعام أقبلن عليه بشره .
٩ الخبط : الضرب الشديد .
١٠ الملاحين ، جمع الملاح : سائق السفينة ، والمراد لا تخبط بيدك الطعام على غير روية فتأكل من هنا وهناك كما يخبط الملاحون مجاذيفهم في الماء ، والفعلة معاولهم ومجارفهم ؛ يوصيه بالترفق والاكتفاء بما يجد قربه من الطعام .
١١ يوصف الأعراب بالجشع لكثرة ما يعانون من الحرمان والجوع ، فإذا وقع لهم اللحم ، نهشوه بوحشية غريبة .
١٢ المهنة ، جمع الماهن : العبد والخادم ، وهذا ينهش الطعام لجهله أدب المائدة .

فإنّما ذلكَ للشّيخِ المُعَظّمِ ، والصّبيّ المُدَلّلِ ؛ ولَستَ واحداً منهُما . فأنتَ قد تأتي الدّعَواتِ والوَلائمَ ، وتَدخُلُ مَنازِلَ الإخوانِ ، وعَهدُكَ باللّحمِ قَريبٌ ، وإخوانُكَ أشَدّ قَرَماً[1] إليْهِ مِنكَ ؛ وإنّما هوَ رأسٌ واحِدٌ ، فلا عَلَيكَ[2] أن تَتَجافَى[3] عَن بَعضٍ ، وتُصيبَ بَعضاً . وأنا ، بَعدُ ، أكرَهُ لكَ المُوالاةَ[4] بينَ اللّحمِ ؛ فإنّ اللهَ يُبغِضُ أهلَ البَيتِ اللّحِمينَ[5] .

٥ قصة أهل البصرة من المسجديين

قالَ أصحابُنا منَ المَسجديّينَ : اجتَمَعَ ناسٌ في المَسجدِ ممّنْ يَنتَحِلُ الاقتِصادَ[6] في النّفَقَةِ ، والتّنْميَةِ للمالِ ، مِن أصحابِ الجَمعِ والمَنعِ[7] . وقد كانَ هذا المَذهَبُ صارَ عندَهُمْ كالنّسَبِ الذي يَجمَعُ على التّحابِّ ، وكالحِلْفِ[8] الذي يَجمَعُ على التّناصُرِ. وكانُوا إذا التَقَوا في حَلَقِهِم[9] تَذَكّروا هذا البابَ ، وتَطارَحوهُ[10] وتَدارَسُوهُ .

قالَ شَيخٌ مِنهُمْ : ماءُ بِئرِنا ، كَما عَلِمتُمْ ، مِلحٌ أُجاجٌ[11] لا يَقرَبُهُ الحِمارُ ، ولا تُسيغُهُ[12] الإبلُ ، وتَموتُ عليهِ النّخلُ . والنّهرُ منّا بَعيدٌ.

---

١ القرم : شدة الشهوة إلى اللحم .
٢ لا عليك : أي لا بأس عليك .
٣ تتجافى : تبتعد .
٤ الموالاة : المتابعة .
٥ اللحمين : الذين يكثرون أكل اللحم ويدمنونه . وقوله إن الله الخ . . . حديث نبوي .
٦ ينتحل الاقتصاد : يتخذه ملهباً .
٧ الجمع : جمع المال . المنع : منعه من الخروج .
٨ الحلف : العهد .
٩ الحلق : جمع حلقة أي حلقة مجلسهم .
١٠ تطارحوه : أي طرح كل واحد منهم آراءه على أصحابه .
١١ أجاج : ملح مر .
١٢ تسيغه : تقبله وتستسهل بلعه .

وفي تَكَلُّفِ العَذْبِ[1] علينا مُؤْنَةٌ[2] . فكُنّا نَمزُجُ منه[3] للحِمارِ ، فاعتَلَّ عنه[4] ، وانتَقَضَ علَينا[5] مِن أجلِه . فصِرنا ، بَعدَ ذلكَ ، نَسقيهِ العَذبَ صِرفاً . وكنتُ أنا والنَّعجةُ كثيراً ما نَغتَسِلُ بالعَذبِ ، مَخافَةَ أنْ يَعتَرِيَ جُلودَنا منه[6] مثلُ ما اعترى جَوفَ الحِمارِ ؛ فكانَ ذلكَ الماءُ العَذبُ الصّافي يَذهَبُ باطِلاً .

ثمَّ انفَتَحَ لي فيه بابٌ منَ الإصلاحِ ، فعَمَدتُ إلى ذلكَ المُتَوَضَّإِ[7] فجعَلتُ في ناحيَةٍ منه حُفرَةً ، وصَهرَجتُها[8] وملَّستُها ، حتى صارتْ كأنَّها صَخرَةٌ مَنقورَةٌ . وصَوَّبتُ[9] إليها المَسيلَ . فنَحنُ ، الآنَ ، إذا اغتَسَلنا، صارَ الماءُ[10] إليها صافياً لم يُخالِطهُ شيءٌ . والحِمارُ أيضاً لا تَقَزُّزَ[11] لهُ منه . وليسَ علَينا حَرَجٌ في سَقيِهِ منهُ ؛ وما علِمنا أنَّ كتاباً حَرَّمَهُ ، ولا سُنَّةً نَهَتْ عَنهُ . فرَبِحنا هذهِ مُنذُ أيّامٍ ، وأسقَطنا مؤنَةً عنِ النَّفسِ والمالِ مالِ القَومِ[12] . وهذا بتَوفيقِ اللهِ ومَنِّه[13] .

فأقبَلَ علَيهِم شيخٌ ، فقالَ : هل شَعَرتُم بمَوتِ مَريَمَ الصَّنّاعِ ؟ فإنَّها كانَتْ من ذواتِ الاقتِصادِ ، وصاحبَةَ إصلاحٍ . قالوا : فحَدِّثْنا عَنها . قالَ : نَوادِرُها كَثيرَةٌ ، وحَديثُها طَويلٌ ، ولكنّي أُخبِرُكُم عن واحدَةٍ

....

١ العذب : أي الماء العذب .
٢ مؤنة : مشقة وكلفة .
٣ منه : أي من الماء الأجاج .
٤ اعتل عنه : أضرب وأحجم .
٥ انتقض علينا : عصانا وخرج عن طاعتنا .
٦ منه : من الماء الأجاج .
٧ المتوضأ : مكان الوضوء .
٨ صهرجها : طلاها بالصاروج ، أي القطران .
٩ صوبه : أرسله ووجهه في الجري .
١٠ صار الماء : جرى واتجه إلى مصيره ، أي موضعه .
١١ التقزز : نفور النفس واشمئزازها من الدنس .
١٢ مال القوم : أي العيال .
١٣ منه : فضله وكرمه .

فيها كِفايَةٌ . قالوا : وما هيَ ؟ قالَ : زَوّجتِ ابنتَها ، وهيَ بنتُ اثنتَيْ عشرَةَ ، فحلّتها الذّهبَ والفِضّةَ ، وكَسَتها المَرَوِيّ[1] والوَشيَ والقزّ والخزّ[2] ، وعلّقتِ المُعَصفَرَ[3] ، ودَقّتِ الطّيبَ ، وعظّمَتْ أمرَها في عينِ الختَنِ[4] ، ورفَعَتْ مِن قَدْرِها عندَ الأحماء[5] .

فقَالَ لهَا زَوْجُهَا : أنّى[6] هَذا يا مَرْيَمُ ؟ قالَتْ: هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ . قالَ: دَعي عَنْكِ الجُمْلَةَ ، وَهاتي التّفسيرَ . واللهِ ، ما كُنتِ ذاتَ مالٍ قَديماً ، ولا وَرِثتِهِ حَديثاً ؛ وما أنتِ بخائنَةٍ في نَفسِكِ ولا في مالِ بَعلِكِ ؛ إلاّ أنْ تَكوني قد وَقَعتِ على كَنزٍ ! وكيفَ دارَ الأمرُ ، فقد أسقَطتِ عنّي مُؤْنَةً ، وكَفَيتِني هذهِ النّائبَةَ .

قالَتِ : اعلَمْ أنّي ، مُنذُ يَومَ وَلَدتُها إلى أن زَوّجتُها ، كنتُ أرفَعُ مِنْ دَقيقِ كلّ عَجنَةٍ حَفنَةً . وكُنّا ، كما قد عَلِمتَ ، نَخبِزُ في كلّ يومٍ مَرّةً . فإذا اجتَمَعَ من ذلكَ مَكّوكٌ[7] ، بِعتُهُ .

قالَ زَوجُها : ثَبّتَ اللهُ رأيَكِ وأرشَدَكِ ! ولَقَد أسعَدَ اللهُ مَن كنتِ لهُ سَكَناً[8] ، وبارَكَ لِمَنْ جُعِلتِ لهُ إلْفاً ! ولهذا وشِبهِهِ قَالَ رَسُولُ اللهِ ، صَلّى اللهُ عليهِ وسَلّمَ : « مِنَ الذّود إلى الذّودِ إبِلٌ[9] . » وإنّي لأرجو أنْ يَخرُجَ وَلَدُكِ[10] على عِرقِكِ الصّالحِ ، وعلى مَذهَبِكِ المَحمودِ . وما

١ المروي : أي المروي من الثياب ، نسبة إلى مرو .
٢ الخز : الحرير أو ما نسج من الصوف والحرير .
٣ المعصفر : أي الثوب المصبوغ بالعصفر ، وهو نبات يصبغ بزهره صبغ أصفر . وقوله علقت المعصفر : أي المعصفر من الستائر .
٤ الختن : الصهر ، زوج ابنة الرجل .
٥ الأحماء : جمع حم وهو أبو زوج المرأة وأبو امرأة الرجل ، ويطلق على من كان من قبله .
أنى : اسم استفهام بمعنى من أين .
٧ المكوك : مكيال عند أهل العراق يسع من نصف رطل إلى ثماني أواقي .
٨ السكن : ما يسكن إليه ويستأنس به من أهل ومال .
٩ الذ[illegible]د [illegible] من النوق ما فوق الاثنتين ودون العشر ؛ مؤنثة جمعها أذواد . والمعنى إذا جمعت القليل من الذود إلى القليل منها صار إبلا كثيرة . والأرجح أن هذا مثل لا حديث .
١٠ الو[illegible] يكون مفرداً وجمعاً .

فَرَحي بهَذا منكَ بأشَدَّ مِنْ فَرَحي بما يُثَبِّتُ اللهُ بكِ في عَقِبي[1] من هذهِ الطَّريقَةِ المَرْضِيَّةِ .

فنَهَضَ القَوْمُ إلى جَنازَتِها ، وصَلَّوا علَيها . ثمَّ انكَفَؤوا[2] إلى زوجِها ، فعَزَّوهُ على مُصيبَتِهِ ، وشارَكوهُ في حُزْنِهِ .

* * *

ثمَّ اندَفَعَ شَيخٌ منهُمْ ، فقَالَ : لم أرَ في وَضعِ الأُمورِ مَواضِعَها ، وفي تَوْفيتِها غايَةَ حُقُوقِها كَمُعاذَةَ العَنبريَّةِ . قالوا : وما شأنُ مُعاذَةَ هذهِ ؟ قالَ : أهدَى إلَيها ، العامَ ، ابنُ عَمٍّ لها أُضحِيَّةً[3] ، فرأيتُها كَئيبَةً حَزِينَةً ، مُفَكِّرَةً مُطرِقَةً . فقُلتُ لها : « ما لكِ يا مُعاذَةُ ؟ » قالتْ : « أنا امرأةٌ أرمَلَةٌ ، ولَيسَ لي قَيِّمٌ[4] ، ولا عَهدَ لي بتَدبيرِ لحمِ الأضاحيِّ . وقد ذهبَ[5] الذينَ كانوا يُدَبِّرونَهُ ويَقومونَ بحَقِّهِ . وقد خِفتُ أن يَضيعَ بَعضُ هذهِ الشّاةِ ، ولَستُ أعرِفُ وَضعَ جَميعِ أجزائِها في أماكِنِها . وقد علِمتُ أنَّ اللهَ لم يَخلُقْ فيها ولا في غَيرِها شَيئاً لا مَنفَعَةَ فيهِ ، ولكنَّ المَرءَ يَعجِزُ ، لا مَحالةَ[6]. ولَستُ أخافُ من تَضييعِ القَليلِ ، إلاّ أنّهُ يَجُرُّ تَضييعَ الكَثيرِ . أمّا القَرنُ فالوَجهُ فيهِ مَعروفٌ ، وهوَ أنْ يُجعَلَ كالخُطّافِ[7] ، ويُسَمَّرَ في جِذعٍ[8] مِن جُذوعِ السَّقفِ ، فيُعَلَّقَ علَيهِ الزُّبُلُ[9] والكيرانُ[10] وكلَّ ما خيفَ علَيهِ من

١ العقب : الولد وولد الولد .
٢ انكفؤوا : رجعوا .
٣ الأضحية : شاة يضحى بها ، جمعها الأضاحي . وعند المسلمين : الشاة التي تذبح يوم الأضحى .
٤ القيم : من يقوم بأمرها .
٥ ذهب : أي مات الذين كانوا يدبرونه من أهلها .
٦ هذا مثل ذكره الميداني وشرحه بقوله : أي لا تضيق الحيل ومخارج الأمور إلا على العاجز .
٧ الخطاف : حديدة ملوية .
٨ الجذع : ساق النخلة والشجرة . وعلى الجذوع يبنى سقف البيت .
٩ الزبل ، جمع الزبيل : القفة أو الجراب أو الوعاء .
١٠ الكيران ، جمع كور : الرحل وهو كل شيء يعد للرحيل من وعاء للأمتعة ؛ ومركب البعير . وفي رواية : الكيزان ، جمع كوز .

الفأرِ والنّملِ والسّنانيرِ وبنّاتِ وَردانَ[1] والحَيّاتِ ، وغَيرِ ذلكَ . وأمّا المُصرانُ[2] فإنّهُ لأوتارِ المِندَفَةِ[3] ؛ وبنا إلى ذلكَ أعظَمُ الحاجَةِ . وأمّا قِحفُ[4] الرّأسِ واللَّحيانِ[5] وسائرُ العِظامِ فسَبيلُهُ أنْ يُكَسَّرَ بَعدَ أنْ يُعرَقَ[6] ، ثمّ يُطبَخَ ؛ فَما ارتَفَعَ منَ الدَّسَمِ[7] كانَ للمِصباحِ وللإدامِ[8] وللعَصيدَةِ[9] ، ولغَيرِ ذلكَ . ثمّ تُؤخَذُ تلكَ العِظامُ فيُوقَدُ بها؛ فلَم يرَ النّاسُ وَقوداً[10] قَطّ أصفَى ولا أحسَنَ لَهَباً منها . وإذا كانتْ كذلكَ ، فهيَ أسرَعُ في القِدْرِ[11] ، لقِلّةِ ما يُخالِطُها منَ الدّخانِ . وأمّا الإهابُ[12] فالجِلدُ نَفسُهُ جِرابٌ. وللصّوفِ وُجوهٌ لا تُدفَعُ . وأمّا الفَرْثُ[13] والبَعْرُ فحَطَبٌ ، إذا جُفّفَ ، عَجيبٌ . »

ثمّ قالَتْ : « بَقيَ علَينا الانتِفاعُ بالدّمِ ؛ وقد علِمتُ أنّ اللهَ ، عزّ وجَلّ ، لم يُحَرّمْ منَ الدّمِ المَسفوحِ[14] إلاّ أكلَهُ وشُربَهُ ؛ وأنّ لهُ مَواضِعَ يَجوزُ فيها ولا يُمنَعُ منها . وإنْ أنا لم أقَعْ على عِلْمِ ذلكَ حتى يُوضَعَ مَوضِعَ الانتفاعِ بهِ ، صارَ كَيّةً في قَلبي ، وقَذًى في عَيني ، وهَمّاً لا يَزالُ يُعاوِدُني . »

فلَمْ ألبَثْ أن رأيتُها قد تَطَلّقَتْ[15] وتَبَسّمَتْ، فقُلتُ : يَنبَغي أن يكونَ

---

١ بنات وردان : الصراصير .
٢ المصران : جمع المصير وهو المعى ، وجمع الجمع : مصارين وهو هنا مأخوذ بمعنى المفرد أو اسم الجمع.
٣ المندفة : آلة الندف .
٤ القحف : العظم فوق الدماغ .
٥ اللحيان ، مثنى لحي : عظم الحنك الذي عليه الأسنان ، وموضع منبت اللحية من الرجل .
٦ يعرق : يجرد من اللحم .
٧ أي فما ارتفع من الدسم على وجه المرق في القدر .
٨ الإدام من الطعام : ما يؤتدم به مع الخبز فيطيبه ، فيلتذ به الآكل ، وهو عام في المائع وغيره .
٩ العصيدة : طعام يتخذ من الدقيق والسمن والسكر .
١٠ الوقود : ما يوقد به كالفحم والحطب .
١١ أسرع في القدر : أي أسرع في إحمائها وإنضاج ما فيها من الطعام .
١٢ الإهاب : الجلد .
١٣ الفرث : ما في الكرش من الزبل .
١٤ المسفوح : السائل ؛ والدم المسفوح محرم في القرآن .
١٥ تطلقت : أشرق وجهها وانبسط ؛ ذكره الأساس .

قَدِ انفَتَحَ لكِ بابُ الرَّأيِ في الدَّمِ . قالَتْ: «أجَلْ، ذَكَرتُ أنَّ عندي قُدوراً شاميَّةً جُدُداً . وقد زَعَموا أنَّهُ ليسَ شيءٌ أدبَغَ ، ولا أزيَدَ في قوَّتِها ، منَ التَّلطيخِ بالدَّمِ الحارِّ الدَّسِمِ . وقَدِ استَرَحتُ الآنَ ، إذ وَقَعَ كلُّ شيءٍ مَوقِعَهُ . »

قالَ : ثُمَّ لَقيتُها بَعدَ ستَّةِ أشهُرٍ ، فقُلتُ لها : كيفَ كانَ قَديدُ[1] تلكَ الشَّاةِ ؟ قالَتْ : « بأبي أنتَ[2] ! لم يَجيءْ وقتُ القَديدِ بَعدُ . لَنا في الشَّحمِ والأَليَةِ والجُنوبِ[3] والعَظمِ المَعروقِ وغَيرِ ذلكَ مَعاشٌ ؛ ولكلِّ شيءٍ إبَّانٌ[4] ! »

فقَبَضَ صاحبُ الحِمارِ والماءِ العَذبِ قَبضَةً من حصًى ، ثُمَّ ضرَبَ بها الأرضَ[5] ، ثُمَّ قالَ : لا تَعلَمُ أنَّكَ منَ المُسرِفينَ ، حتى تَسمَعَ بأخبارِ الصَّالحينَ !

قصة زبيدة بن حميد

وأمَّا زُبَيدَةُ بنُ حُمَيدٍ الصَّيرَفيُّ ، فإنَّهُ استَلَفَ منْ بَقَّالٍ ، كانَ على بابِ دارِهِ ، دِرهَمَينِ وقيراطاً . فلَمَّا قَضاهُ بَعدَ ستَّةِ أشهُرٍ ، قَضاهُ دِرهَمَينِ وثلاثَ حبَّاتِ شَعيرٍ[6] . فاغتاظَ البَقَّالُ ، فقالَ : سُبحانَ اللهِ ! أنتَ رَبُّ مائةِ ألفِ دينارٍ ، وأنا بَقَّالٌ لا أملِكُ مائةَ فَلْسٍ ، وإنَّما أعيشُ بكَدِّي ، وباستِفضالِ[7] الحَبَّةِ والحَبَّتَينِ . صاحَ على بابِكَ حَمَّالٌ ، والمالُ لم يَحضُرْكَ ، وغابَ وَكيلُكَ ؛ فنَقَدتُ عنكَ دِرهَمَينِ وأربَعَ شَعيراتٍ ،

١ القديد : اللحم المملوح المجفف في الشمس .
٢ بأبي : الباء للتفدية .
٣ الجنوب : جمع جنب أي جنب الشاة .
٤ الإبان : الحين .
٥ ضرب بها الأرض لتأثره بعدما عرف أنه مبذر مسرف بالإضافة إلى معاذة .
٦ ثلاث حبات شعير : أي مقدار وزنها فضة .
٧ استفضال : استبقاء وادخار ؛ أي ادخار الحبة والحبتين من القيراط .

فقَضَيتَني ، بَعدَ ستّةِ أشهُرٍ ، درهَمَينِ وثَلاثَ شَعيراتٍ ! فقالَ زبَيدَة : يا مَجنونُ ! أسلَفتَني في الصّيفِ ، فقَضَيتُكَ في الشّتاءِ . وثَلاثُ شَعيرات شَتَويّة[1] نَدِيّة أرزَنُ من أربَعِ شَعيراتٍ يابسَةٍ صَيفِيّةٍ . وما أشكّ أنّ مَعَكَ فَضلاً[2] .

البيان والتبيين

آراء في النقد الأدبي

عيوب الخطيب

ثمّ اعلم، أبقاك الله، أن صاحب التّشْديق والتّقْعير والتّقْعيب[3] من الخطباء والبلغاء مع سماجة التكلّف ، وشُنعة التّزيّد أعذر من عييٍّ يتكلّف الخطابة، ومن حَصِر يتعرّض لأهل الاعتياد والدُّربة . ومدارُ اللائمة ومستقرّ المذمة حيث رأيت بلاغةً يخالطها التكلّف ، وبياناً يمازجه التزيّد ، إلاّ أنّ تعاطي الحَصِر المنقوص مقام الدَّرِب التام ، أقبحُ من تعاطي البليغ الخطيب ، ومن تشادق الأعرابي القُحّ وانتحالُ المعروف ببعض الغزارة في المعاني والألفاظ ، وفي التحبير والارتجال ، أنّه

...

١ شتوية : نسبة إلى شتوة .
٢ فضلا : زيادة .
٣ التشديق : تكلف البلاغة . والتقعير : الكلام بأقصى قعر الفم . والتقعيب : أن يخرج الكلام وقد جعل فمه كالقعب .

البحر الذي لا يُنزح ، والغَمر الذي لا يُسبر ، أيسر من انتحال الحصِر المنخوب[1] أنّه في مِسلاخ[2] التام الموفّر ، والجامع المحكك ، وإن كان رسول الله ، صلّى الله عليه وسلّم ، قد قال : « إيّايَ والتّشَادُقَ » وقال : « أبْغَضُكُمْ إليَّ الثّرْثَارُون المُتَفَيْهِقُونَ[3] » وقال « مَن بَدا جَفَا » وعاب الفدادين[4] والمتزيدين في جهارة الصوت ، وانتحال سَعة الأشداق ، ورُحْب الغلاصم ، وهَدَل الشفاه . وأعلمَنا أن ذلك في أهل الوبر أكثر ، وفي أهل المدر أقل . فإذا عاب المدريَّ بأكثر ممّا عاب به الوبريَّ ، فما ظنُّك بالمولّد القروي والمتكلّف البلدي ، فالحصِر المتكلّف والعيي المتزيد ، ألوم من البليغ المتكلّف لأكثر ممّا عنده ، وهو أعذر ، لأن الشبهة الداخلة عليه أقوى . فَمَن أسوأ حالاً ، أبقاك الله ، ممّن يكون ألومَ من المتشدقين ومن الثرثارين المتفيهقين ، وممّن ذكره النبيّ ، صلّى الله عليه وسلّم ، نصّاً ، وجعل النهي عن مذهبه مفسّراً ، وذكر مقته له وبغضه إيّاه ؟ !

ولمّا علِم واصِلُ بنُ عَطاء[5] أنّه ألثغ فاحش اللّثَغ ، وأن مخرج ذلك منه شنيع ، وأنّه إذ كان داعية مقالة ، ورئيس نِحلة ، وأنّه يريد الاحتجاج على أرباب النِّحَل ، وزعماء الملل ، وأنّه لا بدّ من مقارعة الأبطال ، ومن الخطب الطّوال ، وأن البيان يحتاج إلى تمييز وسياسة ، وإلى ترتيب ورياضة ، وإلى تمام الآلة وإحكام الصنعة ، وإلى سهولة المخرج وجهارة المنطق ، وتكميل الحروف ، وإقامة الوزن ، وأن حاجة المنطق إلى الحلاوة والطلاوة كحاجته إلى الجلالة والفخامة ، وأن ذلك من أكثر ما تُستمال به القلوب ، وتُثنى به الأعناق ، وتزيَّن به المعاني .

وعلم واصلٌ أنّه ليس معه ما ينوب عن البيان التام ، واللسان المتمكّن ، والقوّة المتصرّفة ، كنحو ما أعطى الله ، تبارك وتعالى ، نبيّه موسى ، عليه السلام ، من التوفيق

١ المنخوب : الجبان الضعيف القلب .
٢ في مسلاخ : المسلاخ الجلد . يعني أنه في هيئته ومقامه .
٣ المتفيهقون : الذين يفتحون أفواههم بالكلام ويتوسعون به .
٤ الفدادون : أصحاب الأصوات الجافية .
٥ واصل بن عطاء من شيوخ المعتزلة وصاحب الفرقة الواصلية .

والتسديد مع لباس التقوى وطابَع النبوة ، ومع المِحنة والاتّساع في المعرفة ، ومع هدي النبيين وسَمت المرسلين وما يُغَشّيهِم الله به من القبول والمهابة ، ولذلك قال بعض شعراء النبيّ . صلّى الله عليه وسلّم :

لَوْ لَمْ تَكُنْ فيهِ آيَاتٌ مُبَيِّنَةٌ كانَتْ بَدَاهَتُهُ تُنْبيكَ بالخَبَرِ

ومع ما أعطى الله، تبارك وتعالى، موسى ، عليه السلام ، من الحجّة البالغة ، ومن العلامات الظاهرة والبرهانات الواضحة ، إلى أن حلّ الله تلك العقدة ، واطلق تلك الحُبسة ، وأسقط تلك المحنة .

ومن أجل الحاجة إلى حسن البيان ، وإعطاء الحروف حقوقها من الفصاحة .- رام أبو حُذَيفة إسقاط الراء من كلامه ، وإخراجها من حروف منطقه . فلم يزل يكابد ذلك ويغالبه ، ويناضله ويساجله ، ويتأتى لستره والراحة من هُجْنَته . حتى انتظم له ما حاول . واتّسق له ما أمّل ، ولولا استفاضة هذا الخبر وظهور هذه الحال حتى صار لغرابته مثلاً ، ولظرافته مَعلَماً . لمّا استجزنا الاقرار به والتأكيد له . ولست أعني خطبه المحفوظة . ورسائله المخلدة ، لأن ذلك يحتمل الصنعة . وإنّما عنيت مُحاجّة الخصوم ، ومُناقلة الأكْفاء ، ومفاوضة الإخوان .

واللثغة في الراء تكون بالغين والذال والياء، والغين أقلّها قبحاً ، وأوجدها في كبار النّاس وبلغائهم وأشرافهم وعلمائهم .

لغة اهل الامصار

وأهل الأمصار إنّما يتكلمون على لغة النّازلة فيهم من العرب . ولذلك تجد الاختلاف في ألفاظ من ألفاظ أهل الكوفة والبصرة والشام ومصر .

حدثني أبو سعيد عبد الكريم بن رَوح قال : قال أهل مكّة لمحمّد بن

المُناذر الشاعر[1] : ليست لكم معاشرَ أهل البصرة لغة فصيحة ، إنّما الفصاحة لنا أهلَ مكّة . فقال ابن المناذر : أمّا ألفاظنا فأحكى الألفاظ للقرآن ، وأكثرها له موافقة ، فضعوا القرآن بعد هذا حيث شئتم : أنتم تُسمّون القِدْرَ بُرْمَةً ، وتجمعون البُرمة على بِرام ، ونحن نقول : قِدْرٌ ونجمعها على قُدور . وقال الله عزّ وجلّ « وَجِفَانٍ كَالجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ » . وأنتم تسمّون البيت إذا كان فوق البيت عُلّيّةً . وتجمعونَ هذا الاسم على عَلالِيّ ونحن نُسمّيه غُرفة ، ونجمعها على غُرُفَاتٍ وغُرَفٍ ، وقال الله تبارك وتعالى « غُرَفٌ مِنْ فَوْقِها غُرَفٌ مَبْنِيّةٌ » وقال : « وَهُمْ في الغُرُفَاتِ آمِنُونَ » .وأنتم تسمّون الطّلْعَ الكافور ، والإغْريض ، ونحن نسمّيه الطّلع ، وقال الله تبارك وتعالى «ونخل طلْعُها هَضِيمٌ». فعدّ عشر كلمات لم أحفظ أنا منها إلاّ هذه .

ألا ترى أن أهل المدينة لمّا نزل فيهم ناس من الفرس في قديم الدهر عَلِقُوا بألفاظ من ألفاظهم؟ ولذلك يسمّون البِطّيخ الخِزْبِز ،ويسمّون السّميطَ[2] الرَّزْدَق[3] ، ويسمّون المَصوص[4] المزوز ، ويسمّون الشّطرنج الأشْتَرَنْج ، إلى غير ذلك من الأسماء ؟

وكذلك أهل الكوفة فإنّهم يسمّون المِسْحاةَ[5] بال ، وبال بالفارسيّة . ولو علق ذلك لغةَ أهل البصرة ، إذ نزلوا بأدنى بلاد فارس وأقصى بلاد العرب، كان ذلك أشبهَ إذ كان أهل الكوفة قد نزلوا بأدنى بلاد النّبَطِ وأقصى بلاد العرب . ويسمّي أهل الكوفة الحوك[6] الباذَروج ، والباذروج بالفارسيّة ، والحوك كلمة عربيّة .

١ هو أبو جعفر محمد بن المناذر . كان من الموالي، وكان شاعراً فصيحاً مقدماً في العلم باللغة إماماً فيها، وكان في أول أمره يتنسك ثم عدل عن ذلك فهجا الناس وتّهتك وخلع، وكان معاصراً لأبي نواس .
٢ السميط : الآجر القائم بعضه فوق بعض .
٣ الرزدق : السطر والصف من النخل وغيره .
٤ المصوص : طعام يتخذ من اللحم فيطبخ ثم ينقع في الخل .
٥ المسحاة : المجرفة التي يجرف بها الطين والأوحال .
٦ الحوك : البقلة الحمقاء (الرجلة) .

وأهل البصرة إذا التقت أربع طرق يسمّونها مُربَّعَة ، ويسمّيها أهل الكوفة الجِهارسوك، والجهارسوك بالفارسيّة . ويسمّون السوق والسويقة وازار، والوازار بالفارسيّة. ويسمّون القِثّاء خياراً، والخيار بالفارسيّة . ويسمّون المجذوم وَيذي بالفارسيّة .

وقد يستخفّ النّاس ألفاظاً ويستعملونها وغيرها أحق بذلك منها ، ألا ترى أن الله تبارك وتعالى لم يذكر في القرآن الجوع إلاّ في موضع العقاب ، أو في موضع الفقر المدقِع والعجز الظاهر ؟ والنّاس لا يذكرون السغَب، ويذكرون الجوع في حال القدرة والسَّلامة ، وكذلك ذِكر المطر لأنّك لا تجد القرآن يلفظ به إلاّ في موضع الانتقام ، والعامة وأكثر الخاصّة لا يفصلون بين ذكر المطر وذكر الغيث . ولفظ القرآن الذي عليه نزل أنّه إذا ذكر الأبصار لم يقل الأسماع ، وإذا ذكر سبع سموات لم يقل الأرَضين ، ألا تراه لا يجمع الأرض أرضين ولا السمع أسماعاً ؟ والجاري على أفواه العامة غير ذلك ، لا يتفقدون من الألفاظ ما هو أحق بالذكر وأولى بالاستعمال .

مخارج الالفاظ

وهذه القضيّة مقصورة على هذه الجملة من مخارج الألفاظ وصور الحركات والسكون . فأمّا حروف الكلام فإن حكمها إذا تمكّنت في الألسنة خلاف هذا الحكم . ألا ترى أنّ السنديّ إذا جُلب كبيراً فإنّه لا يستطيع إلاّ أن يجعل الجيم زاياً ولو أقام في عُليا تميم وسُفلى قَيس وبين عجُز هوازن[1] خمسين عاماً ؟ وكذلك النّبَطيّ القُحّ خلاف المغلاق الذي نشأ في بلاد النبط ، لأن النبطي القحّ يجعل الزاي سيناً ، فإذا أراد أن يقول : زَورق ، قال : سورق . ويجعل العين همزة ، فإذا أراد أن يقول : مُشْمَعِلّ ، قال : مُشمئل . والنخاس يمتحن لسان الجارية إذا ظنّ

..

١ هذه هي القبائل المشهورة بالفصاحة المعروفة بصحة الإعراب .

أنّها روميّة وأهلها يزعمون أنّها مولدة بأن تقول : ناعمة ، وتقول : شمس . ثلاث مرّات متواليات .

والذي يعتري اللّسان ممّا يمنع من البيان أمور : منها اللّثغة التي تعتري الصبيان إلى أن ينشأوا . وهو خلاف ما يعتري الشيخ الهرم الماجّ[1] المسترخي الحنك المرتفع اللثة ، وخلاف ما يعتري أصحاب اللّكن من العجم ومن ينشأ من العرب مع العجم.

فمن اللّكن ، ممّن كان خطيباً أو شاعراً أو كاتباً داهياً : زِيادُ بنُ سلمى أبُو أمامةَ ، وهو زِيادٌ الأعجَم[2] ، قال أبو عُبَيْدةَ : كان يُنشد قوله :

فتًى زادَهُ السّلْطانُ في الوُدّ رِفعةً   إذا غيّرَ السّلْطانُ كلّ خليلِ[3]

قال : فكان يجعل السين شيناً ، والطاء تاء ، فيقول :

فتًى زادَهُ الشّلْتَانُ في الوُدّ رِفعةً

ومنهم سُحَيْمٌ[4] عبد بني الحَسْحَاسِ ، قال له عمر بن الخطّاب . رضي الله تعالى عنه . وأنشدهُ قصيدته التي أوّلها :

عُمَيْرَةَ وَدّعْ إنْ تجَهّزْتَ غادِيَا   كَفى الشّيبُ وَالإسلامُ للمرْءِ ناهيَا

لو قدمتَ الإسلامَ على الشيب لأجزْتُكَ ، قال : ما سعَرت ، يريد ما شعَرت ، فجعل الشين المعجمة سيناً غير معجمة .

ومنهم عُبَيْدُ اللهِ بنُ زيادٍ والي العراق ، قال لِهانىء بنِ قَبيصَة : أهَرُورِيّ

....

١ الماج : السائل اللعاب من الكبر والهرم .

٢ هو زياد بن سلمى ويقال سليمان ، وفي الأصل : ابن سلمى ، كان مولى عبد القيس ، وكان ينزل إصطخر فغلبت العجمة على لسانه . وكان شاعراً جزل الشعر فصيح العبارة .

٣ في رواية في الخير رغبة ، بدل في الود رفعة .

٤ كان سحيم عبداً أسود شديد السواد وهو من الشعراء المخضرمين أدرك الجاهلية والإسلام

سائرٌ اليوم ؟ يريد : أحَرَورِيٌّ[1] .

ومنهم صُهَيْبُ بنُ سِنَان النَّمريّ صاحب رسول الله ، صلّى الله عليه وسلّم ، كان يقول : إنّك لهائن ، يريد : إنّك لحائن[2] . وصهيب بن سنان يرتضخ لُكنة رومية وعبيد الله بن زياد يرتضخ لُكنة فارسيّة . وقد اجتمعا على جعل الحاء هاء . وَأزْدَا نْقَاذَار لُكنته لكنة نبطية ، وكان مثلهما في جعل الحاء هاء . وبعضهم يروي أنّه أملى على كاتب له فقال : اكتب . الهاصل ألف كُرّ[3] . فكتبها الكاتب بالهاء كما لفظ بها ، فأعاد عليه الكلام ، فأعاد الكاتب . فلمّا فطن لاجتماعهما على الخطإ قال : أنت لا تُهْسن أن تكتب . وأنا لا أهسِن أن أملي ؛ فاكتب : الجاصل ألف كرّ . فكتبها بالجيم معجمة .

البلاغة

حدّثني صديق لي قال : قلت للعتّابي : ما البلاغة ؟ قال : كلّ من أفهمك حاجته من غير إعادة ولا حُبسة ولا استعانة فهو بليغ . فإن أردت اللسان الذي يروق الألسنة[4] ويفوق كلّ خطيب فإظهار ما غمض من الحقّ وتصوير الباطل في صورة الحقّ . قال : فقلت له : قد عرفتُ الإعادة والحُبسة فما الاستعانة ؟ قال : أما تراه إذا تحدّث قال عند مقاطع كلامه : يا هناهُ ، ويا هذا ، ويا هيه ، واسمع منّي ، واستمع إليّ ، وافهم عنّي ، أوَلست تفهم ؟ أوَلست تعقل ؟ فهذا كلّه وما أشبهه عيّ وفساد .

قال عبد الكريم بن رَوح الغِفَاريّ : حدثني عمر الشّمري قال : قيل

١ أحروري : أي أخارجي ، نسبة إلى حروراء .
٢ حائن : هالك . وكان سبب لكنة صهيب أن الروم أسرته صغيراً ونشأ فيهم فعرته هذه اللكنة فقيل له الرومي .
٣ الكر : كيل يكال به الطعام ، والكر ستون قفيزاً والقفيز ثمانية مكاكيك والمكوك صاع ونصف ، قال الأزهري : فالكر على هذا الحساب اثنا عشر وسقاً .
٤ يروق الألسنة : أي يفضلها ، ويعدى بعلى .

لعَمْرِو بنِ عُبَيْدٍ[1] : ما البلاغة ؟ قال : ما بلغ بك الجنّة وعدل بك عن النّار ، وما بصّرك مواقع رشدك وعواقب غيّك . قال السائل : ليس هذا أريد . قال : من لم يحسن أن يسكت لم يحسن أن يستمع ، ومن لم يحسن الاستماع لم يحسن القول . قال : ليس هذا أريد . قال : قال النبيّ ، صلّى الله عليه وسلّم : « إنّا مَعْشَرَ الأنْبِيَاءِ بِكَاءٌ »[2] قال السائل : ليس هذا أريد . قال : كانوا يخافون من فتنة القول ومن سقطات الكلام ما لا يخافون من فتنة السكوت ومن سقطات الصمت . قال السائل : ليس هذا أريد . قال عمرو : فكأنّك إنّما تريد تخيّر اللفظ في حسن الإفهام ؟ قال : نعم . قال : إنّك إن أوتيت تقرير حجة الله في عقول المكلّفين وتخفيف المؤونة على المستمعين وتزيين تلك المعاني في قلوب المريدين بالألفاظ المستحسنة في الآذان المقبولة عند الأذهان ، رغبة في سرعة استجابتهم ونفي الشواغل عن قلوبهم ، بالموعظة الحسنة على الكتاب والسنّة ، كنت قد أوتيت فصل الخطاب واستحققت على الله جزيل الثواب .

طبقات الكلام

وكلام النّاس في طبقات ، كما أن النّاس أنفسهم في طبقات . فمن الكلام : الجزْلُ والسخيف والمليح والحسنُ والقبيح والسمج والخفيف والثقيل ، وكلّه عربي وبكل قد تكلّموا وبكل قد تمادحوا وتعايبوا . فإن زعم زاعم أنّه لم يكن في كلامهم تفاضل ولا بينهم في ذلك تفاوت ، فلم ذكروا العَيِيّ والبَكِيّ والحَصِر والمفحَم والخَطِل[3] والمسهِب[4] والمتشدّق والمتفيهق والمهمار[5] والثّرثار والمكثار والهمار[6] ؟

. .. .

١ عمرو بن عبيد : من شيوخ المعتزلة .
٢ أي قليلو الكلام ، ومنه قيل رجل بكي .
٣ الخطل : الفاسد الكلام .
٤ المسهب : الكثير الكلام
٥ المهمار : الكثير الكلام .
٦ الهمار : الكثير الكلام .

ولم ذكروا الهُجْر والهَذْر والهذيان والتخليط ؟ وقالوا : رجل تِلِقّاعة[1] وفلان يتَلَهْيَعُ[2] في خطبته . وقالوا : فلان يخطىء في جوابه ويحيل في كلامه ويناقض في خبره . ولولا أن هذه الأمور قد كانت تكون في بعضهم دون بعض لما سمي ذلك البعضُ والبعض الآخر بهذه الأسماء .

وأنا أقول : إنّه ليس في الأرض كلام هو أمتع ولا أنفع ولا آنق ولا ألذ في الأسماع ولا أشدّ اتصالاً بالعقول السليمة ولا أفتق للسان ولا أجود تقويماً للبيان ، من طول استماع حديث الأعراب العُقلاء الفُصحاء ، والعلماء البُلغاء . وقد أصاب القوم في عامة ما وصفوا ، إلاّ أنّي أزعم أن سخيف الألفاظ مشاكل لسخيف المعاني ، وقد يُحتاج إلى السّخيف في بعض المواضع وربّما أمتع بأكثر من إمتاع الجزل الفخم من الألفاظ والشريف الكريم من المعاني ، كما أن النادرةَ الباردة جدّاً قد تكون أطيب من النادرة الحارّة جدّاً ، وإنّما الكرب الذي يختِم[3] على القلوب ويأخذ بالأنفاس النادرةُ الفاترة التي لا هي حارّة ولا هي باردة ، وكذلك الشعر الوسط والغناء الوسط . وإنّما الشأن في الحارّ جدّاً والبارد جدّاً .

وكان محمّد بن عبّاد بن كاسب يقول : والله لفلان أثقل من مُغَنٍّ وسط ، وأبغض من ظريف وسط .

ومتى سمعت ، حفظك الله ، بنادرة من كلام الأعراب فإيّاك وأن تحكيها إلاّ مع إعرابها ومخارج ألفاظها ، فإنّك إن غيّرتها بأن تلحن في إعرابها وأخرجتها مخارج كلام المولدين والبلديين خرجتَ من تلك الحكاية وعليك فضلٌ[4] كبيرٌ ، وكذلك إذا سمعت بنادرة من نوادر العوامّ ومُلحة من مُلح الحُشوة والطّغام فإيّاك وأن تستعمل فيها الإعراب أو أن تتخيّر لها لفظاً حسناً أو تجعل لها من فيك مخرجاً سَرِيّاً[5] فإن

....

١ تلقاعة : كثير الكلام .
٢ يتلهيع : يفرط في الكلام .
٣ يختم على القلب : اي لا يفهم شيئاً .
٤ الفضل : البقية من الشيء .
٥ سرياً : فخماً شريفاً .

ذلك يُفسد الإمتاع بها ويخرجها من صورتها ومن الذي أريدت له ويُذهب استطابتهم إيّاها واستملاحهم لها .

ثمّ اعلم أن أقبح اللحن لحن أصحاب التقعير والتقعيب والتشديق والتمطيط[١] والجَهورة والتفخيم ، وأقبح من ذلك لحن الأعاريب النازلين على طرق السابلة وبقرب مجامع الأسواق .

ولأهل المدينة ألسنة ذَلِقَة وألفاظ حسنة وعبارة جيّدة واللحن في عوامّهم فاشٍ وعلى من لم ينظر في النحو منهم غالب .

واللحن من الجواري الظراف ومن الكواعب النواهد ومن الشوابّ الملاح ومن ذوات الخدور الغرائر أيسر . وربّما استملح الرجل ذلك منهن ما لم تكن الجارية صاحبة تكلّف ، ولكن إذا كان اللحن على سجية سكان البلد . وكما يستملحون اللثغاء إذا كانت حديثة السنّ ومقدودة مجدولة[٢] ، فإذا أسنّت واكتهلت تغيّر ذلك الاستملاح ، وربّما كان اسم الجارية غُلَيِّم أو صُبَيَّة ، أو ما أشبه ذلك ، فإذا صارت كهلة جزلة[٣] وعجوزاً شَهلة[٤] وحملت اللحم وتراكم عليها الشحم ، وصار بنوها رجالاً وبناتها نساء ، فما أقبح حينئذ أن يقال لها : يا غُلَيِّم كيف أصبحت ؟ ويا صُبيَّة كيف أمسيت ؟ ولأمر ما كنّت العرب البنات فقالوا : فعلت أم الفضل ، وقالت أم عمرو ، وذهبت أم حكيم ، نعم حتى دعاهم ذلك إلى التقدّم في تلك الكُنَى .

....

١ التمطيط : اي المط ، وهو مد الحروف في الكلام .
٢ مجدولة : لطيفة القصب محكمة الفتل .
٣ جزلة : تامة الخلق .
٤ الشهلة : العجوز ، أو العجوز العاقلة .

العصر العباسي الثالث

المتنبي (٩١٥ – ٩٦٥م و ٣٠٣ – ٣٥٤ ﻫ)

أبو فراس (٩٣٢ – ٩٦٧م و ٣٢٠ – ٣٥٧ ﻫ)

الشريف الرضي (٩٦٩ – ١٠١٥م و ٣٥٩ – ٤٠٦ ﻫ)

أبو العلاء المعري (٩٧٩ – ١٠٥٨م و ٣٦٣ – ٤٤٩ ﻫ)

بديع الزمان الهمذاني (٩٦٧ (؟) – ١٠٠٧م و ٣٥٧ (؟) – ٣٩٨ ﻫ)

أبو الفرج الاصبهاني (٨٩٧ – ٩٦٦م و ٢٨٤ – ٣٥٦ ﻫ)

المتنبي

المدح

وصف الأسد

من قصيدة يمدح بها أبا الحسين بدر بن عمار الأسدي الطبرستاني وهو يومئذ يتولى حرب طبرية من قبل أبي بكر محمد بن رائق ، سنة ٩٣٩ م (٣٢٨ ﻫ) . وكان قد خرج إلى أسد ، فهاجه عن بقرة افترسها ، بعد أن شبع وثقل ، فوثب إلى كفل فرسه ، فأعجله عن استلال سيفه ، فضربه بالسوط ، ودار به الجيش . ثم خرج بعده إلى أسد آخر ، فلما رآه الأسد هرب منه ، فقال أبو الطيب يمدح بدراً ويذكر ذلك :

أمُعَفِّرَ اللّيثِ الهِزَبرِ بسَوطِهِ ، لِمَنِ ادّخَرتَ الصّارِمَ المَصقولا ؟[1]

وَقَعَتْ على الأُرْدُنّ منهُ بَلِيّةٌ ، نُضِدتْ بها هامُ الرّفاقِ تُلُولا[2]

وَرْدٌ ، إذا وَرَدَ البُحَيرَةَ شارِباً ، وَرَدَ الفُراتَ زَئِيرُهُ ، والنّيلا[3]

متَخَضِّبٌ بدمِ الفوارِسِ لابسٌ ، في غِيلِهِ ، مِنْ لِبدَتَيهِ ، غِيلا[4]

ما قُوبِلَتْ عَيناهُ ، إلاّ ظُنّتَا ، تحتَ الدُّجى ، نارَ الفَريقِ حُلُولا[5]

في وَحدَةِ الرُّهبانِ ، إلاّ أنّهُ لا يَعرِفُ التّحريمَ والتّحليلا

.. . .

١ عفره : مرغه في التراب . الهزبر : الشديد ، من صفات الأسد .

٢ نضدت : جمع بعضها فوق بعض . الهام : الرؤوس ، واحدها هامة . الرفاق ، جمع الرفقة : الجماعة في السفر .

٣ الورد : صفة للأسد الذي يضرب لونه إلى الحمرة . البحيرة : أي بحيرة طبرية .

٤ الغيل : غاب الأسد . اللبدة : الشعر المجتمع على كتف الأسد ؛ وفي الأمثال : أعز من لبدة الأسد .

٥ الفريق : الجماعة من الناس . حلولا : نازلين في موضع ، وهي حال من الفريق .

يَطأُ الثّرى مُتَرَفِّقاً مِن تيهِهِ ، فكأنّهُ آسٍ يَجُسُّ عَليلا[1]
ويَرُدُّ عُفرَتَهُ إلى يأفُوخِهِ ، حتى تَصيرَ لرأسِهِ إكْليلا[2]

مدح سيف الدولة

قال يمدحه ويهنئه بعيد الأضحى ، ويذكر معركة انتصر فيها سيف الدولة على البزنطيين وأسر قسطنطين ابن الدمستق (Domesticus) أي كبير قواد الروم أنشده إياها في ميدان حلب وهما على فرسيهما سنة ٩٥٣ م (٣٤٢ هـ) :

لكُلّ امرىءٍ مِنْ دَهرِهِ ما تَعَوّدَا ، وعادةُ سَيفِ الدّولةِ الطّعنُ في العِدَى
ومُستَكبِرٍ ، لم يَعرِفِ اللهَ ساعَةً ، رأى سَيفَهُ في كَفّهِ ، فتَشَهّدَا[3]
هوَ البَحرُ ، غُصْ فيهِ ، إذا كان ساكناً على الدُّرّ ؛ واحذَرهُ ، إذا كان مُزْبِدَا
فإنّي رأيتُ البَحرَ يَعثُرُ بالفَتَى ، وهذا الذي يأتي الفَتى مُتَعَمِّدَا[4]
تَظَلّ مُلُوكُ الأرضِ خاشعَةً لَهُ ، تُفارِقُهُ هَلْكَى . وتَلقاهُ سُجَّدَا[5]
وَصُولٌ إلى المُستصعَبَاتِ بخَيلِهِ ؛ . فلَو كانَ قَرنُ الشّمسِ ماءً ، لأوردَا[6]
لذلكَ سَمّى ابنُ الدُّمُستُقِ يَومَهُ مَماتاً ، وسَمّاهُ الدُّمُستُقُ مَوْلِدَا[7]

....

١ الآسي : الطبيب .
٢ العفرة : شعر مؤخر الرأس من الأسد . أي إذا غضب ، ردها إلى يأفوخه ، فتصير كالإكليل .
٣ تشهد : قال أشهد أن لا إله إلا الله . يقول : رب متكبر عن الإيمان بالله رآه ، وسيفه في كفه ، يجاهد في سبيل الله ، ويؤتيه الله النصر ، فآمن خوفاً أو اهتداء .
٤ يعثر بالفتى : أي يهلك راكبه عن غير قصد . يأتي الفتى متعمداً : أي يهلك عدوه عن قصد وتعمد .
٥ المراد : من فارقه وخالفه من الملوك هلك ، ومن أتاه مسالماً خضع وسجد له .
٦ قرن الشمس : أول ما يبدو منها عند الطلوع . لأوردا : أي لأورد خيله من ذلك الماء .
٧ يقول : لكون سيف الدولة يصل بخيله إلى أصعب الغايات ، فإن أسر ابن الدمستق ، على مناعته ، كان سبباً ليأسه من الحياة فعد يومه مماتاً ، وعد الدمستق يومه مولداً جديداً لأنه تمكن من الفرار فنجا بنفسه .

سرَيتَ إلى جَيحانَ ، مِن أرضِ آمِدٍ ، ثَلاثاً ، لقد أدناكَ رَكضٌ ، وأبعَدَا[1]
فَوَلّى ، وأعطاكَ ابنَــهُ وجُيُوشَهُ جَميعاً ، ولم يُعطِ الجَميعَ ليُحمَدَا[2]
عرَضتَ لَهُ دونَ الحَياةِ وطَرفِهِ ، وأبصَرَ سَيفَ اللهِ ، منكَ ، مُجَرَّدَا[3]
وما طَلَبَتْ زُرْقُ الأسِنّةِ غَيرَهُ ، ولكنّ قُسطَنطينَ كانَ لَهُ الفِدَى
فأصبَحَ يَجتابُ المُسُوحَ مَخافَةً ، وقد كانَ يَجتابُ الدِّلاصَ المُسَرَّدَا[4]
ويَمشي بهِ العُكّازُ في الدّيرِ تائباً ، وما كانَ يَرضَى مشيَ أشقَرَ أجرَدَا[5]
وما تابَ . حتى غادَرَ الكَرُّ وَجهَهُ جَريحاً ؛ وخَلّى جَفنَهُ النّقعُ أرمَدَا[6]
فلَو كانَ يُنجي من عَليٍّ تَرَهّبٌ ، تَرَهّبَتِ الأملاكُ مَثنى ومَوحَدَا[7]
وكلُّ امرىءٍ في الشّرقِ والغربِ ، بعدَهُ ، يُعِدّ لهُ ثَوباً ، من الشَّعرِ ، أسوَدَا
هَنيئاً لكَ العيدُ الذي أنتَ عيدُهُ ، وعيدٌ لمَنْ سَمّى ، وضَحّى ، وعَيّدَا[8]
ولا زالَتِ الأعيادُ لُبسَكَ ، بَعدَهُ ، تُسَلِّمُ مَخروقاً ، وتُعطَى مُجَدَّدَا[9]

١ جيحان : نهر ببلاد الروم . آمد : أعظم مدن ديار بكر . ثلاثاً : أي ثلاث ليال . أبعد : أي أبعدك عن آمد . يصف سرعة الوصول إلى العدو مع بعد المسافة .

٢ فولى : فاعله الدمستق .

٣ يقول : اعترضت بينه وبين حياته ونظره ، فأيقن بدنو الأجل ، واستوليت على طرفه ، فلم ير أحداً سواك لعظمتك في نفسه ، وأبصر منك سيف الله مجرداً عليه .

٤ يجتاب : أي يلبس. المسوح ، جمع المسح : ثوب من الشعر ، والمراد ثوب الرهبان. مخافة : أي مخافة منك. الدلاص : الدرع اللينة البراقة. المسرد : المنسوج بعضه في بعض. وذكر الصفة على لغة من يذكر الدرع.

٥ العكاز ؛ أي عكاز الراهب . الأشقر : صفة الجواد المحذوف . الأجرد : القصير الشعر ؛ والجواد الأشقر موصوف بالسرعة .

٦ النقع : غبار الحوافر ؛ والمراد غبار الحرب .

٧ الأملاك : الملوك ، جمع ملك .

٨ هنيئاً : حال من العيد وأصله : ثبت العيد لك هنيئاً ، فحذف الفعل ، وقامت الحال مقامه فرفعت العيد كما يرفعه الفعل . وعيد لمن سمى : أي للمسلمين الذين يذكرون اسم الله عند ذبح الضحايا . ضحى المسلم : ذبح أضحيته في العيد .

٩ اللبس : ما يلبس من الثياب ، بعده أي بعد هذا العيد . المخروق : الثوب البالي ، استعار الملبوس للأعياد ، فجعل ما يمضي منها بالياً ، وما يأتي جديداً .

رأيتُكَ مَحضَ الحِلمِ ، في محضِ قُدرةٍ ، ولو شئتَ ، كانَ الحلمُ ، منكَ ، المُهنَّدا[1]

وما قتَلَ الأحرارَ كالعفوِ عنهُمُ ؛ ومَنْ لكَ بالحُرّ الذي يَحفَظُ اليَدا ؟[2]

إذا أنتَ أكرَمتَ الكَريمَ ، مَلَكتَهُ ؛ وإنْ أنتَ أكرَمتَ اللّئيمَ ، تَمَرّدا

ووَضعُ النّدى ، في موضعِ السّيفِ ، بالعُلى مُضِرٌّ ، كوَضعِ السّيفِ في موضعِ النّدى[3]

أزِلْ حَسَدَ الحُسّادِ عنّي بكَبْتِهِم ، فأنتَ الذي صَيّرتَهُمْ ليَ حُسّدا[4]

إذا شَدّ زَنْدي حُسنُ رأيكَ فيهِمُ ، ضرَبتُ بسَيفٍ يَقطَعُ الهامَ مُغمَدا[5]

وما أنا إلاّ سَمهَرِيٌّ حَمَلتَهُ ، فزَيّنَ مَعروضاً ، وراعَ مُسَدَّدا[6]

وما الدّهرُ إلاّ مِن رُواةِ قَصائدي ، إذا قُلتُ شِعراً ، أصبَحَ الدّهرُ مُنشِدا

فَسارَ بهِ مَن لا يَسيرُ ، مُشَمِّراً ؛ وغَنّى بهِ مَنْ لا يُغَنّي ، مُغَرِّدا[7]

أجِزْني ، إذا أُنشِدْتَ شِعراً ، فإنّما بشِعري أتاكَ المادِحونَ مُرَدَّدا

ودَعْ كلَّ صَوتٍ غَيرَ صَوتي ، فإنّني أنا الطّائرُ المَحكيُّ ، والآخَرُ الصّدَى[8]

تركتُ السُّرَى خَلفي لمنْ قَلّ مالُهُ ؛ وأنعَلتُ أفراسي بنُعماكَ عَسجَدا[9]

....

١ المحض : الخالص .
٢ كالعفو : الكاف بمعنى مثل وهي فاعل قتل . ومن لك بالحر : أي ومن يكفل لك به . اليد : النعمة .
٣ الندى : الجود .
٤ بكبتهم : بإذلالهم .
٥ حسن رأيك فيهم : أي في إذلالهم .
٦ السمهري : الرمح . معروضاً : محمولا بالعرض . راع : أخاف . مسدداً : موجهاً لطعن العدو .
٧ مشمراً : جاداً .
٨ الطائر المحكي : الذي يحكى صوته ، كصوت الصائح يحكيه الصدى ، وفي رواية : أنا الصائح المحكي.
٩ السرى : السير ليلاً . العسجد : الذهب .

موقعة الحدث

من قصيدة يمدح بها سيف الدولة ، ويذكر موقعة الحدث ، وهي ثغر بين ملطية وسميساط ،وكانت قد استسلمت للروم سنة ٩٤٨ م (٣٣٧ ه) ، فجاءها سيفالدولة سنة ٩٥٤ م (٣٤٣ ه) ليبني قلعتها ويجعلها حصناً منيعاً. وكان الدمستق فردس قد جمع جيشاً عظيماً من الروم والأرمن والروس والصقلب، بعد الهزيمة التي لحقته في مرعش ؛ وكان ابنه قسطنطين قد مات في حبس سيف الدولة ، فنزل بجيشه على الحدث . فلما اشرف امير حلب على الأحيدب، وهو جبل مطل عليها، هال المسلمين ما رأوا من كثرة العدد وساءت ظنونهم ، وتسلل بعضهم هارباً ؛ واحاط الجيش البزنطي بعسكر سيف الدولة ، فكانت موقعة حامية الوطيس ، انتهت بانتصار العرب على البزنطيين ، وهرب الدمستق ؛ وأسر صهره وابن بنته ، وقتل خلق كثير من جيشه . وقيل إن سيف الدولة بدأ يوم وصوله ببناء القلعة ، والحرب قائمة ، فوضع الأساس وحفر أوله بيده . فقال المتنبي في ذلك :

على قَدْرِ أهلِ العَزمِ تأتي العَزائمُ ،	وتأتي ، على قَدْرِ الكِرامِ ، المَكارِمُ
وتَعظُمُ ، في عَينِ الصَّغيرِ ، صِغارُها؛	وتَصغُرُ ، في عَينِ العَظيمِ ، العَظائمُ
يُكَلِّفُ سَيفُ الدَّولةِ الجيشَ هَمَّه،	وقد عَجَزَتْ عنهُ الجيوشُ الخَضارِمُ[1]
هَلِ الحَدَثُ الحَمراءُ تَعرِفُ لَونَها،	وتَعلَمُ ، أيُّ السّاقِيَينِ الغَمائمُ ؟[2]
سَقَتها الغَمامُ الغُرُّ ، قَبلَ نزولِه،	فلَمّا دَنا منها ، سَقَتها الجَماجِمُ[3]
بَناها ، فأعلى ، والقَنا يَقرَعُ القَنا ،	ومَوجُ المَنايا ، حَولَها ، مُتلاطِمُ
وكانَ بها مثلُ الجُنونِ ، فأصبَحَتْ ،	ومِنْ جُثَثِ القَتلى ، علَيها تَمائِمُ[4]

١ همه : همته ، أي ما تطلب همته من الغزوات والغارات . الخضارم ، جمع الخضرم : العظيم الكثير من كل شيء .

٢ الحمراء : أي لتلطخها بالدماء . لونها : أي لونها الأول . أي الساقيين الغمائم : مبتدأ وخبر سدا مسد مفعولي تعلم . والمراد هل تعلم الحدث أي الساقيين لها هو الغمائم ؟ أجماجم الروم التي سقتها بالدم أم السحائب التي سقتها قبل ذلك بالمطر ؟

٣ الغمام : جمع الغمامة ، يؤنث لأنه جمع ، ويذكر لأنه ليس بينه وبين مفرده إلا التاء القصيرة الغر : البيض .

٤ وكان بها مثل الجنون : أي ما كان يحدث فيها من الاضطرابات والفتن لوجود الروم فيها . فلما بطش سيف الدولة بالروم سكن جنونها . فكأن جثث القتلى التي علقت على حيطانها تمائم شفتها من الجنون . التمائم : جمع التميمة وهي العوذة تعلق في العنق ليتوقى بها مس الجن .

وكَيفَ تُرَجّي الرّومُ والرّوسُ هَدمَها، وذا الطّعنُ آساسٌ لها ، ودَعائِمُ

أتَوكَ يَجُرّونَ الحَديدَ ، كأنّما سَرَوا بجِيادٍ ، ما لهُنَّ قَوائِمُ[2]

إذا بَرَقوا ، لم تُعرَفِ البِيضُ مِنهُمُ ؛ ثِيابُهُمُ مِنْ مِثلِها ، والعَمائِمُ[3]

خَميسٌ ، بشرقِ الأرضِ والغربِ زَحفُهُ ، وفي أذُنِ الجَوزاءِ ، منهُ ، زَمازِمُ[4]

تَجَمّعَ فيهِ كلُّ لِسْنٍ وأُمّةٍ ، فَما يُفهِمُ الحُدّاثَ إلاّ التّراجِمُ[5]

وقَفتَ، وما في الموتِ شَكٌّ لواقِفٍ ، كأنّكَ في جَفنِ الرّدى ، وهوَ نائِمُ[6]

تَمُرّ بكَ الأبطالُ كَلْمَى هَزيمَةً ، ووَجهُكَ وَضّاحٌ ، وثَغرُكَ باسِمُ[7]

تَجاوَزتَ مِقدارَ الشّجاعَةِ والنُّهَى ، إلى قَولِ قَومٍ : أنتَ بالغَيبِ عالِمُ[8]

ضَمَمتَ جَناحَيهِمْ على القلبِ ضَمّةً ، تَموتُ الخَوافي ، تَحتَها ، والقَوادِمُ[9]

....

١ هدمها : أي هدم قلعة الحدث .

٢ سروا : ساروا ليلا . قوائم الخيل : أيديها وأرجلها . يقول : أتاك الأعداء يجرون الحديد لما عليهم من السلاح ، حتّى احتجبت قوائم الخيل بالدروع والتجافيف . التجافيف ، جمع تجفاف : آلة كالدرع يلبسها الفرسان ، ويلبسونها خيولهم وقاية لهم ولها في الحرب .

٣ البيض : السيوف . يقول : إذا برقوا تحت أشعة الشمس لم يعرف الفرق بينهم وبين سيوفهم في اللمعان ، لأن ثيابهم وعمائمهم من جلس سيوفهم تبرق بريقها ؛ وأراد بذلك ما عليهم من الدروع والخوذ الحديدية .

٤ الخميس : الجيش ، وهو خمس فرق : المقدمة ، والساقة أو المؤخرة ، والقلب ، والجناحان أو الميمنة والميسرة . الجوزاء : نجمان معترضان في جوز السماء أي وسطها ، وهما من البروج . الزمازم ، جمع زمزمة : صوت الرعد ؛ والمراد بها جلبة الجيش .

٥ اللسن : اللغة . الحدّاث : المتحدثون ، جمع بلا واحد ؛ وقيل هو جمع حادث حملا على نظيره سامر وسمار .

٦ الردى : الموت . وهو نائم : أي نائم عنك لا يراك .

٧ كلمى : جرحى ، واحدها كليم . هزيمة : التاء للجمع على مذهب البصريين .

٨ النهى : العقل . وقوله أنت بالغيب عالم : أي تعلم عواقب الأمور قبل حلولها ؛ ولذلك كنت باسم الثغر في أشد ساعات الخطر ، مستبشراً بالظفر .

٩ الخوافي : الريش الصغار التي في جناح الطائر بعد القوادم ، مفردها الخافية . القوادم : عشر ريشات في مقدم جناح الطائر ، وهي كبار الريش ؛ استعار القوادم للقواد ، والخوافي لسائر الفرسان ، لأن الخميس يشبه الطائر في ترتيبه خمس فرق . والمعنى أن سيف الدولة هاجم الميمنة والميسرة وعصرهما فأوقع الضغط على القلب ، فأهلك جميع الفرسان والقواد .

بضَربٍ، أتَى الهاماتِ، والنّصرُ غائبٌ،	وصارَ إلى اللّبّاتِ ، والنّصرُ قادِمُ[1]
حَقَرتَ الرُّدَينيّاتِ ، حتى طَرَحتَها ؛	وحتى كأنّ السّيفَ للرّمحِ شاتِمُ[2]
ومَن طَلَبَ الفَتحَ الجَليلَ ، فإنّما	مَفاتيحُهُ البِيضُ الخِفافُ الصّوارِمُ[3]
نَثَرْتَهُمُ فَوقَ الأُحَيدِبِ كُلّهِ ،	كما نُثِرَتْ، فوقَ العَروسِ ،الدّراهمُ[4]
تَدوسُ بكَ الخَيلُ الوُكورَ، على الذُّرى،	وقد كَثُرَتْ، حولَ الوُكورِ، المَطاعمُ[5]
تَظُنّ فِراخُ الفُتخِ أنّكَ زُرتَها	بأُمّاتِها ، وهيَ العِتاقُ الصّلادِمُ[6]
إذا زَلِقَتْ ، مَشّيتَها ببُطونِها ،	كما تتَمَشّى ، في الصّعيدِ، الأراقِمُ[7]

* * *

١ بضرب : الباء متعلقة بضممت . الهامات : الرؤوس ، واحدتها هامة . والنصر غائب : أي لم يعرف بعد النصر لمن . اللبات : أعالي الصدور ، واحدتها اللبة ؛ وقوله والنصر قادم : أي ما كادت السيوف تنزل من الهامات فتصل إلى اللبات حتى لاح النصر للأمير ؛ يبين سرعة الانتصار .

٢ الردينيات : الرماح ، واحدها الرديني ؛ وقوله حقرت الردينيات : أي أنك لم تستعملها في هذه المعركة احتقاراً لها ، بل استعملت السيوف ، لأن المعركة كانت التحاماً بين الجيشين فلا يصلح لها إلا السيف ، في حين أن الرمح هو سلاح المطاردة والكر والفر .

٣ البيض : السيوف . الصوارم : القواطع .

٤ الأحيدب : جبل الحدث . كله : وتروى نثرة .

٥ الوكور ، جمع الوكر : أي وكور جوارح الطير . الذرى : أعالي الجبال . المطاعم : أي مآكل هذه الطيور من جثث القتلى .

٦ الفتخ ، جمع الفتخاء : العقاب اللينة الجناح . الامات : جمع الأم لغير العاقل . العتاق : كرام الخيل . الصلادم ، جمع صلدم : الصلب والشديد الحافر . يقول : ظنت فراخ العقبان أنك زرتها مع أماتها حاملة إليها هذه المطاعم ، وما درت أن التي جاءت معك هي الخيول الكريمة الشديدة .

٧ الصعيد : وجه الأرض . الأراقم ، جمع الأرقم : الحية فيها سواد وبياض . وقوله إذا زلقت : أي زلقت خيلك في منحدرات ذلك الجبل ، مشيتها زحفاً على بطونها كالحيات .

مدح كافور

من قصيدة مدح بها كافوراً ، وهي أول قصيدة له فيه بعد أن ترك أمير حلب مغاضباً وقصد إلى مصر . وفيها يبدو الشاعر متشائماً على نفسه يتمنى الموت ويؤنب قلبه لأنه ما برح يحن إلى سيف الدولة . أنشده إياها سنة ٩٥٧ م (٣٤٦ هـ) :

كَفَى بِكَ داءً أنْ تَرَى المَوتَ شافيَا ، وحَسْبُ المَنايا أنْ يَكُنَّ أمانيَا[1]

تَمَنَّيْتَها ، لمّا تَمَنَّيْتَ أن تَرَى صَديقاً ، فأعيَا ، أو عَدُوّاً مُداجيَا[2]

إذا كنتَ تَرضَى أن تَعيشَ بذِلّةٍ ، فلا تَستَعِدّنّ الحُسامَ اليَمانيَا[3]

ولا تَستَطيلَنّ الرِّماحَ لغارَةٍ ، ولا تَستَجيدَنّ العِتاقَ المَذاكيَا[4]

فما يَنفَعُ الأُسدَ الحَياءُ مِنَ الطَّوَى ، ولا تُتّقَى ، حتى تَكونَ ضَوارِيَا[5]

حَبَبْتُكَ ، قلبي ، قبلَ حبّكَ مَن نأى ، وقد كانَ غَدّاراً ، فكُنْ ، أنتَ ، وافيَا[6]

وأعلَمُ أنّ البَينَ يُشكيكَ ، بَعدَهُ ، فلَستَ فُؤادي ، إنْ رأيتُكَ شاكيَا[7]

فإنّ دُموعَ العَينِ غُدْرٌ برَبّها ، إذا كُنّ ، إثرَ الغادِرينَ ، جَوارِيَا[8]

....

١ كفى بك : يخاطب نفسه على سبيل التجريد . الباء زائدة ، ووجه الكلام : كفاك . داء : تمييز . أن ترى : فاعل كفى ، أي رؤيتك .

٢ تمنيتها : ضمير النصب يعود على المنايا . فأعيا : أي فأعجزك أن تراه . المداجي : المساتر للعداوة ، لا يجاهر بها .

٣ استعده : أخذه عدة له .

٤ استطال الرملح : أي اتخذ الطوال منها . استجاد العتاق : اتخذ الجيد منها . العتاق : الخيل الكريمة . المذاكي : الخيل التي تمت أسنانها .

٥ الطوى : الجوع .

٦ حببتك : لغة في أحببتك . قلبي : منادى . من نأى : أي سيف الدولة . وافياً : أي وافياً لي ؛ وفي رواية : فكن لي وافيا .

٧ البين : البعد . يشكيك : يزيدك أذى وشكاية .

٨ غدر : جمع غدور ، من غدر به ؛ وأصله بضم الدال ، وإسكانه لغة . بربها : أي بصاحبها .

إذا الجُودُ لم يُرزَقْ خَلاصاً من الأذى، فلا الحَمدُ مَكسوباً، ولا المالُ باقِيَا[1]

وللنّفسِ أخلاقٌ تَدُلّ على الفتى، أكانَ سَخاءً ما أتَى، أمْ تَساخيَا[2]

أقِلَّ اشتِياقاً، أيّها القَلبُ، رُبّما رأيتُكَ تُصفي الوُدَّ مَن ليسَ صافيَا[3]

خُلِقتُ ألوفاً، لو رَجَعتُ إلى الصِّبَى، لَفارَقتُ شَيبي مُوجَعَ القلبِ، باكِيَا

ولكِنّ بالفُسطاطِ بَحراً، أزَرْتُهُ حَياتي، ونُصحي، والهوى، والقَوافيَا[4]

وجُرداً، مَدَدنا، بينَ آذانِها، القَنا، فَبِتنَ خِفافاً يَتّبِعنَ العَواليَا[5]

قَواصِدَ كافُورٍ، تَوارِكَ غَيرِهِ، ومَن قَصَدَ البَحرَ، استَقَلّ السّواقيَا[6]

فَجاءَتْ بنا إنسانَ عَينِ زَمانِهِ، وخَلّتْ بَياضاً، خَلفَها، ومآقِيَا[7]

أبا المِسكِ، ذا الوَجهُ الذي كنتُ تائقاً إلَيهِ، وذا اليَومُ الذي كنتُ راجِيَا[8]

---

١ يقول: إذا الجود لم يتخلص من الأذى، فصاحبه يخسر ماله، ولا يكسب عليه الحمد، لأن الأذى يفسد العطاء؛ يشير بذلك إلى عطايا سيف الدولة؛ وما لحقه معها من الأذى في بلاطه، وهذا من أمثاله السائرة مأخوذ من قول الحكيم اليوناني: إذا لم تتجرد الأفعال من الذم، كان الإحسان إساءة.

٢ أتى: أي فعل. التساخي: تكلف السخاء عن غير طبع. وقوله أكان سخاء، لضرورة الوزن، ووجهه أسخاء كان، لأن الاستفهام بالهمزة واقع على السخاء والتساخي، لا على الكون وعدمه.

٣ أقل اشتياقاً: أي كف عن الاشتياق.

٤ الفسطاط: مدينة مصر قبل القاهرة. البحر: أي كافور. أزرته حياتي الخ..: حملتها على زيارته.

٥ وجرداً: أي وأزرته جرداً، وهي الخيل القصيرة الشعر. القنا: الرماح. العوالي: جمع العالية وهي صدر الرمح مما يلي السنان. يقول: مددنا رماحنا بين آذان الخيل، فباتت تتبعها خفافاً، أي أن هذه الخيل لكرمها وقوة إحساسها، باتت تتبع في سيرها حركة الرماح بين آذانها فتمشي إلى الأمام أو تنعطف إلى اليمين أو إلى اليسار، دون أن يحتاج أصحابها إلى دفعها بالأرجل والأعنة.

٦ قواصد: حال من الخيل.

٧ انسان العين: سوادها. المآقي: جمع مأق وهو طرف العين عند ملتقى الجفنين. شبه كافوراً بانسان العين وهو اشرف ما فيها وأنفع، وكنى بذلك ايضاً عن سواده، وشبه غيره من الملوك ببياض العين ومآقيها، فأظهر انحطاط منزلتهم عن منزلة كافور. قال ابن الشجري: ما مدح اسود بأحسن من هذا.

٨ ابو المسك: كنية كافور، لسواد لون المسك وطيبه. تائق: مشتاق. ذا اليوم: يوم لقي كافوراً.

٤ إذا كسَبَ النّاسُ المَعاليَ بالنّدَى ، فإنّكَ تُعطي في نَداكَ المَعاليَا[1]

٥ وغَيرُ كَثيرٍ أنْ يَزورَكَ راجِلٌ ، فيَرجِعَ مَلْكاً للعِراقَينِ ، والِيَا[2]

الرثاء

رثاء جدته

قيل ورد على أبي الطيب كتاب من جدته لأمه تشكو شوقها إليه وطولَ غيبته عنها ، فتوجه نحو العراق ، ولم يمكنه دخول الكوفة فانحدر إلى بغداد . وكانت جدته قد يئست منه ، فكتب إليها كتاباً يسألها المسير إليه ، فقبلت كتابه ، وحمت لوقتها سروراً به ، وغلب الفرح على قلبها فقتلها ، فقال يرثيها :

ألا ، لا أُري الأحداثَ مَدحاً ، ولا ذمّا ، فما بَطشُها جَهلاً ، ولا كَفُّها حِلمَا[3]

إلى مثلِ ما كانَ الفتى مرجِعُ الفَتى ، يَعودُ كما أُبدي ، ويُكري كما أرْمَى[4]

لكِ اللهُ مِنْ مَفجوعَةٍ بحَبيبِها ، قَتيلَةِ شَوقٍ غيرِ مُلحِقِها وَصمَا[5]

أحِنُّ إلى الكأسِ التي شرِبَتْ بها ، وأهوَى لمَثواها التّرابَ ، وما ضَمّا[6]

بَكَيْتُ علَيها ، خيفَةً ، في حَياتِها ، وذاقَ كِلانا ثُكلَ صاحِبِه ، قِدْمَا[7]

---

١ الندى : الجود .

٢ الراجل : الماشي على رجليه ، والمراد : انه لا يملك مطية يركب عليها . الملك : الملك ، وهذا اللفظ يشمل في كلام العرب الخليفة والامراء والولاة . العراقان : اي العراق العربي والعراق العجمي .

٣ الأحداث : نوب الدهر . كفها : أي كفها عن البطش بنا .

٤ أبدي : خلق ، والأصل أبدىء ، فخففت الهمزة ، والمراد : أنه يعود إلى التراب كما خلق من التراب ، فليس ذلك من عمل نوب الدهر ، لتستحق ذماً أو مدحاً . يكري : ينقص . أرمى : زاد .

٥ الوصم : العيب . يقول : ماتت شوقاً إلى حبيبها ، ولكن لا يلحقها شوقها عيباً ، لأن حبيبها ابن بنتها.

٦ الكأس : أي كأس الموت . المثوى : المقام ، والمراد القبر . وما ضما : أي وما ضم من ميت دفن فيه.

٧ قدماً : قديماً . يقول : كنت أبكي عليها في حياتها خوفاً عليها من الموت ، ولكني تغربت وطالت غربتي ، فثكل كل منا صاحبه قبل الموت .

ولو قتَلَ الهَجرُ المُحبّينَ كُلَّهم ، مضَى بَلَدٌ باقٍ ، أجَدّتْ له صَرْمَا[1]
عرَفتُ اللّيالي قَبلَ ما صَنَعَتْ بنا ، فلَمّا دَهَتْني ، لم تزِدْني ، بها، عِلما
مَنافِعُها ما ضَرّ في نَفعِ غَيرِها ، تَغذّى وتَروى أن تَجوعَ ، وأن تَظما[2]
أتاها كتابي بَعدَ يأسٍ وتَرْحَةٍ ، فَماتَتْ سروراً بي ، فمِتُّ بها غَمّا[3]
حَرامٌ على قَلبي السّرورُ ، فإنّني أعُدُّ الذي ماتَتْ به ، بَعدَها، سُمّا[4]
هَبيني أخذتُ الثّأرَ، فيكِ ، من العِدى ، فكيفَ بأخذِ الثّأرِ ، فيكِ ، من الحُمّى؟[5]
وما انسَدّتِ الدّنيا عليّ لضيقِها ، ولكِنّ طَرفاً ، لا أراكِ به ، أعمَى
فَوا أسَفَا ! ألاّ أكِبَّ مُقَبِّلاً لرأسِكِ والصّدْرِ اللّذَيْ مُلِئا حَزْمَا[6]
وألاّ أُلاقي روحَكِ الطّيّبَ الذي ، كأنّ ذَكيّ المِسكِ كانَ لَهُ جِسمَا
ولو لم تَكوني بِنتَ أكرَمِ والدٍ ، لَكانَ أباكِ الضّخمَ كَونُكِ لي أمّا[7]
لَئِنْ لَذّ يَومُ الشّامتينَ بيَومِها ، لقَد وَلَدَتْ ، منّي ، لأنفِهِمُ رَغْمَا[8]

١ أجدت : جددت . الصرم : البعد والقطيعة . يقول : لو قتل الهجر كل المحبين لمات البلد الذي فارقته لأنه كان يحبها .

٢ يقول : عرفت الليالي قبل أن تصيبني بجدتي فرأيت أن منافعها قائمة على مضرة منافع غيرها ، فغذاؤها وريها في أن تجوع أيها المخاطب وأن تظمأ . أو غذاؤها وريها في جوعها المستمر لافتراس البشر ، وعطشها لشرب الدماء . وقوله تغذى : أي تتغذى . ويروى : أن نجوع وأن نظما .

٣ الترحة : الاسم من الترح ، وهو الحزن والهم . فمت : حركت الميم بالكسر على لغة القرآن ، لأن أصل المضارع من هذا الفعل في لغة قريش : يمات كخاف يخاف فأبقيت الكسرة دلالة على الأصل المتروك ، ويمكن تحريكها بالضم باعتبار أن المضارع المصطلح عليه يموت .

٤ يقول : أعد بعدها السرور الذي ماتت به سما .

٥ هبيني : احسبيني . بأخذ الثأر : متعلق بمحذوف تقديره أكفل . يقول : احسبيني بمنزلة من أخذ ثأرك من الأعداء لو أنهم قتلوك ، فكيف آخذ ثأرك من هذه العلة .

٦ اللذي : لغة في اللذين . وعليه قول الأخطل :

أبني كليب ، إن عمي اللذا قتلا الملوك ، وفككا الأغلالا

٧ الضخم : العظيم . يقول : لو لم يكن أبوك أكرم والد ، لكانت ولادتك إياي بمنزلة أب عظيم تنسبين إليه ، إذا قيل لك أنت أم أبي الطيب .

٨ لذ : طاب . مني : تجريد .

تَغَرَّبَ لا مُستَعظِماً غَيرَ نَفسِهِ ، ولا قابِلاً ، إلاّ لخالِقِهِ ، حُكمَا

ولا سالِكاً إلاّ فؤادَ عَجاجَةٍ ، ولا واجِداً ، إلاّ لمَكرُمَةٍ ، طَعمَا[1]

يَقولونَ لي : ما أنتَ في كلّ بَلدَةٍ ؟ وما تَبتغي؟ : ما أبتَغي؟ ! جلّ أنْ يُسمَى !

وما الجَمعُ بينَ الماءِ والنّارِ ، في يَدي ، بأصعَبَ من أن أجمَعَ الجَدّ ، والفَهمَا

وإنّي لَمِنْ قَومٍ ، كأنّ نُفُوسَهُمْ ، بها أنَفٌ أنْ تَسكُنَ اللّحمَ والعَظمَا[2]

كَذا أنا ، يا دنيا ! إذا شئتِ ، فاذهَبي ! ويا نفسِ ، زيدي ، في كرائهِها ، قُدمَا[3]

فَلا عَبَرَتْ بي ساعَةٌ لا تُعِزّني ! ولا صَحِبَتني مُهجَةٌ تَقبَلُ الظُّلمَا ![4]

رثاء اخت سيف الدولة

من قصيدة يرثي بها خولة أخت سيف الدولة الكبرى ؛ توفيت بميافارقين ، وورد خبرها إلى الكوفة ، وأبو الطيب فيها بعد خروجه من مصر ، فنظم مرثاته هذه ، وأرسل بها إلى أخيها سنة ٩٦٣ م (٣٥٢ هـ) :

طوَى الجَزيرَةَ ، حتّى جاءَني خَبَرٌ ، فَزِعتُ فيهِ بآمالي إلى الكَذِبِ[5]

حتّى إذا لم يَدَعْ لي صِدقُهُ أمَلاً ، شرِقتُ بالدّمعِ ، حتّى كادَ يَشرَقُ بي[6]

تَعَثّرَتْ بهِ في الأفواهِ ألسُنُها ، والبُردُ في الطُّرْقِ ، والأقلامُ في الكُتبِ[7]

....

١ العجاجة : الغبرة ، والمراد غبرة الحرب .
٢ يقول : كأن نفوسهم تأنف أن تسكن المادة كبقية النفوس ، فهي لذلك تقتحم المخاطر لتتخلص من ماديتها .
٣ كرائهها : نوازلها المكروهة ، والضمير للدنيا . القدم : التقدم .
٤ تعزني : تجعلني عزيزاً . المهجة : الروح .
٥ الجزيرة : ما بين دجلة والفرات ، وهي الطريق من حلب إلى الكوفة . خبر : فاعل جاءني أو طوى على التنازع . فزعت : لجأت . إلى الكذب : أي أملت أن يكون كاذباً .
٦ شرقت : غصصت . كاد يشرق بي : أي أحاطني الدمع حتّى غمرني فكاد يغص بي لأني صرت ضمنه .
٧ به : اختلس حركة الهاء من به ، وهذا من عيوب الوزن . البرد وسكنت الراء على لغة تميمية : جمع البريد وهو الرسول . يقول : تلجلجت بذكره الألسنة في الأفواه ذعراً ، وتعثرت الرسل الحاملة له في الطرق ، ورجفت أيدي الكتاب في كتابته .

كأنَّ فَعْلَةَ لم تَملأْ مَواكِبُها ... دِيارَ بَكْرٍ ، ولم تَخلَعْ ولم تَهَبِ[1]

ولم تَرُدَّ حَيَاةً ، بَعدَ تَوليَةٍ ، ... ولم تُغِثْ داعِياً بالوَيلِ والحَرَبِ[2]

أرى العراقَ طَويلَ اللّيلِ ، مُذ نُعِيَتْ ، ... فكَيفَ لَيلُ فتى الفِتيانِ في حَلَبِ ؟

يَظُنُّ أنَّ فُؤادي غيرُ مُلتَهِبٍ ، ... وأنَّ دَمعَ جُفُوني غيرُ مُنسَكِبِ ؟[3]

بَلى ، وحُرمَةِ مَنْ كانَتْ مُراعِيَةً ... لحُرمَةِ المَجدِ ، والقُصّادِ ، والأدَبِ

ومَنْ مَضَتْ غَيرَ مَوروثٍ خَلائِقُها ، ... وإنْ مَضَتْ يَدُها مَوروثَةَ النَّشَبِ[4]

وهَمُّها في العُلى والمَجدِ ناشِئَةً ، ... وهَمُّ أترابِها في اللّهوِ واللّعِبِ[5]

وإنْ تكُنْ خُلقتْ أُنثى ، لقد خُلقَتْ ... كَريمَةً غيرَ أُنثى العَقلِ والحَسَبِ[6]

وإنْ تكُنْ تَغلِبُ الغَلباءُ عُنصُرَها ، ... فإنَّ في الخَمرِ مَعنًى ، ليسَ في العِنَبِ[7]

* * *

تَخالَفَ النّاسُ ، حتى لا اتّفاقَ لهمْ ، ... إلاّ على شَجَبٍ ، والخُلفُ في الشَّجَبِ[8]

... ...

١ فعلة : كناية عن اسم المرثية وهو خولة ، ولم يذكر اسمها إجلالا لها .

٢ التولية : مصدر ولى ، أي ذهب وأدبر . الحرب : ذهاب المال . المعنى : كانت ترد حياة الخائف والمحروب بالإغاثة والبذل .

٣ يظن : على حذف حرف الاستفهام أي أيظن .

٤ النشب : المال .

٥ ناشئة : أي صبية ، وهي حال من الضمير في همها . الأتراب : الأمثال في العمر ، واحدها ترب للمذكر والمؤنث .

٦ الحسب : ما ينشئه الإنسان لنفسه من الشرف والمآثر .

٧ تغلب : قبيلة الحمدانيين . الغلباء : العزيزة الممتنعة . فإن : الفاء هي الفصيحة الدالة على جواب الشرط المحذوف أي فلا عجب . يقول : إن يكن عنصرها من تغلب الغلباء ، وفاقت قبيلتها في الفضل ، فلا عجب فإن الخمر من العنب ، ولكن فيها من فضل القوة ، وطيب الطعم والريح ما ليس في العنب .

٨ حتى : ابتدائية . الشجب : الهلاك . الخلف : الاختلاف . يقول : تخالف الناس في كل شيء ، فلم يتفقوا إلا على أن الموت لا مهرب منه لكل حي ، ثم اختلفوا في حقيقة الموت ومصير النفس بعده.

٣ فَقيلَ : تَخلُصُ نَفسُ المَرءِ سالمةً ، وقيلَ : تَشرَكُ جِسمَ المَرءِ في العَطَبِ
٤ ومَنْ تَفَكّرَ في الدّنيا ومُهجتِهِ ، أقامَهُ الفِكرُ بَينَ العَجزِ والتّعَبِ[1]

الهجاء

هجاء ابن كيغلغ

من قصيدة يهجو بها اسحق بن ابراهيم الأعور ابن كيغلغ محافظ طريق طرابلس . وكان جاهلاً ، وبينه وبين ابي الطيب عداوة قديمة ، فاتفق ان مرّ به المتنبي سنة ٩٤٧ م (٣٣٦ هـ) يريد أنطاكية ، فسأله أن يمدحه ، فأبى الشاعر مترفعاً ، فاعتاقه المحافظ مدة عن سفره ، فلما ابتعد عن طرابلس ، قال يهجوه :

لِهَوَى النّفوسِ سَريرَةٌ لا تُعلَمُ ، عَرَضاً نَظَرتُ ، وخِلتُ أنّي أسلَمُ[2]
يا أُختَ مُعتَنِقِ الفَوارِسِ في الوَغَى ، لأخوكِ ، ثَمّ ، أرَقُّ منكِ وأرحَمُ[3]

* * *

ذو العَقلِ يَشقَى ، في النّعيمِ ، بعَقلِهِ ، وأخو الجَهالَةِ ، في الشّقاوَةِ ، يَنعَمُ[4]
والنّاسُ قَد نَبَذوا الحِفاظَ ، فمُطلَقٌ يَنسَى الذي يُولي ، وعافٍ يَندَمُ[5]

. . . .

١ المهجة : الروح .
٢ السريرة : السر . عرضاً : فجأة ، واعتراضاً عن غير قصد ؛ وهو منصوب على الحال . يقول : سر الحب مجهول لا يدرى كيف يدخل القلوب ؛ فقد نظرت عرضاً إلى فتاة ، وخلت أني أسلم من حبها ، فلم أسلم .
٣ يقول : أخوك شجاع يعتنق الفرسان في الحرب ، أي يتلاحم وإياهم . ثم : هناك ، أي في الحرب . أرق منك وأرحم : أي يرحم الفوارس أكثر مما ترحمين العشاق .
٤ يقول : العاقل يشقى ، وإن كان في نعمة ، لتفكيره في تقلب الأحوال ؛ والجاهل ينعم بشقائه لغفلته ، وقلة تفكيره في العواقب .
٥ نبذوا : طرحوا . الحفاظ : المحافظة على العهود وغيرها . مطلق : مبتدأ محذوف الخبر أي فمنهم فمطلق . يولي : يحسن . العافي : من يعفو عن الإساءة . يقول : المطلق من الأسر ينسى إنعام من أحسن إليه بالعفو ؛ والعافي يندم لأنه أحسن إلى من لا يحفظ جميله .

لا يَخدَعَنّكَ مِن عَدُوٍّ دَمعُهُ ، وارحَمْ شَبابَكَ من عَدُوٍّ تَرحَمُ[1]

لا يَسلَمُ الشّرَفُ الرّفيعُ منَ الأذَى ، حتى يُراقَ على جَوانِبِهِ الدّمُ

يُؤذي القَليلُ منَ اللّئامِ ، بطَبعِهِ ، مَنْ لا يَقِلُّ ، كَما يَقِلُّ ويَلؤمُ[2]

والظّلمُ مِن شِيَمِ النّفوسِ ، فإنْ تجدْ ذا عِفّةٍ ، فلِعِلّةٍ لا يَظلِمُ[3]

* * *

ومِنَ البَلِيّةِ عَذْلُ مَنْ لا يَرعَوي عَن غَيّهِ ، وخِطابُ مَن لا يَفهَمُ[4]

* * *

يَقْلي مُفارَقَةَ الأكُفّ قَذالُهُ ، حتى يَكادَ على يَدٍ يَتَعَمّمُ[5]

وجُفُونُهُ لا تَستَقِرُّ ، كأنّها مَطروفَةٌ ، أو فُتّ فيها حِصرِمُ

وإذا أشارَ مُحَدِّثاً ، فكأنّهُ قِرْدٌ يُقَهقِهُ ، أو عَجوزٌ تَلطِمُ[6]

وتَراهُ ، أصغَرُ ما تَراهُ ، ناطِقاً ويَكونُ ، أكذَبُ ما يكونُ ، ويُقسِمُ[7]

١ من عدو ترحم : أي من عدو ترحمه ، لأنه إذا ظفر بك لا يرحمك .

٢ القليل : الخسيس الحقير . يقول : من طبع الخسيس اللئيم أن يؤذي الكريم الذي لا يشاكله في الحقارة واللؤم.

٣ ذا عفة : أي يعف عن الظلم .

٤ العذل : اللوم . يرعوي : يكف ويقلع . غيه : ضلاله ، ويروى : جهله .

٥ يقلى ويقلي : يبغض . القذال : مؤخر الرأس . يقول : هو لئيم دنيء تعود أن يصفع ، فلذلك يكره قذاله أن تفارقه الأكف ويكاد هذا الصفعان يتعمم على يد صافعة لحبه لها .

٦ يقول : يستعين بإشارات اليدين ، إذا حدث ، لعي لسانه ، ويتشنج وجهه في أثناء الحديث لعجزه عن الإفصاح ، فيجتمع له التشنج والقبح والكلام غير المفهوم والإشارات ، فيصبح أشبه شيء بقرد يقهقه أو عجوز تولول ؛ ودل على الولولة بلفظة تلطم ، لأن لطم النساء لوجوههن لا بد أن يصحبه صوت هو ولولة في الغالب .

٧ حرك العكبري أصغر وأكذب بالفتح مستنداً إلى هبة الله الشجري في أماليه إذ قال إن فعل الرؤية من العين يعدى إلى مفعول واحد ، وأصغر وأكذب منصوبان على المصدر أي في موضع المفعول المطلق لأنهما أضيفا إلى ما المصدرية . ويكون : تامة لا خبر لها . ناطقاً ويقسم : أي وهو يقسم ، في محل نصب على الحال ، والتقدير وتراه ناطقاً أصغر رؤيتك إياه ، ويوجد ، وهو يقسم ، وجوداً أكذب وجوده . على أن الشيخ إبراهيم اليازجي يرى في ذلك تعسفاً ويرجح رفع أصغر وأكذب على أنهما في محل الابتداء ، وأن الحال في ناطقاً ويقسم سدت مسد الخبر ، والجملة في محل نصب بالناسخ ، أي أولا على أنها مفعول ثان لترى ، وثانياً على أنها خبر يكون . وروى آخرون أصغر وأكذب بالنصب على أنهما معمولان للفعلين قبلهما . والمعنى : هو أحقر ما يكون إذا نطق لعي لسانه ، وأكذب ما يكون إذا حلف ، لأنه يأتي بالحلف تأييداً لأكاذيبه .

وداع كافور

قال يهجوه في يوم عرفة ، أي في أمس عيد الأضحى ؛ قبل مسيره من مصر بيوم واحد في أواخر سنة ٩٦١ م (٣٥٠ هـ) :

عيدٌ ! بأيّةِ حالٍ عُدتَ ، يا عيدُ ؟ ... بما مَضَى ؟ أم لأمرٍ فيكَ تَجديدُ ؟[١]

أمّا الأحبّةُ ، فالبَيداءُ دونَهُمُ ، ... فلَيتَ دونَكَ بِيداً ، دونَها بِيدُ ![٢]

* * *

يا ساقيَيّ ، أخَمرٌ في كُؤوسِكُما ، ... أمْ في كؤوسِكُما هَمٌّ وتَسهيدُ ؟[٣]

أصَخرَةٌ أنا ؟ ما لي لا تُحرّكُني ... هذي المُدامُ ، ولا هذي الأغاريدُ ؟

إذا أرَدتُ كُمَيتَ اللّونِ صافيَةً ، ... وجَدْتُها ، وحَبيبُ القَلبِ مَفقودُ[٤]

ماذا لَقيتُ منَ الدّنيا ؟ وأعجَبُهُ ... أنّي ، بما أنا شاكٍ منهُ ، مَحسُودُ !

أمسَيتُ أروحَ مُثْرٍ ، خازِناً ويَداً ، ... أنا الغَنيُّ ، وأموالي المَواعيدُ[٥]

إنّي نَزَلتُ بكَذّابِينَ ، ضَيفُهُمُ ... عنِ القِرى وعنِ التّرحالِ ، مَحدودُ[٦]

جُودُ الرّجالِ منَ الأيدي، وجودُهم ... منَ اللّسانِ ؛ فلا كانوا ! ولا الجُودُ !

ما يَقبِضُ المَوتُ نَفساً من نُفوسِهِم ، ... إلاّ ، وفي يَدِهِ ، مِن نَتنِها ، عُودُ

أكُلّما اغتالَ عَبدُ السَّوءِ سَيّدَهُ ، ... أو خانَهُ ، فلَهُ ، في مِصرَ، تَمهيدُ ؟[٧]

---

١ عيد : أي هذا عيد . بما مضى : أي أبما مضى ، حذف همزة الاستفهام .
٢ البيداء : الفلاة لأنها تبيد سالكها ، جمعها بيد . يقول للعيد : إن أحبتي على بعد مني ، تفصل البيداء بيني وبينهم ، فليت البيد بعد البيد تفصل بيني وبينك ، لأني لا أسر بقدومك وهم بعيدون .
٣ التسهيد : الحمل على السهر .
٤ الكميت : الأحمر فيه سواد ، يوصف به المذكر والمؤنث ، والمراد هنا : خمر كميت اللون .
٥ أروح : من الراحة . يقول : إنه قد صار غنياً ، ولكن خازنه ويده مستريحان من حمل المال ، لأن أمواله مواعيد كافور لا تقبض ، ولا تخزن .
٦ القرى : الضيافة . محدود : ممنوع .
٧ تمهيد : أي تمهيد الملك . يتهم كافوراً باغتيال سيده أنوجور الاخشيدي ، ليستولي على الملك .

صارَ الخَصِيُّ إمامَ الآبقينَ بها ، فالحُرُّ مُستَعبَدٌ ، والعَبدُ مَعبُودُ[١]

نامَتْ نَواطيرُ مِصرٍ عَن ثَعالِبِها ، فقَد بَشِمنَ ، وما تَفنَى العَناقيدُ[٢]

ألعَبدُ لَيسَ لحُرٍّ صالحٍ بأخٍ ، لو أنّهُ ، في ثِيابِ الحُرِّ ، مَولودُ[٣]

لا تَشتَرِ العَبدَ ، إلاّ والعَصا معَهُ ، إنّ العَبيدَ لأنجاسٌ مَناكيدُ[٤]

ما كنتُ أحسَبُني أحيا إلى زَمَنٍ ، يُسيءُ بي ، فيهِ ، عَبدٌ ، وهوَ محمودُ[٥]

ولا تَوَهّمتُ أنّ النّاسَ قد فُقِدوا ، وأنّ مثلَ أبي البَيضاءِ مَوجُودُ[٦]

وأنّ ذا الأسوَدَ المَثقوبَ مِشفَرُهُ تُطيعُهُ ذي العَضاريطُ الرّعاديدُ ![٧]

جَوعانُ ، يأكُلُ مِن زادي ، ويُمسكُني لكَيْ يُقالَ : عَظيمُ القَدرِ ، مَقصودُ[٨]

وَيْلُمِّها خُطّةً ! وَيْلُمِّ قابِلِها لِمِثلِها خُلِقَ المَهرِيّةُ القُودُ ![٩]

---

١ الآبقين : العبيد الهاربين من ساداتهم . بها : أي بمصر .

٢ النواطير : سادات مصر . ثعالبها : عبيد مصر . بشمن اخذتهن تخمة ، والضمير للثعالب . العناقيد : أموال مصر . يقول : نامت سادات مصر عن أموالها ، فاستولى عليها العبيد ، وأكلوا منها فوق الشبع حتى اتخموا ؛ ولكن هذه الأموال لا تفنى لكثرتها .

٣ لو : أي ولو ، حذف الواو والجملة حالية . في ثياب الحر : أي في ملك الحر .

٤ المناكيد : جمع منكود وهو القليل الخير .

٥ يسيء بي : يقال أساء به وإليه ؛ قال كثير : أسيئي بنا أو أحسني ، لا ملومة . عبد : ويروى كلب .

٦ كناه بأبي البيضاء سخراً به لأنه خصي أسود .

٧ المشفر : شفة البعير ، استعاره لكافور إظهاراً لضخامة شفتيه . وكان كافور مثقوب الشفة السفلى ، شأن العبيد الذين يعلقون الحلق في شفاههم ؛ فشبهه بالبعير الذي يثقب مشفره للزمام . العضاريط ، جمع عضروط ، وهو الذي يخدم بطعامه . الرعاديد : الجبناء ، واحدها رعديد .

٨ من زادي : أي من شعري . يمسكني : يمنعني من الرحيل . والمراد : أن كافوراً يريد أن يشبع جوعه من مدح الشاعر ، وهو لا يعطي الشاعر ما يشبعه ، ويمنعه من الرحيل لكي يقول الناس إنه كريم يقصده الشعراء والعفاة .

٩ ويلمها : كلمة تقال عند التعجب من الشيء ؛ قيل إن أصلها ويل لأمها ، فركبوها وجعلوها كالشيء الواحد ؛ وقيل : بل هي مركبة من وي لأمها ، فوي : كلمة مفردة تقال عند التفجع والتعجب ، وحذفت الهمزة عن أمها تخفيفاً ، وألقيت حركتها على اللام المكسورة ، فصارت مضمومة ؛ وينصب ما بعدها على التمييز . الخطة : الأمر والشأن . المهرية : الإبل . القود : الطوال الظهور ، واحدها أقود وقوداء . والمراد أنه لمثل هذا الأمر الذي لا يحتمل خلقت الإبل للرحيل .

إنَّ المَنيّةَ ، عندَ الذُّلِّ ، قِنديدُ[1] وعِندَها ، لَذَّ طَعمَ المَوتِ شارِبُهُ ،

أقَوْمُهُ البِيضُ ، أمْ آباؤهُ الصِّيدُ ؟[2] مَنْ علّمَ الأسوَدَ المَخصِيَّ مَكرُمَةً ؟

أمْ قَدرُهُ ، وهوَ بالفَلسَينِ مَردودُ ؟[3] أمْ أذنُهُ ، في يَدِ النّخّاسِ ، داميةً ؟

في كلّ لُؤمٍ ، وبَعضُ العُذرِ تَفنيدُ[4] أولى اللّئَامِ كُوَيفيرٌ بمَعذِرَةٍ

عنِ الجَميلِ ،فكَيفَ الخِصيةُ السّودُ !؟[5] وذاكَ أنّ الفُحولَ البِيضَ عاجِزَةٌ

الفخر

شكوى وطموح

من شعر صباه يشكو ضيق رزقه طموحاً ، معتداً بنفسه :

كمُقامِ المَسيحِ ، بينَ اليَهودِ[6] ما مُقامي ، بأرضِ نَخلَةَ ، إلاّ

نَ قَميصي مَسرُودَةٌ مِن حَديدِ[7] مَفرَشي صَهوَةُ الحِصانِ ، ولَكِ

أحكَمَتْ نَسجَها يَدا داوُدِ[8] لأمَةٌ فاضَةٌ ، أضاةٌ ، دِلاصٌ ،

. . . .

١ عندها : الضمير للخطة . لذ طعم الشيء : وجده لذيذاً . القنديد : عسل قصب السكر ، والخمر .

٢ الصيد : جمع أصيد ، وهو الملك العظيم .

٣ النخاس : بائع العبيد . دامية : إشارة إلى أن النخاس كان يقوده بأذنه ويعرضه للبيع منادياً عليه ، فتدمى أذنه من الشد . قدره : ثمنه .

٤ التفنيد : اللوم والتقريع . يقول : هو أحق اللئام بأن يعذر على كل لؤم يبدو منه ، لخسة أصله وعجزه عن المكارم ، وإن يكن هذا العذر تقريعاً له ؛ وفي البيت التالي يصرح بعذره .

٥ الفحول البيض : الملوك والسادة الأحرار . عن الجميل : أي عن صنع الجميل . الخصية : جمع خصي .

٦ نخلة : قرية لبني كلب بالقرب من بعلبك .

٧ المفرش : مكان الفراش . الصهوة : مقعد الفارس من ظهر الفرس . مسرودة : منسوجة من الحديد وهي الدرع . واستدراكه بلكن : من باب المدح في معرض الذم .

٨ اللأمة : الدرع ، بدل من مسرودة . فاضة : واسعة . الأضاة : الغدير من الماء ؛ وصف الدرع بها ، لما فيها من البريق والصفاء . الدلاص : الدرع اللينة الملساء . داود : أي داود النبي ، يقال إنه أول من نسج الدروع ؛ ولذلك تنسب إليه الدروع المحكمة النسج .

أينَ فَضلي ؟ إذا قَنِعتُ منَ الدّهْـ ـرِ بعَيشٍ مُعَجَّلِ التّنكيدِ !

ضاقَ صَدري ، وطالَ في طلبِ الرّزْ قِ قيامي ، وقَلَّ عَنهُ قُعودي

أبَداً أقطَعُ البِلادَ ، ونَجمي في نُحُوسٍ ، وهِمّتي في سُعُودِ

ولَعَلّي مُؤمِّلٌ بَعضَ ما أبْـ ـلُغُ باللّطفِ منْ عَزيزٍ حَميدِ[1]

لِسَريٍّ ، لِباسُهُ خَشِنُ القُطْـ ـنِ ، ومَرْوِيُّ مَرْوَ لِبْسُ القُرودِ[2]

عِشْ عَزيزاً، أو مُتْ وأنتَ كَريمٌ، بينَ طَعنِ القَنا ، وخَفقِ البُنودِ[3]

فَرُؤوسُ الرِّماحِ أذهَبُ للغَيْـ ـظِ ، وأشفَى لغِلِّ صَدرِ الحَقُودِ[4]

لا كَما قد حَيِيتَ ، غيرَ حَميدٍ ، وإذا مِتَّ ، مِتَّ غَيرَ فَقيدِ[5]

فاطلُبِ العِزّ في لَظى ، ودَعِ الذّ لّ ولو كانَ في جِنانِ الخُلُودِ[6]

يُقتَلُ العاجِزُ الجَبانُ ، وقد يَعْـ ـجِزُ عَن قَطعِ بُخنُقِ المَولودِ[7]

ويُوَقّى الفتى المِخَشُّ، وقد خَوّ ضَ في ماءِ لَبّةِ الصّنديدِ[8]

لا بقَومي شَرُفتُ ، بَل شَرُفوا بي ، وبنَفسي فَخَرتُ ، لا بجُدودي !

. . . . .

١ يقول : ما أزال أقطع البلاد طلباً للرزق ، والنحس يرافق حظي ، ومع هذا فإن همّتي عالية لا تنحط للخيبة . فلعل الذي يشدد عزيمتي هو أن ما أرجوه الآن ليس إلا بعض ما سيبلغني الله إياه بلطفه .

٢ لسري : لشريف ، وحرف الجر متعلق بأبلغ ؛ وأراد بالسري نفسه . لباسه خشن القطن : هذا من باب الفخر لأن العرب تتمدح بخشونة الملبس ، وتعيب الترف والنعمة . المروي : ضرب من رقاق الثياب ينسج في مرو ، وهي بلد في خراسان يقال في النسبة إليها : ثوب مروي ، بسكون الراء وفتحها ، ورجل مروزي على غير قياس .

٣ البنود : الأعلام الكبيرة ، واحدها بند .

٤ الغل : الحقد .

٥ لا كما قد حييت : خطاب لنفسه ، أي لا تعش كما عشت إلى هذا الوقت خامل الذكر غير محمود الفضائل فيما بين الناس .

٦ لظى : من أسماء جهنم .

٧ البخنق : خرقة يقنع بها رأس الطفل وتشد تحت الحنك ، وتلبسه المرأة أيضاً عند ادهان رأسها .

٨ المخش : الجريء على الليل . الماء : هنا بمعنى الدم . اللبة : أعلى الصدر . الصنديد : السيد الشجاع .

وبِهِمْ فَخرُ كلِّ مَنْ نَطَقَ الضّا   دَ، وعَوْذُ الجاني، وغوثُ الطّريدِ[1]

إنْ أكُنْ مُعجَباً، فعُجبُ عَجيبٍ،   لم يَجِدْ فَوقَ نَفسِهِ مِنْ مَزيدِ[2]

أنا تِربُ النّدى، ورَبُّ القَوافي،   وسِمامُ العِدى، وغَيظُ الحَسُودِ[3]

أنا في أُمّةٍ، تَدارَكَها اللّـ   ـهُ، غَريبٌ كَصالحٍ في ثَمُودِ[4]

طريق المجد

قال يفتخر من قصيدة مدح بها علي بن عامر الأنطاكي، قبل اتصاله بسيف الدولة:

أطاعِنُ خَيلاً، مِن فَوارِسِها الدّهرُ،   وَحيداً، وما قَوْلي كذا؟ ومَعي الصّبرُ؟![5]

وأشجَعُ منّي، كلَّ يومٍ، سَلامَتي،   وما ثَبَتَتْ، إلاّ وفي نَفسِها أمْرُ

تَمَرّسَتُ بالآفاتِ، حتى تَرَكْتُها   تَقولُ: أماتَ الموتُ، أم ذُعِرَ الذُّعرُ؟[6]

وأقدَمتُ إقدامَ الأتيِّ، كأنَّ لي   سوى مُهجتي، أو كانَ لي، عندها، وِترُ[7]

ذَرِ النّفسَ، تأخُذْ وُسعَها، قبلَ بَينِها،   فمُفتَرِقٌ جاران، دارُهُما العُمرُ[8]

---

١ العوذ: الالتجاء. الغوث: العون. الطريد: الذي يطرد وينفى.

٢ المعجب: الذي يعتد بنفسه ويباهي. العجب: المباهاة بالنفس. عجيب: أي مخلوق عجيب في ذاته.

٣ ترب الإنسان: من ولد معه. الندى: الجود. السمام: جمع السم

٤ صالح: نبي ذكره القرآن. ثمود: قبيلة بائدة، جاء في القرآن أن الله أبادها بعد أن فسقت وكذبت بصالح، وعقر رجل منها ناقته. فالمتنبي هنا يخشى على أمته أن يصيبها مثلما أصاب ثمود، لأنها أنكرته وكذبت به، فعاش فيها غريباً كصالح في قبيلته، ولذلك هو يسأل الله أن يتداركها بلطفه، فيصلح ما فيها من فساد. قال ابن جنى: بهذا البيت لقب بالمتنبي.

٥ خيلا: أي خيل الأعداء في الحرب. من فوارسها الدهر: أي من جملة خيل الأعداء، خيل الدهر، أي حوادثه. كذا: مفعول قولي.

٦ تمرس به: تحكك. الآفات: ما يصيب الإنسان من ويلات وحروب وأمراض. واحدتها آفة. والمعنى أن الآفات صارت تقول: ما بال هذا الرجل لا يموت ولا يخاف؟ أمات الموت أم ذعر الذعر؟

٧ الأتي: أي السيل الذي لا يرد، يأتي من موضع بعيد. المهجة: الروح. الوتر: الثأر.

٨ ذر: دع. وسعها: طاقتها، أي ما تقدر عليه. بينها: أي فراقها للجسد. جاران: النفس والجسد، وهو فاعل سد مسد الخبر؛ ومفترق: مبتدأ لنكرة على مذهب من لا يلتزم اعتماد الوصف على نفي أو استفهام، وهو مذهب الأخفش والكوفيين.

ولا تَحسَبَنّ المَجدَ زِقّاً ، وقَيْنَةً ، فما المَجدُ إلاّ السّيفُ، والفتكةُ البِكرُ[1]
وتَضريبُ أعناقِ المُلوكِ ، وأنْ تُرَى لكَ الهَبَواتُ السّودُ، والعَسكَرُ المَجرُ[2]
وتَركُكَ في الدّنيا دَوِيّاً ، كأنّما تَداوَلُ سَمعَ المَرءِ أنمُلُهُ العَشرُ[3]

وا حر قلباه !

قال يفتخر ويعاتب سيف الدولة ، بعد أن كثرت السعايات بين الأمير والشاعر ، وبدا الجفاء من صاحب حلب ، فانقطع أبو الطيب مدة عن قول الشعر ، ثم دخل عليه فأنشده هذه القصيدة في مجلس حافل بالأمراء والشعراء والأدباء :

واحَرّ قَلباهُ مِمّنْ قَلبُهُ شَبِمُ ! ومَن بجِسمي وحالي ، عندَه ، سقَمُ ![4]
ما لي أُكَتّمُ حُبّاً قد بَرَى جَسَدي ، وتَدّعي حبَّ سَيفِ الدّولةِ الأُمَمُ ؟[5]
إنْ كانَ يَجمعنا حُبٌّ لِغُرّتِهِ ، فلَيتَ أنّا ، بقَدرِ الحُبّ ، نَقتَسِمُ[6]
قد زُرتُهُ ، وسيوفُ الهند مُغمَدَةٌ ؛ وقد نَظَرتُ إلَيهِ ، والسّيوفُ دَمُ

....

١ الفتكة البكر : أي التي لم يسبق إليها أحد ، وهي المرة من الفتك .
٢ الهبوات ، جمع هبوة : الغبار . المجر : الكثير .
٣ تداول : أي تتداول ، على حذف إحدى التائين ؛ يقال تداول الشيء : تعاقبه ، أي أخذه مرة بعد مرة . يقول : والمجد أن تترك في الدنيا دوياً يضج في الآذان ، حتى كأن كل إنسان فيها يدخل أصابعه العشر مداولة في أذنيه ؛ وذلك أن الذي يعاقب إدخال أصابعه في أذنيه يحدث فيهما دوياً .
٤ واحر قلباه : للندبة ؛ أراد واحر قلبي ، فأبدل من الياء ألفاً طلباً للخفة ، والعرب تفعل ذلك في النداء ، وألحق بعد الألف هاء السكت ، والعرب تفعل ذلك ، وحرك الهاء لسكونها وسكون الألف ، وللعرب في ذلك أمران : فمنهم من يحرك بالضم تشبيهاً بهاء الضمير ، ومنهم من يحرك بالكسر على ما يوجد كثيراً في الكلام عند التقاء الساكنين . الشبم : البارد . والمعنى : قلبي حار من حبه ، وقلبه بارد من حبي ، وأنا عنده مختل الحال ، معتل الجسم .
٥ براه : أنحله .
٦ غرته : طلعته . ليت : اسمها وخبرها محذوفان ، سدت أن وصلتها مسدهما . يقول : إن كان حبه يجمع بيني وبين غيري من الناس ، فليتنا نقتسم المنزلة عنده بمقدار ذلك الحب ، حتى ينال كل منا ما يستحقه .

فكانَ أحسنَ خلقِ اللهِ كُلّهِمُ ، وكانَ أحسنَ ما في الأحسنِ الشّيَمُ [1]

يا أعدلَ النّاسِ ، إلاّ في مُعاملَتي ، فيكَ الخِصامُ ، وأنتَ الخصمُ والحكَمُ [2]

أُعيذُها نَظَراتٍ منكَ صادِقَةً ، أن تَحسبَ الشّحمَ فيمن شحمُهُ وَرَمُ [3]

وما انتِفاعُ أخي الدّنيا بِناظِرِهِ ، إذا استَوَتْ، عندَه،الأنوارُ والظُّلَمُ؟ [4]

سيَعلَمُ الجَمعُ ، ممّنْ ضَمّ مَجلسُنا، بأنّني خيرُ مَن تَسعَى بهِ قَدَمُ

أنا الذي نَظَرَ الأعمَى إلى أدَبي ، وأسمعَتْ كَلماتي مَنْ بهِ صَمَمُ

أنامُ مِلءَ جُفُوني عن شَوارِدِها ، ويَسهَرُ الخَلقُ جَرّاها ، ويَختَصِمُ [5]

وَجاهِلٍ مَدّهُ ، في جَهلِهِ ،ضَحِكي ، حتى أتتْهُ يَدٌ فَرّاسَةٌ ، وفَمُ [6]

إذا رأيتَ نُيُوبَ اللّيثِ بارِزَةً ، فلا تَظُنّنّ أنّ اللّيثَ يَبتَسِمُ [7]

---

١ الشيم : الأخلاق . يقول : زرته في السلم ، وصحبته في الحرب ، فكان أحسن الناس على الحالين، وكانت شيمه أحسن ما في هذا الأحسن .

٢ يقول : أنا وغيري من الشعراء نختصم فيك ، وأنت خصمي لأنك لا تعاملني كما تعاملهم ، وأنت الملك الحاكم . وملخص المعنى : أنت موضوع الخصام ، وأنت الخصم ، وأنت الحاكم ، فكيف أرجو الإنصاف .

٣ أعيذها : دعاء لها بالحفظ ، كأنه يقول : أعيذها بالله ، أي أجعلها في ملجإ الله وملاذه . تقول عاذ به عوذاً وعياذاً ومعاذاً : التجأ واعتصم . نظرات : بدل من ضمير النصب في أعيذها ، وهي تفسير له . الشحم : ما دل على الصحة . الورم : ما دل على المرض . يقول : أعيذ نظراتك الصادقة أن تشتبه عليها الحقيقة ، فلا تفرق بين الشاعر والمتشاعر ؛ ويخدعها ظاهر الشعر أي وزنه وقافيته ، كما يخدع ظاهر الانتفاخ فيمن شحمه صحة ، وفيمن شحمه ورم .

٤ أخي الدنيا : أي الإنسان . الناظر : العين .

٥ شوارد القوافي : أي الأشعار التي تروى وتسير في البلاد . جراها : من أجلها والأصل من جراها ، فحذف الجار ونصب المجرور مفعولا له . يقول : أنام ملء جفوني عن شوارد الشعر لأني أدركها متى شئت على سهولة ويسر ، وغيري من الشعراء يسهرون من أجلها إذا أرادوا النظم ، ويخاصم بعضهم بعضاً فيما يظفرون من المعاني لتواطئهم عليها ، أو يسهر الناس من أجل حفظها وروايتها ، ويخاصم بعضهم بعضاً في شرحها وتفهمها .

٦ مده : أمهله وطول له ؛ والمراد خدعه وأطمعه . فراسة : مفترسة .

٧ النيوب : جمع ناب

وَمُهجَةٍ ، مُهجَتي من هَمّ صاحبِها، أدركْتُها بجَوادٍ ظَهرُهُ حَرَمُ[1]

رِجلاهُ في الرّكض رِجلٌ،واليَدانِ يَدٌ، وفِعلُهُ ما تُريدُ الكَفُّ والقَدَمُ[2]

ومُرهَفٍ سرتُ بينَ الجَحفَلَينِ بهِ ، حتى ضرَبتُ ، وموجُ الموتِ يَلتَطِمُ[3]

ألخَيلُ واللّيلُ والبَيداءُ تَعرِفُني ، والسّيفُ والرّمحُ والقِرطاسُ والقَلَمُ

صَحبتُ في الفَلَواتِ الوَحشَ مُنفَرِداً، حتى تَعَجّبَ مني القُورُ والأكَمُ[4]

يا مَنْ يَعِزُّ علَينا أن نُفارِقَهُمْ ، وِجدانُنا كلَّ شيءٍ ، بَعدَكم، عدَمُ

ما كانَ أخلَقَنا مِنكُمْ بتَكرِمَةٍ ، لوْ أنّ أمرَكُمُ من أمرِنا أمَمُ[5]

إنْ كانَ سَرّكُمُ ما قالَ حاسِدُنا ، فما لجُرحٍ ، إذا أرضاكُمُ ، ألَمُ

وبَينَنا ، لو رَعَيتُمْ ذاكَ ، مَعرِفَةٌ ؛ إنّ المَعارِفَ ، في أهلِ النُّهَى، ذِمَمُ[6]

كَم تَطلُبُونَ لَنا عَيباً ، فيُعجِزُكم ، ويَكرَهُ اللهُ ما تأتُونَ ، والكَرَمُ

ما أبعَدَ العَيبَ والنّقصانَ من شرَفي ، أنا الثّرَيّا ، وذانِ الشّيبُ والهَرَمُ[7]

لَيتَ الغَمامَ ، الذي عندي صَواعِقُهُ، يُزيلُهُنّ إلى مَنْ عِندَهُ الدِّيَمُ[8]

١ المهجة : الروح . يقول : ورب مهجة ، من هم صاحبها إتلاف مهجتي ، أدركتها بجواد كأن ظهره حرم لا ينتهك ، أي من ركبه أمن اللحاق .

٢ يصف استواء وقع قوائمه وصحة جريه ، فكأن رجليه رجل واحدة ، لأنه يرفعهما معاً ، ويضعهما معاً ، وكذلك اليدان ، وهذا الجري يسمى المناقلة ؛ وفعله ما تريد الكف بالسوط ، والرجل بالركل فهو يغنيك عنهما .

٣ المرهف : السيف الرقيق الحد . الجحفلين : الجيشين العظيمين .

٤ القور : جمع قارة وهي الأرض ذات الحجارة السوداء ، ويروى الغور : وهو المطمئن من الأرض . الأكم ، جمع أكمة : الجبل الصغير .

٥ أخلقنا : أولانا وأجدرنا . أمم : قريب . يقول : ما كان أولانا بتكرمة منكم ، لو أن عقيدتكم فينا قريبة من عقيدتنا فيكم ، أي لو بادلتمونا الحب الذي نحفظه لكم .

٦ النهى : العقول . الذمم : العهود .

٧ ذان : مثنى ذا ، اسم إشارة للعيب والنقصان . يقول : العيب والنقصان بعيدان عن شرفي بعد الشيب والهرم عن الثريا .

٨ الغمام : السحاب . الديم : الأمطار التي تدوم أياماً ؛ أراد بالغمام سيف الدولة ، وبالصواعق غضبه وأذاه ، وبالديم عطاياه . يقول : ليت سيف الدولة يزيل أذيته عني ويحيلها إلى الذين ينتفعون من عطاياه .

أرَى النّوَى يَقتَضِيني كلَّ مَرحَلَةٍ ، لا تَستَقِلُّ بها الوَخّادَةُ الرُّسُمُ[1]

لَئِنْ تَرَكنَ ضُمَيراً عَن مَيامِنِنا ، لَيَحدُثَنّ ، لِمَنْ ودّعتُهُم ، نَدَمُ[2]

إذا تَرَحّلتَ عن قَومٍ ، وقد قَدَرُوا أنْ لا تُفارِقَهُمْ ، فالرّاحِلونَ هُمُ

شَرُّ البلادِ مَكانٌ لا صَديقَ بهِ ، وشَرُّ ما يَكسِبُ الإنسانُ ما يَصِمُ[3]

وشَرُّ ما قَنَصَتهُ راحتي قَنَصٌ ، شُهبُ البُزاةِ سَواءٌ فيهِ والرَّخَمُ[4]

بأيّ لَفظٍ تَقُولُ الشّعرَ زِعنِفَةٌ ، تَجوزُ عندكَ ، لا عُربٌ ولا عَجَمُ؟[5]

هذا عِتابُكَ ، إلاّ أنّهُ مِقَةٌ ، قَد ضُمّنَ الدُّرّ ، إلاّ أنّهُ كَلِمُ[6]

....

١ النوى : البعد . يقتضيني : يطالبني ، وعداه إلى اثنين على تضمينه معنى يكلفني . الوخادة : الإبل السريعة السير . الرسم : جمع رسوم وهي الناقة التي تؤثر في الأرض بأخفافها . يقول : أرى البعد عنكم يكلفني أن أقطع كل مرحلة شاسعة ، لا تقوم بقطعها الإبل السريعة الشديدة .

٢ تركن : الضمير للوخادة الرسم . ضمير : جبل عن يمين الراحل من سورية إلى مصر ، أو قرية قريبة من دمشق . والمعنى : لئن رحلت إلى مصر ليندمن سيف الدولة .

٣ يصم : يعيب .

٤ الشهب : جمع أشهب وهو ما فيه بياض يصدعه سواد . الرخم : طائر ضعيف أبقع يشبه النسر في الخلقة ، يختار لبيضه أطراف الجبال الشاهقة ، وشقوق الصخور ، ليعسر الوصول إليه ؛ وأراد بالرخم : ضعاف الشعراء الذين صاروا مساوين له عند سيف الدولة ، وشبه نفسه بالباز الأشهب بالنسبة إليهم ، وأراد بالقنص عطايا سيف الدولة .

٥ الزعنفة : الجماعة من الأوباش .

٦ المقة : المحبة . أنه كلم : ضمير أنه راجع إلى الدر ؛ والمراد : عتاب محبة ضمن درر الكلام

الشكوى

. وصف الحمى

من قصيدة يصف بها الحمى التي أصابته في مصر ويعرض بالرحيل عن مصر سنة ٩٥٩ م (٣٤٨ ﻫ)

وَزائرَتي كأنّ بها حَيَاءً   فلَيسَ تَزورُ إلاّ في الظّلامِ[١]

بذَلتُ لها المَطارِفَ والحَشايا   فَعافتها وباتَتْ في عِظامي[٢]

يَضيقُ الجِلدُ عَن نَفسي وعَنها   فتُوسِعُهُ بأنواعِ السّقامِ

كأنّ الصّبحَ يَطرُدُها فتَجري   مَدامِعُها بأربَعَةٍ سِجامِ[٣]

أُراقبُ وَقتَها مِنْ غيرِ شَوقٍ   مُراقَبَةَ المَشوقِ المُستَهامِ[٤]

ويَصدُقُ وعدُها والصّدقُ شرٌّ   إذا ألقاكَ في الكُرَبِ العِظامِ

أبِنْتَ الدّهرِ عندي كلُّ بِنتٍ   فكيفَ وَصَلتِ أنتِ من الزّحامِ[٥]

جَرَحتِ مُجَرَّحاً لم يَبقَ فيهِ   مَكانٌ للسّيوفِ ولا السّهامِ

ألا يا لَيتَ شِعرَ يَدي أتُمسي   تَصَرَّفُ في عِنانٍ أو زِمامِ[٦]

وهلْ أرمي هَوايَ براقِصاتٍ   مُحَلاّةِ المَقاوِدِ باللُّغامِ[٧]

---

١ وزائرتي : الواو واو رب ، أي وزائرة لي . وأراد بالزائرة الحمى لأنها كانت تأتيه ليلا وتفارقه في الصباح .

٢ المطارف ، جمع مطرف : رداء من خز . الحشايا ، جمع حشية : الفراش المحشو . عافتها : أبتها .

٣ سجام : منسكبة بأربعة : أي بأربعة أدمع ، يعني تبكي من طرفي كل عين لكثرة دمعها .

٤ المراد يفكر فيها منتظراً مجيئها لخوفه منها ، كما يفكر العاشق في محبوبته منتظراً قدومها .

٥ بنت الدهر : الشدة

٦ ليت شعر يدي : أي ليت يدي تشعر . العنان : سير اللجام . الزمام : المقود . يتمنى السفر على الخيل أو على الإبل .

٧ الراقصات : الإبل التي تخب في سيرها . اللغام : الزبد على فم البعير . يقول : هل أطلب ما أهواه من الأمور براقصات تحلت مقاودها بالزبد الذي على أفواهها .

فرُبَّتَما شَفَيتُ غَليلَ صَدري | بسَيرٍ أو قَناةٍ أو حُسامِ[1]
وضاقَتْ خُطّةٌ فخلَصتَ منها | خَلاصَ الخمرِ من نَسجِ الفِدامِ[2]
وفارَقتُ الحَبيبَ بلا وَداعٍ ، | ووَدّعتُ البِلادَ بلا سَلامِ[3]
يَقولُ ليَ الطّبيبُ أكَلتَ شَيئاً ، | وداؤكَ في شَرابِكَ والطّعامِ
وما في طِبّهِ أنّي جَوادٌ ، | أضَرَّ بجِسمِهِ طُولُ الجَمامِ[4]
- تَعَوّدَ أن يُغَبِّرَ في السّرايا ، | ويَدخُلَ مِن قَتامٍ في قَتامِ[5]
فأُمسِكَ لا يُطالُ لَهُ فيَرعَى ، | ولا هوَ في العَليقِ ولا اللّجامِ[6]
- فإن أمرَضْ فما مَرِضَ اصطباري ، | وإنْ أُحمَمْ فما حُمَّ اعتزامي[7]
وإنْ أسلَمْ فَما أبقَى ، ولكنْ | سَلِمتُ منَ الحِمامِ إلى الحِمامِ[8]
- تَمَتّعْ مِن سُهادٍ أو رُقادٍ (النوم) | ولا تأمُلْ كَرًى تحتَ الرِّجامِ[9]
- فإنّ لثالثِ الحالَينِ مَعنًى | سوى معنى انتباهِكَ والمَنامِ[10]

1 ربتما مثل ربما دخلت عليها التاء .
2 الخطة : الأمر . الفدام : ما يجعل على فم الإبريق ، لتصفية الخمر .
3 بلا وداع : أي بعجلة . بلا سلام : لأنه لم يرجع إليها .
4 الجمام : الراحة .
5 السرايا : جمع سرية ، وهي القطعة من الجيش . القتام : الغبار .
6 لا يطال : لا يرخى له الحبل ، وهو الحبل الذي تشد به قائمة الدابة ، ويكون طويلاً لترعى . في العليق : أي لا يقرب له العليق . في اللجام : أي لا يوضع له اللجام للسفر .
7 أحمم : أصاب بالحمى .
8 سلمت من الحمام إلى الحمام : أي لا بد من الموت .
9 السهاد : السهر . الكرى : النعاس، وقد يراد به النوم . الرجام : حجارة توضع فوق القبور واحدتها رجمة .
10 ثالث الحالين : الموت ، وحاله غير حال السهر وحال النوم .

ابو فراس

الروميات

طلب الفداء

ذكر ابن خالويه أن ابن أخت ملك الروم خرج في ألف فارس إلى نواحي منبج ، فصادف الأمير أبا فراس يتصيد ومعه سبعون فارساً ، فأراده أصحابه على الهزيمة ، فأبى وثبت ، حتى أثخن بالجراح وأسر . وكان أخو القائد البزنطي في أسر سيف الدولة ، منذ واقعة الحدث ، فطلب هذا من أبي فراس أن يدفع فداءه ، أو أن يسعى في إخراج أخيه . فكتب بهذه القصيدة إلى سيف الدولة ، أول ما أسر ، يسأله المفاداة . واختلف المؤرخون في سنة أسره ، فقيل إنها سنة ٣٤٨ ه (٩٥٩ م) وقيل سنة ٣٥١ ه(٩٦٢م) :

دَعَوتُكَ للجَفنِ القَريحِ المُسَهَّدِ لَدَيّ ، وللنَّومِ القَليلِ المُشَرَّدِ[١]

وما ذاكَ بُخلاً بالحَياةِ ؛ وإنّها لأوّلُ مَبذولٍ لأوّلِ مُجتَدِ[٢]

وما الأسرُ مِمّا ضِقتُ ذَرعاً بحَملِه ، وما الخَطبُ ممّا أنْ أقولَ لهُ : قَدِ![٣]

وما زَلّ عَنّي أنّ شَخصاً مُعَرَّضاً لنَبلِ العِدى ؛ إن لم يُصَبْ ، فكأنْ قَدِ[٤]

---

١ الجفن : لام السبب ، أي من أجل الجفن . المسهد : الذي حمل على السهر .
٢ لأول مبذول : أي أول شيء أبذله . مجتد : طالب .
٣ ضقت ذرعاً : أي ضقت صدراً . وذرعاً تمييز . قد : تكون اسماً بمعنى حسب ، وترفع على الابتداء ، تقول : قد زيد درهم . وتكون اسم فعل بمعنى يكفي أو كفى ، ويقع الاسم بعدها منصوباً على المفعولية نحو : قد زيداً درهم ، أي يكفيه ، وتدخل عليها عندئذ نون الوقاية ، فتقول : قدني درهم ، أي يكفيني . فقول الشاعر هنا قد ، أي قدك : حسبك أو كفاك ، فحذف كاف الخطاب ، وحرك الدال بالكسر للقافية .
٤ ما زل عني : أي ما غاب عني أو ما ذهب عني . فكأن . مخفف كأنّ . وقوله فكأن قد : أي فكأنه قد أصيب ، فحذف على الاكتفاء بمدلول الفعل السابق .

وَلَسْتُ أُبالي أنْ ظَفِرْتُ بمَطلَبٍ يَكونُ رَخيصاً ؛ أو بوَسْمٍ مُزَوَّدِ[1]

ولكنّني أختارُ مَوتَ بَني أبي ، على صَهَواتِ الخَيلِ ، غَيرَ مُوَسَّدِ[2]

وتأبَى ، وآبَى أنْ أموتَ مُوَسَّداً ، بأيدي النّصارَى ، موتَ أكمَدَ أكبَدِ[3]

نَضَوتُ على الأيّامِ ثَوبَ جَلادَتي ؛ ولكِنّني لم أنضُ ثَوبَ التّجَلّدِ[4]

وما أنا إلاّ بَينَ أمرٍ ، وضِدّهِ يُجَدّدُ لي ، في كلّ يومٍ ، مُجَدّدِ :[5]

فمِن حُسنِ صَبرٍ ، بالسّلامةِ واعدي ؛ ومن رَيبِ دَهرٍ ، بالرّدى مُتَوَعّدي[6]

أُقَلّبُ طَرفي بينَ خِلٍّ مُكَبَّلٍ ، وبينَ صَفِيٍّ ، بالحَديدِ مُصَفَّدِ[7]

دَعَوتُكَ ، والأبوابُ تُرتَجُ دونَنا ؛ فكُنْ خَيرَ مَدعوٍّ ، وأكرَمَ مُنجِدِ[8]

فمِثلُكَ مَن يُدعَى لكُلّ عَظيمَةٍ ؛ ومِثْلِيَ مَن يُفدَى بكُلّ مُسَوَّدِ ![9]

* * *

١ أن ظفرت : أي أني ظفرت . يكون رخيصاً : الجملة نعت مطلب . الوسم : العلامة ؛ وأراد به وسم الجرح الذي بوجهه من طعنة رمح أصابته . يقال من المجاز : زوده طعنة ، وزوده وسماً فاضحاً بين عينيه أي علامة أو أثر كي .

٢ بني أبي : أي بني عمي . صهوات : جمع صهوة وهي مقعد الفارس من ظهر الفرس . ورويت سروات : جمع سروة وهي الظهر . غير موسد : أي غير نائم على السرير ، والمراد أنه لا يريد أن يموت حتف أنفه .

٣ وتأبى : الخطاب لسيف الدولة . الأكمد : المتغير اللون . الأكبد : المريض المصاب بكبده . والمراد أنه لا يريد أن يموت موسداً موت المريض المتغير اللون المقروح الكبد .

٤ نضوت : خلعت . الجلادة : الشدة والقوة . التجلد : التصبر . والمعنى أنه أعطى الدهر قوته لكثرة ما بذل منها في مواقف القتال ، فاشتد الدهر عليه ، وحاربه بها ، ولكنه لم يبذل ما عنده من الصبر على الشدائد .

٥ مجدد : نعت أمر متأخر . ووجه الكلام : بين أمر مجدد ، وضده يجدد لي .

٦ ريب الدهر : أحداثه وصروفه . متوعدي : مهددي .

٧ مكبل : محبوس مقيد . الصفي : الصديق المحبوب المصافي . المصفد : الموثق بالحديد وغيره .

٨ ترتج : تغلق .

٩ المسود : من جعلت له السيادة .

متى تُخلِفُ الأيّامُ مِثلي ، لكُم ، فتًى ... طَويلَ نِجادِ السّيفِ ، رَحبَ المُقَلَّدِ ؟[1]

متى تَلِدُ الأيّامُ مِثلي ، لَكُمْ ، فتًى ... شَديداً على البأساءِ ، غَيرَ مُلَهَّدِ ؟[2]

فإنْ تَفتَدوني ، تَفتَدوا شرَفَ العُلى ، ... وأسرَعَ عَوّادٍ إلَيها مُعَوَّدِ[3]

وإنْ تَفتَدوني ، تَفتَدوا ، لعُلاكُمُ ، ... فتًى غيرَ مَردودِ اللّسانِ ولا اليَدِ

يُدافِعُ ، عن أعراضِكُمْ ، بِلِسانِهِ ، ... ويَضرِبُ ، عَنكُمْ ، بالحُسامِ المُهَنّدِ

وما كلّ وَقّافٍ لهُ مِثلُ مَوقِفي ، ... ولا كلّ وَرّادٍ لهُ مثلُ مَوردِي[4]

فَما كلّ مَنْ شاءَ المَعالي يَنالُها ، ... ولا كلّ سَيّارٍ إلى المَجدِ ، يَهتَدي

أقِلْني ! أقِلْني عَثْرَةَ الدّهرِ ، إنّهُ ... رَماني بسَهمٍ صائبِ النّصلِ مُقصِدِ[5]

ولو لم تَنَلْ نَفسي وَلاءَكَ ، لم أكُنْ ... لأُورِدَها ، في نَصرِهِ ، كلّ مَورِدِ[6]

ولا كنتُ ألقَى الألفَ ، زُرْقاً عُيونُها ، ... بسَبعِينَ ، فيهِمْ كلّ أشأمَ أنكَدِ[7]

فلا ، وأبي ، ما ساعِدانِ كَساعِدٍ ! ... ولا ، وأبي ، ما سَيّدانِ كَسَيّدِ ![8]

---

١ النجاد : حمائل السيف . وطويل النجاد : كناية عن طول القامة . المقلد : موضع نجاد السيف على المنكبين . ورحب المقلد : كناية عن سعة ما بين المنكبين .

٢ البأساء : الداهية والشدة . الملهد : الذليل الضعيف ، يقال : لهده ، بتخفيف الهاء وتشديدها : ضربه ليذله .

٣ عواد : عائد للمبالغة وهو الزائر ، والذي يأتي الشيء مرة بعد مرة . إليها : الضمير للعلى . معود : نعت عواد .

٤ الوقاف : المحجم عن القتال ، أو المتأني له مثل موقفي : يريد أنه يتأنى إذا رأى التأني حزماً ، ولا يحجم عن القتال جبناً كغيره . ثم يقول : ولا كل من ورد الحرب يبلي فيها بلائي .

٥ أقلني : أمر من أقال عثرته ، أي رفعه من سقوطه . مقصد : اسم فاعل من أقصد السهم ، أصاب المقتل .

٦ الولاء : المحبة والنصرة . في نصره : التفات من المخاطب إلى الغائب ، وهي لغة واردة على قلة ، أو أرجع الضمير إلى الولاء . أوردها كل مورد : أي كل مهلك .

٧ عيونها : فاعل زرقاً . وقوله : زرقاً عيونها : أي أن أصحابها من الروم ، والعرب يتطيرون من العيون الزرق ، ويعيرون العربي بها . أشأم : أفعل ، أي كثير الشؤم . الأنكد : أي الأشأم القليل الخير . وقد نعت أصحابه السبعين بذلك لأنهم أرادوه على الهزيمة .

٨ وأبي : الواو للقسم . الساعدان والسيدان : هو وسيف الدولة ، يريد بذلك أن وجوده في حلب معه أنفع لدولته من أن يكون بعيداً عنه .

ولا ، وأبي ، ما يَفتُقُ الدّهرُ جانباً ، فيَرتُقُهُ ، إلاّ بأمرٍ مُسَدَّدِ[1]
وإنّكَ لَلمَولى الذي بكَ أقتَدي ؛ وإنّكَ لَلنّجمُ الذي بكَ أهتَدي
وأنتَ الذي عرّفتَني طُرُقَ العُلى ؛ وأنتَ الذي أهدَيتَني كُلَّ مَقصَدِي[2]
وأنتَ الذي بَلّغتَني كُلَّ رُتبَةٍ ، مَشَيتُ إلَيها ، فوقَ أعناقِ حُسّدِي
فَيا مُلبِسي النُّعمَى التي جَلّ قَدرُها ، لقَد أخلَقَتْ تلكَ الثّيابُ ، فجَدّدِ

أسير خرشنة

قال يذكر غزواته بخرشنة ، وقد حمل إليها أسيراً جريحاً :

+ إنْ زُرتُ خَرشَنَةً أسيرَا ؛ فلَقَدْ حَلَلْتُ بها مُغِيرَا[3]
+ ولَقَد رأيتُ النّارَ تَنتَهِبُ المَنازِلَ والقُصورَا[4]
ولقَد رأيتُ السّبيَ يُجلَبُ ، نحوَنا ، حُوّاً وحُورَا[5]
+ إنْ طالَ لَيلي في ذَرَاكِ ، لقد نَعِمتُ به قَصيرَا[6]
+ ولَئِنْ لَقيتُ الحُزنَ فيكِ ؛ لقد لَقيتُ بكِ السّرورَا

....

١ يرتقه : ضد يفتقه . يقول : لا يصلح الدهر شيئاً أفسده إلا بأمر موفق للصواب أي بأمر من الله . فسيف الدولة إذا اقتداه وأصلح ما أفسد الدهر فيه ، فإنما هو يفعل بأمر من الله .
٢ أهديتني : يقال أهدى له وإليه : أتحفه بالهدية ، ولا يتعدى بنفسه ؛ ولا يأتي بمعنى أرشده وإنما يقال : هداه الطريق وهداه إليها : أي أرشده إليها . وهي في هذا البيت مستعملة خطأ بمعنى الإرشاد . وتروى : عرفتني كل مقصد .
٣ خرشنة : قلعة ببلاد الروم ، يجري الفرات من تحتها . حللت بها ؛ في رواية : أحطت بها .
٤ يقول : إنه أحرق هذه القلعة في بعض غاراته عليها .
٥ الحو : جمع حواء وهي التي في شفتيها سمرة . الحور : جمع حوراء وهي التي في عينيها حور وهو شدة بياض العين في شدة سوادها مع استدارة الحدقة ورقة الجفون .
٦ ذراك بفتح الذال : جانبك . يقول : إن طال علي الليل في جانبك وأنا أسير محزون ، فلقد مر بي قصيراً ، عندما حللت بك منتصراً مسروراً .

ولَئِنْ رُميتُ بحادِثٍ ؛ فلأُلفيَنّ لَهُ صَبُورَا[1]
صَبراً ! لَعَلّ اللّهَ يَفتَحُ ، بَعدَهُ ، فَتحاً يَسيرَا[2]
مَن كانَ مِثلي ، لم يَبِتْ إلاّ أسيراً أو أميرَا
لَيسَتْ تَحُلّ سَراتُنا إلاّ الصّدورَ أوِ القُبُورَا[3]

الأسير الجريح

من قصيدة كتب بها إلى والدته ، وقد ثقلت عليه الجراح ، وهو أسير :

مُصابي جَليلٌ ، والعَزاءُ جَميلُ ، وظَنّي بأنّ اللّهَ سَوفَ يُديلُ[4]
جِراحٌ ، وأسرٌ ، واشتياقٌ ، وغُربَةٌ أُحَمَّلُ ؟ إنّني ، بَعدَها ، لحَمُولُ[5]
وإنّيَ ، في هذا الصّباحِ ، لَصالِحٌ ؛ ولَكِنّ خَطبي ، في الظّلامِ ، جَليلُ
وما نالَ منّي الأسرُ ما تَرَيانِهِ ؛ ولكِنّني دامي الجِراحِ ، عَليلُ[6]
جِراحٌ ، تَحاماها الأُساةُ (الأطباء) ، مَخوفَةٌ ، وسُقمانِ : بادٍ ، مِنهُما ، ودَخيلُ[7]
وأسرٌ أُقاسيهِ ، ولَيلٌ نجُومُهُ أرى كلّ شيءٍ ، غَيرَهنّ ، يَزُولُ
تَطولُ بيَ السّاعاتُ ، وهيَ قَصيرَةٌ ، وفي كلّ دَهرٍ ، لا يَسرُّكَ ، طُولُ[8]

. . . . .

١ لألفين : لأوجدن .
٢ بعده : الضمير للحادث ، وتروى : « هذه » والإشارة إلى خرشنة .
٣ سراتنا : أشرافنا . الصدور : أي صدور المجالس .
٤ يديل : أي يديل هذه الحال : يغيرها ويجعلها متداولة بين الناس .
٥ جراح : أي أجراح على حذف حرف الاستفهام . حمول : أي صبور شديد الاحتمال .
٦ تريانه : خطاب للصاحبين على طريقة العرب . يقول : ليس ضعفه وألمه من تأثير الأسر فيه ، ولكن من المرض والجراح الدامية .
٧ تحاماها : تجنبها . مخوفة : نعت جراح ، أي يخاف منها ؛ وتروى مخافة : مفعول لأجله ، أي تجنبها الأطباء لمخافتها . باد ودخيل : يريد بهما سقمي الجسد والنفس .
٨ طول : مبتدأ مؤخر .

تَناسانيَ الأصحابُ ، إلاّ عِصابَةً ، ستَلحَقُ بالأخرى ، غداً ، وتَحول[1]

ومَن ذا الذي يَبقى على العَهدِ؟إنّهمْ ، وإنْ كثُرَتْ دَعواهُمُ ، لقَليلُ[2]

أُقلّبُ طَرْفي لا أرَى غَيرَ صاحِبٍ يَميلُ معَ النّعماءِ ، حَيثُ تَميلُ[3]

وصِرنا نَرَى أنّ المُتارِكَ مُحسِنٌ ، وأنّ صَديقاً ، لا يَضُرّ ، خَليلُ[4]

* * *

فَيا حَسرَتي! مَن لي بخِلٍّ مُوافِقٍ؟ أقُولُ بشَجوِي ، مَرّةً ، ويَقُولُ[5]

وإنّ وراءَ السِّترِ أُمّاً ، بُكاؤها عَليّ ، وإنْ طالَ الزّمانُ ، طَويلُ

فَيا أُمّتا ، لا تَعدَمي الصّبرَ ، إنّهُ إلى الخَيرِ والنُّجحِ القَريبِ ، رَسُولُ!

ويا أُمّتا ، لا تُخطِئي الأجرَ ، إنّهُ على قَدَرِ الصّبرِ الجَميلِ ، جَزيلُ![6]

ويا أُمّتا ، صَبراً ؛ فكُلُّ مُلِمّةٍ تَجَلّى ، على عِلاّتِها ، وتَزُولُ![7]

لولا العجوز

كتب بهذه الأبيات إلى والدته في منبج ، وهو مأسور ، يوصيها بالصبر :

لَولا العَجوزُ بمَنبِجٍ ، ما خِفتُ أسبابَ المَنِيّه[8]

....

١ تحول : تتغير .

٢ إنهم : الضمير للأصحاب . قليل : خبر إن . يقول : إن كثر ادعاء الأصحاب أنهم يحافظون على العهد ، فعدد الأوفياء منهم قليل .

٣ النعماء : النعمة . والمراد : تكون صداقته حيث تكون النعمة .

٤ المتارك : أي الذي يترك صنع القبيح ، ولا يسيء إلى غيره . قال الثعالبي تعليقاً على هذا البيت كأنه مأخوذ من قول المتنبي :

إنا لفي زمن ، ترك القبيح به ، من أكثر الناس ، إنعام وإفضال

٥ من لي بخل : أي من يكفل لي بخل . شجوي : حزني . ويقول : أي ويقول هو بشجوي ، والمعنى يشاركني في حزني .

٦ لا تخطئي الأجر : أي لا تدعيه يفوتك . على قدر : على مقدار . جزيل : كثير .

٧ الملمة : النازلة من نوازل الدهر . تجلى : تتجلى ، على حذف إحدى التائين . على علاتها : أي على كل حال منها .

٨ منبج : بلدة بين حلب والفرات .

ولَـكانَ لي ، عَمّا سألْـ تُ منَ الفِـدا ، نفسٌ أبيّهْ

لكِـنْ أرَدتُ مُرادَها ، ولَوِ انجَذَبتُ إلى الدّنِيّهْ

وأرى مُحـاماتي عَلَيْـها ، أن تُضامَ ، منَ الحميّهْ[1]

أمسَتْ بمَنبِـجَ حُرّةٌ بالحزنِ ، من بعدي ، حرِيّهْ[2]

لو كانَ يُدفَعُ حادِثٌ ، أو طارِقٌ ، بجَميلِ نيّهْ

لم تَطّرِقْ نُوَبُ الحَوا دثِ أرضَ هاتيكَ التّقيّهْ[3]

لكِنْ قَضاءُ اللهِ والـ أحكامُ تَنفُذُ في البريّهْ

والصّبرُ يأتي كلَّ ذي رُزْءٍ على قَـدْرِ الرّزِيّهْ[4]

لا زالَ يَطرُقُ مَنبِجاً ، في كلّ غاديَةٍ ، تحيّهْ[5]

فيها التّقَى والدّينُ مَجْـموعانِ في نَفسٍ زَكيّهْ[6]

يا أُمّتَا ، لا تَحزَني ، وثِقي بفَضلِ اللهِ فِيّهْ ![7]

يا أُمّتَا ، لا تَيأسي ، للهِ ألطافٌ خَفِيّهْ ![8]

كَمْ حادِثٍ عَنّا جَلا هُ ، وكم كفانا من بَليّهْ ![9]

أُوصيكِ بالصّبرِ الجَميـلِ ، فإنّهُ خَيرُ الوَصيّهْ !

....

١ يقول : إنه إذا انجذب إلى الدنية وطلب الفداء ، فلكي يدفع الضيم عن والدته ، وهو يرى في دفع هذا الضيم حمية منه أي أنفة .

٢ حرية : جديرة .

٣ تطرق : أخذه بمعنى تطرق . يقول : لو كانت الحوادث تدفع بحسن النية ، لما طرقت أرض هذه المرأة التقية الحسنة النية .

٤ الرزء : المصاب . الرزية : المصيبة . يقول : إن الصبر يكون على قدر المصيبة .

٥ الغادية : السحابة في الغدو . تحية : أي تحية من المطر .

٦ فيها : الضمير لمنبج . الزكية : الطاهرة المباركة .

٧ فيه : الهاء هاء الاستراحة .

٨ الألطاف : جمع اللطف وهو من الله التوفيق والعصمة .

٩ جلاه : كشفه .

يا حسرة !

قال الثعالبي : بلغ أبا فراس أن والدته قصدت حضرة سيف الدولة من منبج تكلمه في المفاداة ، وتتضرع إليه ؛ فلم يكن عنده ما رجت من حسن الإيجاب . وقال ابن خالويه : ووافق ذلك أن البطارقة قيدوا بحلب ، فقيد أبو فراس بخرشنة . ورأت الأمر قد عظم ، فاعتلت من الحسرة ، فبلغ ذلك أبا فراس ، فكتب إلى سيف الدولة بهذا :

- يا حَسرَةً ، ما أكادُ أحمِلُها ! آخِرُها مُزعِجٌ ، وأوّلُها !
- عَليلَةٌ بالشّآمِ مُفرَدَةٌ ، باتَ ، بأيدي العِدى ، مُعَلِّلُها[1]
- تُمسِكُ أحشاءَها على حُرَقٍ ، تُطفِئُها ، والهُمومُ تُشعِلُها[2]
- إذا اطمَأنّتْ ، وأينَ ؟ أو هدأتْ ، عَنّتْ لها ذُكرَةٌ تُقَلقِلُها[3]
- تَسألُ عَنّا الرُّكبانَ ، جاهِدَةً بأدمُعٍ ما تَكادُ تُمهِلُها :[4]
- « يا مَن رأى لي ، بحِصنِ خَرشَنَةٍ ، أسدَ شرًى ، في القُيودِ أرجُلُها ؟ ! »[5]
- « يا مَن رأى لي الدّروبَ شامِخَةً ، دونَ لِقاءِ الحَبيبِ أطوَلُها ؟ ! »[6]
- « يا مَن رأى لي القُيودَ مُوثَقَةً ، على حَبيبِ الفُؤادِ أثقَلُها ؟ ! »[7]
- : يا أيّها الرّاكبانِ ، هلْ لَكُما في حَمَلِ نجوى ، يَخِفُّ مَحمَلُها ؟[8]
- قُولا لها ، إنْ وَعَتْ مَقالَكُما ، وإنّ ذِكري لها لَيُذهِلُها :[9]

---

١ عليلة : المراد بها أمه . معللها : أي مسليها .

٢ الحرق : جمع حرقة بالفتح والضم . تطفئها : أي تحاول إطفاءها بالصبر والطمأنينة .

٣ وأين : أي وأين اطمئنانها . عنت : ظهرت أمامها . الذكرة : الذكر ؛ ورويت فكرة .

٤ الركبان : المسافرون . جاهدة : ملحة عليهم في السؤال . بأدمع : الجار متعلق بجاهدة .

٥ الشرى : مأسدة يضرب بها المثل ؛ وقوله أسد شرى : أي أبو فراس ومن معه في الأسر .

٦ الدروب : مداخل بلاد الروم من جبال طورس .

٧ موثقة : محكمة .

٨ هل لكما : أي هل لكما رغبة .

٩ وعت : حفظت . يذهلها : ينسيها . والمعنى : إذا ذكر أبو فراس لها أصابها ذهول ، وأصبحت لا تعي ما يقال لها .

- «يا أمّتا ، هـذه منازلُنا ، نتركُها تارةً ، وننزلُها !»
- «يا أمّتا ، هـذه مواردُنا ، نُعلُّهـا تارةً ، ونُنْهلُها»[1]
«أسلمنا قومُنا إلى نُوَبٍ ، أيسرُها في القلوبِ أقتلُها»
«واستبدلوا بعدنا، رجالَ وَغىً، يَوَدّ أدنى عُلايَ أمثلُها»[2]
يا سيّداً ، ما تُعَدّ مكْرُمَةٌ ، إلاّ وفي راحتيهِ أكملُها[3]
ليستْ تنالُ القيودُ من قدَمي، وفي اتّباعي رضاكَ ، أحملُها[4]
لا تتيمّمْ ، والماءُ تُدرِكُهُ ؛ غيرُكَ يرضَى الصّغرَى ويقبلُها[5]
إنّ بني العمّ لستَ تخلُفُهُمْ ؛ إنْ عادتِ الأُسدُ ، عادَ أشبُلُها[6]
- أنتَ سَماءٌ ، ونحنُ أنجُمُها ؛ أنتَ بلادٌ ، ونحنُ أجبُلُها

١ نعلها : نسقاها مرة بعد مرة ؛ تقول : عله وأعله : سقاه عللا ؛ ويقال عل من الماء : شرب مرة بعد مرة ، ولا يتعدى بنفسه . ننهلها : نسقاها السقية الأولى ؛ تقول : أنهله : سقاه نهلا ؛ ويقال نهل من الماء : شرب أول الشرب ، ولا يتعدى بنفسه ؛ ومن ذلك قولهم : سقاه عللا بعد نهل . والمراد بهذا البيت والبيت السابق تقلب أحوال الدنيا بين شدة ورخاء ؛ وكأنه نظر إلى قول البحتري :

وبعيد ما بين وارد رفه ، علل شربه ؛ ووارد خمس

٢ أمثلها : أفضلها . فاعل يود . يقول : إن هؤلاء الرجال الذين استبدلوهم بعدنا للحرب ، يتمنى أفضلهم أن يكون له أدنى علاي .

٣ راحتيه : باطن كفيه .

٤ يقال نال منه : أصابه بأذى أو مضرة .

٥ تيمم المسلم : مسح وجهه ويديه بالتراب ليصلّي إذا لم يجد ماء يتوضأ به ، أما إذا كان الماء موجوداً فيبطل التيمم ؛ والمعنى هنا على المجاز . يقول : لا تستبدل بعدنا رجالا للحرب كهؤلاء ، فهم كالتيمم عند امتناع الماء ، وأنت بوسعك أن تجد الماء ، أي أن تفتدينا ، فنغنيك عن هؤلاء الضعاف ، وإن غيرك يرضى الخطة الصغرى ويقبلها .

٦ تخلفهم : تكون خلفاً لهم أو تبقى بعدهم . على أن المعنى يقضي بأن تكون تخلفهم هنا بمعنى تجعل لهم خلفاً أي بدلا . الأسد : أي الأسرى في بلاد الروم . أشبلها : أي أشجعها ، وأراد بذلك نفسه . ولعلها : إن عدت الأسد عد أشبلها . وقد وردت عدت في بعض الروايات ؛ فيكون المعنى : لا تستطيع أن تخلف بني عمك أي أن تبقى وحدك بعدهم ؛ فإنك وإن كنت أسداً فهم أشبالك ، ولا تعد الأسود إلا عدت معها أشبالها ؛ وأشبُل : جمع شبل .

أنتَ سَحابٌ ، ونحنُ وابِلُهُ ؛ أنتَ يَمينٌ ، ونحنُ أنمُلُهَا[1]

بأيّ عُـذرٍ رَدَدتَ والِهَةً ، علَيكَ ، دونَ الوَرى ، مُعَوَّلُهَا ![2]

جاءَتكَ تَمتاحُ رَدَّ واحِدِها ؛ يَنتَظِرُ النّاسُ كيفَ تُقفِلُهَا[3]

سَمَحتُ منّي بمُهجَةٍ كَرُمَتْ ، أنتَ ، على يأسِها ، مُؤمَّلُهَا[4]

إنْ كُنتَ لم تَبذُلِ الفِداءَ لها ، فلَمْ أزَلْ ، في رِضاكَ ، أبذُلُهَا[5]

تِلكَ المَوَدّاتُ ، كيفَ تُهمِلُها ؟ تلكَ المَواعيدُ ، كيفَ تُغفِلُهَا ؟!

تلكَ العُقودُ التي عَقَدتَ لَنا ، كيفَ ، وقد أُحكِمتْ ، تُحَلّلُهَا[6]

أرحامُنا منكَ ، لِمْ تُقَطّعُها ؟ ولم تَزَلْ ، دائباً ، تُوَصِّلُهَا ![7]

أينَ المَعالي التي عُرِفتَ بها ، تَقُولُها ، دائماً ، وتَفعَلُهَا ؟

يا واسعَ الدّارِ ، كيفَ تُوسِعُها ؟ ونحنُ في صَخرَةٍ نُزَلزِلُهَا ![8]

يا ناعِمَ الثّوبِ ، كيفَ تُبدِلُهُ ؟ ثِيابُنا الصّوفُ ما نُبَدّلُهَا !

يا راكِبَ الخَيلِ ، او بَصُرتَ بنا ، نَحمِلُ أقيادَنا ، ونَنقُلُهَا ![9]

---

١ الوابل : المطر . الأنمل : الأصابع .

٢ الوالهة : الشديدة الحزن ، ويريد بها والدته . المعول : الاتكال .

٣ تمتاح : أي تسأل . تقفلها : ترجعها .

٤ يقول : سمحت بنفسي الكريمة ، فبذلتها للاعداء في سبيلك ، وأنت موضع أملها مع ما هي عليه من اليأس .

٥ في رضاك : أي لأجل رضاك .

٦ العقود : جمع العقد وهو العهد المعقود ، والضمان . عقدت : أي عقدتها . أحكمت : أي أتقن عقدها . تحللها يقال حل العقد: نقضه ، ولا يقال حلله . ويظهر أنه أخذ العقد هنا بمعنى اليمين المعقودة . يقال حلل يمينه :أي تحلل منها ؛ وذلك كما لو حلف الإنسان على الشيء أن يفعله ، فيفعل منه اليسير يحلل به يمينه .

٧ لم : لمَ ، سكنت للشعر ضرورة . دائباً : حال ، أي عاملا جاداً .

٨ في صخرة : أي مع صخرة . والمعنى أنهم يشغلون بقلع الحجارة ؛ أو أن في بمعنى إلى ؛ فيكون المراد أنهم مشدودون بالحبال إلى صخرة ، فلا يطيقون مشياً إلا إذا زلزلوا هذه الصخرة ، وجروها وراءهم ،

٩ الأقياد : جمع القيد كالقيود .

رأيتَ ، في الضّرّ ، أوجُهاً كَرُمَتْ ، فارَقَ ، فيكَ ، الجَمالَ أجمَلُهَا[1]

قد أثّرَ الدّهرُ في مَحاسِنِها ، تَعرِفُها ، تارَةً ، وتَجهَلُهَا

فلا تَكِلنا ، فيها ، إلى أحَدٍ ، مُعِلُّهـا ، مُحسِناً ، يُعَلّلُهَا[2]

لا يَفتَحُ النّاسُ بابَ مَكرُمَةٍ ، صاحِبُها المُستَغاثُ يُقفِلُهَا[3]

أيَنبَري ، دونَكَ ، الأنامُ لها ؟ وأنتَ قَمقامُها ، ومَعقِلُهَا ![4]

وأنتَ ، إنْ عَنّ حادِثٌ جَلَلٌ ، قُلَّبُها المُرتَجَى وحُوَّلُهَا ![5]

منكَ تَرَدّى بالفَضلِ أفضَلُها ، منكَ أفـادَ النّوالَ أنوَلُهَا[6]

فإنْ سَألنا سِواكَ عارِفَةً ، فبَعدَ قَطعِ الرّجاءِ ، نَسألُهَا[7]

إذا رأينا أولى الكِرامِ بهـا ، يُضيعُها ، جاهِداً ، ويُهمِلُهَا ![8]

لم يَبقَ ، في الأرضِ ، أمّةٌ عُرِفَتْ ، إلاّ وفَضلُ الأميرِ يَشمَلُهَا

نحنُ أحَقُّ الوَرَى برأفَتِـهِ ، فأينَ عَنّا ، وأينَ مَعدِلُهَا ؟[9]

---

١ رأيت : جواب لو بصرت بنا . فيك : أي لأجلك .

٢ فلا تكلنا : أي فلا تسلمنا ؛ يقال وكل إليه الأمر : سلمه إياه وتركه . فيها : أي معها ، والضمير يعود إلى أوجه الأسرى . معلها : ممرضها ، والمراد به سيف الدولة ، يقال أعله : أمرضه . محسناً : حال . يعللها : أي يسليها ويطمعها في النجاة ، في حال إحسانه إليها بالفداء . ورويت : محسن على الخبرية ، فيكون المعنى : أن سيف الدولة الذي أمرضها رجل محسن ، ولكنه يعللها بالمواعيد ، ولا يحسن إليها بالفداء .

٣ يقفلها : أعاد الضمير إلى المكرمة لا إلى الباب . والمراد بصاحبها المستغاث : سيف الدولة .

٤ ينبري له : يعترض له . القمقام : السيد . المعقل : الملجأ . يقول : كيف يعرض الأنام دونك لفتح مكرمة ، وأنت سيد الأنام وملجأها .

٥ عن : ظهر . جلل : عظيم . قلبها وحولها : الضمير فيهما للأنام ؛ يقال رجل قلب حول ، أو حول قلب : أي بصير بتقليب الأمور حكيم في تصريفها .

٦ تردى : لبس . أفضلها : الضمير للأنام . أفاد : استفاد . النوال : العطاء . أنولها : أكثرها عطاء .

٧ العارفة : المعروف . قطع الرجاء : أي قطع الرجاء منك . نسألها : الضمير للعارفة .

٨ أولى الكرام : أي سيف الدولة . بها : الضمير للعارفة . جاهداً : جاداً مجتهداً .

٩ الورى : الخلق . فأين عنا : أي فأين ذهبت عنا . معدلها : مصرفها ومحيدها .

يا مُنفِقَ المالِ ، لا يُريدُ بهِ إلاّ المَعالي التي يُؤثِّلُها[1]
أصبحتَ تَشري مَكارِماً فُضُلاً ، فِداؤنا ، قد علِمتَ ، أفضَلُها ![2]
لا يَقبَلُ اللهُ ، قبلَ فَرضِكَ ذا ، نافِلَةً عندَهُ تُنَفِّلُها ![3]

فخر الفارس الأسير

وقال يفتخر ، وقد بلغه أن الروم قالت : ما أسرنا أحداً لم نسلب ثيابه وسلاحه غير أبي فراس :

أراكَ عَصِيَّ الدّمعِ ، شيمَتُكَ الصّبرُ ، أمَا للهَوى نَهيٌ عَلَيكَ ولا أمرُ ؟
بَلى ، أنا مُشتاقٌ ، وعنديَ لَوعَةٌ ، ولكنّ مثلي لا يُذاعُ لهُ سِرّ !
إذا اللّيلُ أضواني بَسَطتُ يَدَ الهَوَى ، وأذلَلتُ دَمعاً ،منْ خَلائِقِهِ الكِبرُ[4]
تَكادُ تُضيءُ النّارُ ، بَينَ جَوانحي ، إذا هيَ أذكَتها الصّبابَةُ والفِكرُ[5]
مُعَلِّلَتي بالوَصلِ ، والموتُ دونَهُ ، إذا متُّ ظَمآناً ، فلا نَزَلَ القَطرُ ![6]
بَدَوتُ ، وأهلي حاضرونَ ؛ لأنّني أرى أنّ داراً، لَستِ من أهلِها،قَفرُ[7]
وحارَبتُ قَومي ؛ في هَواكِ ، وإنّهُمْ وإيّايَ ، لَولا حُبُّكِ ، الماءُ والخَمرُ[8]

. . .

١ يؤثلها : يؤصلها ويعظمها .
٢ فضلا : زيادة ، بضم الضاد وسكونها ؛ قال بعضهم : والسكون أكثر وأصوب . وهي مصدر بمعنى الفضلة والزيادة .
٣ فرضك ذا : أي الفداء ، جعله فرضاً على سيف الدولة . النافلة : ما زاد عن الفرض ؛ وهي في العبادات والمكارم ما يستحسن عمله ، ولكنه ليس بفرض واجب . تنفلها : تزيدها .
٤ أضواني : أضعفني .
٥ الجوانح : أوائل الضلوع تحت الترائب . أذكتها : أشعلتها . الصبابة : الشوق .
٦ معللتي : منادى محذوف الأداة ، من علله بالشيء : أطمعه فيه وشاغله مسلياً له ومعزياً ؛ واصل التعليل : السقي مرة بعد مرة ، فاستعير للمشاغلة والإطماع . القطر : المطر .
٧ بدوت : أتيت البادية ، حيث هي الحبيبة . حاضرون : مقيمون في الحضر .
٨ في هواك : أي لأجل هواك . يقول : لولا حبك ، لامتزجت بقومي كما يمتزج الماء والخمر .

فإنْ كانَ ما قالَ الوُشاةُ ، ولم يكُنْ ، ... فقَدْ يَهدِمُ الإيمانُ ما شَيّدَ الكُفرُ :[1]

وفَيتُ ، وفي بَعضِ الوَفاءِ مَذَلّةٌ ، ... لآنسَةٍ في الحَيّ ، شيمَتُها الغَدرُ

وَقُورٌ ، ورَيعانُ الصِّبا يَستَفِزّها ، ... فتأرَنُ أحياناً ، كَما يأرَنُ المُهرُ[2]

تُسائِلُني : مَن أنتَ ؟ وهيَ عَليمَةٌ ، ... وهَل بفَتًى مثلي ، على حالِهِ ، نُكْرُ ؟[3]

فقُلتُ ، كما شاءَتْ وشاءَ لها الهَوى : ... قَتيلُكِ ! قالتْ : أيُّهُمْ ؟ فهُمُ كُثْرُ !

فقُلتُ لها : لو شِئتِ ، لم تَتَعَنّتي ، ... ولم تَسألي عَنّي ، وعِندَكِ بي خُبرُ[4]

فقالَتْ : لقد أزرَى بكَ الدّهرُ بَعدنا ! ... فقُلتُ : مَعاذَ اللهِ ! بل أنتِ والدّهرُ ![5]

فأيقَنتُ أنْ لا عِزّ ، بَعدي ، لعاشِقٍ ، ... وأنّ يَدي ، ممّا علِقتُ بهِ ، صِفْرُ[6]

وقَلّبتُ أمري ، لا أرى ليَ راحَةً ، ... إذا البَينُ أنساني ، ألَحّ بيَ الهَجرُ

فعُدتُ إلى حُكمِ الزّمانِ وحُكمِها ، ... لها الذّنبُ لا تُجزَى بهِ ، وليَ العُذْرُ[7]

كأنّي أنادي ، دونَ مَيثاءَ ، ظَبيَةً ، ... على شَرَفٍ ، ظَمياءَ ، جَلّلَها الذُّعرُ[8]

١ ما قال الوشاة : أي أنني وفيت لآنسة شيمتها الغدر . ولم يكن : الواو بمعنى أو . عجز البيت مثل . يعني : أن الحب الصادق يهدم ما بناه قول الوشاة .

٢ وقور : أي هي وقور . الريعان : من كل شيء أوله . يستفزها : يستخفها . فتأرن : تمرح ، يقال مهر أرن : أي نشيط مرح .

٣ على حاله : أي على حاله من الشهرة والذكر ، أو من اللوعة والوجد . النكر : الجهل بالشيء ، وعدم معرفة الشخص .

٤ لم تتعنّتي : أي لم تتعنتيني ؛ يقال تعنته : سأله عن شيء أراد به التلبيس عليه والمشقة . الخبر : بالكسر والضم العلم بالشيء .

٥ أزرى بك : حقّرك ، وأدخل عليك عيباً . معاذ الله : مفعول مطلق ، أي أعوذ بالله معاذاً ؛ يقال عاذ بالله : التجأ إلى رحمته .

٦ لا عز بعدي لعاشق : يعني أن الحب أزرى به عندها على عزته ورفعة قدره ، لذلك لا عز لعاشق لها بعده ؛ وأي عاشق له عزة أبي فراس ؟ مما علقت به : أي مما تعلقت به من الآمال أو المواعيد . صفر : خالية .

٧ إلى حكم الزمان وحكمها : ينظر إلى قوله : بل أنت والدهر .

٨ الميثاء : التلعة تعظم حتّى تكون مثل نصف الوادي أو ثلثيه . والتلعة : ما اتسع من فوهة الوادي . الشرف : المكان العالي . ظمياء : رقيقة الجفون . جللها : غطاها ، على المجاز أي شملها .

تَجَفَّلُ حيناً ، ثمّ ترنو ، كأنّها تُنادي طَلاً ، بالوادِ ،أعجزَهُ الحُضْرُ[1]

فلا تُنكريني ، يا ابنةَ العمّ ، إنّهُ ليَعرفُ مَنْ أنكرْتِهِ البَدوُ والحَضْرُ[2]

ولا تُنكريني ، إنّني غيرُ مُنكَرٍ ، إذا زَلّتِ الأقدامُ ، واستُنزِلَ النّصرُ[3]

وإنّي لنَزّالٌ بكلّ مَخوفَةٍ كَثيرٍ إلى نزّالِها النَّظَرُ الشّزْرُ[4]

وإنّي لَجَرّارٌ لكُلّ كَتيبَةٍ مُعَوَّدَةٍ أنْ لا يُخِلَّ بها النّصرُ[5]

فأظمأُ ، حتى تَرتَوي البِيضُ والقَنا ؛ وأسغَبُ ، حتى يَشبَعَ الذّئبُ والنّسرُ[6]

ولا أُصبِحُ الحَيَّ الخُلوفَ بغارَةٍ ، ولا الجَيشَ ، ما لم تأتِهِ ، قبلي ،النُّذْرُ[7]

ويا رُبّ دارٍ ، لم تُخِفْني ، مَنيعَةٍ ، طَلَعتُ عليها بالرّدى ، أنا والفَجرُ[8]

....

١ تجفل : أي تتجفل . ترنو : تديم النظر بسكون طرف . الطلا : ولد الظبية ساعة يولد . بالواد : على حذف الياء والاكتفاء بالكسرة ؛ وقد ورد هذا في كلام العرب . الحضر : الركض . يقول : أنادي هذه الحبيبة لتدنو إلي ، وتترك هجري ، فتجفل مبتعدة عني ، ثم ترنو إلي كأنها تدعوني ؛ فهي تشبه ظبية رقيقة الأجفان واقفة على مكان عال أمام واد ، وقد شملها الذعر من الصيادين ، فحيناً تجفل مبتعدة ، وحيناً ترنو إلى الوادي كأنها تنادي ولداً لها صغيراً ، عاجزاً عن اللحاق بها .

٢ الحضر : أي الحضر بفتح الضاد ، سكنها للشعر .

٣ زلت الأقدام : أي زلت وتعثرت أقدام الفرسان في الحرب لهولها وصعوبة الإقدام فيها . استنزله : أنزله وطلب نزوله . والمعنى أنه معروف غير منكر ، تعرفه الفرسان في الشدة ، حين يطلب النصر ، وقد استعصى ، فينزله عليهم .

٤ مخوفة : أي أرض يخاف فيها . كثير : نعت سببي لمخوفة . النظر : فاعل كثير . والنظر الشزر : أي نظر فيه إعراض كنظر الغضبان المباغض . والمعنى : أن هذه الأرض المخوفة كثيرة الأعداء .

٥ يخل بها : يتركها ويغيب عنها .

٦ أسغب : أجوع . والمعنى : أنه لا يفكر في شراب ولا طعام حتى يحرز النصر ، فترتوي السيوف والرماح من الدماء ، ويشبع الذئب والنسر من لحوم القتلى .

٧ أصبح الحي : آتيه صباحاً ، من صبح . الخلوف : جمع خَلف ؛ يقال : حي خلوف ، على معنى الجمع في الحي : أي رجالهم غائبون ، لم يبق منهم إلا العاجزون ومن يستقي الماء ، والنساء . النذر : جمع النذير ، أي المنذر ، سكنت الذال للشعر . والمعنى : أنه لا يغزو جيشاً قبل أن ينذره .

٨ بالردى : أي مع الردى .

وحَيٍّ رَدَدتُ الخَيلَ ، حتى مَلَكتُهُ هَزيماً ، ورَدّتني البَراقِعُ والخُمرُ[1]

وساحبَةِ الأذيالِ نَحوي ، لَقيتُها ؛ فلَم يَلقَها جافي اللّقاءِ ، ولا وَعْرُ[2]

وهَبتُ لها ما حازَهُ الجَيشُ ، كُلَّهُ ، ورُحتُ ، ولم يُكشَفْ لأبياتِها سِترُ[3]

ولا راحَ يُطغيني بأثوابِهِ الغِنى ، ولا باتَ يَثنيني ، عن الكَرَمِ ، الفَقرُ[4]

وما حاجَتي بالمالِ أبغي وُفُورَهُ ؟ إذا لم أفِرْ عِرضي ، فلا وَفَرَ الوَفرُ ![5]

أُسرتُ ، وما صَحبي بعُزْلٍ ، لدى الوَغى ، ولا فَرَسي مُهرٌ ، ولا رَبّهُ غَمْرُ[6]

ولكن ، إذا حُمّ القَضاءُ على امرىءٍ ، فلَيسَ لَهُ بَرٌّ يَقيهِ ، ولا بَحرُ[7]

وقالَ أُصَيحابي : الفِرارُ أوِ الرّدَى ! فقُلتُ : هُما أمرانِ ، أحلاهُما مُرُّ[8]

ولَكِنّني أمضي لِمَا لا يَعيبُني ، وحَسبُكَ من أمرَينِ ، خَيرُهما الأسرُ[9]

يَقولونَ لي : بِعتَ السّلامَةَ بالرّدى ؛ فقُلتُ : أمَا واللهِ ، ما نالَني خُسرُ[10]

وهَل يَتَجافَى عَنّيَ المَوتُ ساعَةً ؛ إذا ما تَجافَى عَنّيَ الأسرُ والضُّرّ ؟[11]

---

١ وحي : عطف على دار . رددت الخيل : أي رددت خيل فرسانه . الخمر : جمع الخمار ، سكنت الميم للشعر وهو النصيف تغطي به المرأة رأسها ؛ فقوله ردتني البراقع والخمر : أي رجع عن الحي بعد أن استولى عليه ولم يسب النساء ، ولا هتك خدورهن .

٢ الوعر : ضد السهل . يقول : رب فتاة لقيتها بعد النصر آتية إلي تسحب أذيالها تبختراً لما هي عليه من النعمة ، فأحسنت لقاءها ولم أكن جافياً وعراً .

٣ المعنى : أن هذه الفتاة جاءته متكلة على شهامته ، تسأله أن يرد أموال الحي التي غنمها ، فوهبها كل ما حازه الجيش ، وفارقها وهي مكرمة مصونة .

٤ يطغيني : يجعلني طاغياً أي ظالماً مسرفاً في المعاصي .

٥ لم أفر عرضي : أي لم أصنه . الوفر : المال .

٦ العزل : جمع الأعزل ، من لا سلاح معه . ولا فرسي مهر : أي أن فرسه مجرب في الحروب ، لا مهر حديث العهد بخوض المعامع . ربه : صاحبه . الغمر بالفتح والضم : من لم يجرب الأمور .

٧ حم القضاء : قضي أمره .

٨ الفرار أو الردى : أي الفرار أمامنا أو الموت .

٩ لما لا يعيبني : أي الردى لا للفرار . من أمرين : أي الردى والأسر .

١٠ بالردى : أي بدلا منه ، فالمأخوذ الردى ، والمتروك السلامة . الخسر بالضم والفتح : الخسارة

١١ تجافى عني : تنحى . الضر : المرض والهزال .

هوَ المَوتُ ؛ فاخترْ ما عَلا لكَ ذِكرُهُ ؛ … فلَمْ يَمُتِ الإنسانُ ما حَيِيَ الذِّكرُ[1]

يَمُنُّونَ أنْ خَلَّوا ثِيابي ، وإنّما … عَلَيَّ ثِيابٌ ، مِنْ دِمائِهِمُ ، حُمْرُ[2]

وقائِمَ سَيفٍ ، فيهِمُ اندَقَّ نَصلُهُ ، … وأعقابَ رُمحٍ ، فيهِمُ حُطِّمَ الصّدرُ[3]

سيَذكُرُني قَومي ، إذا جَدَّ جِدُّهم ؛ … وفي اللّيلَةِ الظّلْماءِ يُفتَقَدُ البَدرُ[4]

فإنْ عِشتُ ، فالطّعنُ الذي يَعرِفونَهُ ، … وتلكَ القَنا ، والبِيضُ ، والضُّمَّرُ الشُّقْرُ[5]

وإنْ مِتُّ ، فالإنسانُ ، لا بُدَّ ، مَيّتٌ … وإن طالَتِ الأيّامُ وانفَسَحَ العُمْرُ

ولوسَدَّ غيري ما سَدَدتُ ، اكتَفوا به ؛ … وما كانَ يَغلو التِّبرُ ، لو نَفَقَ الصُّفْرُ[6]

ونحنُ أُناسٌ ، لا تَوَسُّطَ بَينَنا ؛ … لَنا الصّدرُ ، دونَ العالمينَ ، أوِ القَبرُ

تَهُونُ عَلَينا ، في المَعالي ، نُفُوسُنا ؛ … ومَن خَطَبَ الحَسناءَ ، لم يَغلُها المَهرُ[7]

أعَزُّ بَني الدّنيا ، وأعلى ذَوي العُلى ، … وأكرَمُ مَن فوقَ التُّرابِ ، ولا فَخرُ![8]

---

١ ما حيي الذكر : أي مدة حياة الذكر . فما : ظرفية زمانية :

٢ يمنون : الضمير يعود إلى الروم . يقول : يمن الروم علي إبقاء ثيابي ، وانهم لم ينزعوها عني ؛ يذكرون ذلك ويعدونه فضلا وحسنة منهم . وإنما تركوا علي ثياباً مخضبة بدمائهم .

٣ وقائم : عطف على ثيابي ؛ وقائم السيف مقبضه . اندق : انكسر . أعقاب الرمح : أسافله حيث لا يكون السنان ، واحدها عقب . صدر الرمح : أعاليه حيث يكون السنان .

٤ جد : اجتهد وضد هزل . الجد : الاجتهاد ، وضد الهزل . وقوله : جد جدهم أي اشتد خطبهم ، ولم يكن هزلا .

٥ فالطعن الذي يعرفونه : أي فعندي الطعن الذي يعرفونه للدفاع عنهم . الضمر : أي الخيول الضامرة البطون.

٦ التبر : الذهب . الصفر : النحاس الأصفر . يقول : لو أغنى غيري غنائي في الحروب ، لاكتفى قومي به ؛ وكذلك النحاس لو نفق بين الناس في التداول كما ينفق الذهب لما كان الذهب غالياً .

٧ لم يغلها : أي لم يغل بها ، على نزع الخافض . والمراد : لم يكن المهر غالياً بها مهما عظم ؛ فالحسناء مقابل المعالي ، والمهر مقابل لنفوسنا .

٨ أعز : خبر لمحذوف ، أي نحن .

الحمامة النائحة

قال ، وقد سمع حمامة تنوح على شجرة عالية ، وهو في الأسر

أقولُ ، وقد ناحَتْ بقُربي حَمامَةٌ : أيَا جارَتَا ، هَل تَشعُرينَ بحالي ؟
مَعاذَ الهَوى ! ما ذُقتِ طارِقةَ النّوى ، ولا خَطَرَتْ منكِ الهُمومُ ببالِ [1]
أتَحمِلُ مَحزونَ الفُؤادِ قَوادِمٌ ، على غُصُنٍ نائي المَسافَةِ عالِ ؟ [2]
أيَا جارَتَا ، ما أنصَفَ الدّهرُ بَينَنا ، تَعالَيْ ، أُقاسِمْكِ الهُمومَ ، تَعالي ! [3]
تَعالَيْ ، تَرَيْ روحاً ، لديّ ، ضَعيفَةً ، تَرَدَّدُ في جِسمٍ يُعَذَّبُ ، بالِ
أيَضحَكُ مأسُورٌ ، وتَبكي طَليقَةٌ ، ويَسكُتُ مَحزونٌ ، ويَندُبُ سالِ ؟
لقَد كنتُ أولى منكِ بالدّمعِ مُقلَةً ، ولكنّ دَمعي ، في الحَوادثِ ، غالِ !

رسائل الحبيب

يا لَيلُ ، ما أغفَلَ عَمّا بي حَبائِبي ، فيكَ ، وأحبابي [4]
يا لَيلُ ، نامَ النّاسُ عن موجَعٍ ناءٍ ، على مَضجَعِهِ ، نابِ [5]
هَبّتْ لَهُ ريحٌ شآمِيّةٌ ، مَتّتْ إلى القَلبِ بأسبابِ [6]
أدّتْ رِسالاتِ حَبيبٍ لَنا ، فَهِمتُها من بَينِ أصحابي

١ المعاذ : الملجأ ، وقوله معاذ الهوى : أي أعيذ الهوى منك معاذاً ، أي أعصمه عصمة وأحفظه حفظاً .
٢ القوادم : عشر ريشات في مقدم جناح الطائر ، وهي كبار الريش ، مفردها قادمة . يقول : لو كنت حزينة الفؤاد لأصابك ضعف وفتور ، ولما حملتك قوادمك على هذه الشجرة العالية .
٣ الهموم : أي همومي . تعالي الثانية : كسر اللام فيها لغة .
٤ أغفل : يقال أغفله عن الشيء : جعله يغفل عنه .
٥ ناء : بعيد ، أي بعيد عن وطنه وأهله . على مضجعه : الجار متعلق بمحذوف أي مستقر . ناب : غير مطمئن ولا مستريح ؛ يقال نبا عن فراشه : لم يطمئن ولم يجد الراحة عليه .
٦ متت : يقال مت إليه بصلة أو قرابة : توصل إليه . الأسباب : الحبال ، والمراد بها الصلات التي بلغت بها الريح إلى قلب الشاعر ، وهي أنها ذكرته بأحبته في الشام .

رثاء اخت سيف الدولة

قال يرثي خولة أخت سيف الدولة الكبرى ، وهو أسير في بلاد الروم ؛ توفيت في ميافارقين سنة ٩٦٣ م (٣٥٢ هـ) وبعث بالقصيدة إلى أخيها :

أُوصيكَ بالحُزْنِ ،لا أُوصيكَ بالجَلَدِ ؛ جَلَّ المُصابُ عَنِ التّعنيفِ والفَنَدِ[1]

إنّي أُجِلُّكَ أنْ تُكفَى بتَعزِيَةٍ عن خَيرِ مُفتَقَدٍ ، يا خَيرَ مُفتَقِدِ

هيَ الرّزِيّةُ ! إنْ ضَنّتْ بما مَلَكَتْ فيها الجُفونُ ، فَما تَسخو على أحَدِ[2]

بي مثلُ ما بكَ من حُزْنٍ ومن جزَعٍ ؛ وقد لجأتُ إلى صَبرٍ ، فَلَمْ أجِدِ[3]

لم يَنتَقِصنيَ بُعدي عَنكَ من حَزَنٍ ، هيَ المُؤاساةُ في قُربٍ وفي بُعُدِ[4]

لأشرِكَنّكَ في البأساءِ ،إنْ طَرَقَتْ، كَما شرِكتُكَ في النّعماءِ والرّغَدِ[5]

أبكي بدَمعٍ ، لهُ من حَسرَتي مَدَدٌ ، وأستريحُ إلى صَبرٍ بلا مَدَدِ[6]

ولا أُسَوِّغُ نَفسي فَرحَةً أبَداً ؛ وقد عرَفتُ الذي تَلقاهُ مِنْ كَمَدِ[7]

وأمنَعُ النّومَ عَيني أنْ يُلِمّ بها ، عِلماً بأنّكَ مَوقوفٌ على السُّهُدِ[8]

يا مُفرَداً ، باتَ يَبكي ، لا مُعينَ لَهُ ، أعانَكَ اللهُ بالتّسليمِ والجَلَدِ[9]

هو الاسيرُ المفدّى ، لا فِداءَ له ، يفديكَ بالنفس والأهلِينَ والولَدِ[10]

١ الفند : إنكار العقل . يقول : إن المصيبة أعظم من أن ينال صاحبها تعنيف أو فند إذا استسلم إلى الحزن.

٢ الرزية : المصيبة . فيها : الضمير للرزية . وقوله : بما ملكت الجفون : أي بما ملكت من الدموع .

٣ الجزع : فقد الصبر .

٤ انتقصه : أنقصه . المؤاساة : المشاركة ، أي المشاركة في المصاب .

٥ البأساء : ضد النعماء .

٦ يقول : إنه يجد من حسرته عوناً على البكاء ، ولكنه لا يجد من نفسه عوناً على الصبر إذا أراد أن يستريح إليه .

٧ أسوغ نفسي فرحة : أي أجوزها لها .

٨ أن يلم : أي عن أن يلم . السهد : الأرق ، مصدر سهد .

٩ يا مفرداً : أراد به نفسه على سبيل التجريد . التسليم : الرضى ، أي الرضى بما حكم الله .

١٠ المفدّى : الذي يقال له جعلت فداك . يفديك : الخطاب لسيف الدولة .

اغراض مختلفة

فخر وحماسة

من قصيدة يفتخر بها ويذكر إيقاعه مع سيف الدولة بالقبائل الثائرة :

ـ ألم تَرَنا أعزَّ النّاسِ جاراً ،	وأمنَعَهم ، وأمرَعَهم جَنابا؟![1]
لَنا الجَبَلُ المُطِلُّ على نِزارٍ ،	حَلَلْنا النَّجدَ ، منهُ ، والهِضابا[2]
تُفَضّلُنا الأنامُ ، ولا تُحاشي ،	ونُوصَفُ بالجَميلِ ، ولا نُحابَى[3]
وقد عَلِمَتْ رَبيعَةُ ، بل نِزارٌ	بأنّا الرّأسُ ، والنّاسَ الذّنابَى[4]
ولمّا أنْ طَغَتْ سُفَهاءُ كَعبٍ ،	فتَحنا ، بَينَنا ، للحَربِ بابَا[5]
مَنَحناها الحَرائبَ ؛ غَيرَ أنّا ،	إذا جارَتْ ، مَنَحناها الحِرابَا[6]
ولمّا ثارَ سَيفُ الدّينِ ، ثُرنا ،	كَما هَيّجتَ آساداً غِضابَا[7]
أسِنّتُهُ ، إذا لاقَى طِعاناً ؛	صَوارِمُهُ ، إذا لاقَى ضِرابَا[8]
دَعانا ، والأسِنّةُ مُشرَعاتٌ ،	فكُنّا ، عندَ دَعوتِهِ ، الجَوابَا[9]

....

١ أمرعهم : أخصبهم . الجناب : فناء الدار ؛ وما قرب من محلة القوم .
٢ النجد : المرتفع من الأرض . الهضاب ، جمع هضبة : الجبل المنبسط على الأرض . يقول : إنهم أشرف القبائل النزارية وأعلاها حسباً ، وأكثرها عدداً .
٣ لا تحاشي : أي لا تستثني أحداً . لا نحابى : أي لا ينحرف عن الحق من يصفنا بالجميل ؛ يقال حاباه : مال إليه منحرفاً عن الحق .
٤ بأنا : الباء زائدة قياساً . الذنابى : ذنب الطائر .
٥ سفهاء كعب : جهالهم ؛ وكعب قبيلة عربية خرجت على سيف الدولة .
٦ الحرائب : جمع حريبة وهي ما يعتاش به من المال .
٧ سيف الدين : أي سيف الدولة .
٨ أسلته : أي نحن أسلته ، وكذلك صوارمه .
٩ مشرعات : مسددات .

وكنّا كالسّهام ، إذا أصابَتْ   مَراميَها ، فَراميها أصابا[1]

صَنائعُ ، فاقَ صانعُها، ففاقَتْ ،   وغَرسٌ ، طابَ غارِسُهُ ، فطابا[2]

الشجاعة والكرم

وقال يفتخر :

إنّا ، إذا اشتَدّ الزّمَـا   نُ ، ونابَ خَطبٌ وادلهَم[3]

ألفَيتَ ، حَولَ بيُوتِنا ،   عُدَدَ الشّجاعةِ والكرَمْ :[4]

للِقَا العِدى ، بيضَ السّيو   فِ ؛ وللنّدى ، حُمرَ النَّعمْ[5]

هَـذا ، وهذا دأبُنا ؛   يُودَى دَمٌ ، ويُراقُ دَمْ[6]

اكرام الضيف

وقال في الفخر :

إذا مرَرتَ بوادٍ جاشَ غارِبُهُ ،   فاعقِلْ قَلوصَكَ،وانزِلْ،ذاكَ وادينا[7]

---

١ يقول : إنهم كالسهام في يد سيف الدولة ، والسهام إذا أصابت المرمى فالفضل للرامي لا لها .

٢ صنائع : جمع صنيعة وهي المصطنع والإحسان . تقول هو صنيعتي : أي اللذي ربيته ، واصطنعته لنفسي ، وخرجته واختصصته . يقول : نحن صنائع ، فاق صانعها سيف الدولة ، ففاقت هي ؛ ونحن غرس ، طاب غارسه سيف الدولة ، فطاب هو .

٣ ناب الخطب : نزل وألم . ادلهم : اشتد سواده .

٤ ألفيت : وجدت .

٥ الندى : الكرم . النعم : الإبل .

٦ الدأب : العادة . يودى دم : تعطى ديته ، وهي حق الدم . يقول : نريق دم الأعداء بسيوفنا ، وهي عدة الشجاعة عندنا . ونحتمل الديات عن المستجيرين بنا ، وقد أعجزهم حملها ، فنقضي ما عليهم من حق الدماء ، باذلين لهم إبلنا ، وهي عدة الكرم عندنا .

٧ جاش : غلى واضطرب . الغارب : أعالي الموج . القلوص : الناقة ، وعقلها : شد قوائمها بالحبل ليمنعهامن القيام والسير . والمعنى : إذا مررت بواد خصيب تدفقت مياه النهر الجاري فيه ،فانزل على الرحب ، فذاك وادينا .

وإنْ وقَفتَ بنادٍ لا يُطيفُ بِـهِ   أهلُ السَّفاهَةِ ، فاجلِسْ ؛ ذاكَ نادينَا !

نُغيرُ في الهَجمَةِ الغَرّاءِ نَنحَرُها ؛   حتّى ليَعطَشُ ، في الأحيانِ ، راعينَا[1]

وتُجفلُ الشَّولُ ، بعد الخِمسِ ، صاديةً   إذا سَمِعنَ ، على الأمواهِ ، حادِينَا[2]

وتُصبِحُ الكُومُ أشتاتاً مُرَوَّعَةً ،   لا تأمَنُ ، الدّهرَ ، إلاّ من أعادينَا[3]

ويُصبِحُ الضّيفُ أولانا بمَنزِلِنا ؛   نَرضَى بذاكَ ، ويَمضِي حُكمُهُ فينَا

عند الموت

روى له ابن خالويه شعراً قاله عند موته ، يخاطب به ابنته امرأة أبي العشائر الحمداني :

أبُنَيّتي ، لا تَجزَعي ،   كلُّ الأنامِ إلى ذَهابْ ![4]

أبُنَيّتي ، صَبراً جَمي   لاً للجَليلِ منَ المُصابْ !

نُوحي علَيّ بحَسرَةٍ ،   من خَلفِ سِترِكِ والحِجابْ

قُولي ، إذا كَلّمتِني ،   وعَيِيتُ عن رَدّ الجَوابْ :[5]

زَينُ الشّبابِ أبو فِـرا   سٍ ، لم يُمَتَّعْ بالشّبابْ !

---

١ نغير : نسرع إلى النحر . الهجمة من الإبل : من الأربعين أو السبعين إلى المائة ، أو ما دون المائة . الغراء : الكريمة . ننحرها : أي ننحرها للضيوف . حتّى : ابتدائية . وقوله : يعطش راعينا ، أي أنهم يذبحون النوق للضيوف ، حتّى لا يجد الراعي حلوبة ، يشرب من لبنها ويروي ظمأه .

٢ تجفل : تنفر هاربة فزعاً . الشول : جمع شائلة ، على غير قياس ، وهي من الإبل ما أتى عليها من حملها أو وضعها سبعة أشهر فجف لبنها . الخمس : يقال سقى الإبل الخمس ، أي أوردها الماء يوماً ، ثم أظمأها ثلاثة أيام ، ثم أوردها في اليوم الخامس . صادية : عطشى . الأمواه : المياه . وقوله : إذا سمعن صوت حادينا : لأنها عندما تسمع صوت الحادي على الماء ، تدرك بالغريزة أنه سيسوقها إلى النحر ، فتجفل هاربة تاركة الورود مع شدة عطشها .

٣ الكوم : القطعة من الإبل . يقول : تنفر الإبل عندما تسمع صوت الحادي ، وتصبح متفرقة مذعورة ؛ فهي لكثرة ما ينزل بنا من الضيوف ، لا تأمن منا مدى الدهر على حياتها ، ولكنها تأمن من الأعداء أن يغيروا ، ويستولوا عليها .

٤ لا تجزعي : لا تفقدي الصبر . وروي : لا تحزني . ذهاب : يجوز في هذا الوزن تسكين حرف الروي وتحريكه .

٥ كلمتني ، وفي رواية : ناديتني .

الشريف الرضي

الفخر

ثورة المجد

- نَبَّهْتُهُمْ مثلَ عَوالي الرِّماحْ إلى الوَغَى قبلَ نُمومِ الصَّباحْ
- فَوارِسٌ نالوا المُنى بالقَنا ، وصافَحوا أغراضَهم بالصِّفاحْ
- لغـارَةٍ سامِـعُ أنبائِهـا يَغَصُّ منها بالزُّلالِ القَراحْ

لَيسَ على مُضرِمِها سُبَّةٌ ولا على المُجلِبِ مِنها جُناحْ[1]
دونَكُمُ فابتَدِروا غُنمَها : دُمًى مُباحاتٌ ومالٌ مُباحْ[2]

* * *

يا نَفسُ مِن هَمٍّ إلى هِمَّةٍ فلَيسَ من عبءِ الأذى مُستَراحْ
قد آنَ للقَلبِ الذي كَـدَّهُ طولُ مُناجاةِ المُنى أن يُراحْ[3]
لا بدَّ أنْ أركَبَها صَعبَةً وَقاحَةً تحتَ غلامٍ وَقاحْ[4]
يُجهِدُها أو يَنثَني بالرَّدى دونَ الذي قَدَّرَ أو بالنَّجاحْ

١ المجلب منها : أي الذي يضج من هولها . الجناح : الإثم .

٢ الدمى : الصور المنقشة المزينة ، تضرب مثلا في الحسن ، وشبه بها النساء الجميلات ، كما هو المراد هنا ، واحدتها دمية .

٣ كده : طلب منه الكد .

٤ وقاحة : ألحقت الهاء ضرورة . يقال : فرس وقاح الحافر ، إذا كان حافرها صلباً . غلام وقاح : أي صبور على الركوب ، من قولهم : رجل وقاح الذنب بتحريك النون .

الرّاحُ والرّاحَةُ ذُلُّ الفَتَى   والعزُّ في شربِ ضريبِ اللّقاحْ[1]

في حَيْثُ لا حُكْمَ لغَيْرِ القَنا   ولا مُطاعٌ غيرُ داعي الكِفاحْ

ما أطيَبَ الأمرَ ولَو أنّهُ   على رَذايا نَعَمٍ في مُراحْ[2]

وأشعَثِ المَفرِقِ ذي هِمّةٍ   طوّحَهُ الهَمُّ بَعيداً فَطاحْ

لمّا رأى الصّبرَ مُضِرّاً بهِ ،   راحَ ومَن لم يُطِق الذلَّ راحْ

دَفعاً بصَدرِ السّيفِ لمّا رأى   أن لا يُرَدَّ الضّيمُ دفعاً بِراحْ[3]

متى أرَى الزّوراءَ مُرتَجّةً   تُمطَرُ بالبِيضِ الظُّبى أو تُراحْ؟[4]

يَصيحُ فيها الموتُ عَن ألسُنٍ   منَ العَوالي والمَواضي فِصاحْ

* * *

متى أرى الأرضَ وقد زُلزِلَتْ   بعارِضٍ أغبَرَ دامي النّواحْ[5]

متى أرى النّاسَ وقد صُبّحوا   أوائلَ اليَومِ بطَعنٍ صُراحْ؟

يَلتَفِتُ الهارِبُ في عِطفِهِ ،   مُرَوَّعاً يَرقُبُ وَقعَ الجِراحْ

متى أرى البِيضَ وقد أمطَرَتْ   سَيلَ دَمٍ يغلبُ سَيلَ البطاحْ[6]

متى أرى البَيضةَ مَصدوعةً   عن كلّ نَشوانَ طويلِ المِراحْ[7]

1 الضريب : اللبن يحلب بعضه فوق بعض من عدة لقاح . اللقاح : جمع لقوح وهي الناقة الحلوب بعدما تلقحت وقرب عهدها بالنتاج . والمراد تفضيل تقشف البدو على ترف الحضر ، فأولئك لا يشربون الألبان إلا بالغزو والحروب ، وهؤلاء يشربون الخمر وهم في راحة وضعف عزيمة .

2 الرذايا ، جمع رذية : وهي الناقة الضعيفة والمهزولة من السير . رويت في الديوان بالزاي المعجمة ، وهو تحريف . النعم : الإبل . المراح : مأوى الإبل .

3 الراح : جمع الراحة ، وهي باطن الكف .

4 الزوراء : بغداد ، لأن أبوابها الداخلة جعلت مزورة عن الخارجة . تراح : تضربها الريح .

5 العارض : السحاب المعترض في السماء ، والمراد غبار الحرب . النواح : النواحي على ترك الياء .

6 البيض : السيوف . البطاح : جمع أبطح وبطحاء ، وهو مسيل واسع فيه دقاق الحصى .

7 البيضة : الخوذة من الحديد تستعمل لوقاية الرأس في الحرب . المراح : المرح .

– مُضَمَّخِ الجيدِ نَؤُوم الضُّحَى كأنّهُ العَذراءُ ذاتُ الوِشاحْ[1]
إذا رَداحُ الرّوعِ عَنّتْ لهُ، فَرّ إلى ضمّ الكَعابِ الرَّداحْ[2]
– قومٌ رضُوا بالعَجزِ واستَبدَلوا بالسّيفِ يدمى غربُه كأسَ راحْ
– تَوارَثوا المُلكَ، ولو أنجَبوا، لوَرّثُوهُ عن طِعانِ الرّماحْ
– غَطّى رِداءُ العِزّ عَوراتِهِم فافتضحوا بالذّلّ أيّ افتضاحْ
إنّيَ، والشّاتِمُ عِرْضي، كمَنْ رَوّعَ آسادَ الشّرَى بالنُّباحْ
يَطلُبُ شأوي وهوَ مُستَيقِنٌ أنّ عِناني في يَمينِ الجِماحْ
فارْمِ بعَينَيكَ مَلِيّاً تَرَى وَقعَ غُباري في عيونِ الطِّلاحْ[3]
وارْقَ على ظَلْعِكَ هَيهاتَ أنْ يُزَعزِعَ الطَّودُ بمَرّ الرّياحْ[4]
لا هَمّ قَلبي برُكوبِ العُلَى يوماً ولا بَلّ يَدي بالسّماحْ
إنْ لم أنَلْها باشتراطٍ كَما شئتُ على بِيضِ الظُّبى واقتراحْ

تعب النفوس الكبار

– لأيّ حَبيبٍ يحسنُ الرّأيُ والوُدُّ، وأكثرُ هذا النّاسِ لَيسَ لهُ عَهدُ
– أرَى ذَمَّيَ الأيّامَ ما لا يضُرُّها، فهَل دافعٌ عنّي، نَوائِبَها، الحَمدُ؟
وما هذِهِ الدّنيا لَنا بمُطيعَةٍ، ولَيسَ لخلقٍ مِن مُداراتِها بُدّ
– تَحوزُ المَعالي والعَبيدَ لعاجِزٍ، ويخدِمُ فيها نَفسَهُ البَطَلُ الفَرْدُ[5]

---

١ مضمخ الجيد: مطيب العنق.
٢ الرداح الأولى: الكتيبة الثقيلة الجرارة. الروع: هول الحرب. الرداح الثانية: المرأة الثقيلة الأوراك.
٣ الطلاح: الإبل أعياها السير.
٤ ارق على ظلعك: أي ارفق بنفسك، ولا تجاوز حدك. والظلع: العرج.
٥ تحوز: تجمع وتضم، وتسوق.

أكلُّ قريبٍ لي بعيدٌ بودِّهِ ،   وكلُّ صديقٍ بينَ أضلعِهِ حِقدُ ؟

وللهِ قلبٌ لا يبُلُّ غليلَهُ   وصالٌ ، ولا يُلهيهِ عن خِلّهِ وعدُ

يُكلِّفُني أنْ أطلُبَ العِزَّ بالمُنى ،   وأينَ العُلى إن لم يُساعِدْنيَ الجَدّ ؟[1]

أحِنُّ ، وما أهواهُ رمحٌ وصارمٌ   وسابغةٌ زَغفٌ وذو مَيعةٍ نَهدُ[2]

فَيالِيَ من قلبٍ مُعنّىً بهِ الحَشا ،   ويا ليَ مِن دَمعٍ قريحٍ بهِ الخَدّ !

أريدُ منَ الأيّامِ كلَّ عظيمةٍ ،   وما بَينَ أضلاعي لها أسَدٌ وَرْدُ

وليس فتىً مَن عاقَ عن حَملِ سيفِهِ   إسارٌ، وحلاّهُ، عن الطّلبِ،القِدُّ[3]

إذا كانَ لا يَمضي الحُسامُ بنَفسِهِ ،   فللضّاربِ ، الماضي بقائمِهِ ، الحَدّ[4]

وحَوليَ من هذا الأنامِ عِصابَةٌ   تَوَدُّدُها يخفَى ، وأضغانُها تَبدُو

ـ يَسُرُّ الفتى دَهرٌ ، وقد كانَ ساءَهُ ،   ويخدمُهُ الأيّامُ ، وهوَ لها عَبدُ

ـ ولا مالَ إلاّ ما كَسبتَ بنيلِهِ   ثَناءً ، ولا مالٌ لمنْ لا لهُ مَجدُ

وما العَيشُ إلاّ أنْ تُصاحبَ فِتيَةً   مَطاعينَ لا يَعنيهِمُ النّحسُ والسّعدُ

إذا طَرِبوا يوماً إلى العزّ ، شَمّروا ،   وإنْ نُدبوا يوماً إلى غارةٍ ، جَدّوا

وكمْ ليَ في يومِ الثّويّةِ رَقدَةً ،   يُضاجعُني فيها المُهَنّدُ والغِمدُ

إذا طَلَبَ الأعداءُ إثري ببَلدَةٍ ،   نجَوتُ وقد غَطّى على إثريَ البُردُ

ولو شاءَ رُمحي سَدّ كلَّ ثَنيّةٍ ،   تُطالِعُني فيها المَغاويرُ والجُرْدُ[5]

* * *

١ الجد : الحظ والاجتهاد .
٢ السابغة : الدرع الطويلة . الزغف : الدرع اللينة الواسعة المحكمة . الميعة : أول جري الفرس وأنشطه . النهد : الفرس الحسن الجميل الجسيم اللحيم الطويل المشرف .
٣ الإسار : الأسر . حلاه : مخفف حلأه أي منعه عن الطلب ، أي عن طلب المعالي . القد : القيد .
٤ يمضي الحسام : يقطع . القائم : مقبض السيف .
٥ الثنية : العقبة أو طريقها .

ألا لَيتَ شِعري هل تبلّغني المُنى ، وتَلقى بيَ الأعداءَ أحصِنَةٌ جُرْدُ ؟
جيادٌ ، وقد سَدّ الغُبارُ فروجَها ، تَروحُ إلى طَعنِ القَبائلِ أو تَغدُو
خِفافٌ على إثرِ الطّريدةِ في الفَلا ، إذا ماجَتِ الرّمضاءُ واختلطَ الطّرْدُ
كأنّ نجومَ اللّيلِ ،تحتَ سُروجِها، تَهاوَى على الظّلماءِ ، واللّيلُ مُسوَدّ
يُعيدُ علَيها الطّعنَ كلُّ ابن همّةٍ ، كأنّ دَمَ الأعداءِ في فَمِهِ شَهدُ
يُضارِبُ حتى ما لصارِمِهِ قُوًى ، ويَطعنُ حتى ما لذابِلهِ جَهدُ[1]
تَغَرّبَ لا مُستَحقِباً غيرَ قُوتِهِ ، ولا قائِلاً إلاّ لِما يَهَبُ المَجدُ[2]
ولا خائِفاً إلاّ جَريرَةَ رُمْحِهِ ، ولا طالباً إلاّ الذي تَطلُبُ الأُسدُ[3]
إذا عرَبيٌّ لم يكُنْ مثلَ سَيفِهِ مَضاءً على الأعداءِ ، أنكرَهُ الجَدّ
وما ضاقَ عَنهُ كلُّ شَرقٍ ومَغرِبٍ من الأرض،إلاّ ضاقَ عن نفسهِ الجِلدُ
إذا قَلّ مالُ المَرءِ قَلّ صَديقُهُ ، وفارَقَهُ ذاكَ التّحنّنُ والودّ
وأصبحَ يُغضي الطّرفَ عن كلّ منظَرٍ أنيقٍ ، ويُلهيهِ التّغَرّبُ والبُعدُ
فَما لي وللأيّامِ أرضَى بجَورِها ، وتَعلَمُ أنّي لا جَبانٌ ولا وَغدُ ؟!
تَغاضَى عيونُ النّاسِ عنّي مَهابةً ، كما تتّقي شمسَ الضّحى الأعينُ الرُّمدُ
يَوَدُّ رِجالٌ أنّني كنتُ مُفحَماً ، ولولا خِصامي لم يوَدّوا الذي وَدّوا
مدَحتُهُمُ فاستُقبِحَ القولُ فيهِمُ ألا رُبّ عُنقٍ لا يَليقُ بهِ عِقْدُ
زَهِدْتُ ، وزُهدي في الحياةِ لعلّةٍ ، وحُجّةُ ،مَن لا يبلُغُ الأملَ، الزّهدُ

---

١ الذابل : الرمح
٢ قائلا : تاركاً
٣ الجريرة : الجناية .

وهانَ على قلبي الزّمانُ وأهلُهُ ، ووجدانُنا، والموتُ يَطلُبُنا ، فَقَدُ
وأرضَى منَ الأيّامِ أنْ لا تُميتَني ، وبي ،دونَ أقراني ،نوائبُها النُّكدُ

فخر الهاشمي

لغَيرِ العُلى منّي القِلى والتّجَنّبُ ، ولولا العُلى ما كنتُ في الحبّ أرغبُ
إذا اللهُ لم يَعذُرْكَ فيما تَرومُهُ ، فَما النّاسُ إلاّ عاذِلٌ أو مُؤنّبُ[1]
ملَكتُ بحِلمي فرصَةً ما استرَقّها ، من الدّهرِ، مفتولُ الذّراعينِ أغلبُ[2]
فإنْ تَكُ سنّي ما تَطاوَلَ باعُها فلي من وَراءِ المَجدِ قَلبٌ مُدَرَّبُ
فحَسبيَ أنّي في الأعادي مُبَغَّضٌ ، وأنّي إلى غُرّ المَعالي مُحَبَّبُ
وللحِلمِ أوقاتٌ ، وللجَهلِ مثلُها ، ولكنّ أوقاتي إلى الحِلمِ أقرَبُ
يَصولُ عليّ الجاهِلونَ وأعتَلي ، ويُعجِمُ فيّ القائِلُونَ وأعرِبُ[3]
يَرَونَ احتمالي غُصّةً ، ويَزيدُهم لَواعجَ ضِغنٍ أنّني لَستُ أغضَبُ
وأعرِضُ عن كأسِ النّديمِ كأنّها وميضُ غَمامٍ، غائرُ المُزنِ ،خُلّبُ
وَقورٌ ،فلا الألحانُ تأسرُ عَزمَتي ، ولا تَمكُرُ الصّهباءُ بي حينَ أشرَبُ
ولا أعرِفُ الفَحشاءَ إلاّ بوَصفِها ، ولا أنطِقُ العَوراءَ والقلبُ مُغضَبُ[4]
تَحَلّمُ عن كَرّ القَوارِصِ شيمَتي كأنّ مُعيدَ الذّمّ بالمَدحِ مُطنِبُ[5]
لساني حَصاةٌ يَقرَعُ الجَهلَ بالحِجى، إذا نالَ منّي العاضِهُ المُتَوَثّبُ[6]

١ يعذرك : ينصرك . والعذير . النصير .
٢ استرقها : ملكها .
٣ يعجم : يبهم القول . أعرب : أفصح .
٤ العوراء : الكلمة القبيحة .
٥ تحلم : تتكلف الحلم . القوارص من الكلام : التي تنغص وتؤلم .
٦ الحصاة : الرزانة . العاضه : الكاذب الذي يجيء بالزور والبهتان . المتوثب : المعتدي .

ولستُ براضٍ أنْ تمسّ عزائمي فُضالاتِ ما يُعطي الزّمانُ ويَسلُبُ
غرائبُ آدابٍ حبَاني بحِفظِها زَماني، وصرفُ الدّهرِ نِعمَ المُؤدّبُ

تراث النبي

ـ رُدّوا تُراثَ مُحمّدٍ رُدّوا ، ليسَ القَضيبُ لكُمْ ولا البُرْدُ !
ـ هَل عرّقَتْ فيكُمْ كفاطمةٍ ، أمْ هلْ لكُمْ كمُحمّدٍ جَدّ؟[1]
ـ جُلٌّ افتِخارِهِمُ بأنّهُمُ ، عندَ الخِصامِ ، مَصاقعٌ لُدّ[2]
ـ إنّ الخَلائفَ والأُلى فخَروا بِهِمُ علَينا قَبلُ أو بَعدُ
ـ شَرُفُوا بنا ، وبجدّنا خُلِقوا ، وهمُ صَنائِعُنا إذا عُدّوا

أنف حمي

نفث الشاعر هذه الأبيات ، وقد ناله أمر ضاق به صدره ، فلما ظهرت جرى العتب من القادر بالله على والده لأجلها ، فأنكرها الرضي ولم يثبتها في ديوانه ، إلا أنها مشهورة عنه ، وقد وجدت بخطه ، وبعد ذلك بأيام صرفه القادر عن النقابة :

ما مُقامي على الهَوانِ ، وعندي مِقوَلٌ صارِمٌ ، وأنفٌ حَميٌّ !
وإباءٌ مُحَلِّقٌ بي عنِ الضّيمِ ، كَما راغَ طائِرٌ وحشِيٌّ[3]
أيُّ عُذرٍ لهُ إلى المَجدِ ، إنْ ذلّ غُلامٌ في غِمدِهِ المَشرَفيّ ؟
ألبَسُ الذّلّ في دِيارِ الأعادي ، وبمِصرَ الخَليفَةُ العَلَويّ

....

1 عرقت : أي كانت عريقة في كرم الأصل .
2 المصاقع : جمع مصقع كمنبر ، وهو العالي الصوت ، ومن لا يرتج عليه في كلامه ولا يتمتع . اللد : جمع ألد ، وهو الخصم الحريص الذي لا يميل إلى الحق .
3 راغ : نفر .

مَن أبوهُ أبي ، ومولاهُ مَولايَ ،   إذا ضامَني البَعيدُ القَصِيّ[1]

لَفَّ عِرقي بعِرقِهِ سَيِّدُ النّاسِ   جَميعاً مُحَمَّدٌ ، وعَلِيّ

إنّ ذُلّي بذلكَ الجَوِّ عِزٌّ ،   وأُوامي بذلكَ النّقعِ رِيّ[2]

قدْ يذِلُّ العَزيزُ ما لم يُشَمِّرْ   لانطِلاقٍ ،وقد يُضامُ الأبيّ !

إنّ شَرّاً عليّ إسراعُ عَزْمي   في طِلابِ العُلى، وحَظّي بَطيّ

أرتَضي بالأذَى، ولم يَقِفِ العزمُ   قُصوراً ، ولم تَعِزّ المَطيّ-

تارِكاً أُسرَتي رُجوعاً إلى حَيثُ   عذيريَ قِدٌّ ، ورعيٌ وَبيّ[3]-

كالذي يَخبِطُ الظّلامَ ، وقَد   أقمرَ مِن خَلفِهِ النّهارُ المُضِيّ !-

---

١ أبوه : أي جده الرسول . مولاه : أي الإمام علي ، ينظر إلى حديث الولاية .
٢ الأوام : حر العطش . النقع : أن تجمع الريق في فمك ، والماء المستنقع .
٣ العذير : النصير . القد : السوط . الوبي : الكثير الوباء .

ابو العلاء المعري

الحياة والموت

ضحكة القبر

غيرُ مُجدٍ في مِلّتي واعتقادي ، نوحُ باكٍ ، ولا ترَنُّمُ شادِ

وشَبيهٌ صَوتُ النَّعيِّ ، إذا قيـ ـسَ ، بصَوتِ البَشيرِ في كلِّ نادِ

أبَكَتْ تِلكُمُ الحَمامةُ ، أم غَنَّتْ على فَرعِ غُصنِها المَيّادِ ؟

صاحِ هذي قُبورُنا تَملأُ الرُّحْـ ـبَ ، فأينَ القُبورُ من عَهدِ عادِ ؟

خَفِّفِ الوَطءَ ما أظُنُّ أديمَ الـ ـأرضِ إلّا مِن هذهِ الأجسادِ

وقَبيحٌ بنا ، وإنْ قَدُمَ العَهْـ ـدُ ، هَوانُ الآباءِ والأجدادِ

سِرْ ، إن اسطَعتَ ، في الهواءِ رُوَيداً ، لا اختيالاً على رُفاتِ العِبادِ

رُبَّ لَحْدٍ ، قد صارَ لَحداً مِراراً ، ضاحِكٍ مِن تَزاحُمِ الأضدادِ

ودَفينٍ على بَقايا دَفينٍ ، في طَويلِ الأزمانِ والآبادِ

تَعَبٌ كُلُّها الحَياةُ ، فَما أعْـ ـجَبُ إلّا مِن راغِبٍ في ازدِيادِ

إنَّ حُزناً ، في ساعةِ الموتِ ، أضعا فُ سرورٍ في ساعةِ الميلادِ

خُلِقَ النّاسُ للبَقاءِ ، فضَلَّتْ أمّةٌ يَحسَبُونَهُمْ للنَّفادْ

إنّما يُنقَلونَ مِن دارِ أعمـا لٍ إلى دارِ شِقوَةٍ أو رَشادِ

ضَجعَةُ المَوتِ رَقدَةٌ يَستَريحُ الـ ـجسمُ فيها ، والعَيشُ مثلُ السُّهادِ

* * *

بانَ أمرُ الإلَهِ ، واختَلَفَ النّا سُ ، فَداعٍ إلى ضَلالٍ وهادِ
والذي حارَتِ البَرِيّةُ فيهِ ، حَيَوانٌ مُستَحدَثٌ مِن جَمادِ
واللّبيبُ اللّبيبُ مَن لَيسَ يَغْـ ـتَرُّ بكَونٍ مَصيرُهُ للفَسادِ

مزاعم الفلاسفة

كيفَ احتيالُكَ والقَضاءُ مدَبِّرٌ ، تَجني الأذى وتَقولُ إنّكَ مُجبَرُ
أرواحُنا معَنا ، ولَيسَ لَنا بها علمٌ ، فكَيفَ إذا حوَتها الأقبُرُ
ومَتى سرى عن أربَعينَ حَليفُها فالشّخصُ يصغرُ والحَوادِثُ تكبرُ
نَفسٌ تُحسُّ بأمرِ أُخرى ، هذهِ جسرٌ إلَيها بالمَخاوِفِ يُعبَرُ
مَن للدّفينِ بأنْ يُفَرَّجَ لحدُهُ عَنهُ فيَنهَضَ وهوَ أشعَثُ أغبَرُ
والدّهرُ يقدُمُ والمَعاشرُ تَنقَضي ، والعَجزُ تَصديقٌ بمينٍ يُخبِرُ
زَعَمَ الفَلاسفَةُ الذينَ تَنَطّسُوا أنّ المَنيّةَ كسرُها لا يُجبَرُ
قالوا وآدَمُ مثلُ أوبرَ والوَرَى كبَناتِهِ ، جَهلَ امرؤ ما أوبَرُ[1]
كذبٌ يُقالُ على المَنابِرِ دائماً ، أفَلا يميدُ لِمَا يُقالُ المِنبَرُ
ولَعَلّ دُنيانا كَرِقدَةِ حالِمٍ ، بالعَكسِ ممّا نحنُ فيهِ تُعَبَّرُ
فالعَينُ تَبكي في المَنامِ فتَجتَني فرَحاً ، وتَضحكُ في الرّقادِ فتعبَرُ[2]
والنّفسُ لَيسَ لها على ما نالَها صَبرٌ ، ولكن بالكراهةِ تصبرُ

١ بنات أوبر : نوع من الكمأة رديئة الطعم . يرد على الطبيعيين الذين يجعلون مصير الإنسان بعد الموت كمصير النبات والحيوان .
٢ تعبر : تدمع .

عذاب القبر

إذا حَرّقَ الهنديُّ بالنّارِ نَفسَهُ ، فلَم يَبقَ لَحضٌ للتّرابِ ولا عَظمُ[1]
فهَلْ هوَ خاشٍ من نَكيرٍ ومنكَرٍ وضَغطَةِ قَبرٍ لا يَقومُ لها نَظمُ ؟

جزاء الآخرة

إذا أتاني حِمامي ماحياً شَبَحي وما صَنَعتُ ، فعَيشي كلُّهُ عَنَتُ[2]
لَعَلَّ قَوماً يُجازيهِم مَليكُهُمُ ، إذا لَقوهُ ، بما صاموا وما قَنَتُوا[3]

مصير الإنسان

صاحِ ، ما تَضحكُ البروقُ شَماتاً بحِمام ولا تُبَكّي الرّعُودُ
يا محلّي ، علَيكَ منّي سَلامٌ ، سَوفَ أمضي ويُنجَزُ المَوعودُ
لَيتَ شعري عمّن يحلّكَ بَعدي ، أقيامٌ لصالحٍ أمْ قُعودُ ؟
أيُرَجّونَ أن أعُودَ إلَيهِمْ ، لا تُرَجّوا فإنّني لا أعُودُ
وبجِسمي إلى التّرابِ هُبُوطٌ ، ولروحي إلى الهَواءِ صُعودُ
وعلى حالِها تَدومُ اللّيالي ، فنُحُوسٌ لمَعشَرٍ أو سُعُودُ

شرط المعري

– قالَ المُنَجّمُ والطّبيبُ كلاهُما : لا تُحشرُ الأجسادُ ، قلتُ : إليكُما
– إنْ صَحّ قولُكما ، فلَستُ بخاسرٍ ، أو صَحّ قَولي ، فالخَسارُ علَيكُما

---

١ النحض : اللحم .
٢ العنت : الشدة ودخول المشقة .
٣ قنتوا : أي قاموا بما عليهم لله من الطاعة والصلاة .

حيرة العقل في الموت

أذهني طالَ عهدُكَ بالصّقالِ ... وماجَ النّاسُ في قيلٍ وقالِ
ستُطالِبُني المنيّةُ عن قريبٍ ، ... فإنّي في إسارٍ واعتقالِ
إذا انتقلَتْ عن الأوصالِ نفسي ... فما للجسمِ علمٌ بانتقالِ
أسيرُ فلا أعودُ وما رُجوعي ! ... وقد كانَ الرّحيلُ رَحيلَ قال[1]
أمورٌ يلتبِسنَ على البرايا ، ... كأنّ العقلَ منها في عِقالِ

لا رجعة بعد الموت

ضَحِكنا وكانَ الضّحكُ منّا سَفاهةً ، ... وحُقّ لسُكّانِ البسيطةِ أن يَبكُوا
يُحَطّمُنا رَيبُ الزّمانِ كأنّنا ... زُجاجٌ ولكن لا يُعادُ لهُ سَبكُ

الروح بعد الموت

والرّوحُ شيءٌ لطيفٌ ليسَ يُدرِكُهُ ... عقلٌ ويسكنُ من جِسمِ الفتى حرَجَا[2]
سُبحانَ ربّكَ ، هل يَبقى الرّشادُ لهُ ، ... وهلْ يُحِسّ بما يلقى إذا خرَجَا ؟
وذاكَ نورٌ لأجسادٍ يُحسّنُها ، ... كما تبيّنتَ تحتَ الليلةِ السُّرُجا
قالتْ معاشرُ : يبقى عندَ جُثّتِهِ ، ... وقالَ ناسٌ : إذا لاقى الرّدى عرَجَا[3]
وليسَ في الانسِ من نفسٍ إذا قُبضَتْ ... سافَ الذينَ لدَيها طيبَها الأرِجَا[4]

....

١ قال : مبغض .
٢ الحرج : المكان الضيق .
٣ عرج : ارتقى .
٤ ساف : اشتمّ .

وأسعدُ الناسِ بالدنيا أخو زُهُدٍ ، نافى بنيها ، ونادَوا ، إذ مضى : درَجا[1]

حيرته في الروح

إن يصحبِ الروحَ عقلي بعدَ مظعنِها للموتِ عنّي ، فأجدِر أن ترى عجبا

وإن مضتْ في الهواءِ الرحبِ هالكةً هلاكَ جسمي في تُربي فوا شَجَبا[2]

لا أسف على الحياة

ارجِعْ إلى السنِّ فانظُرْ ما تقادُمها ، فاحكُمْ عليه ولا تَحكمْ على الشَّعَرِ

فكم للابنِ حولاً شيّبتْ ، ومضتْ ستّونَ والشيبُ فيها غيرُ مُستعِرِ

وليس ذلكَ إلاّ صبغةً جُعِلَتْ طبعاً وإنْ قيلَ شابَ الرأسُ للدَّهرِ

تمضي الحياةُ ، وما لي إثرَها أسَفٌ وددتُ أنَّ مُعيرَ العيشِ لم يُعِرِ

والموتُ يسلُبُ ما في الأنفِ من شَمَمٍ تحتَ الترابِ ، وما في الخدِّ من صَعَرِ

أرى فراري منَ المِقدارِ سيّئةً ، لو تعلمُ الخيلُ علمي فيه لم تُعَرِ[3]

ولا ألومُ أخا الإلحادِ بلْ رجُلاً يخشى السعيرَ وما ينفكُّ في سُعُرِ[4]

راحة القبر

لمّا ثوَتْ في الأرضِ ، وهيَ لطيفةٌ ، قُدَماؤنا أمِنتْ منَ الأحداثِ

لم يستريحوا مِنْ شُرُورِ دِيارِهِمْ ، إلاّ برحلتِهِمْ إلى الأجداثِ

---

١ نافى بنيها : أي هاجرهم ودفعهم عنه . درج : مضى لسبيله .
٢ فوا شجبا : فوا حزنا .
٣ لم تعر : أي لم تنفر ولم يخف ذابها ، وبذلك يعظم شأنها .
٤ السعر : الجنون .

سبيل الردى

قبيحٌ أن يُحَسَّ نحيبُ باكٍ ، إذا حانَ الرّدى ، فقضيتُ نحبي
ولم أُرِدِ المنيّةَ باختياري ، ولكنْ أوشكَ الفتيانُ سَحْبي[1]
ولو خُيّرتُ لم أتركْ مكاني ، فأسكنَ في مضيقٍ بعدَ رَحْبِ
وجدتُ الموتَ ينتظمُ البرايا ، بشَجْبٍ منه في أعقابِ شَجْبِ[2]
فأوصيكمْ بدُنياكم هَواناً ، فإنّي تابعٌ آثارَ صَحبي

الموت المسلط

بَقِيتُ ، وما أدري بما هوَ غائبٌ ، لعلّ الذي يَمضي ، إلى اللهِ أقربُ
تَوَدُّ البقاءَ النفسُ من خِيفةِ الرّدى ، وطُولُ بقاءِ المرءِ سمٌّ مُجرَّبُ
على الموتِ يجتازُ المعاشِرُ كلُّهمْ : مُقيمٌ بأهليهِ ، ومَنْ يتغرّبُ
وما الأرضُ إلاّ مثلُنا الرّزقَ تبتغي ، فتأكلُ مِنْ هذا الأنامِ وتشربُ
ولقد كذّبوا حتّى على الشمسِ أنّها تُهانُ ، إذا حانَ الشروقُ ، وتُضرَبُ[3]
كأنّ هِلالاً لاحَ للطّعنِ فيهمُ ، حَناهُ الرّدى ، وهوَ السِّنانُ المجرَّبُ
كأنّ ضِياءَ الفجرِ سيفٌ يَسُلُّهُ عليهِمْ صَباحٌ ، بالمنايا مُذَرَّبُ[4]

---

١ الفتيان : الليل والنهار .
٢ الشجب : الإهلاك .
٣ في أخبار القصاصين أن الشمس تأبى الإشراق ، فتجلدها الملائكة ، وتسوقها قسراً ، وهذا من الإسرائيليات التي دخلت على الإسلام ، وورد في شعر لأمية بن أبي الصلت .
٤ مذرّب : مسموم .

أمراض الشيخوخة

لا خيرَ من بعدِ خمسينَ انقضَتْ كَمَلاً في أنْ تُمارِسَ أمراضاً وأرعاشَا
وقد يَعيشُ الفتى حتى يُقال لهُ : ما ماتَ عندَ لقاءِ الموتِ ، بل عاشَا

البقاء كشعر أبي تمام

وَجدْتُ عَوارِيَّ الحياةِ كثيرةً ، كأنَّ بقاءَ المرءِ شعرُ حَبيبِ[1]
وتلقاهُ مِنْ فَرطِ الصَّبابةِ جاهلاً ، يُغيِّرُ أعلى رأسِهِ بصَبيبِ[2]
وما كَرِهَتْ خيلٌ تُخالُ وأينُقٌ بَياضاً بَدا في غُرَّةٍ وسَبيبِ[3]
فإنَّ طريقَ النّاسِ في الحَتفِ واحدٌ أكُنتَ طَبيباً أمْ نَقيضَ طَبيبِ

عبء النسل

وجَدتُ الموتَ للحيَوانِ داءً ، وكيفَ أُعالجُ الدّاءَ القَديمَا !
وما دُنياكَ إلاّ دارُ سَوْءٍ ، ولَستَ على إساءَتِها مُقيمَا
أرَى وَلَدَ الفتى عِبْأً عليهِ ، لقَد سَعِدَ الذي أمسَى عَقيمَا
أمَا شاهَدتَ كلَّ أبي وَليدٍ ، يَؤمُّ طَريقَ حَتفٍ مُستَقيمَا؟
فإمّا أنْ يُرَبّيَهُ عَدُوّاً ، وإمّا أنْ يُخَلّفَهُ يَتيمَا

---

١ العواري بتشديد الياء وتخفيفها : ما يتداوله الناس بينهم ولا يبقى لأحد منهم كالمال ، واحدته عارة .
٢ الصبيب : خضاب الشيب .
٣ تخال : تساس . السبيب : شعر الذنب .

وصية الميت

جارانِ : شاكٍ ومَسرورٌ بحالتِهِ ، كالغَيثِ يَبكي ، وفيهِ بارِقٌ بَسَمَا
مالُ الدّفينِ أتى الوُرّاثَ، فاقتَسموا ولم يُراعُوهُ في ثلثٍ لهُ قسَمَا
لا أطعَموا منهُ مِسكيناً ، ولا بَذَلوا عُرْفاً، ولا كفّروا، في حِنثه، قسَمَا
أوصَى فلم يَقبلوا منه، وعاهدَهمْ، فقابَلوا بخِلافٍ كلّ ما رَسَمَا
والعيشُ داءٌ، وموتُ المرءِ عافيَةٌ، إنْ داؤهُ بتَواري شَخصِهِ حُسِمَا
أنفاسُهُ كخُطاهُ ، والبَقاءُ لهُ مَسافَةٌ ، فهوَ يَفنى كُلّما انتَسَمَا
مَنازِلُ الأنفُسِ الأجسادُ يُظعِنُها وَفدُ الحِمامِ ،فكم من منزِلٍ طَسَمَا[1]

---

[1] طسم : درس وعفا .

رسالة الغفران

آراء في النقد

مع عدي بن زيد

فيقول لعبيد: «ألك علم بعديّ بن زيد العباديّ؟» فيقول: «هذا منزله قريباً منك.» فيقف عليه، فيقول: «كيف كانت سلامتك على الصراط؟» فيقول: «إنّي كنت على دين المسيح، ومَن كان من أتباع الأنبياء قبل أن يُبعث محمد، فلا بأس عليه، وإنّما التبعة على من سجد للأصنام».

فيقول الشيخ: «لقد هممت أن أسألك عن بيتك الذي استشهد به سيبويه وهو قولك:

أرَوَاحٌ مُوَدِّعٌ أم بُكورُ ... أنتَ فانظرْ لأيّ حالٍ تصيرُ

فإنّه يزعُم أن «أنتَ» يجوز أن تُرفع بفعل مضمر يفسره قولك: فانظر، وأنا أستبعد هذا المذهب ولا أظنّك أردته» فيقول عديّ بن زيد: «دعني من هذه الأباطيل!

ولكني كنت في الدار الفانية صاحب قَنَص، فهل لك أن نركب فرسين من خيل الجنّة، فنبعثهما على صيرانها[1]، وخيطان[2] نعامها، وأسراب ظبائها وعانات[3] حُمُرها، فإن للقنيص للذّة!» فيقول الشيخ: «إنّما أنا صاحب قلم، ولم أكن صاحب خيل!»

١ الصيران: جمع صوار وهي لغة في سوار، والصوار بالضم والكسر: القطيع من بقر الوحش.
٢ الخيطان: جماعات النعام.
٣ العانات: جمع العانة: القطيع من حمر الوحش.

ملاحاة النابغة الجعدي والأعشى

ويقول نابغة بني جعدة ، وهو جالس يسمع : « يا أبا بصير ! أهذه الرّباب التي ذكرها السعدي هي ربابك التي ذكرتها في قولك :

فما نعلق الديكُ حتى ملأتُ كوبَ الرّبابِ له ، فاستدارًا »

فيقول أبو بصير : « قد طال عمرك يا أبا ليلى ، وأحسبُك أصابك الفَنَد[1] ، فبقيت على فنَدِك إلى اليوم ! أما علمتَ أن اللواتي يسمَّين بالرّباب أكثر من أن يحصَيْن ؟ أفتظنّ أنّ الرّباب هذه هي التي ذكرها القائل :

ما بالُ قومِك يا ربابُ خُزْرًا كأنّهمُ غضابُ[2]

أو التي ذكرها امرؤ القيس في قوله :

دار لهندٍ والربابِ وفَرْتَنَى ولميسَ ، قبلَ حوادثِ الأيّام »

فيقول نابغة بني جعدة : « أتكلّمني بمثل هذا الكلام يا خليعَ بني ضُبَيعة ، وقد متَّ كافرًا وأقررتَ على نفسك بالفاحشة ، وأنا لقيتُ النبيَّ ، صلّى الله عليه وسلّم ، فأنشدته كلمتي التي أقول فيها :

بلغنا السّماءَ مجدُنا وسناؤنا ، وإنّا لنبغي فوقَ ذلك مَظهرا

فقال لي : « إلى أين يا أبا ليلى ؟ » فقلت : « إلى الجنّة بك يا رسول الله ! » فقال : « لا يفضُضِ الله فاك ! »

أغرّك أن عدّك بعض الجهّال رابع الشعراء الأربعة ، وكذب مفضّلك ، وإنّي لأطول منك نفَسًا ، وأكثر تصرّفًا ، ولقد بلغت بعدد البيوت ما لم يبلغه أحد.

١ الفند : الخرف .
٢ الخزر : المصابون بضيق العين .

من العرب قبلي ، وأنت لاهٍ بعَفارتك[1] تفتري على كرائم قومك ، وإن صدقتَ فخزياً لك ولمُقارِك[2] » .

فيغضب أبو بصير ، فيقول : « أتقول هذا وإن بيتاً ممّا بنيتُ ليُعدَلُ بمائة من بنائك ؟ وإن أسهبت في منطقك ، فإن المُسهب كحاطب الليل . وإنّي لفي الجرثومة من ربيعة الفرس ، وهل جعدة إلاّ رائدة ظليمٍ[3] نفورٍ ؟ أتعيّرني مدح الملوك يا جاهل ؟ ولو قدرتَ على ذلك لهجرتَ إليه أهلك وولدَك . ولكنّك خُلقت جباناً ، لا تُدلجُ في الظلماءِ الداجية ، ولا تهجّرُ في الوديقة[4] الصاخدة[5] » .

فيقول الجعديّ : « اسكُتْ يا ضُلَّ بنَ ضُلٍّ ، فأقسم ان دخولك الجنّة من المنكرات ، ولكن الأقضية جرت كما شاء الله ! لحقُّك أن تكون في الدّرك الأسفل من النار ، ولقد صلي بها من هو خير منك . ولو جاز الغلط على ربّ العزّة ، لقلت : إنّك غُلط بك .

واستقللتَ بني جعدة ، وليومٌ من أيّامهم يرجح بمساعي قومك ! وزعمتني جباناً وكذبت ، لأنا أشجع منك ومن أبيك ، وأصبر على ادلاج المُظلمة ذات الأريز[6] ، وأشدّ ادلاجاً في الهاجرة أمّ الصَّخَدان ! »

ويثب نابغة بني جعدة على أبي بصير ، فيضربه بكوز من ذهب . فيقول الشيخ ، أصلح الله به : « لا عربدَةَ في الجنان ، إنّما يعرف ذلك بين السّفْلة والهَجاج[7] ، وإنّك يا أبا ليلى لمتترّع[8] . ولولا أنّ في الكتاب الكريم : « لا يُصدّعون عنها ولا يُنزِفون » لظننّاك أصابك نزْفٌ في عقلك » . ويريدُ أن يُصلح بين الندماء ،

---

١ العفارة : الخبث والنكر .
٢ مقارك : مخالطك .
٣ الظليم : ذكر النعام ، والمراد طالبة نسب لفور منها .
٤ الوديقة : شدة الحر .
٥ الصاخدة : الشديدة القيظ .
٦ الاريز : الصقيع .
٧ الهجاج : الحمقى .
٨ متترع : مسرع إلى ما لا تحمد عقباه .

فيقول : « يجب أن يُحذر من ملَك يعبرُ ، فيرى هذا المجلسَ ، فيرفعُ حديثه إلى الجبار الأعظم ، فلا يجرّ ذلك إلاّ إلى ما تكرهان .

واستغنى ربّنا أن تُرفعَ الأخبار إليه ؛ ولكن جرى ذلك مجرى الحَفَظة في الدار العاجلة . أما علمتما أن آدم خرج من الجنّة بذنبٍ حقير ! فغير آمنٍ مَن وُلد أن يُقدّر له مثل ذلك ! فسألتك بالله يا أبا بصير : هل يهجِسُ لك تمني المدام؟ » فيقول : « كلاّ والله ، إنّها عندي كمثل المَقِر ، لا يخطُرُ ذكرها بالخلَد ، فالحمد لله الذي سقاني عنها السُّلوانة[1] » .

فيقول : « يا أبا ليلى ! إن الله ، جلّت قدرته ، مَنّ علينا بهؤلاء الحور العينِ اللواتي حوّلهنّ عن خلق الإوزّ ، فاختر لنفسك واحدة منهنّ ، فلتذهب معك إلى منزلك تلاحنك أرقّ اللّحان ، وتسمعك ضروب الألحان » .

فيقول لبيد بن ربيعة : « إن أخذ أبو ليلى قينةً ، وأخذ غيره مثلها ، أليس ينتشر خبرُها في الجنّة ؟ فلا يُؤمَن أن يسمّى فاعلو ذلك : أزواجَ الاوزّ » .

فتُضرب الجماعة عن اقتسام أولئك القيان .

مدح رضوان

فلمّا أقمتُ في الموقف زُهاء شهرٍ أو شهرين ، وخِفتُ من الغرق ، في العرق ، زيّنَت لي النفس الكاذبة أن أنظم أبياتاً في رِضوانَ ، خازن الجنان ، عمِلتها في وزن : « قفا نبكِ من ذكرى حبيب وعِرفان » ووسمتها برِضوان ، ثمّ ضانكتُ النّاس حتّى وقفت منه بحيث يسمع ويرى ، فما حفَل بي ، ولا أظنّه أبِه لما أقول ، فغبرتُ[2] برهة نحو عشرة أيّام من أيّام الفانية ، ثمّ عملت أبياتاً في وزن :

بانَ الخليطُ ولو طُووِعْتَ ما بانا   وقطّعوا من حِبال الوصل أقرانا

---

١ السلوانة : العسل .
٢ غبرت : أي مكثت .

ووسمتها برضوان ، ثمّ دلوت منه ، فعلت كفعلي الأوّل ، فكأنّي أحرّك ثبيراً ، وألتمس من العِضرِم[1] عبيراً ، فلم أزل أتتبّع الأوزان الّتي يمكن أن يوسم بها رضوان حتّى أفنيتها ، وأنا لا أجد عنده مغوثةً ، ولا ظننته فهم ما أقول ، فلمّا استقصيتُ الغرض فما أنجحتُ ، دعوت بأعلى صوتي : « يا رضوان ! يا أمين الملك الجبّار الأعظم على الفراديس ! ألم تسمع ندائي بك ، واستغاثتي إليك ؟ » فقال : « لقد سمعتك تذكر رضوان وما علمت مقصدَك ، فما الذي تطلبُه أيّها المسكين ؟ » فأقول : « أنا رجل لا صبر لي على اللُّواب[2] ، وقد استطلت مدّةَ الحساب ، ومعي صكّ بالتوبة ، وهي للذّنوب كلّها ماحية ، وقد مدحتُك بأشعار كثيرة ووسمتُها باسمك » فقال : « وما الأشعار ؟ » فقلت : « الأشعار جمع شعر ، والشعر كلامٌ موزون تقبله الغريزة على شرائط إن زاد أو نقص أبانه الحسّ ، وكان أهلُ العاجلة يتقرّبون به إلى الملوك والسادات فجئتُ بشيءٍ منه إليك ، لعلّك تأذن لي بالدخول في هذا الباب ، فقد استطلتُ ما النّاسُ فيه ، وأنا ضعيفٌ منِينٌ[3] ولا ريب أنّي ممّن يرجو المغفرة ، وتصحّ له بمشيئة اللهِ تعالى » فقال : « إنّك لغبينُ الرأي ، أتأملُ أن آذن لك بغير إذنٍ من ربّ العزّة ؟ هيهات هيهات ! وأنّى لهم التناوشُ[4] من مكانٍ بعيد ! »

مع امرىء القيس

ويسأل عن امرىء القيس بن حُجْرٍ ، فيقول : « يا أبا هندٍ أخبرني عن التسميط[5] المنسوب إليك ، أصحيحٌ هو عنك ؟ »

---

1 العضرم : تراب يشبه الجص .
2 اللواب : العطش .
3 المنين : الضعيف .
4 التناوش : التناول .
5 التسميط : ضرب من الشعر المخمس ، أجزاؤه على غير روي القافية .

وينشدُه الذي يرويه بعض النّاس :

يا قومِ إنّ الهوى إذا أصابَ الفتى
في القلبِ ثمّ ارتقى فهدّ بعضَ القُوى
فقد هوى الرّجلُ

فيقول : « واللهِ ما سمعتُ هذا قطّ ، وإنّه لقَريّ[1] لم أسلكه ، وإنّ الكذبَ لكثيرٌ .
وأحسبُ هذا لبعض شعراء الإسلام ، ولقد ظلمني وأساء إليّ . أبعدَ كلمتي التي أوّلها :

ألا عِم صباحاً أيّها الطّللُ البالي وهل يعمنْ من كان في العُصُر الخالي

وقولي :

خليليّ مرّا بي على أمّ جُندبِ لأقضيَ حاجاتِ الفؤادِ المعذَّبِ

يُقال لي مثل ذلك؟ والرّجزُ من أضعف الشعر ، وهذا الوزنُ من أضعفِ الرّجز ! »
فيعجب لما سمعهُ من امرئ القيس .

مع عنترة

وينظر ، فإذا عنترةُ متلدّدٌ[2] في السعير ، فيقول : « ما لك يا أخا عبس !
كأنّك لم تنطق بقولك :

ولقد شربتُ من المُدامةِ بعدما ركدَ الهواجرُ بالمَشوفِ المُعلَمِ[3]

. . . .

١ القري : مسيل الماء من الربوة ، ويكنى به عن الأمر الصغير .
٢ متلدد : متحير يلتفت يميناً وشمالاً .
٣ ركد : سكن ؛ الهواجر ، جمع الهاجرة : شدة الحر قرب الظهر . المشوف : المجلو ، ويراد المشوف
المعلم أي الدينار .

بزُجاجةٍ صفراء ذاتِ أسِرّةٍ   قُرِنَتْ بأزهرَ في الشمالِ مُفدَّمِ[1]

وإنّي إذا ذكرتُ قولك : « هل غادر الشعراء من متردّم » لأقول : « إنّما قيل ذلك وديوان الشعر قليلٌ محفوظٌ ، فأمّا الآن فلو سمعتَ ما قيل بعد مَبعث النبيّ ، صلّى الله عليه وسلّم ، لعَتَبتَ نفسك على ما قلت ، وعلمتَ أن الأمر كما قال حبيبُ بنُ أوس[2] :

فلو كان يَفنى الشّعرُ أفناه ما قَرَتْ   حِياضُكَ منه في العصور الذواهبِ[3]

ولكنّه صوبُ العقول ، إذا انجلت   سحائب منه أُعقِبَتْ بسحائبِ

فيقول : « وما حبيبُكم هذا ؟ » فيقول : « شاعرٌ ظهر في الإسلام » وينشده شيئاً من نظمه ، فيقول : « أمّا الأصل فعربيّ ، وأمّا الفرع فنَطق به غبيّ ، وليس هذا المذهبُ على ما تعرف قبائلُ العرب . » فيقول ، وهو ضاحكٌ مستبشرٌ : « إنّما يُنكَر عليه المستعار ، وقد جاءت العاريّة في أشعار كثيرة من المتقدّمين ، إلاّ أنّها لا تجتمع كاجتماعِها فيما نظَمَه حبيبُ بنُ أوسٍ .

ولقد شقّ عليّ دخولُ مثلك إلى الجَحيم ، وكأنّ أُذني مُصغيةٌ إلى قينات الفسطاط وهي تغرّدُ بقولك :

أمن سُمَيّة دمعُ العينِ تذريفُ   لو أنّ ذا منكِ ، قبلَ اليومِ ، معروفُ »

مع عمرو بن كلثوم

فليت شعري ، ما فعلَ عمرو بنُ كلثومٍ ؟

فيقال : « ها هوذا من تحتكَ ، إن شئتَ أن تُحاورَه فحاوِره » .

---

١ ذات اسرة : ذات خطوط . ازهر : أي ابريق أبيض . في الشمال : أي مبرد بريح الشمال . مفدم : أي مسدود بمصفاة لتصفيته .

٢ أبو تمام .

٣ قرت : جمعت .

فيقول : « كيف أنت أيّها المصطبِحُ[1] بصحن الغانية ، والمُغتَبِقُ[2] من الدنيا الفانية ! لوَددتُ أنّك لم تُساند[3] في قولك :

كأنّ مُتونَهنّ مُتونُ غُدْرٍ تُصفّقُها الرّياحُ إذا جرَيْنَا[4] »

فيقول عمرو : « إنّك لقريرِ العين ، لا تشعر بما نحن فيه ، فاشغل نفسَك بتمجيد الله ، واترك ما ذهب فإنّه لا يعود . وأمّا ذِكرك سِنادي فإن الإخوة ليكونون ثلاثةً أو أربعةً ، ويكونُ فيهِم الأعرجُ والأبخقُ[5] فلا يُعابون بذلك ، فكيفَ إذا بلغوا المائةَ في العدد ؟ »

جنة الرجز

ويمرّ بأبيات ليس لها سُمُوق[6] أبيات الجنّة ، فيسأل عنها ، فيقال : « هذه جنّة الرَّجَز » فيقول : « تبارك العزيز الوهّاب ، لقد صدق الحديث المَرويّ : « إنّ الله يُحبّ معالي الأمور ويكره سَفْسافَها » وإن الرّجَز لمن سَفساف القريض ؛ قصّرتم أيّها النّفَرُ فقُصّرَ بكم ! »

ويعرض له رؤبة[7] فيقول : « يا أبا الجحّاف ! ما كان أكلفك بقوافٍ ليست بالمُعجبة ، تصنع رَجَزاً على الغين ، ورجزاً على الطاء ، وعلى الظاء ، وعلى غير ذلك من الحروف النافرة ، ولم تكن صاحبَ مثلٍ مذكور ، ولا لفظٍ يُستَحسن ! » فيغضَبُ رؤبة ويقول : « ألي تقول هذا ؟ وعنّي أخذ الخليل وكذلكَ أبو عمرو بن

١ المصطبح : الذي يشرب الخمر صباحاً ، يشير الى قول عمرو في اول معلقته :

الا هبي بصحنك فاصبحينا ولا تبقي خمور الأندرينا

٢ المغتبق : الشارب مساء .

٣ لم تساند : أي لم تأت بالسناد في شعرك .

٤ غدر : مخفف غدر ، جمع غدير . السناد هنا في فتح الراء قبل الياء الساكنة في قوله جرينا .

٥ الأبخق : الاعور القبيح العور .

٦ سموق : ارتفاع .

٧ رؤبة بن العجاج .

العلاء ، وقد غبرت[1] في الدار السالفة تفتخر باللفظة تقع إليك ، مسنا لقاه أولئك عني ومن أشباهي ؟ » فإذا رأى ما في رؤبة من الالتخاء[2] قال : « لو شبابك رجزاً ورجز أبيك لم تخرج منه قصيدة مستحسنة ، ولقد كنت تأخذ جوائز الملوك بغير استحقاق ، وإن غيرك أولى بالأعطية والصلات » فيقول رؤبة : « أليس رئيسك في التأديم ، والذي ضهلت[3] إليه المقاييس ، كان يستشهد بقولي ويجعلني له كالإمام ؟ »

فيقول : « لا فخر لك أن استشهد بكلامك ، فقد وجدناهم يستشهدون بكلام أمة وكعاء[4] ، وكم روى النحاة عن طفل ما له في الأدب » فيقول رؤبة : « أجئت لخصامنا في هذا المنزل ؟ فامض لطيتك ، فقد أخذت بكلامنا ما شاء الله ! » فيقول : « ألسمت ما يصلح كلامكم للثناء ، تسكتون مسامع الممتدح بالجندل ، ومتى خرجتم عن صفة جمل ترثون له من طول العمل ، إلى صفة فرس أو كلب فإنكم غير الراشدين ! » فيقول رؤبة : « إن الله ، سبحانه وتعالى ، قال : « يتنازعون فيها كأساً لا لغو فيها ولا تأثيم » وإن كلامك لمن اللغو ! »

فإذا طالت المخاطبة بينه وبين رؤبة ، سمع العجاج ، فجاء يسأل المحاجزة[5]

المتنبي

فأمّا ما ذكره من قول أبي الطيّب : « أذمّ إلى هذا الزمان أهيله » فقد كان الرجلُ مولعاً بالتصغير ، لا يقنع منه بخلسة المغير ، كقوله :

مَن لي بفهم أهيلِ عصرٍ يدّعي   أن يحسُبَ الهنديَّ فيهم باقلُ[6]

١ غبرت : ظللت .
٢ الالتخاء : العظائم .
٣ ضهلت : رجعت .
٤ وكعاء : حمقاء .
٥ المحاجزة : المسالمة .
٦ باقل : رجل اشترى ظبياً بأحد عشر درهماً فسئل عن ثمنه فبين لهم حسابه بفتح كفيه وإخراج لسانه، فانفلت الظبي ، فضرب به المثل في العي .

وقوله : « مقالي للأُحَيمِق يا حليمُ »

وقوله : « ولام المُوَيدِمُ عن لَيلنا »

وقوله : « أفي كلِّ يوم تحتَ ضِبني شُوَيعِرٌ[1] »

وغير ذلك ممّا هو موجودٌ في ديوانه ، ولا ملامةَ عليه ، إنّما هي عادة صارت كالطبع ، تُغتفر مع المَحاسين . وهذا البيت الذي أوّله : « أذمُّ إلى هذا الزمان أهَيلَه » إنّما قاله في عليِّ بنِ محمّد بنِ سيّار بأنطاكية قبل أن يمدح سيف الدولة . والشعراء مُطلق لهم ذلك ، لأن الآية شهِدت عليهم بالتّخَرّص وقول الأباطيل : « ألم ترَ أنّهم في كلِّ وادٍ يَهيمون ؟ وأنّهم يقولون ما لا يفعلون ؟ »

---

١ الضبن : ما بين الكَشح والإبط .

بديع الزمان الهمذاني

رسائله

فتح بهاطية

كتب هذه الرسالة إلى الوزير أبي العباس الاسفرائيني بعد أن فتح الأمير محمود بن سبكتكين بهاطية من بلاد الهند ، ويقال لها أيضاً بهاطية . قال ابن خلدون : هي مدينة حصينة عليها نطاق من الأسوار ، وآخر من الخنادق بعيدة المهوى . عبر إليها السلطان نهر جيحون وافتتحها ، ثم أصلح أمورها ، واستخلف عليها من يعلم أهلها قواعد الإسلام ؛ ولما رجع إلى غزنة لقي شدة من الأمطار في الوحل ، وزيادة المدد في الأنهار ، وغرق كثير من عسكره :

إنَّ اللهَ ، وَهوَ العَليّ العَظيمُ المُعطي ما شاءَ ، مَنّ على الإنسانِ ، بهذا اللّسانِ ؛ خلَقَ ابنَ آدَمَ وأودَعَ فكّيهِ مُضغةَ لَحمٍ[1] يُصرّفُها في القُرونِ الماضيةِ[2] ، ويُخبّرُ بها عنِ الأُمَمِ الآتيةِ ؛ يُخبّرُ بها عمّا كانَ بَعدَما خُلِقَ[3] ، وعمّا يَكونُ قَبلَ أنْ يُخلَقَ[4] . يَنطِقُ بالتّواريخِ عمّا وَقَعَ مِنْ خَطْبٍ ، وجَرى مِن حَربٍ ، وكانَ من يابِسٍ ورَطْبٍ[5] ؛ ويَنطِقُ بالوَحيِ عمّا سيَكونُ بَعدُ ، وصَدَقَ[6] عَنِ اللهِ بالوَعدِ . ولم يَنطِقِ التّاريخُ بما كانَ ،

....

١ مضغة لحم : يريد بها اللسان .
٢ يصرفها : يقال صرفه في الأمور : أي قلبه . والمراد : أنه يصرف لسانه في الكلام على القرون الماضية.
٣ خلق : الضمير يعود إلى عما كان .
٤ يخلق : الضمير يعود إلى عما يكون . والمراد بذلك نبوءات الأنبياء .
٥ من يابس ورطب : أي من شدة ورخاء .
٦ وصدق : أي وعما صدق .

ولا الوَحيُ بما يَكونُ بأنّ اللهَ[1] تَعالى خصّ أحَداً مِن عِبادِهِ ، لَيسَ النّبيّينَ[2] ، بما خصّ بهِ الأميرَ السيّدَ ، يَمينَ الدّولَةِ ، وأمينَ المِلّةِ [3] . ودونَ الجاحِدِ[4] ، إنْ جَحَدَ[5] ، أخبارُ[6] الدّولَةِ العبّاسيّةِ ، والمُدّةِ المَرْوانيّةِ[7] ، والسّنينَ الحَربيّةِ[8] ، والبَيعَةِ الهاشميّةِ[9] ، والأيّامِ الأُمَويّةِ[10] ، والإمارَةِ العَدَويّةِ[11] ، والخِلافَةِ التّيْميّةِ[12] ، وعَهدِ الرّسالَةِ النّبَويّةِ ، وزَمانِ الفَتْرَةِ[13] . ولَولا الإطالَةُ ، لَعَدَدْنا إلى عادٍ وثَمودَ[14] بَطْناً بَطْناً ، وإلى نُوحٍ وآدمَ قَرْناً قَرْناً ، ثمّ لم يَجِدْ قائلٌ مَقالاً[15] أنّ مَلِكاً ، وإنْ عَلا أمرُهُ ، وعَظُمَ قَدرُهُ ، وكَبُرَ سُلطانُهُ ، وهَبّتْ ريحُهُ[16] ، طَرَقَ الهِندَ[17] ، فأسَرَ طاغيَتَها بَسطَةَ مُلْكٍ[18] ،

....

١ بأن الله : بيان تفصيلي على التنازع من بما كان وبما يكون .

٢ ليس النبيين : أي إلا النبيين ، استثناء .

٣ الملة : الديانة .

٤ دون الجاحد : أي أمامه ، والظرف متعلق بخبر مقدم . وأراد بالجاحد من ينكر عليه زعمه بأن الله خص الأمير بفضل لم يخص به أحداً من عباده إلا الأنبياء .

٥ إن جحد : أي إن جحد قولنا .

٦ أخبار : مبتدأ مؤخر .

٧ المدة المروانية : أي مدة الخلافة الأموية من مروان بن الحكم إلى مروان بن محمد آخر خلفائهم .

٨ السنين الحربية : أي مدة الخلافة الأموية من معاوية بن أبي سفيان بن حرب ، إلى حفيده معاوية بن يزيد ؛ ثم انتقلت الخلافة إلى مروان بن الحكم .

٩ البيعة الهاشمية : بيعة علي بن أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم .

١٠ الأيام الأموية : أي أيام عثمان بن عفان الأموي .

١١ الإمارة العدوية : أي إمارة عمر بن الخطاب ، منسوبة إلى عدي أحد أجداده .

١٢ الخلافة التيمية : أي خلافة أبي بكر منسوبة إلى تيم أحد أجداده .

١٣ زمان الفترة : أي العصر الجاهلي قبل بعثة محمد .

١٤ عاد وثمود : من العرب البائدة .

١٥ أي لم يجد في أخبار الدول التي ذكرناها أن ملكاً .

١٦ هبت ريحه : أي انتشر ذكره .

١٧ طرق الهند : أي غزاها .

١٨ بسطة ملك : أي سعة ملك ؛ وبسطة منصوبة على المصدرية ، أي أسر طاغيتها أسر بسطة ملك .

ثمَّ خَلاَّهُ ؛ وعَرَضَ الأرضَ[1] قوّةَ قلبٍ[2] ؛ وصبَّحَ سَجِستانَ[3] ، وهيَ المَدينةُ العَذراءُ[4] ، والخِطّةُ[5] العَوراءُ[6] ، والطَّيّةُ الغَرّاءُ[7] ؛ فأخذَ مَلِكَها إخْذَةَ عِزٍّ وعُنفٍ ؛ ثمَّ خَلاّهُ تَخليةَ فَضلٍ ولُطفٍ . ثمَّ لم يَلبَثْ أنْ خاضَ البَحرَ إلى بَهاضيةَ ؛ والسَّيلُ والليلُ جُنودُها[8] ، والشَّوكُ والشَّجَرُ سِلاحُها[9] ، والضِّحُّ[10] والرِّيحُ طَريقُها ، والبرُّ والبَحرُ[11] حِصارُها ، والجِنّ[12] والإنسُ أنصارُها ؛ فقَتَلَ رِجالَها ، وغَنِمَ أموالَها ، وساقَ أقيالَها[13] ، وكَسَّرَ أصنامَها ، وهَدَّمَ أعلامَها[14] ؛ كلُّ ذلكَ في فُسحةِ شَتْوَةٍ ، قَبلَ أنْ يَتَطَرَّقَها[15] الصَّيفُ ، تَوَسَّطَها السَّيفُ . وهوَ اللهُ يُؤتي المُلكَ مَنْ يَشاءُ ، ويَنزِعُهُ مِمّنْ يَشاءُ .

ثمَّ حكَمَتْ عُلَماءُ الأُمّةِ ، واتّفَقَ قَولُ الأئمّةِ أنَّ سيوفَ الحَقِّ أربعةٌ ، وسائرُها[16] للنّارِ : سَيفُ رَسُولِ اللهِ في المُشرِكينَ[17] ، وسَيفُ أبي بَكرٍ

١ عرض الأرض : أي أمرها على بصره ، كما يعرض الجند ، ليختبرها وينظر حالها .
٢ قوة قلب : أي عرض قوة قلب ، فقوة منصوبة على المصدرية .
٣ سجستان : ولاية واسعة من بلاد الفرس وهي جنوبي هراة ، وأرضها كلها رملة حارة سبخة ، والرياح فيها لا تسكن أبداً ، ولا تزال شديدة .
٤ المدينة العذراء : أي التي لم يدخل إليها فاتح .
٥ الخطة : الأرض التي لم ينزلها نازل .
٦ العوراء : الفريدة ليس لها أخت ، أو التي لا ماء فيها .
٧ الطية : الجهة التي يطوي قاصدها البلاد من أجلها . الغراء : الشديدة الحر ، والنفيسة .
٨ أي كثيرة الأمطار والغيوم في الشتاء .
٩ أي تدفع عنها الغزاة غابة من الشجر والشوك .
١٠ الضح : ضوء الشمس إذا استمكن من الأرض ، فاشتدت الحرارة .
١١ البر والبحر : يريد بذلك أسوارها الحصينة ، وخندق الماء المحيط بها وما يتقدم ذلك من صعوبة مسالكها في قفارها وجبالها وأنهارها .
١٢ الجن : يبالغ في مناعتها فيجعل الجن يشتركون مع الإنس في الدفاع عنها .
١٣ الأقيال : الملوك . والمراد هنا ساداتها وأشرافها .
١٤ الأعلام : الجبال . والمراد هنا أسوارها وحصونها .
١٥ يتطرقها : يأتيها ، والضمير لبهاضية .
١٦ سائرها : أي بقية السيوف .
١٧ المشركين : الذين يجعلون لله شريكاً ، والمراد بهم مشركو قريش الذين حاربوا النبي وكانوا يعبدون الأصنام .

في المُرْتَدّينَ[1] ، وسَيفُ عَليٍّ في الباغينَ[2] ، وسَيفُ القِصاصِ بَينَ المُسلِمينَ[3] .
وسُيوفُ الأميرِ ، وَفّقَهُ اللهُ في مَواقِفِهِ ، لا تَخرُجُ عَنْ هذِهِ الأقسامِ :
فسَيفُهُ بظاهِرِ[4] هَراةَ[5] فيمَنْ عَطّلَ الحَدّ[6] ، واتُّهِمَ بأنّهُ ارتَدّ ؛ وسَيفُهُ
بظاهِرِ غَزْنَةَ[7] سَدٌّ في وَجهِ العُقوقِ[8] ، نَوعاً مِنَ الكُفرِ والفُسوقِ[9] ؛ وسَيفُهُ
بظاهِرِ مَرْوٍ[10] فيمَنْ نَقَضَ العَهدَ ، بَعدَ تَغليظِهِ[11] ، ونَبَذَ اليَمينَ بَعدَ
تأكيدِهِ[12] ؛ وسَيفُهُ بظاهِرِ سَجِستانَ فيمَنْ نَبّهَ الحَربَ ، بَعدَ رُقودِها ،
وخلَعَ الطّاعَةَ ، بَعدَ قَبولِها ؛ وسَيفُهُ ، الآنَ ، في دِيارِ الهِندِ ، سَيفٌ قُرِنَتْ
بهِ الفُتوحُ ، وأثنَتْ علَيهِ المَلائكَةُ والرّوحُ[13] ، وذَلّتْ بهِ الأصنامُ ، وعَزّ
بهِ الإسلامُ ، والنّبيّ علَيهِ السّلامُ ، واختَصّ بفَضلِهِ الإمامُ[14] ، واشتَرَكَ في
خَيرِهِ الأنامُ ، وأرّختْ بذِكرِهِ الأيّامُ[15] ، وأُحفيَتْ[16] بشَرحِهِ الأقلامُ .

وسَنَذكُرُ مِنْ حَديثِ الهِندِ وبِلادِها ، وغِلَظِ أكبادِها[17] ، وشِدّةِ

---

١ المرتدين : العرب الذين ارتدوا عن الإسلام بعد موت النبي ، فحاربهم أبو بكر .
٢ الباغين : يريد بهم الذين بغوا على علي في خلافته وحاربوه .
٣ القصاص : القود ، أي إقامة الحد لمعاقبة الجناة من المسلمين ، كحد السرقة ، وحد القتل عمداً .
٤ الظاهر : المكان المشرف من الأرض .
٥ هراة : بلد في خراسان .
٦ عطل الحد : أي أبطل إقامة الحدود الشرعية في معاقبة الجناة .
٧ غزنة : مدينة بالأفغان ، وكانت عاصمة الدولة الغزنوية ، وأعظم سلاطينها فاتح بهاضية .
٨ العقوق : أي الخروج عن الطاعة .
٩ الفسوق : الخروج عن طريق الحق في الدين .
١٠ مرو : بلد بخراسان .
١١ تغليظه : توثيقه .
١٢ تأكيده : الضمير يعود إلى اليمين وهي مؤنثة ، فالظاهر أنه أخذها لنظير الحلف ، وهو مذكر ، أو أن الضمير عائد لنابذ اليمين ، وضمير اليمين محذوف تقديره : تأكيده إياها ، أو تأكيده لها .
١٣ الروح : أي جبريل .
١٤ الإمام : المراد به الأمير فاتح بهاضية .
١٥ أي صار تاريخ الأيام يحسب من فتح بهاضية .
١٦ أحفيت : أي بريت .
١٧ أي قسوتها وشدتها .

أحقادها ، وقوّة اعتقادها ، وصدق جلادها[1] ، وكثرة أجنادها ، نُبذاً[2] ، ليَعلمَ السامعُ أيّ غزوةٍ غزاها الأميرُ السيّدُ : إنّها بلادٌ ، لو لم تُحيها السّحابُ بدَرّها[3] ، لأهلكتها الشّمسُ بحَرّها . فهيَ دولةٌ بينَ الماءِ والنّارِ ، ونوبةٌ[4] بينَ الشّمسِ والأمطارِ ، تقدّمُها[5] صعابُ الجبالِ ، وتحجبُها رحابُ القفارِ ، ويَعصمُها مُلتفّ الغياضِ[6] ، وتحفُّها طَواغي الأنهارِ ، حتى إذا خُرقتْ هذهِ الحُجُبُ ، خلَصَ إلى عَدَدِ الرّملِ والحَصى رجالاً ، وشبهِ الجبالِ أفيالاً ، وأنزاعِ المَخاضِ جِلاداً[7] ، ومِسنافِ الجِمالِ طِعاناً[8] ، وأركانِ الجبالِ ثَباتاً ، ثمّ لا يَعرفونَ غَدراً ولا بَياتاً[9] ، ولا يَخافونَ مَوتاً ولا حَياةً ، ولا يُبالونَ على أيّ جَنبيهِ وقعَ الأمرُ ، ويَنامُونَ وتحتَهُمُ الجَمرُ . وربّما عَمَدَ أحَدُهُمْ لغَيرِ ضرورةٍ داعيةٍ ، ولا حَميّةٍ باعثةٍ ، فاتّخذَ لرأسهِ منَ الطّينِ إكليلاً ، ثمّ قوّرَ قِحفَهُ[10] ، فحَشاهُ فَتيلاً ، ثمّ أضرَمَ في الفَتيلِ ناراً ولم يتأوّهْ ؛ والنّارُ تَحطِمُهُ عُضواً فعُضواً ، وتأكُلُهُ جُزءاً فجُزءاً . فأمّا مُحرِقُ نَفسِهِ ومُغرِقُها ، وآكِلُ لحمِهِ ، ومُفَصّلُ[11] عِظامِهِ ، والرّامي بها[12] مِن شاهِقٍ ،

....

١ جلادها : أي قتالها .
٢ نبذاً ، جمع نبذة : القطعة والشيء اليسير من الكلام ، وهي مفعول به من وسنذكر .
٣ بدرها : أي بمطرها .
٤ نوبة : دولة .
٥ تقدمها : أي تتقدمها .
٦ الغياض : جمع غيضة وهي مجتمع الأشجار .
٧ الأنزاع : جمع نزع وهو الجذب والقطع . المخاض : طلق المرأة الحامل . يقول : إن ضربهم بالسيوف موجع كأنه نزع المخاض .
٨ المسناف : الجمل الذي لا يثبت الرحل على ظهره ، فإما يقدمه ، وإما يؤخره ، فيجعل له سناف أي حبل يشد به الرحل ويحكم ويثبت ؛ ومن ذلك قالوا أسنفوا أمرهم : أي أحكموه . وقوله ومسناف الجمال طعاناً : أي أنه طعن محكم مسدد لا يختلف ولا يخل كإحكام السناف للرحل .
٩ البيات : الإيقاع بالعدو ليلا على غفلة منه .
١٠ القحف : العظم الذي فوق الدماغ من الجمجمة .
١١ مفصل : مقطع .
١٢ الرامي بها : أي بنفسه .

فأكثرُ مِنْ أنْ يُعَدَّ . وأقَلُّهُمْ مَنْ يَموتُ حَتْفَ أنفِهِ ؛ فإذا ماتَ هذه الميتةَ أحَدُهُمْ ، سُبَّ بها أعقابُهُ ، وعَظُمَ عندَهُمْ عِقابُهُ .

بلادٌ هذهِ حالُها ، وفِيَلَةٌ تلكَ أهوالُها ، وجِبالٌ في السَّماءِ قِلالُها[1] ، وفَلاةٌ يَلمعُ آلُها[2] ، وغِياضٌ ضَيِّقٌ مَجالُها ، وأنهارٌ كثيرةٌ أوحالُها ، وطريقٌ طَويلٌ مِطالُها[3] ؛ ثمَّ الهِندُ ورِجالُها ، والهِندُوانيّةُ[4] واستِعمالُها ؛ زَحَمَ الأميرُ السيِّدُ ، أدامَ اللهُ ظِلَّهُ ، هذهِ الأهوالَ بمَنكِبِهِ ، مُحتَسِباً نَفسَهُ[5] ، مُعتَمِداً نَصرَ اللهِ وعَونَهُ ؛ فرَكَضَ إليهِمْ بعَونٍ منَ اللهِ لا يَخذُلُ ، ومَدَدٍ منَ التَّوفيقِ لا يَفتُرُ ، وقَلبٍ منَ الأهوالِ لا يَجبُنُ ، وحَثٍّ على المَطلوبِ لا يَقصُرُ ، وسَيفٍ على الضَّريبةِ لا يَنكُلُ[6] ؛ فسَهَّلَ اللهُ لهُ الصَّعبَ ، وكَشَفَ بهِ الخَطبَ ؛ ورَجَعَ ثانياً[7] من عِنانِهِ ، بالأسارى تَنظِمُهُمُ الأغلالُ ، والسَّبايا تَنقُلُهُمُ الجِمالُ ، والفِيَلَةِ كأنَّها الجِبالُ ، والأموالِ ولا الرِّمالُ[8] . فتَحٌ ذَخَرَهُ اللهُ عنِ المُلوكِ السَّالفةِ الخاليةِ[9] ، الكَفَرَةِ الطَّاغيةِ ، الجَبابرةِ العاتيةِ ؛ حتى وَسَمَهُ[10] بنارِهِ ، وجَعَلَهُ بَعضَ آثارِهِ ؛ والحَمدُ للهِ مُعِزِّ الدِّينِ وأهلِهِ ، ومُذِلِّ الشِّركِ وحِزبِهِ ؛ وصلّى اللهُ على مُحَمَّدٍ وآلِهِ .

---

١ قلالها : أعاليها ، مفردها قلة .

٢ آلها : أي السراب الذي يشرف على الناظر في المفاوز ، ويلمع كالماء من شدة الحر .

٣ مطالها : أي مماطلتها المسافر فيها لما هي عليه من الطول .

٤ الهندوانية : السيوف المطبوعة في الهند .

٥ محتسباً نفسه : أي مخاطراً بها لوجه الله طالباً الأجر والثواب .

٦ الضريبة : الضرب . لا ينكل : لا يجبن ، والمراد : لا يكل .

٧ ثانياً : اسم فاعل من ثنى ، أي رد الشيء بعضه على بعض .

٨ ولا الرمال : أي ولا الرمال مثلها .

٩ ذخره الله عن الملوك : أي حبسه عنهم . الخالية : الماضية .

١٠ وسمه : علمه . يقول : إن الله وسم هذا الفتح بنار الأمير ، أي كواه بها ، وجعل له علامة يعرف بها أنه مختص بهذا الأمير ، كما توسم الإبل والخيل بسمات أصحابها فتعرف بها .

المقامة الجاحظية

حَدَّثَنا عيسَى بنُ هِشامٍ قالَ : أثارَتْني [1] ورِفقَةً وليمَةٌ ؛ فأجَبتُ إليها للحَديثِ المأثورِ عَن رَسولِ اللهِ ، صلّى اللهُ علَيهِ وسَلّمَ : لو دُعيتُ إلى كُراعٍ [2] لأجَبتُ ، ولو أُهديَ إليّ ذِراعٌ لَقَبِلتُ [3] ؛ فأفضَى بنا السَّيرُ إلى دارٍ

تُرِكَتْ والحُسنَ تأخُذُهُ ، تَنتَقي منهُ وتَنتَخِبُ
فانتَقَتْ منهُ طَرائِفَهُ ، واستَزادَتْ بَعضَ ما تَهَبُ [4]

قَد فُرِشَ بِساطُها ، وبُسِطَتْ أنماطُها [5] ، ومُدَّ سِماطُها [6] ؛ وقَومٍ [7] قد أخَذوا الوَقتَ بَينَ آسٍ [8] مَخضودٍ [9] ، ووَردٍ مَنضودٍ [10] ، ودَنٍّ مَفصودٍ [11] ، وناي [12] وعُودٍ . فصِرنا إلَيهِم ، وصاروا إلَينا .

....

١ أثارتني : أي أنهضتني من مكاني .
٢ الكراع : ما استدق من ساق البقر والغنم ، يذكر ويؤنث .
٣ الذراع : فوق الكراع من أيدي البقر والغنم
٤ الطرائف : جمع الطريفة وهي الشيء المستحدث المعجب ؛ وقوله واستزادت بعض ما تهب : أي طلبت المزيد على ما انتقت من طرائف الحسن ، وهو بعض ما تهب غيرها من محاسنها ، والمراد أنها تشيع محاسنها على ما جاورها من الدور .
٥ الأنماط : جمع نمط وهو غطاء الفراش وظهارته ، أو ضرب من البسط .
٦ السماط : ما يمد عليه الطعام ، كالخوان وما أشبه .
٧ وقوم : عطف على دار .
٨ الآس : شجر ورقه عطر ، ويعرف عند العامة بالريحان ، وثمره بالحنبلاس ، وهو تحريف لحب الآس ، الواحدة آسة .
٩ المخضود : من خضد العود كسره أو ثناه من غير كسر .
١٠ منضود : وضع بعضه فوق بعض .
١١ الدن : وعاء الخمر . المفصود : أي بزل فسالت خمرته .
١٢ الناي : آلة من آلات الطرب ينفخ فيها .

ثمّ عكفنا على خِوانٍ قد مُلئتْ حياضُه[1]، ونوّرتْ رياضُه[2]، واصطفّتْ جفانُه[3]، واختلفتْ ألوانُه: فمِنْ حالكٍ بإزائه ناصعٌ، ومِن قانٍ[4] تلقاءَه فاقعٌ[5]. ومعنا على الطّعامِ رجلٌ تُسافرُ يدُه على الخِوانِ، وتَسفرُ بينَ الألوانِ[6]، وتأخذُ وُجوهَ الرُّغفانِ[7]، وتفقأُ عيونَ الجِفانِ[8]، وترعى أرضَ الجيرانِ[9]. وتجولُ في القصعةِ، كالرُّخِّ في الرُّقعةِ[10]. يزحمُ باللّقمةِ اللّقمةَ، ويهزمُ بالمُضغةِ المُضغةَ؛ وهوَ، معَ ذلكَ، ساكتٌ لا ينبسُ بحرفٍ؛ ونحنُ، في الحديثِ، نجري معهُ، حتّى وقفَ بنا على ذِكرِ الجاحظِ وخطابتِه، ووصفِ ابنِ المُقفّعِ وذرابتِه[11]. ووافقَ أوّلُ الحديثِ آخرَ الخِوانِ، وزُلْنا عن ذلكَ المكانِ[12].

فقالَ الرّجلُ: أينَ أنتُمْ منَ الحديثِ الذي كُنْتُمْ فيهِ؟ فأخذنا في وصفِ الجاحظِ ولسَنِه[13]، وحُسنِ سَنَنِه[14] في الفصاحةِ، وسُنَنِه[15]، فيما عرفناهُ. فقالَ: يا قومُ لكلِّ عملٍ رجالٌ، ولكلِّ مقامٍ مقالٌ، ولكلِّ دارٍ سكّانٌ[16]،

---

١ الحياض: مستعارة للجفان والقصاع.
٢ نورت: أزهرت؛ وقوله نورت رياضه: أي زهت ألوان طعامه.
٣ الجفان: جمع جفنة وهي القصعة الكبيرة.
٤ القاني: الأحمر.
٥ تلقاءه: حذاءه ومقابله، الفاقع: الأصفر.
٦ تسفر بين الألوان: أي تصلح بين ألوان الطعام، فتزيل الاختلاف بضم بعضها الى بعض.
٧ الرغفان: جمع الرغيف؛ وتأخذ وجوه الرغفان: أي يتناول الجهة الفضلى منها.
٨ تفقأ عيون الجفان: أي يسرع قبل غيره إلى الجفنة فيأخذ أطايبها.
٩ ترعى أرض الجيران: أي يعتدي على حقوق جيرانه، فيتناول من القصاع التي هي أمامهم.
١٠ الرخ: من حجارة الشطرنج، يذهب ويجيء في النواحي الأربع من الرقعة التي تصف عليها الحجارة
١١ ذرابته: حدة لسانه؛ يقال: رجل حديد اللسان وذرب اللسان.
١٢ أي قمنا عن الطعام.
١٣ اللسن: الفصاحة.
١٤ السنن: المنهج والسبيل.
١٥ السنن: جمع السنة وهي السيرة والطبيعة.
١٦ يريد بذلك كله أنهم ليسوا من أهل هذا البحث ليخوضوا فيه، فلكل عمل رجال، ولكل دار سكان.

ولكلِّ زمانٍ جاحظٌ . ولو انتقدتُم[1] ، لبَطَلَ ما اعتقدتُم . فكُلٌّ كَشَرَ لهُ عن نابِ الإنكارِ ، وأشمَّ بأنفِ الإكبارِ[2] . وضحِكتُ لهُ لأجلُبَ ما عندَهُ وقلتُ : أفِدْنا ، وزِدْنا . فقالَ : إنَّ الجاحظَ في أحَدِ شِقَّيِ البَلاغةِ[3] يَقطِفُ[4] ، وفي الآخرِ يَقِفُ . والبليغُ مَنْ لم يُقَصِّرْ نَظمُهُ عَن نَثرِهِ ، ولم يُزْرِ كَلامُهُ بشِعرِهِ[5] . فهَلْ تَروُونَ للجاحظِ شعراً رائعاً ؟ قُلنا : لا . قالَ : فهَلُمُّوا إلى كَلامِهِ ، فهوَ بَعيدُ الإشاراتِ[6] ، قَليلُ الاستِعاراتِ ، قَريبُ العِباراتِ ، مُنقادٌ لعُرْيانِ الكَلامِ[7] يَستعمِلُهُ ، نَفُورٌ مِنْ مُعتاصِهِ يُهمِلُهُ[8] ؛ فهَلْ سَمِعتُمْ لهُ لَفظَةً مَصنوعَةً ، أو كَلِمَةً غيرَ مَسموعةٍ ؟ فقُلنا : لا . قالَ : فهَلْ تُحبُّ أنْ تَسمعَ منَ الكَلامِ ما يُخَفِّفُ عَن مَنكِبَيكَ[9] ، ويَنِمَّ على ما في يَدَيكَ[10] ؟ فقُلتُ : إي واللهِ[11] ! قالَ : فأطلِقْ لي عن خِنصِرِكَ ، بما يُعينُ على شُكرِكَ . فنُلتُهُ[12] ردائي . فقَالَ :

---

١ ولو انتقدتم : أي لو كان لكم علم بالنقد .
٢ أي رفع أنفه استنكاراً واستعظاماً لقول هذا الرجل الذي استهان الجاحظ .
٣ شقي البلاغة : أي الشعر والنثر .
٤ يقطف : يسير مسرعاً .
٥ ولم يزر كلامه بشعره : أي ولم يحقر نثره شعره .
٦ بعيد الإشارات : أي أن إشاراته لا تؤدي المعنى الذي تلوّح إليه أو أن الإشارات بعيدة عن نثره لا يستطيع الإتيان بها ، ولعل هذا هو المقصود هنا ، لأن الجاحظ لم يكن يعنى بمثل هذه الأنواع من المحسنات البيانية . والإشارة لمحة دالة وتلويح يعرف معناه البعيد من ظاهر لفظه كقول الشاعر :

جعلنا السيف ، بين الخد منه ، وبين سواد لمته ، عذارا

فأشار إلى هيئة الضربة دون ذكرها ، والمراد أنهم ضربوا عنقه .
٧ عريان الكلام : أي كلام واضح لا يكتسي أثواب المجاز والتشبيه والبديع ، وهكذا كان إنشاء الجاحظ ، فبديع الزمان يهاجم في هذه المقامة الأسلوب المطبوع الذي عرف به الجاحظ ، ليرفع من شأن أسلوبه المنمق المصنوع .
٨ المعتاص من الكلام : الذي اشتد وصعب استخراج معناه .
٩ المنكب : مجتمع رأس الكتف والعضد ؛ وقوله يخفف عن منكبيك : أي يجعله يخلع عليه رداءه .
١٠ ينم : أي يكشف ويذيع . على ما في يديك : أي من مال .
١١ إي : حرف جواب بمعنى نعم ، ولا تقع إلا قبل القسم .
١٢ نلته : أعطيته ، والفعل ناله ينوله نوالا .

لَعَمرُ الذي ألقَى عليَّ ثِيابَهُ ، لقد حُشِيَتْ تلكَ الثِّيابُ،بهِ ، مَجدَا
فَتَىً قَمَرَتْهُ المَكرُماتُ رِداءَهُ ، وما ضرَبَتْ قِدْحاً ولا نَصَبَتْ نَرْدَا[1]
أعِدْ نَظَراً ، يا مَن حَباني ثِيابَهُ ، ولا تَدَعِ الأيّامَ تَهدِمُني هَدّا[2]
وقلْ للأُولى ، إن أسفروا ، أسفروا ضُحىً ، وإنْ طَلَعوا في غُمّةٍ ، طلعوا سَعدا :[3]
صِلُوا رَحِمَ العَليا ، وبُلّوا لَهَاتَها ، فخيرُ النّدَى ما سَحّ وابِلُهُ نَقْدا[4]

قالَ عيسَى بنُ هشامٍ : فارتاحَتِ الجماعةُ إليهِ ، وانثالَتِ الصِّلاتُ[5] عليهِ وقُلتُ ، لمّا تآنَسنا : مِن أينَ مَطلَعُ هذا البَدرِ ؟ فَقالَ :

إسكَندَريّةُ داري ، لو قَرّ فيها قَراري[6]
لَكِنّ لَيلي بنَجدٍ ، وبالحِجازِ نَهاري[7]

المقامة المضيرية[8]

حدّثَنا عيسَى بنُ هشامٍ قالَ : كنتُ بالبَصرةِ ، ومَعي أبو الفَتحِ الإسكندَريّ ، رَجُلُ الفَصاحةِ يَدعُوها فتُجيبُهُ ، والبَلاغةِ يأمُرُها فتُطيعُهُ .

---

١ قمرته : غلبته في المقامرة وأخذت ماله . القدح : السهم الذي يقامر عليه : النرد : لعبة الزهر المعروفة عند العامة بالطاولة .
٢ حباني : أعطاني .
٣ للأولى : للذين ؛ تكتب الواو ولا تلفظ ، والمراد بهم أهل المجلس . أسفروا : كشفوا عن وجوههم . أسفروا ضحى : أي أشرقت وجوههم مثل الضحى . الغمة : الكربة والظلمة . طلعوا سعداً : أي طلوع نجوم السعد ، وهي عندهم عشرة كواكب .
٤ اللهاة : أي الحلق . سح وابله : سال مطره . يقول : أصبحت العلياء لقلة الكرام عطشى إليهم مقطوعة عنهم ، فاربطوا صلتكم بها أيها الكرام ، وبردوا عطشها بنداكم .
٥ انثالت : انهالت . الصلات : العطايا ، واحدتها صلة .
٦ اسكندرية : ثغر من ثغور الأندلس ، وإليها نسب البديع بطله أبا الفتح الاسكندري .
٧ المعنى : أنه لا يستقر في مكان .
٨ المضيرية : نسبة إلى المضيرة ، وهي لحم يطبخ باللبن المضير ، أي الحامض .

وحَضَرنا معَهُ دَعوَةَ بَعضِ التّجّارِ ، فقُدِّمَتْ إليَنا مَضيرَةٌ تُثْني على الحَضارَةِ[1] وتَترَجرَجُ في الغَضارَةِ[2] ، وتُؤذِنُ بالسّلامَةِ[3] ، وتَشهَدُ لمُعاوِيَةَ ، رَحِمَهُ اللهُ ، بالإمامَةِ[4] ، في قَصعَةٍ يَزِلُّ عَنها الطَّرفُ[5] ، ويَموجُ فيها الظَّرْفُ[6] . فلَمّا أخذَتْ منَ الخُوانِ مَكانَها ، ومنَ القُلوبِ أوطانَها ، قامَ أبو الفَتحِ الإسكَندَرِيّ يَلعَنُها وصاحِبَها ، ويَمقُتُها وآكِلَها ، ويَثلِبُها[7] وطابِخَها . وظَنَنّاهُ يَمزَحُ ، فإذا الأمرُ بالضّدّ ، وإذا المُزاحُ عَينُ الجِدّ . وتَنَحّى عنِ الخُوانِ ، وتَرَكَ مُساعَدَةَ الإخوانِ . ورَفَعناها ، فارتَفَعَتْ معَها القُلوبُ ، وسافَرَتْ خَلفَها العُيونُ ، وتَحَلّبَتْ لها الأفواهُ ، وتَلَمّظَتْ[8] لها الشّفاهُ ، واتّقَدَتْ لها الأكبادُ ، ومضَى في إثرِها الفُؤادُ . ولكِنّا ساعَدناهُ على هَجرِها ، وسألناهُ عن أمرِها ، فقالَ : قِصّتي معَها أطوَلُ مِنْ مُصيبَتي فيها ؛ ولو حَدّثتُكُمْ بها ، لم آمَنِ المَقتَ[9] ، وإضاعَةَ الوَقتِ . قُلنا : هاتِ . قالَ :

دَعاني بَعضُ التّجّارِ إلى مَضيرَةٍ ،وأنا ببَغداذَ[10]،ولَزِمَني مُلازَمَةَ الغَريمِ[11] ، والكَلْبِ لأصحابِ الرّقيمِ[12] ، إلى أنْ أجَبتُهُ إليَها ، وقُمنا . فجَعَلَ ، طُولَ الطّريقِ ، يُثْني على زوجَتِهِ ، ويُفَدّيها بمُهجَتِهِ ، ويَصِفُ حِذقَها في

....

١ تثني على الحضارة : أي لأن أهل الحضر أمهر في طبخها من البدو .
٢ تترجرج : تموج وتتحرك . الغضارة : القصعة .
٣ تؤذن بالسلامة : أي تبشر آكلها بالسلامة .
٤ يقول : لو دعا معاوية الناس المخالفين له إلى أكلها ، لاشتراهم بها وشهدوا له بحقه في الخلافة .
٥ يزل عنها الطرف : أي يزلق عنها النظر ، لا يستطيع ثباتاً وهو يرنو إليها ، لشدة لمعانها .
٦ الظرف : حسن اللسان والبيان ؛ ويطلق أيضاً على حسن الوجه والهيئة .
٧ يثلبها : يعيبها .
٨ تلمظ : أخرج لسانه ومسح به شفتيه .
٩ لم آمن المقت : أي لم آمن أن تكرهوني من أجل طول خبرها .
١٠ بغداذ : لغة في بغداد .
١١ الغريم : من له دين عند الآخر ، يلازمه ويطالبه به .
١٢ أصحاب الرقيم : أهل الكهف ، وكان معهم كلب لم يفارقهم .

صَنعتِها ، وتأنّقَها في طَبخِها ، ويَقولُ : يا مَولايَ ، لو رأيتَها ، والخِرقَةُ في وَسْطِها ، وهيَ تَدورُ في الدُّورِ ، منَ التّنّورِ إلى القُدورِ ، ومِنَ القُدورِ إلى التّنّورِ ؛ تَنفُثُ بفيها النّارَ ، وتَدُقّ بيَدَيها الأبزارَ . ولو رأيتَ الدّخانَ وقد غبّرَ في ذلكَ الوَجهِ الجَميلِ ، وأثّرَ في ذلكَ الخَدّ الصّقيلِ ، لَرأيتَ مَنظَراً تَحارُ فيهِ العُيونُ ! وأنا أعشقُها ، لأنّها تَعشقُني ؛ ومِن سَعادَةِ المَرءِ أنْ يُرزَقَ المُساعدَةَ من حَليلَتِهِ ، وأنْ يُسعَدَ بظَعينَتِهِ[1] ؛ ولا سيّما إذا كانتْ مِن طينَتِهِ ؛ وهيَ ابنَةُ عَمّي لَحّاً[2] ، طينَتُها طينَتي ، ومَدينَتُها مَدينَتي ، وعُمومَتُها عُمومَتي ، وأرومَتُها أرومَتي[3] . لكنّها أوسَعُ منّي خُلُقاً ، وأحْسَنُ خَلْقاً .

وصَدّعَني بصِفاتِ زَوجَتِهِ ، حتّى انتَهَينا إلى مَحَلّتِهِ . ثمّ قالَ : يا مَولايَ ، ترَى هذهِ المَحَلّةَ ؟ هيَ أشرَفُ مَحالّ بَغداذَ ، يَتَنافَسُ الأخيارُ في نُزولِها ، ويتَغايَرُ الكِبارُ[4] في حُلولِها . ثمّ لا يَسكُنُها غيرُ التّجّارِ ؛ وإنّما المَرءُ بالجارِ . وداري في السّطّةِ[5] من قِلادَتِها ، والنّقطَةِ من دائرَتِها . كَم تُقَدّرُ ، يا مَولايَ ، أُنفِقَ على كلّ دارٍ منها ؟ قُلْهُ تَخميناً ، إنْ لم تَعرِفهُ يَقيناً . قُلتُ : الكَثيرُ[6] ! فَقالَ : يا سُبحانَ اللهِ ! ما أكبرَ هذا الغَلَطَ ! تَقولُ الكَثيرَ فَقَطْ ! وتَنَفّسَ الصُّعَداءَ ، وقالَ : سُبحانَ مَن يَعلَمُ الأشياءَ .

وانتَهَينا إلى بابِ دارِهِ ، فَقالَ : هذهِ داري . كَم تُقَدّرُ ، يا مَولايَ ، أنفَقتُ على هذهِ الطّاقَةِ ؟ أنفَقتُ ، واللهِ ، علَيها فوقَ الطّاقَةِ ، ووراءَ

....

١ الظعينة : المرأة في الهودج ، والمراد هنا المرأة على الإطلاق .
٢ ابنة عمي لحاً : أي لاصقة النسب ؛ ونصب لحاً على الحال لأن ما قبله معرفة ؛ وتقول في النكرة : هي ابنة عم لح بالجر لأنه نعت لعم .
٣ الأرومة : الأصل .
٤ يتغاير الكبار : أي يغار كل واحد من الآخر .
٥ السطة : الوسط ، والجوهرة التي تكون في وسط العقد هي أنفس جواهره وأعظمها .
٦ الكثير : أي أنفق الكثير

الفاقة[1] . كيفَ ترَى صَنعتَها وشَكلَها ؟ أرأيتَ ، بالله ، مثلَها ؟ أنظُرْ إلى دَقائقِ الصَّنعَةِ فيها ، وتأمَّلْ حُسنَ تَعريجِها ! فكأنَّما خُطَّ بالبِرْكارِ ! وانظُرْ إلى حِذْقِ النَّجّارِ في صَنعَةِ هذا البابِ ، اتَّخَذَهُ من كَمْ ؟ قُلْ : ومِنْ أينَ أعلَمُ . هوَ ساجٌ[2] مِن قِطعَةٍ واحدةٍ ، لا مأرُوضٌ[3] ولا عَفِنٌ . إذا حُرِّكَ أنَّ ، وإذا نُقِرَ طَنَّ . مَنِ اتَّخَذَهُ يا سَيِّدي ؟ اتَّخَذَهُ أبو إسحقَ ابنُ مُحَمَّدٍ البصريّ ، وهوَ ، واللهِ ، رَجلٌ نَظيفُ الأثوابِ ، بَصيرٌ بصَنعَةِ الأبوابِ ، خَفيفُ اليَدِ في العَمَلِ . للهِ دَرُّ ذلكَ الرَّجلِ ! بحَياتي ، لا استَعَنتَ إلاّ بهِ على مِثلِه[4] . وهذه الحَلقَةُ ، تَراها ، اشتَريتُها في سوقِ الطَّرائف[5] ، مِن عِمرانَ الطَّرائفيِّ بثَلاثَةِ دَنانيرَ مُعِزّيَّة[6] ، وكَمْ فيها ، يا سَيِّدي ، مِنَ الشَّبَه[7] ؟ فيها ستَّةُ أرطالٍ ، وهيَ تَدورُ بلَولَبٍ في البابِ . باللهِ ، دَوِّرْها ، ثمَّ انقُرْها وأبصِرْها . وبحَياتي عليكَ ، لا اشتَرَيتَ الحَلَقَ إلاّ منهُ ، فلَيسَ يَبيعُ إلاّ الأعلاقَ[8] .

ثمَّ قَرَعَ البابَ ، ودَخَلنا الدِّهليزَ ، وقالَ : عَمَّرَكِ اللهُ يا دارُ ! ولا خرَّبكَ يا جِدارُ ! فَما أمتَنَ حيطانَكَ ! وأوثَقَ بُنيانَكَ ! وأقوَى أساسَكَ ! تأمَّلْ ، باللهِ ، مَعارِجَها[9] ، وتبَيَّنْ دَواخِلَها وخَوارِجَها ، وسَلْني : كيفَ حَصَّلتَها؟ وكَم من حيلَةٍ احتَلتَها ، حتى عَقَدْتَها ؟ كانَ لي جارٌ يُكنَى أبا سُلَيمانَ

---

[1] الفاقة : الفقر ؛ وقوله وراء الفاقة : أي أنفق عليها إنفاقاً كثيراً يقود إلى الفقر ، فكأن إنفاقه مستقر وراء الفقر ، والفقر أمامه .
[2] الساج : أي قطعة من خشب الساج ، وهو شجر يطول ويرتفع جداً ، ويوجد بالهند .
[3] المأروض : الذي أكلته الأرضة ، وهي دودة بيضاء تبني على نفسها شبه دهليز ، لها مشفران تنقر بهما الخشب والآجر والحجارة ، جمعها أرَض .
[4] على مثله : أي مثل هذا الباب .
[5] سوق الطرائف : كانت ببغداد لبيع النفائس والذخائر .
[6] الدنانير المعزية : منسوبة إلى المعز لدين الله الخليفة الفاطمي الرابع .
[7] الشبه : النحاس الأصفر .
[8] الأعلاق : النفائس ، واحدها علق .
[9] المعارج : السلالم .

يَسكُنُ هذه المَحِلّةَ ، ولهُ ، منَ المالِ ، ما لا يَسَعُهُ الخَزْنُ ، ومنَ الصّامتِ[1] ما لا يَحصُرُهُ الوَزْنُ . ماتَ ، رَحِمَهُ اللهُ ، وخلّفَ خَلْفاً[2] أتلَفَهُ بينَ الخَمرِ والزّمرِ ، ومزّقَهُ بينَ النّردِ والقَمْرِ[3] . وأشفَقتُ أن يَسوقَهُ قائدُ الاضطرارِ ، إلى بَيعِ الدّارِ ؛ فيَبيعَها في أثناءِ الضّجَرِ ، أو يَجعلَها عُرضَةً للخَطَرِ . ثمّ أراها ، وقد فاتَني شِراها ، فأتَقَطّعُ علَيها حَسَراتٍ ، إلى يومِ المَماتِ . فعَمَدتُ إلى أثوابٍ لا تَنِضّ تِجارتُها[4] فحمَلتُها إليهِ ، وعرَضتُها علَيهِ ، وساوَمتُهُ على أنْ يَشتَرِيَها نَسيّةً[5] ؛ والمُدْبِرُ[6] يَحسَبُ النّسيّةَ عَطيّةً ؛ والمُتَخَلّفُ[7] يَعتَدّها هَديّةً . وسألتُهُ وَثيقةً بأصلِ المالِ ، ففعَلَ ، وعقَدَها لي[8] . ثمّ تَغافَلتُ عن اقتِضائهِ ، حتى كادَتْ حاشيَةُ حالهِ تَرِقّ[9] ، فأتَيتُهُ فاقتَضَيتُهُ ؛ واستَمهَلَني ، فأنظَرْتُهُ[10] ؛ والتَمَسَ غيرَها منَ الثّيابِ ، فأحضَرتُهُ . وسألتُهُ أنْ يَجعَلَ دارَهُ رَهينَةً لَدَيّ ، ووَثيقةً في يَدَيّ ؛ ففعَلَ . ثمّ دَرّجتُهُ بالمُعامَلاتِ إلى بَيعِها ، حتى حَصَلَتْ لي بجَدٍّ صاعِدٍ[11] ، وبَختٍ مُساعِدٍ ، وقُوّةِ ساعدٍ ؛ ورُبّ ساعٍ لقاعدٍ[12] ! وأنا ، بحَمدِ اللهِ ، مَجدودٌ[13] ؛ وفي مثلِ هذهِ الأحوالِ مَحمودٌ . وحَسبُكَ ، يا مَولايَ ، أنّي

---

١ الصامت : المال من الذهب والفضة ونحوهما ؛ يقابله الناطق ، وهو المال من الإبل والمواشي ونحوها من الحيوان .

٢ الخلف : الولد الطالح ، والخلف بالتحريك : الولد الصالح .

٣ النرد : لعبة الزهر . القمر : المقامرة .

٤ لا تنض : لا تتيسر ولا تتحول من متاع إلى صامت من فضة وذهب ، أي كسدت تجارتها .

٥ نسية : أي مع تأخير الثمن .

٦ المدبر : من ساء حظه ؛ ومنه قولهم : صار أمره إلى الإقبال أو إلى الإدبار .

٧ المتخلف : المتأخر . أي المتأخر عن أداء دينه .

٨ عقدها : أي أحكم الوثيقة والتزم بما فيها .

٩ يقال رقت حاشيته : أي قل ماله وأفتر .

١٠ أنظرته : أمهلته .

١١ بجد صاعد : أي بحظ مرتفع .

١٢ رب ساع لقاعد : مثل يضرب لمن يسعى ويكسب ثم يتمتع غيره بكسبه ، دون أن يتعب في تحصيله .

١٣ مجدود : محظوظ .

كُنتُ مُنذُ لَيالٍ نائماً في البَيتِ ، معَ مَن فيه ، إذ قُرِعَ علَينا البابُ . فقُلتُ : مَنِ الطّارِقُ المُنتابُ[1] ؟ فإذا امرأةٌ مَعَها عِقدُ لآلٍ[2] ، في جِلدَةِ ماءٍ ، ورِقّةِ آلٍ[3] ، تَعرِضُهُ للبيعِ . فأخَذتُهُ منها إخذَةَ خَلْسٍ[4] ، واشتَرَيتُهُ بثَمَنٍ بَخْسٍ[5] ؛ وسيَكونُ لهُ نَفعٌ ظاهرٌ ، وربحٌ وافرٌ ، بعَونِ اللهِ تَعالى ودولَتِك . وإنّما حَدّثتُكَ بهذا الحَديثِ ، لتَعلَمَ سَعادَةَ جَدّي في التّجارَةِ ؛ والسّعادَةُ تَنبِطُ[6] الماءَ مِنَ الحِجارَةِ . اللهُ أكبرُ ! لا يُنبِئُكَ أصدَقُ مِن نَفسِكَ ، ولا أقرَبُ مِن أمسِكَ[7] ! اشتَرَيتُ هذا الحَصيرَ في المُناداةِ[8] . وقد أخرِجَ مِنْ دورِ آلِ الفُراتِ[9] ، وقتَ المُصادَرَاتِ ، وزَمَنَ الغاراتِ . وكنتُ أطلُبُ مثلَهُ مُنذُ الزّمَنِ الأطوَلِ ، فلا أجِدُ ؛ والدّهرُ حُبلى لَيسَ يُدرى ما يَلِدُ . ثمّ اتّفَقَ أنّي حضَرتُ بابَ الطّاقِ[10] ، وهذا يُعرَضُ في الأسواقِ ، فوَزَنتُ فيه كَذا وكَذا ديناراً . تأمّلْ ، باللهِ ، دِقّتَهُ ولِينَهُ وصَنعَتَهُ ولَونَهُ ، فهُوَ عَظيمُ القَدْرِ ، لا يَقَعُ مثلُهُ إلاّ في النّدْرِ[11] ! وإنْ كنتَ سَمِعتَ بأبي عِمرانَ الحَصيريّ ، فهُوَ عَمَلُهُ ؛ ولهُ ابنٌ يَخلُفُهُ الآنَ في حانُوتِهِ ، لا يُوجَدُ

....

١ المنتاب : أي الزائر وأصله الزائر مرة بعد مرة .
٢ لآل : أصله لآلئ جمع لؤلؤة ، فسهلت الهمزة .
٣ في جلدة ماء : من المجاز ، أي جلدته صافية كجلدة الماء . الآل : هنا بمعنى السراب ، وهو ما يظهر من بعيد كأنه ماء .
٤ الخلس : الاختلاس .
٥ البخس : القليل الناقص من الثمن .
٦ تنبط : تستخرج الماء .
٧ أي لا يخبرك حقيقة أحوالك أحد أصدق من نفسك ، ولا يوم أقرب من أمسك ، لأنك لم تزل تتذكره جيداً ؛ وهذه الأخبار قريبة العهد لم يأت عليها النسيان .
٨ المناداة : أي المزايدة العلنية .
٩ آل الفرات : أسرة مشهورة كان أحدها علي بن محمد بن موسى بن الحسن بن الفرات وزيراً للمقتدر بالله العباسي ، ثم قتله سنة ٣١٢هـ (٩٢٤م) وصادره على جميع أمواله ومتاعه . والمراد أن الحصير نفيس عظيم القيمة .
١٠ باب الطاق : من أبواب بغداد .
١١ في الندر : في النادر .

أعلاقُ الحُصُرِ إلاّ عندَهُ ؛ فبِحَياتي ، لا اشتَرَيتَ الحُصُرَ إلاّ مِنْ دُكّانِهِ ، فالمُؤمِنُ ناصِحٌ لإخوانِهِ ، لا سيّما مَن تَحَرَّمَ بخُوانِهِ [1] .

ونَعودُ إلى حَديثِ المَضيرَةِ ، فقَد حانَ وقتُ الظَّهيرَةِ . يا غُلامُ ، الطَّستَ والماءَ . فقُلتُ : اللهُ أكبرُ ! رُبَّما قَرُبَ الفَرَجُ ، وسَهُلَ المَخرَجُ . وتَقَدَّمَ الغُلامُ ، فقالَ : ترى هذا الغُلامَ ؟ إنّهُ روميُّ الأصلِ ، عراقيُّ النَّشءِ . تَقَدَّمْ يا غُلامُ ، واحسِرْ [2] عَن رأسِكَ ، وشَمِّرْ عَن ساقيكَ ، وانضُ عَن ذِراعِكَ [3] ، وافترَّ عَن أسنانِكَ ، وأقبِلْ ، وأدْبِرْ . ففَعَلَ الغُلامُ ذلكَ . وقالَ التّاجِرُ : باللهِ ، مَنِ اشتراهُ ؟ اشتراهُ ، واللهِ ، أبو العَبّاسِ ، منَ النَّخّاسِ [4] . ضَعِ الطّستَ ، وهاتِ الإبريقَ . فوَضَعَهُ الغُلامُ ، وأخَذَهُ التّاجِرُ ، وقلّبَهُ وأدارَ فيهِ النَّظَرَ ، ثمّ نَقَرَهُ ، فقالَ : انظُرْ إلى هذا الشَّبَهِ ، كأنّهُ جُذوَةُ اللّهَبِ ، أو قِطعَةٌ منَ الذَّهَبِ ! شَبَهُ الشّامِ ، وصَنعَةُ العِراقِ ! لَيسَ من خُلْقانِ الأعلاقِ [5] ! قد عرَفَ دارَ المُلوكِ ، ودارَها [6] ! تأمّلْ حُسنَهُ ! وسَلْني : متى اشتَرَيتَهُ ؟ اشتَرَيتُهُ ، واللهِ ، عامَ المَجاعَةِ ، وادّخَرتُهُ لهذهِ السّاعَةِ . يا غُلامُ ، الإبريقَ . فقَدَّمَهُ . وأخذَهُ التّاجرُ ، فقلّبَهُ ، ثمّ قالَ : وأنبوبُهُ منهُ ! لا يَصلُحُ هذا الإبريقُ إلاّ لهذا الطّستِ ؛ ولا يَصلُحُ هذا الطّسْتُ إلاّ معَ هذا الدَّستِ [7] ؛ ولا يَحسُنُ هذا الدّستُ إلاّ في هذا البَيتِ ؛ ولا يَجمُلُ هذا البَيتُ إلاّ معَ هذا الضّيفِ . أرسِلِ الماءَ ، يا غُلامُ ، فقَد حانَ وقتُ الطّعامِ . باللهِ ترَى هذا الماءَ ما أصفاهُ ؟ أزرَقُ كعَينِ السِّنّورِ ، وصافٍ

---

١ تحرم بالشيء : تمنع واحتمى بحرمته ؛ فقوله تحرم بخوانه : أي صارت له حرمة الخبز والملح لأن أبا الفتح سيأكل عند التاجر ، ولذلك تجب على التاجر نصيحته .

٢ واحسر : واكشف .

٣ انض عن ذراعك : أي انزع ثوبك عنها ، من نضا الثوب : نزعه .

٤ النخاس : تاجر العبيد من سود وبيض .

٥ الخلقان : جمع خلق وهو البالي . الأعلاق : النفائس . والمراد : أنه نفيس غير بال .

٦ دارها : وجه الكلام : دار بها ، فنزع الخافض .

٧ الدست : صدر البيت والمجلس .

كقضيب البلّور ! استُقِيَ من الفُراتِ[1] ، واستُعمِلَ بعدَ البَيات[2] ، فجاء كلِسانِ الشَّمعة[3] ، في صَفاءِ الدَّمعة . وليسَ الشأنُ في السَّقاءِ ، الشأنُ في الإناء[4] ؛ لا يَدُلُّكَ على نَظافةِ أسبابه[5] ، أصدقُ من نَظافةِ شَرابِه . وهذا المِنديلُ[6] ، سَلْني عن قِصَّتِه ؛ فهوَ نَسجُ جُرْجانَ[7] ، وعَمَلُ أرَّجانَ[8] . وقعَ إليَّ ، فاشتَرَيتُه ، فاتَّخذَتِ امرأتي بَعضَه سَراويلاً ، واتَّخذتُ بَعضَه منديلاً . دخَلَ في سَراويلِها عِشرونَ ذِراعاً ، وانتزَعتُ مِن يَدِها هذا القَدْرَ انتزاعاً ؛ وأسلَمتُه إلى المُطرِّزِ ، حتى صَنَعَه كما تَراه ، وطرَّزَه . ثمَّ رَدَدتُه مِن السّوقِ ، وخزَنتُه في الصُّندوقِ . وادَّخرتُه للظِّرافِ ، منَ الأضيافِ . لم تُذِلْه عَرَبُ العامّةِ بأيديها ، ولا النِّساءُ لمآقيها[9] . فلِكُلِّ عِلْقٍ[10] يومٌ ، ولكُلِّ آلةٍ قومٌ . يا غُلامُ ، الخُوانَ ، فقد طالَ الزَّمانُ ؛ والقِصاعَ ، فقد طالَ المِصاعُ[11] ؛ والطَّعامَ ، فقد كثُرَ الكَلامُ .

فأتى الغُلامُ بالخُوانِ ؛ وقلَّبَه التّاجرُ على المَكانِ[12] ، ونَقَرَه بالبَنانِ ، وعَجَمَه بالأسنانِ[13] ، وقالَ : عَمَرَ اللهُ بَغدادَ ! فما أجوَدَ مَتاعَها ، وأظرَفَ صُنّاعَها ! تأمَّلْ ، باللهِ ، هذا الخُوانَ ! وانظُرْ إلى عَرضِ مَتنِه[14] ، وخِفّةِ

١ استقي : أخذ . الفرات : الماء العذب ؛ أو لعله أراد به دجلة لأن قصة المضيرة وقعت في بغداد ؛ يقال الفراتان : أي الفرات ودجلة .
٢ البيات : أي أن يبيت الماء في إناء تحت السماء ليبرد ويصفو ؛ ومنه البيوت : الماء البارد الذي يبيت تحت السماء.
٣ كلسان الشمعة : أي يتلألأ متوهجاً .
٤ أي ليس الفضل لمن يسقي الماء بل الفضل للإناء الذي كان سبب صفائه ونظافته .
٥ نظافة أسبابه : أي الوسائل التي اتخذت لتصفيته .
٦ المنديل : خرقة تستعمل لتجفيف الأيدي من الماء .
٧ جرجان : مدينة عظيمة بين طبرستان وخراسان اشتهرت بنسج الحرير .
٨ أرجان : مدينة كبيرة بفارس .
٩ ولا النساء لمآقيها : أي لمسح دموعها ؛ كأنه يعتبر ذلك إهانة للمنديل .
١٠ العلق : النفيس من الأشياء .
١١ المصاع : المعاركة والمضاربة ؛ ومن المجاز قولهم : فلان يماصع بلسانه ؛ ذكره الأساس .
١٢ قلبه على المكان : أي قلبه على مكانه الذي يوضع فيه ؛ نابت أل التعريف عن الضمير .
١٣ عجمه بالأسنان : أي عضه ليختبره .
١٤ المتن : الظهر ؛ أي ظهر الخوان .

وَزنِهِ ، وصَلابةِ عودِهِ ، وحُسنِ شَكلِهِ ! فقُلتُ : هذا الشَّكلُ ، فمَتى الأَكلُ ؟ فقالَ : الآنَ . عَجِّلْ يا غُلامُ ، الطَّعامَ . لكِنَّ الخُوانَ قَوائِمُهُ منه[1]

قالَ أبو الفتحِ : فَجاشَتْ نَفسي . وقُلتُ : قد بَقِيَ الخبزُ وآلاتُهُ ، والخُبزُ وصِفاتُهُ ، والحِنطَةُ مِنْ أينَ اشتُرِيَتْ أصلاً[2] ؟ وكيفَ اكتَرَى لها حَمْلاً[3] ؟ وفي أيِّ رَحًى طَحَنَ ؟ وإجّانَةٍ عَجَنَ[4] ؟ وأيَّ تَنّورٍ سَجَرَ[5] ؟ وخَبّازٍ استأجَرَ ؟ وبَقِيَ الحَطَبُ مِنْ أينَ احتُطِبَ ؟ ومتى جُلِبَ ؟ وكَيفَ صُفِّفَ ، حتى جُفِّفَ ؟ وحُبِسَ ، حتى يَبِسَ ؟ وبَقِيَ الخَبّازُ ووَصفُهُ ، والتِّلميذُ[6] ونَعتُهُ ، والدَّقيقُ ومَدحُهُ ، والخَميرُ وشَرحُهُ ، والمِلحُ ومَلاحَتُهُ . وبَقِيَتِ السُّكُرُّجاتُ[7] ، مَنِ اتَّخَذَها ؟ وكَيفَ انتَقَدَها[8] ؟ ومَنِ استَعمَلَها ؟ ومَنْ عَمِلَها ؟ والخَلّ ، كيفَ انتُقِيَ عِنَبُهُ ؟ أوِ اشتُرِيَ رُطَبُهُ[9] ؟ وكيفَ صُهرِجَتْ[10] مِعصَرَتُهُ . واستُخلِصَ لُبُّهُ ؟ وكيفَ قُيِّرَ حُبُّهُ[11] ؟ وكَم يُساوي دَنُّهُ[12] ؟ وبَقِيَ البَقلُ . كيفَ احتيلَ لهُ حتى قُطِفَ . وفي أيِّ مَبقَلَةٍ[13] رُصِفَ ؟ وكيفَ

١ قوائمه منه : أي أن قوائمه التي يقف عليها ، وظهره قطعة واحدة .
٢ اشتريت أصلا : أي اشتري أصلها ، وهو الحب .
٣ اكترى لها حملا : أي ما تحمل عليه ؛ ومنه في النهاية حديث تبوك ؛ قال أبو موسى : « أرسلني أصحابي إلى النبي ، صلى الله عليه وسلم ، أسأله الحملان . » والحملان كالحمل مصدر حمل ؛ وذلك أنهم أرسلوه يطلب منه شيئاً يركبون عليه .
٤ الإجانة : وعاء يستعمل في الغسيل والعجين ونحوهما .
٥ سجر : أوقد .
٦ التلميذ : أي غلام الخباز .
٧ السكرجات : صحاف الطعام .
٨ انتقدها : أي استخلصها من صاحبها الذي اتخذها .
٩ الرطب : ما نضج من البلح ، وكانوا يصنعون الخل من العنب والرطب .
١٠ صهرجت : طليت بالصاروج وهو أخلاط من النورة ، أي الكلس ونحوه .
١١ قير : طلي بالقار أي الزفت . الحب بالضم : الخابية .
١٢ الدن : الخابية .
١٣ المبقلة : المكان الذي زرع فيه البقل .

تُؤَنَّق[1] حتى تُنَظَّفَ؟ وبَقِيَتِ المَضيرَةُ ، كيفَ اشتُرِيَ لحمُها ؟ وَوُفِّيَ[2] شَحمُها ؟ ونُصِبَتْ قِدرُها ، وأُجِّجَتْ نارُها ؟ ودُقَّتْ أبزارُها ، حتى أُجيدَ طَبخُها ، وَعُقِدَ مَرَقُها ؟ وهذا خَطْبٌ يَطِمُّ[3] ، وأمرٌ لا يَتِمّ !

فقُمتُ . فقالَ : أينَ تُريدُ ؟ فقُلتُ : حاجَةً[4] أقضيها. فقالَ : يا مَولايَ ، تُريدُ كَنيفاً يُزري برَبيعيّ الأميرِ[5] ، وخَريفيّ الوزيرِ[6] ؟ قد جُصِّصَ[7] أعلاهُ ، وصُهرِجَ[8] أسفَلُهُ ، وسُطِّحَ سَقفُهُ ، وفُرِشَتْ بالمَرمَرِ أرضُهُ ؟ يَزِلُّ عَن حائطِه الذَّرُّ فَلا يَعلَقُ ، ويَمشي على أرضِه الذُّبابُ فيَزلَقُ ؟ عليهِ بابٌ ، غيرانُهُ[9] مِن خَليطَيْ ساجٍ[10] وعاجٍ[11] ، مُزدَوِجَينِ أحسَنَ ازدِواجٍ ؛ يتَمَنّى الضّيفُ أنْ يأكُلَ فيهِ ! فقُلتُ : كُلْ أنتَ مِن هذا الجِرابِ ؛ لم يَكُنِ الكَنيفُ في الحِسابِ ! وخَرَجتُ نحوَ البابِ ، وأسرَعتُ في الذَّهابِ ، وجَعَلتُ أعدو ، وهوَ يَتبَعُني ، ويَصيحُ : يا أبا الفَتحِ ، المَضيرَةُ ! وظَنَّ الصِّبيانُ أنَّ المَضيرَةَ لَقَبٌ لي ، فَصاحوا صِياحَهُ . فرَمَيتُ أحَدَهُمْ بحَجَرٍ ، من فَرطِ الضَّجَرِ ؛ فلَقِيَ رَجلٌ الحَجَرَ بعِمامَتِهِ ، فَغاصَ في هامَتِه[12] فأُخِذتُ، منَ النِّعالِ ، بما قَدُمَ وحَدُثَ[13] ؛ ومنَ الصَّفعِ ، بما طابَ وخَبُثَ[14] ؛ وحُشِرتُ

---

١ تؤنق : مجهول تأنق ، أي استعمل الدقة والحذق .
٢ وفي : أكثر وأتم .
٣ يطم : أي يعظم .
٤ حاجة : أي أريد حاجة .
٥ ربيعي الأمير : قصره الذي يقيم فيه أيام الربيع .
٦ خريفي الوزير : قصر الخريف .
٧ جصص : طلي بالجص ، وهو الكلس .
٨ صهرج : عمل بالصاروج ، وهو النورة ، وهي أخلاط من الكلس .
٩ غيرانه : يريد بها فواصله ، مفردها غار ، وهي في الأصل : الأخدود بين اللحيين من الفم ، فاستعاره للفواصل بين الألواح . واللحيان : مثنى اللحي ، وهو عظم الحنك الذي عليه الأسنان .
١٠ الساج : خشب شجر هندي .
١١ العاج : ناب الفيل .
١٢ هامته : رأسه .
١٣ بما قدم وحدث : أي بنعال قديمة وجديدة .
١٤ الصفع : الضرب على قفا الرأس . بما طاب وخبث : أي صفع أيد لطيفة ، وأيد غليظة شديدة .

إلى الحَبس ، فأقمتُ عامَين في ذلكَ النّحس . فنَذَرتُ أنْ لا آكُلَ مَضيرَةً ، ما عِشتُ . فهَلْ أنا في ذا ، يا لَ هَمْدانَ ، ظالِمٌ[1] ؟

قالَ عيسَى بنُ هشامٍ : فقَبِلنا عُذرَهُ ، ونَذَرنا نَذرَهُ ، وقُلنا : قَديماً جَنَتِ المَضيرَةُ على الأحرارِ[2] ، وقَدّمَتِ الأراذِلَ على الأخيارِ[3] .

المقامة البشرية

حَدّثَنا عيسَى بنُ هِشامٍ قالَ : كانَ بِشرُ بنُ عَوانَةَ العَبديّ صُعلوكاً ، فأغارَ على رَكبٍ فيهِمُ امرأةٌ جَميلَةٌ ، فتزَوّجَ بها ، وقالَ : ما رَأيتُ كاليَومِ ! فقالَتْ :

أعجَبَ بِشراً حَوَرٌ في عَيني ... وساعِدٌ أبيَضُ كاللُّجَينِ[4]

ودونَهُ ، مَسرَحَ طَرْفِ العَينِ ، ... خَمصانَةٌ تَرفُلُ في حِجلَينِ[5]

أحسَنُ مَن يَمشي على رِجلَينِ ، ... او ضَمّ بِشرٌ بَينَها وبَيْني

أدامَ هَجري ، وأطالَ بَيْني ؛ ... ولو يَقيسُ زَينَها بزَيْني

لأسفَرَ الصّبحُ لذي عَينَينِ[6]

قالَ بِشرٌ : وَيْحَكِ[7] ! مَن عَنَيتِ ؟ فقالَتْ : بِنتَ عَمّكَ فاطِمَةَ

١ قوله : يا لَ همدان ظالم . هذا عجز بيت من الشعر لبعض لصوص بني همدان يقول فيه :

وكنت ، إذا قوم غزوني غزوتهم ... فهل أنا في ذا يا لَ همدان ظالم

٢ على الأحرار : المراد بذلك جنايتها على أبي الفتح .
٣ الأراذل والأخيار : المراد بذلك التاجر وأبو الفتح .
٤ الحور : شدة بياض العين وسوادها ، واستدارة حدقتها ، ورقة جفونها . اللجين : الفضة .
٥ دونه : أمامه . مسرح طرف العين : موضع ما يسرح النظر ، أي حيث يسرح نظره متنقلا في محاسنها الخمصانة : الضامرة البطن . الحجلين ، مثنى الحجل : الخلخال .
٦ لأسفر الصبح لذي عينين : أي لظهر الفرق بين حسنها وحسني ، ظهور الصبح لذي عينين .
٧ ويحك : كلمة رحمة ، وقد تكون بمعنى ويلك ؛ تقول : ويح لزيد، فترفعها على الابتداء، وويح زيد ، وويحاً له على النصب بفعل مضمر تقديره ألزمه الله ويحاً ، ونحو ذلك .

فَقَالَ : أهيَ منَ الحُسنِ بحَيثُ وَصَفتِ ؟ قالَتْ : وأزيَدُ وأكثرُ . فأنشأ يَقولُ :

وَيحَكِ ! يا ذاتَ الثّنايا البِيضِ ، ما خِلتُني منكِ بمُستَعيضِ[1]

فالآنَ ، إذْ لَوّحتِ بالتّعريضِ ، خَلَوْتِ جَوّاً، فاصفِري وبِيضِي[2]

لا ضُمّ جَفنايَ على تَغميضِ ، ما لم أشِلْ عِرْضِي منَ الحَضيضِ[3]

فقالَتْ :

كَمْ خاطِبٍ في أمرِها ألَحّا ، وهْيَ إلَيكَ ابنَةُ عَمٍّ لَحّا[4]

ثمّ أرسَلَ إلى عَمّهِ يَخطُبُ ابنَتَهُ ؛ ومَنَعَهُ العَمُّ أمنيّتَهُ . فآلى[5] ألاّ يُرعي على أحَدٍ[6] مِنهُمْ ، إنْ لم يُزَوّجْهُ ابنَتَهُ .

ثمّ كَثُرَتْ مَضَرّاتُهُ فيهِمْ ، واتّصَلَتْ مَعَرّاتُهُ[7] إلَيهِمْ . فاجتَمَعَ رِجالُ الحَيّ إلى عَمّهِ ، وقالوا : كُفَّ عَنّا مَجنونَكَ ! فَقَالَ : لا تُلبِسوني عاراً ، وأمهِلوني حتّى أُهلِكَهُ ببَعضِ الحِيَلِ . فقالوا : أنتَ وذاكَ . ثمّ قالَ لهُ عَمّهُ : إنّي آلَيتُ ألاّ أُزَوّجَ ابنَتي هذه إلاّ ممّنْ يَسوقُ إلَيها ألفَ ناقَةٍ مَهْراً ، ولا أرضاها إلاّ مِن نُوقِ خُزاعَةَ . وغَرَضُ العَمّ كانَ أنْ يَسلُكَ

. . . .

١ الثنايا : جمع الثنية ، وهي أربعة أضراس في مقدمة الفم ، ثنتان من فوق ، وثنتان من أسفل .
٢ لوح : أشار إليه من بعيد . التعريض : ضد التصريح . والمراد أنها عرضت بذمه حين نبهته إلى ابنة عمه الحسناء، وهو غافل عنها، يتزوج غريبة بدلا منها. خلوت جواً فاصفري وبيضي: أي أنه خلى سبيلها ، وتركها آمنة . وهذا مثل أصله من قول كليب أو طرفة لقنبرة طارت بين يديه ، فتركها ولم يتعرض لها ، وقال فيها من شعر : خلا لك الجو فبيضي واصفري .
٣ ما لم أشل : ما لم أرفع . الحضيض : القرار من الأرض عند منقطع الجبل ، يقال فلان في الحضيض : أي في هوان وعار . والمراد أنه سيتزوج ابنة عمه ، ويزيل ما لحقه من الذم والعار بتخليه عنها ، وميله إلى النساء الغريبات .
٤ ابنة عم لحا : أي لاصقة القرابة .
٥ فآلى : حلف .
٦ ألا يرعي على أحد : أي أن لا يبقي على أحد .
٧ المعرات : جمع المعرة ، وهي الأذية والشر .

بِشرٌ الطَّريقَ بَيْنَهُ وبينَ خُزاعةَ فيَفترِسَهُ الأسَدُ ؛ لأنَّ العَرَبَ قد كانتْ تَحامَتْ عَن ذلكَ الطَّريقِ ، وكانَ فيهِ أسَدٌ يُسَمَّى داذاً ، وحَيَّةٌ تُدعى شُجاعاً ، يَقولُ فيهِما قائِلُهُمْ :

أفْتَكُ مِن داذٍ ومِن شُجاعِ ؛ إنْ يَكُ داذٌ سَيِّدَ السِّباعِ
فإنَّها سَيِّدَةُ الأفاعي

ثمَّ إنَّ بِشراً سَلَكَ ذلكَ الطَّريقَ ، فَما نَصَفَهُ[1] ، حتى لَقِيَ الأسَدَ ، وقَمَصَ مُهرُهُ[2] ، فنَزَلَ وعَقَرَهُ ؛ ثمَّ اختَرَطَ سَيفَهُ إلى الأسَدِ[3] ، واعترَضَهُ وقَطَّهُ[4] ؛ ثمَّ كَتَبَ بدَمِ الأسَدِ ، على قَميصِهِ ، إلى ابنَةِ عَمِّهِ :

أفاطِمَ ، لو شَهِدتِ ببَطنِ خَبتٍ ؛ وقد لاقَى الهِزَبْرُ أخاكِ بِشرَا[5]
إذاً ، لَرَأيتِ لَيثاً زارَ لَيثاً ، هِزَبراً أغلَباً ، لاقَى هِزَبرَا[6]
تَبَهنَسَ ، إذ تَقاعَسَ عنهُ مُهري مُحاذَرَةً ، فقلتُ: عُقِرتَ مُهرَا[7]
أنِلْ قَدَمَيَّ ظَهرَ الأرضِ ، إنّي رأيتُ الأرضَ أثبَتَ منكَ ظَهرَا
وقُلتُ لهُ ، وقَد أبدَى نِصالاً مُحَدَّدَةً ، ووَجهاً مُكفَهِرّاً[8]
يُكَفكِفُ ، غِيلَةً ، إحدى يدَيهِ ، ويَبسُطُ ، للوُثوبِ عليَّ ، أُخرَى[9]

....

١ نصفه : بلغ نصفه .
٢ قمص المهر : رفع يديه وطرحهما ، وعجن برجليه من الفزع .
٣ اخترط سيفه إلى الأسد : أي استله ومشى به إليه .
٤ قطه : قطعه عرضاً .
٥ الخبت : المطمئن من الأرض ، فيه رمل .
٦ الليث : الأسد ، وكذلك الهزبر . زار : وتروى رام وأم . الأغلب : من صفات الأسد ، والغليظ الرقبة .
٧ تبهنس : تبختر . تقاعس : أحجم وتأخر .
٨ أبدى نصالا : أي كشر عن أنيابه . المكفهر : العابس من الغضب .
٩ يكفكف : هو في الأصل يدفع ويصرف مثل كف المتعدي ، على أن بديع الزمان استعمله هنا بمعنى يقبض ضد يبسط ، ولم تذكره المعجمات فلعله مولد . غيلة : اغتيالا .

يُدِلُّ بمِخلَبٍ ، ويحَدِّ نابٍ ، وباللَّحَظاتِ ، تَحسبُهُنَّ جَمرًا[1]

وفي يُمنايَ ماضي الحَدِّ ، أبقَى ، بمَضرِبِهِ ، قِراعُ الموتِ أثْرًا :[2]

ألم يَبلُغكَ ما فعَلَتْ ظُباهُ ، بكاظِمَةٍ ، غَداةَ لقيتُ عَمرًا ؟[3]

وقَلبي مثلُ قَلبِكَ ، ليسَ يخشَى مُصاوَلَةً ، فكيفَ يَخافُ ذُعرًا ؟[4]

وأنتَ تَرومُ للأشبالِ قُوتاً ، وأطلُبُ لابنَةِ الأعمامِ مَهرًا

فَفيمَ تَسومُ مثلي أنْ يُوَلّي ، ويَجعَلَ في يَدَيكَ النّفسَ قَسرًا ؟[5]

نصَحتُكَ ، فالتمِسْ ، يا ليثُ ، غيري طَعاماً ؛ إنَّ لَحمي كانَ مُرًّا !

فلَمّا ظَنّ أنّ الغِشّ نُصحي ، وخالَفَني كأنّي قُلتُ هُجرًا[6]

مشَى ، ومشَيتُ ، من أسَدينِ راما مَراماً ، كانَ ، إذ طَلَباهُ ، وَعْرًا[7]

هَزَزتُ لهُ الحُسامَ ، فخِلتُ أنّي سَلَلتُ بهِ ، لدَى الظّلماءِ ، فَجرًا[8]

وجُدتُ لهُ بجائشَةٍ ، أرَتْهُ ، بأنْ كَذَبَتهُ ، ما مَنَّتهُ غَدْرًا[9]

.. ..

١ يدل : يتيه مستعلياً . المخلب : ظفر كل سبع من الطير وغيره .

٢ الماضي : السيف القاطع . المضرب : الحد . الأثر : أثر الجرح يبقى بعد البرء ؛ استعاره هنا لما تركت مقارعة الموت في حد السيف من الفلول .

٣ ألم يبلغك : خطاب للأسد يرجع إلى قوله فقلت له ، وقد أبدى نصالا . الظبى : جمع ظبة وهي حد السيف ، واستعمل الجمع هنا على اعتبار أن كل جزء من حده ظبة . كاظمة : اسم موضع .

٤ مصاولة : مواثبة . الذعر : بالفتح الإخافة والإرهاب .

٥ فيم : استفهام عن السبب مثل لم . تسوم : تكلف . يولي : يطلب الهرب . قسراً : قهراً .

٦ الهجر : الكلام القبيح والهذيان .

٧ الوعر : ضد السهل .

٨ سل السيف : جرده . وتروى : شققت ، والمعنى : أنه عندما هز سيفه ازداد لمعانه ، فكأنه سل به فجراً في الظلماء .

٩ الجائشة : النفس . كذبته : أي منته الأماني وخيلت إليه من الآمال ما لا يكاد يتحقق . منته : أطمعته في الأماني . يقول : أقدمت عليه باذلا نفسي له ، بعد أن حاول إرهابي لأهرب منه ، فأرته نفسي أن ما أطمعته من الغدر بي في ثباتها أمامه كان تأميلا له وتخييلا بعيد التحقيق . ما : مفعول ثان لأرته . وجملة بأن كذبته : مفعول ثالث . وغدرا : مفعول ثان لمنته . ووجه الكلام : أرته ما منته غدراً بي بأن كذبته ، والباء زائدة .

وأطلَقتُ المُهنّدَ مِن يَميني ، فقَدّ لهُ مِنَ الأضلاعِ عَشرا[1]

فَخَرّ مُجَدّلاً بدَمٍ ، كأنّي هَدَمتُ بهِ بناءً مُشمَخِرّا[2]

وقُلتُ لَهُ : يَعِزّ عَليّ أنّي قتَلتُ مُناسِبي جلَداً وفَخرا ![3]

ولكِنْ ، رُمتَ شَيئاً لم يَرُمْهُ سِواكَ ، فلَم أُطِقْ ،يا لَيثُ، صَبرا

تُحاوِلُ أنْ تُعَلّمَني فِراراً ؟ لَعَمرُ أبيكَ ، قد حاوَلتَ نُكرا ![4]

فلا تَجزَعْ ! فقَد لاقَيتَ حُرّاً ، يُحاذِرُ أنْ يُعابَ ، فمِتَّ حُرّا[5]

فإنْ تَكُ قد قُتِلتَ ، فليسَ عاراً ؛ فقَد لاقَيتَ ذا طَرَفَينِ حُرّا[6]

فلَمّا بلَغَتِ الأبياتُ عَمّهُ ، نَدِمَ على ما مَنَعَهُ مِن تَزويجِها ، وخشِيَ أنْ تَغتالَهُ الحَيّةُ ، فَقامَ في أثَرِهِ ، وبَلَغَهُ ، وقد مَلَكَتهُ سَورَةُ الحَيّةِ[7] .

فلَمّا رأى عمَّهُ ، أخذَتهُ حَمِيّةُ الجاهليّةِ ، فجَعَلَ يَدَهُ في فَمِ الحَيّةِ وحَكّمَ سَيفَهُ فيها ، فَقالَ :

بِشرٌ، إلى المَجدِ، بَعيدٌ همُّهُ؛ لمّا رآهُ ، بالعَراءِ ، عَمُّهُ[8]

قَد ثَكِلَتهُ نَفسُهُ وأُمُّهُ ، جاشَتْ بهِ جائِشَةٌ تَهُمُّهُ[9]

---

١ من الأضلاع عشراً : تستعمل العرب عدد العشرة للدلالة على الكثرة ، لأنه تمام العقد الأول .

٢ خر : سقط . مجدلا : صريعاً على الجدالة وهي الأرض . المشمخر : العالي الذرى .

٣ فخرا : ويروى قهرا .

٤ النكر : المنكر الذي لا تألفه النفس .

٥ لا تجزع : لا تحزن .

٦ ذا طرفين حرا : أي حراً من جهة الأب ، ومن جهة الأم .

٧ سورة الحية : سطوتها واعتداؤها .

٨ همه : أي همته ، ورجل بعيد الهم : أي طلاب للمعالي البعيدة المنال . العراء : الفضاء لا يستتر فيه بشيء .

٩ ثكلته : حال أولى من الهاء في رآه ، بمعنى أبصره . جاشت : أي هاجت حال ثانية . به : أي عليه . جائشة : وصف لمحذوف ، أي حية هائجة . تهمه : أي تودع الهم في قلبه لما يتوقع من شرها .

قامَ إلى ابنِ للفَلا يَؤمُّهُ ، فَغابَ فيهِ يَدُهُ وكُمُّهُ[1]
ونَفسُهُ نَفسي وسُمِّي سُمُّهُ

فلَمَّا قَتَلَ الحَيَّةَ ، قالَ عَمُّهُ : إنّي عَرَّضتُكَ[2] طَمَعاً في أمرٍ[3] قد ثَنى اللهُ عِناني عنهُ[4] ؛ فارجِعْ لأزَوِّجَكَ ابنَتي . فلَمَّا رَجَعَ ، جَعَلَ بِشرٌ يَملأُ فَمَهُ فَخراً ، حتى طَلَعَ أمرَدُ كَشِقِّ القَمَرِ[5] ، على فَرَسِهِ ، مُدَجَّجاً في سِلاحِهِ . فقالَ بِشرٌ : يا عَمّ ، إنّي أسمَعُ حِسَّ صَيدٍ . وخَرَجَ[6] ؛ فإذا بغُلامٍ على قَيدٍ[7] . فقالَ : ثَكِلَتكَ أمُّكَ ، يا بِشرُ ! أنْ قَتَلتَ[8] دودةً وبَهيمةً تَملأُ ماضِغَيكَ[9] فَخراً ؟ أنتَ في أمانٍ إنْ سَلِمتَ عَمَّكَ . فقالَ بِشرٌ : مَن أنتَ ؟ لا أمَّ لكَ ! قالَ : اليَومُ الأسوَدُ والمَوتُ الأحمَرُ[10]. فقالَ بِشرٌ : ثَكِلَتكَ مَنْ سَلَحَتكَ ! فقالَ : يا بِشرُ ، ومَنْ سَلَحَتكَ ! وكَرَّ كلُّ واحدٍ منهُما على صاحبِهِ . فلَم يَتَمَكَّنْ بِشرٌ منهُ ، وأمكَنَ الغُلامَ عِشرونَ طعنةً في كُليةِ بِشرٍ ؛ كلَّما مَسَّهُ شَبا السِّنانِ[11] ، حَماهُ عَن بَدَنِهِ ،

١ قام : جواب لما رآه ، وفاعله يعود إلى بشر . ابن الفلا : أي الحية ، لأن الحيات العظيمة قلما توجد إلا في الفلوات . والفلا : جمع فلاة . يؤمه : يقصده . فيه : أي في فمه . كمه : يظهر أنه لف يده في كمه ، وأدخلها في فم الحية .
٢ عرضتك : أي عرضتك للهلاك .
٣ طمعاً في أمر : أي في تخليص ابنتي منك .
٤ ثنى الله عناني عنه : أي ردني وصرفني عنه ، كما يرد عنان الجواد ليسير إلى جهة غير الجهة التي كان يسير إليها .
٥ شق القمر : أي فلقة من القمر .
٦ وخرج : أي خرج للصيد الذي سمع حسه . والحس : الصوت والحركة التي تسمعها قريبة منك ولا تراها .
٧ على قيد : على قيد رمح منه ، أي مقدار طول الرمح .
٨ أن قتلت : أي الأن قتلت .
٩ الماضغان : أصول اللحيين عند منبت الأضراس ، واللحيان ، مثنى اللحي : مكان ما تنبت اللحية ؛ فقوله تملأ ماضغيك : أي تملأ فمك .
١٠ الموت الأحمر : القتل ، أو الموت الشديد .
١١ شبا السنان : حده .

إبقاءً عليه . ثمّ قالَ : يا بِشرُ ، كيفَ ترى ؟ ألَيسَ لو أردتُ ، لأطعَمتُكَ أنيابَ الرّمحِ ؟ ثمّ ألقَى رُمحَهُ ، واستلّ سيفَهُ ، فضرَبَ بِشراً عشرينَ ضربةً بعَرضِ السّيفِ ، ولم يتمكّنْ بشرٌ من واحدَةٍ . ثمّ قالَ : يا بِشرُ ، سَلّمْ عَمّكَ ، واذهَبْ في أمانٍ . قالَ : نَعَمْ ولكنْ بشَريطَةٍ أن تَقولَ لي مَنْ أنتَ . فقالَ : أنا ابنُكَ . فقالَ : يا سُبحانَ اللهِ ! ما قارَنتُ عَقيلَةً[1] قَطّ ؛ فأنّى هذه المِنحَةُ ؟ فقالَ : أنا ابنُ المَرأةِ التي دَلّتكَ على ابنَةِ عَمّكَ . فقالَ بِشرٌ :

تِلكَ العَصا مِن هذِهِ العُصَيّهْ ! هَلْ تَلِدُ الحَيّةُ إلاّ الحَيّهْ ؟[2]

وحلَفَ : لا رَكبَ حِصاناً ، ولا تزَوّجَ حَصاناً[3] . ثمّ زَوّجَ ابنَةَ عَمّهِ لابنِهِ .

....

١ العقيلة : المرأة الكريمة المخدرة . والمراد أنه لم يقارن بعد امرأة كريمة لتأتيه بمثل هذا الولد النجيب .

٢ العصا : فرس لجذيمة الأبرش . والعصية : أمها ، ومنه المثل : لا يلد العصا غير العصية . والمراد : أن بشراً لم يعجب أن يكون الولد ابن تلك المرأة ، فقد خبر ما عندها من ذكاء ودهاء .

٣ الحصان بفتح الحاء : المرأة العفيفة .

ابو الفرج الاصبهاني

كتاب الاغاني

اخبار الشعراء

جميل وبثينة في خلوة

بَينا أنا[1] في إبلي ، في الرّبيع ، إذا أنا برَجلٍ مُنطوٍ على رَحلِه كأنّهُ جان[2] ؛ فسَلّمَ عليّ ، ثمّ قالَ : ممّنْ أنتَ يا عَبدَ اللهِ ؟ فقُلتُ : أحَدُ بَني حَنظَلَةَ . قالَ : فانتَسِبْ . فانتَسَبتُ ، حتى بَلَغتُ إلى فَخِذي[3] الذي أنا منهُ . ثمّ سألَني عَن بَني عُذْرَةَ أينَ نزَلوا . فقُلتُ لهُ : هلْ ترَى ذلكَ السّفحَ[4] ؟ فإنّهمْ نزَلوا مِن وَرائِه . قالَ : يا أخا بَني حَنظَلَةَ ، هل لكَ في خَيرٍ تَصطَنِعُهُ إليّ ؟ فواللهِ لو أعطَيتَني ما أصبَحتَ تَسوقُ من هذهِ الإبلِ ، ما كنتُ بأشكَرَ منّي لكَ علَيه . فقُلتُ : نَعَمْ ، ومَنْ أنتَ أوّلاً ؟ قالَ : لا تَسألْني مَن أنا ، ولا أُخبرُكَ غيرَ أنّي رَجُلٌ بَيني وبَينَ هؤلاءِ القَومِ ما يكونُ بينَ بني العَمّ ؛ فإنْ رأيتَ أنْ تأتيَهُمْ ، فإنّكَ تَجِدُ القَومَ في مَجلِسِهِمْ ، فتَنشُدُهُمْ بَكرَةً[5]

...

١ المحدث شيخ من بني حنظلة من بني تميم .
٢ الجان : حية كحلاء العين لا تؤذي ، كثيرة في الدور .
٣ الفخذ : أقرب عشيرة الرجل من الحي .
٤ السفح : أصل الجبل أو أسفله .
٥ تنشدهم بكرة : تناديهم وتسألهم عنها . البكرة : الفتية من الإبل

أدْماء[1] تَجُرّ خُفّيها ، غُفْلاً[2] منَ السِّمَةِ . فإنْ ذَكَرُوا لكَ شَيْئاً ، فَذاكَ ، وإلاّ استأذَنْتَهُمْ في البيوتِ[3] وقلتَ : إنّ المَرأةَ والصّبيّ قد يَرَيانِ ما لا يرَى الرّجالُ ؛ فتَنشُدُهمْ ولا تَدَعُ أحَداً تُصيبُهُ عَينُكَ ، ولا بَيْتاً مِنْ بُيوتِهِمْ إلاّ نَشَدتَها فيهِ .

فأتَيتُ القَومَ ؛ فإذا هم على جَزورٍ[4] يَقتَسِمونَها ، فسلّمتُ وانتَسَبْتُ لَهُمْ ، ونَشَدتُهُمْ ضالّتي ، فلَم يَذكُروا لي شَيْئاً . فاستأذَنتُهُمْ في البُيوتِ وقُلتُ : إنّ الصّبيّ والمرأةَ يَرَيانِ ما لا تَرى الرّجالُ . فأذِنوا ؛ فأتَيتُ أقصاها بَيْتاً ، ثمّ استَقرَيتُها[5] بَيتاً بَيتاً أنشُدُهُمْ ، فلا يَذكرونَ شَيْئاً ؛ حتى إذا انتَصَفَ النّهارُ ، وآذاني حَرّ الشّمسِ ، وعَطِشتُ ، وفرَغتُ منَ البُيوتِ ، وذهَبْتُ لأنصرِفَ ، حانَتْ منّي التِفاتَةٌ ؛ فإذا بثَلاثَةِ أبياتٍ ، فقُلتُ : ما عندَ هؤلاءِ إلاّ ما عِندَ غَيرِهِمْ ، ثمّ قلتُ لنَفسي : سَوْأةً[6] ! وَثِقَ بي رَجُلٌ ، وزَعَمَ أنّ حاجَتَهُ تَعدِلُ[7] مالي ، ثمّ آتيهِ فأقولُ : عَجَزتُ عن ثَلاثَةِ أبياتٍ ! فانصَرَفتُ عامداً إلى أعظَمِها بَيتاً ؛ فإذا هوَ قَد أرخيَ مؤخّرُهُ ومُقَدّمُهُ[8] ، فسلّمتُ ، فرَدّ عليّ السّلامُ ، وذكَرتُ ضالّتي ، فقالتْ جاريَةٌ منهُمْ : يا عَبدَ اللهِ ، قد أصبتَ ضالّتَكَ ، وما أظُنُّكَ إلاّ قَد اشتَدّ عَلَيكَ الحَرّ ، واشتَهَيتَ الشّرابَ ؛ قُلتُ : أجَلْ ؛ قالت : ادخُلْ . فدَخَلتُ ، فأتَتني بصَحفَةٍ فيها تَمرٌ من تَمرِ هَجَرَ[9] ، وقَدَحٍ فيهِ لَبَنٌ والصّحفَةُ مِصريّةٌ

---

١ أدماء : من الإبل بيضاء ، ومن الناس سمراء .
٢ غفلا : لا سمة عليها أي لا علامة .
٣ استأذنتهم في البيوت : أي في سؤال من في البيوت من النساء والصبيان .
٤ الجزور : الناقة المذبوحة .
٥ استقريتها : تتبعتها .
٦ السوأة : الخلة القبيحة ، ويقال في الدعاء : سوأة لك . والمراد هنا : سوأة لي ، كما تقول : قبحاً لي .
٧ تعدل : تساوي .
٨ أرخي مؤخره ومقدمه : أي أرخيت ستور الخباء من مؤخره ومقدمه .
٩ هجر : اسم لجميع أراضي البحرين ، وهي مشهورة بتمرها .

مُفَضَّضَةٌ ، والقَدَحُ مُفَضَّضٌ لم أرَ إناءً قطّ أحسنَ منه . فقالتْ : دونَكَ . فتجمّعتُ ، وشربتُ منَ اللّبَنِ ، حتى رَويتُ ؛ ثمّ قلتُ : يا أمَةَ اللهِ[1] ، واللهِ ، ما أتيتُ اليومَ أكرمَ منكِ ، ولا أحقّ بالفضلِ ؛ فهل ذكرتِ من ضالّتي شيئاً ؟ فقالتْ : هل ترى هذه الشّجرةَ فوقَ الشّرَفِ[2] ؟ قلتُ : نعمْ . قالتْ : فإنّ الشّمسَ قد غربتْ أمسِ وهيَ تُطيفُ حولَها ، ثمّ حالَ اللّيلُ بيني وبينَها .

فقمتُ ، وجزيتُها الخيرَ ، وقلتُ : واللهِ لقد تغدّيتُ ورويتُ ! فخرجتُ ، حتى أتيتُ الشّجرةَ ، فأطفتُ بها ؛ فواللهِ ، ما رأيتُ مِن أثرٍ ، فأتيتُ صاحبي ، فإذا هوَ مُتَّشحٌ ، في الإبلِ[3] ، بكسائِهِ ، ورافعٌ عقيرتَهُ[4] يُغنّي .

قلتُ : السّلامُ عليكَ . قالَ : وعليكَ السّلامُ ، ما وراءَكَ ؟ قلتُ : ما ورائي من شيءٍ . قالَ : لا عليكَ[5] ! فأخبرْني بما فعلتَ . فاقتصصتُ عليهِ القِصّةَ ، حتى انتهيتُ إلى ذِكرِ المرأةِ وأخبرتُهُ بالذي صنعتْ . فقالَ : قد أصبتَ طَلِبتَكَ . فعجبتُ من قولِهِ ، وأنا لم أجدْ شيئاً . ثمّ سألني عن صِفةِ الإناءَينِ : الصّحفةِ والقدحِ . فوصفتُهما لهُ . فتنفّسَ الصُّعَداءَ ، وقالَ : قد أصبتَ طَلِبتَكَ ، وَيحكَ ! ثمّ ذكرتُ له الشّجرةَ ، وأنّها رآتها[6] تُطيفُ بها . فقالَ : حَسبُكَ !

فمكثتُ حتى إذا أوَتْ إبلي إلى مباركِها ، دعوتُهُ إلى العَشاءِ ، فلمْ يَدنُ منهُ ، وجلسَ منّي بمَزجَرِ الكلبِ[7] . فلمّا ظنّ أنّي قد نمتُ ، رَمقتُهُ ،

---

[1] يا أمة الله : يقال للمرأة يا أمة الله ، وللرجل يا عبد الله ، على الأخص إذا كانا مجهولي الاسم والنسب عند من يخاطبهما .

[2] الشرف : المكان العالي .

[3] في الإبل : أي معها مستقر .

[4] العقيرة : صوت الرجل إذا غنى أو قرأ أو بكى .

[5] لا عليك : أي لا بأس عليك .

[6] رآتها : ضمير النصب يعود على البكرة .

[7] بمزجر الكلب : أي في مكان ما يزجر الكلب ، أي يردع ليهدأ ويكف . والمراد أنه جلس متنحياً صامتاً كالكلب المزجور .

فقامَ إلى عَيبةٍ[1] لهُ ، فاستَخرَجَ منها بُردَينِ ، فأتزَرَ بأحَدِهما[2] وتَرَدّى[3] بالآخَرِ . ثمَّ انطَلَقَ عامِداً نحوَ الشّجرَةِ . واستَبطَنتُ الواديَ[4] ، فجَعَلتُ أخفي نَفسي ، حتى إذا خِفتُ أنْ يَراني ، انبَطَحتُ ، فلَم أزَلْ كذلكَ ، حتى سَبَقتُهُ إلى شَجَراتٍ قَريبْ[5] مِن تلكَ الشّجرَةِ ، بحَيثُ أسمَعُ كَلامَهُما ، فاستَترتُ بهنّ ؛ وإذا صاحبَتُهُ عندَ الشّجرَةِ . فأقبَلَ حتى كانَ منها غيرَ بَعيدٍ ؛ فقالَت : اجلِسْ ؛ فواللهِ ، لكأنّهُ لَصِقَ بالأرضِ . فسَلّمَ علَيها ، وسألَها عَن حالِها أكرَمَ سؤالٍ سَمِعتُ بهِ قَطّ[6] وأبعَدَهُ من كلّ رِيبةٍ . وسألَتهُ مثلَ مَسألَتِهِ ؛ ثمّ أمرَتْ جاريَةً معَها ، فقَرّبَتْ إلَيهِ طَعاماً . فلَمّا أكَلَ وفَرَغَ ، قالَتْ : أنشِدْني ما قُلتَ ؛ فأنشَدَها :

عَلِقتُ الهوَى، منها، وليداً فلَم يزَلْ، إلى اليَومِ ، يَنمي حُبُّها ويَزيدُ[7]

فلَم يَزالا يَتَحَدّثانِ ، ما يَقولانِ فُحْشاً ولا هُجْراً[8] ، حتى التَفَتَتِ التِفاتَةً ، فنَظَرَتْ إلى الصّبحِ ، فوَدّعَ كلٌّ واحدٍ منهُما صاحبَهُ أحسَنَ وَداعٍ ما سَمِعتُ بهِ قَطّ ، ثمّ انصَرَفَا .

فقُمتُ ، فمَضَيتُ إلى إبلي ، فاضطَجَعتُ ؛ وكلّ واحدٍ منهُما يَمشي خَطوَةً ، ثمّ يَلتَفِتُ إلى صاحبِه[9] . فَجاءَ بَعدَما أصبَحنا ، فرَفَعَ بُردَيهِ ، ثمّ قالَ : يا أخا بَني تَميمٍ ، حتى متى تَنامُ ! فقُمتُ ، وتَوَضّأتُ ، وصَلّيتُ ،

١ العيبة : وعاء من أدم يكون فيه المتاع .
٢ اتزر بأحدهما : أي شده على وسطه ، وهو المتزر والإزار .
٣ تردى : ارتدى .
٤ استبطنت الوادي : سرت في بطنه .
٥ قريب : يستعمل للواحد وللجمع .
٦ سمعت به قط : من غير ما النافية جائز على قلة ، ومنعه بعضهم .
٧ علقت الهوى : بمعنى علقت به ، أي نشبت به فما أستطيع خلاصاً . والمعنى : أنه أحبها وهو وليد ، ولم يزل حبها ينمو معه ويزيد . يقال : نما ينمو ، ونمى ينمي .
٨ الهجر : الكلام القبيح .
٩ رجع الحديث هنا إلى جميل وبثينة ، وهو إتمام لقوله : ثم انصرفا .

وحَلَبتُ إبلي ، وأعانَني عليها ، وهوَ أظهرُ النّاسِ سروراً . ثمّ دَعَوتُهُ إلى الغَداءِ فتغَدّى ؛ ثمّ قامَ إلى عَيبتِهِ فافتَتَحَها ، فإذا فيها سِلاحٌ وبُردانِ ممّا كَسَتهُ المُلوكُ ، فأعطاني أحَدَهُما ، وقالَ : أمَا واللهِ ، لو كانَ مَعي شيءٌ ما ذَخَرتُهُ عَنكَ . وحَدّثَني حَديثَهُ ، وانتَسَبَ لي ؛ فإذا هوَ جَميلُ بنُ مَعمَرٍ ، والمَرأةُ بُثَينَةُ . وقال لي : إنّي قَد قُلتُ أبياتاً في مُنصَرَفي من عِندِها ؛ فهَل لكَ ، إنْ رأيتَها ، أنْ تُنشِدَها ؟ قُلتُ : نَعَمْ ؛ فأنشَدَني :

وما أنسَ مِ الأشياءِ ، لا أنسَ قَولَها ، وقد قَرّبَتْ نِضوي : أمِصرَ تُريدُ ؟[1]

الأبياتَ . ثمّ وَدّعَني وانصَرَفَ . فمَكَثتُ ، حتى أخذَتِ الإبلُ مَراتِعَها[2] ، ثمّ عَمَدتُ إلى دُهنٍ[3] كانَ مَعي ، فدَهَنتُ بهِ رأسي ؛ ثمّ ارتَدَيْتُ بالبُرْدِ ، وأتَيتُ المَرأةَ فقُلتُ : السّلامُ علَيكُمْ ، إنّي جِئتُ أمسِ طالباً[4] ، واليَومَ زائراً ؛ أفتأذَنونَ ؟ قالَتْ : نَعَمْ . فسَمِعتُ جُوَيريَةً تَقولُ لها : يا بُثَينَةُ ، علَيهِ ، واللهِ ، بُرْدُ جَميل . فجعَلتُ أُثني على ضَيفي وأذكُرُ فَضلَهُ ، وقلتُ : إنّهُ ذَكَرَكِ فأحسَنَ الذّكرَ ؛ فهَل أنتِ بارِزَةٌ لي ، حتى أنظُرَ إلَيكِ ؟ قالتْ : نَعَمْ . فلَبِسَتْ ثيابَها ، ثمّ بَرَزَتْ ، ودَعَتْ لي بطُرَفٍ[5] ؛ ثمّ قالَتْ : يا أخا بَني تَميمٍ ، واللهِ ، ما ثَوباكَ هذانِ بمُشتَبِهَينِ[6] . ودَعَتْ بعَيبَتِها ، فأخرَجَتْ لي مِلحَفَةً[7] مَرَوِيّةً[8] مُشبَعَةً منَ العُصفُرِ[9] ؛ ثمّ قالتْ : أقسَمتُ علَيكَ

---

١ ما أنس : أي إن أنس . م الأشياء : أي من الأشياء ؛ استعملت في الشعر . النضو : المهزول من الإبل لكثرة الأسفار .
٢ أخذت الإبل مراتعها : أي انتهت من رعيها .
٣ الدهن : ما يدهن به الرأس واللحية من زيت الأثمار للتطيب .
٤ طالباً : أي طالباً ضالتي .
٥ الطرف : الأثمار الغريبة ، واحدتها طرفة .
٦ أي لا يشبه أحدهما الآخر ، فهما غير متناسبين .
٧ الملحفة : اللباس فوق سائر اللباس من دثار البرد ونحوه .
٨ المروي : نسبة إلى مرو ، بلدة بفارس .
٩ العصفر : نبت يصبغ بزهره صبغ أصفر .

لتَقومَنَّ إلى كِسرِ البَيتِ[1] ، ولتَخلَعَنَّ مِدْرَعتَكَ[2] ، ثمّ لتأتزِرَنَّ بهذهِ المِلحَفَةِ ، فهيَ أشبَهُ ببُردِكَ . ففَعَلتُ ذلكَ ، وأخَذتُ مِدرَعَتي فجعَلتُها إلى جانبي ، وأنشَدتُها الأبياتَ ، فدَمَعَتْ عَيناها . وتَحَدَّثنا طَويلاً منَ النّهارِ ، ثمّ انصرَفتُ إلى إبلي بمِلحَفَةِ بُثَينَةَ ، وبُرْدِ جَميل، ونَظرَةٍ من بُثَينَةَ .

الدارمي[3] وتاجر الخمر

أخبرَني الحَرَميّ بنُ العَلاءِ قالَ : حَدّثَنا الزّبَيرُ بنُ بَكّار . . . الخ .

أنّ تاجراً مِن أهلِ الكُوفَةِ قَدِمَ المَدينَةَ بخُمُرٍ[4] ، فَباعَها كلّها ، وبَقيتِ السّودُ منها فلَمْ تَنفُقْ . وكانَ صَديقاً للدّارميّ ، فشَكا ذاكَ إليهِ ، وقد كانَ نَسَكَ وتَرَكَ الغِناءَ وقَولَ الشّعرِ ؛ فَقالَ لَهُ : لا تَهتَمّ بذلكَ ، فإنّي سأُنفِقُها لكَ حتى تَبيعَها أجمَعَ . ثمّ قالَ :

قُل للمَليحةِ ، في الخِمارِ الأسوَدِ : ماذا صَنَعتِ براهبٍ مُتَعَبِّدِ ؟
قَد كانَ شَمّرَ للصّلاةِ ثِيابَهُ ، حتى وَقَفتِ لهُ ببابِ المَسجِدِ

وغَنّى فيهِ ؛ وغَنّى فيهِ أيضاً سِنانٌ الكاتبُ ، وشاعَ في النّاسِ وقالوا : قد فَتَكَ[5] الدّارميّ ورَجَعَ عَن نُسكِهِ . فلَمْ تَبقَ في المَدينَةِ ظَريفَةٌ إلاّ ابتاعَتْ خِماراً أسوَدَ ، حتى نَفِدَ ما كانَ معَ العِراقيّ منها . فلَمّا عَلِمَ بذلك الدّارميّ ، رَجَعَ إلى نُسكِهِ ، ولَزِمَ المَسجِدَ .

. . . .

١ كسر البيت : جانبه ، والشقة السفلى من الخباء .
٢ المدرعة : ضرب من الثياب ، ولا تكون إلا من الصوف .
٣ الدارمي : شاعر أموي من مكة ، وكان يحسن الغناء .
٤ الخمر : جمع الخمار وهو ما تغطي به المرأة رأسها .
٥ فتك : مجن .

قوة هلال[1]

وقالَ خالدُ بنُ كُلثومٍ : كانَ هِلالُ بنُ الأسعَرِ ، فيما ذَكَروا ، يَرِدُ مَعَ الإبلِ ، فيأكُلُ ما وَجَدَ عندَ أهلِهِ ، ثمّ يَرجعُ إليها ، ولا يَتزَوّدُ طعاماً ولا شَراباً ، حتى يَرجعَ يومَ وُرُودِها ، لا يَذوقُ طَعاماً ولا شَراباً . وكانَ عاديَّ الخَلقِ[2] لا تُوصَفُ صِفتُهُ .

قالَ خالدُ بنُ كُلثومٍ : فحدّثنا عَنهُ مَنْ أدرَكَهُ : أنّهُ كانَ يَوماً في إبلٍ لهُ ، وذلكَ عندَ الظّهيرَةِ في يومٍ شَديدٍ وَقعِ الشّمسِ مُحتَدِمِ الهاجرَةِ[3] ؛ وقد عَمَدَ إلى عَصاهُ فطَرَحَ علَيها كِساءَهُ ، ثمّ أدخَلَ رأسَهُ تحتَ كِسائِهِ منَ الشّمسِ . فبَينا هوَ كذلكَ ، إذْ مَرّ بهِ رَجُلانِ : أحَدُهُما مِنْ بَني نَهشَلٍ ، والآخَرُ مِن بَني فُقَيمٍ[4] ، كانا أشَدّ تَميميّينِ ، في ذلكَ الزّمانِ ، بَطشاً ، يُقالُ لأحدِهِما الهَيّاجُ ؛ وقد أقبَلا منَ البَحرَينِ ومَعَهُما أنواطٌ[5] مِنْ تَمرِ هَجَرَ[6] . وكانَ هِلالٌ بناحيَةِ الصّعابِ[7] . فلَمّا انتَهَيا إلى الإبلِ ، ولا يَعرِفانِ هِلالاً بوَجهِهِ ، ولا يَعرِفانِ أنّ الإبلَ لهُ ، نادَيا : يا راعي ، أعِندَكَ شَرابٌ تَسقينا ؟ وهُما يَظُنّانِهِ عَبداً لبَعضِهِمْ . فَناداهُما هِلالٌ و رأسُهُ تحتَ كِسائِهِ : علَيكُما النّاقةَ[8] التي صِفَتُها كَذا ، في مَوضعِ كَذا ، فأنيخاها ؛ فإنّ علَيها وَطْبَينِ[9] مِنْ لَبَنٍ ، فاشرَبا منهُما ما بَدا لَكُما . قال[10] :

1 هلال : شاعر أموي ، وربما أدرك الدولة العباسية . وكان شديداً عظيم الخلق أكولاً ، صبوراً على الجوع .
2 عادي الخلق : عملاق ضخم الجسم ، نسبة إلى عاد ؛ والعرب تضرب المثل بأحلام قوم عاد وأجسامهم .
3 الهاجرة : نصف النهار ، وشدة الحر .
4 فقيم ونهشل : كلاهما من دارم ، ثم من تميم .
5 الأنواط ، جمع نوط : القفة الصغيرة فيها التمر ونحوه .
6 هجر : ناحية البحرين كلها .
7 الصعاب : اسم جبل بين اليمامة والبحرين ؛ وقيل : رمال بين البصرة واليمامة صعبة المسالك .
8 عليكما الناقة : أي الزماها ولا تفارقاها ، فعليك هنا اسم فعل ، ويقال أيضاً عليك به : أي استمسك به .
9 الوطب : سقاء اللبن خاصة ، ويكون من جلد .
10 قال : الضمير يعود على المحدث .

فقالَ لهُ أحَدُهُما : وَيحَكَ ! انهَضْ ، يا غُلامُ ، فأتِ بذلكَ اللبَنِ !
فَقالَ لَهُما : إنْ تَكُ لكُما حاجَةٌ ، فستَأتيانِها فتَجِدانِ الوَطْبَينِ ، فتَشرَبانِ.
قالَ : فَقالَ أحَدُهُما : إنّكَ ، يا ابنَ اللّخناءِ[1] ، لَغَليظُ الكَلامِ ، قُمْ فاسقِنا . ثمّ دَنا منْ هِلالٍ وهوَ على تلكَ الحالِ[2] . وقال لهما ، حَيثُ[3] قالَ لهُ أحَدُهُما : « إنّكَ يا ابنَ اللّخناءِ لَغَليظُ الكَلامِ » : أراكُما ، واللهِ ، ستَلقَيانِ هَواناً وصَغاراً[4] .

وسَمِعنَا ذلكَ منهُ ، فدَنا أحَدُهُما ، فأهوى لهُ ضَرباً بالسّوطِ على عَجزُهِ ، وهوَ مُضطَجِعٌ. فتَناوَلَ هِلالٌ يَدَهُ ، فاجتَذَبَهُ إلَيهِ ، ورَماهُ تحتَ فَخذِهِ ، ثمّ ضَغَطَهُ ضَغطَةً ، فنادى صاحبَهُ : وَيحَكَ ! أغِثني ، قد قَتَلَني ! فدَنا صاحبُهُ منهُ ، فتَناوَلَهُ هِلالٌ أيضاً ، فاجتَذَبَهُ ، فرَمَى به تحتَ فَخذِهِ الأُخرَى ، ثمّ أخَذَ برِقابِهِما ، فجَعَلَ يَصُكّ برؤوسِهِما[5] بَعضاً ببَعضٍ ؛ لا يَستَطيعانِ أنْ يَمتَنِعَا منهُ . فقالَ أحدُهُما : كُنْ هِلالاً ، ولا نُبالي ما صَنَعتَ . فقالَ لهما : أنا واللهِ هِلالٌ ، ولا ، واللهِ ، لا تُفلِتانِ منّي ، حتى تُعطِياني عَهداً وميثاقاً لا تَخيسانِ بهِ[6] . لتَأتيانّ المِربَدَ[7] ، إذا قَدِمتُما البَصرَةَ ، ثمّ لتُناديانّ بأعلى أصواتِكُما بما كانَ منّي ومنكُما . فعاهَداهُ ، وأعطَياهُ نَوْطاً منَ التّمرِ الذي مَعَهُما . وقَدِمَا البَصرَةَ ، فأتَيا المِربَدَ ، فنادَيا بما كانَ منهُ ومِنهُما .

1 اللخناء : صفة للأمة ، ومن شتم العرب : يا ابن اللخناء ، كأنهم يقولون : يا دنيء الأصل يا لئيم .
2 وهو على تلك الحال : أي رأسه تحت كسائه .
3 حيث : هنا ظرفية زمانية كحين .
4 الصغار : الرضى بالذل .
5 قوله : برقابهما ورؤوسهما بالجمع دون التثنية ، لكراهة اجتماع تثنيتين ، مع ظهور المراد ، وقد تستعمل التثنية والإفراد .
6 لا تخيسان به : لا تغدران به ولا تنكثان ، وضمير به عائد إلى الأقرب .
7 المربد : سوق بالقرب من البصرة ، كانت فيها مفاخرات الشعراء ومجالس الخطباء .

ابو دلامة وسلمة الوصيف

دَخلَ أبو دُلامَةَ على المَهديّ ، وبينَ يَدَيه سَلَمَةُ الوَصيفُ[1] واقِفاً ، فقالَ : إنّي أهدَيتُ إليكَ ، يا أميرَ المؤمنينَ ، مُهْراً ليسَ لأحَدٍ مِثلُهُ ؛ فإنْ رأيتَ أنْ تُشرّفَني بقَبولِه . فأمَرَهُ بإدخالِه إليه . فخرَجَ وأدخَلَ إليهِ دابّتَهُ التي كانَتْ تَحتَهُ ، فإذا بهِ بِرْذَوْنٌ[2] مُحَطَّمٌ أعجَفُ[3] هَرِمٌ . فقالَ المَهديّ : أيّ شيءٍ هذا ، وَيلَكَ ! ألم تزعُمْ أنّهُ مُهْرٌ ! فقالَ لهُ : أوَلَيسَ هذا سَلَمَةَ الوَصيفَ بينَ يَدَيكَ قائماً ، تُسَمّيهِ الوَصيفَ ولهُ ثَمانُونَ سنَةً ، وهوَ عندَكَ وَصيفٌ ! فإن كانَ سَلَمَةُ وَصيفاً ، فهَذا مُهْرٌ . فجعَلَ سَلَمَةُ يَشتُمُهُ والمَهديّ يَضحَكُ . ثمّ قالَ لسَلَمَةَ : وَيلَكَ ، إنّ لهذِه منهُ أخَواتٍ ، وإنْ أتَى بها في مَحفِلٍ فضَحَكَ . فقالَ أبو دُلامَةَ : واللهِ لأفضَحَنّه يا أميرَ المؤمنينَ ؛ فليسَ من مَواليكَ أحَدٌ ، إلاّ وقد وَصَلَني ، غيرَهُ ؛ فإنّي ما شَرِبتُ لهُ الماءَ قَطّ . قالَ : فقد حكَمتُ عليهِ أنْ يَشتريَ نَفسَهُ منكَ بألفِ دِرهَمٍ ، حتى يَتَخَلّصَ من يَدِكَ . قالَ[4] : قد فَعَلتُ على أنْ لا يُعاوِدَ . فقالَ لَهُ : ما تَرَى ؟ قالَ : أفعَلُ[5] ، فلَولا أنّي ما أخَذتُ منهُ شَيئاً قَطّ ، ما فَعَلتُ معَهُ مثلَ هذه . فمَضَى سَلَمَةُ فحَمَلَها إليه .

---

١ الوصيف : الخادم ، أو خادم الملوك والأمراء ، ويكون في الغالب فتى .
٢ البرذون : دابة الحمل الثقيلة البطيئة ، أو الفرس غير الأصيل .
٣ أعجف : هزيل .
٤ قال : اي سلمة .
٥ أفعل : أي لا أعاود .

معبد في السفينة

كانَ مَعبدٌ قد علّمَ جاريةً مِن جَواري الحِجازِ الغِناءَ تُدعَى « ظَبيةَ » ، وعُنيَ بتَخريجِها ؛ فاشتراها رَجلٌ مِن أهلِ العِراقِ ، فأخرجَها إلى البَصرةِ ، وباعَها هُناكَ ؛ فاشتراها رَجلٌ مِن أهلِ الأهوازِ ، فأعجِبَ بها ، وذهبَتْ به كلَّ مَذهَبٍ وغلَبَتْ عليه . ثمّ ماتتْ بَعدَ أنْ أقامَتْ عندَهُ بُرهةً[1] منَ الزّمانِ . وأخذَ جَواريهِ أكثرَ غِنائِها عنها . فكانَ لمَحبّتِهِ إيّاها ، وأسَفِه عليها ، لا يَزالُ يَسألُ عن أخبارِ مَعبَدٍ وأينَ مُستقَرّهُ ، ويُظهِرَ التعَصّبَ لهُ والمَيلَ إليهِ والتّقديمَ لغِنائِه على سائرِ أغاني أهلِ عَصرِهِ ؛ إلى أن عُرِفَ ذلكَ منهُ . وبَلَغَ مَعبداً خبَرُهُ ، فخرَجَ من مَكّةَ حتى أتَى البَصرَةَ ، فلَمّا وَرَدَها صادَفَ الرّجُلَ قد خرَجَ عَنها ، في ذلكَ اليَومِ ، إلى الأهوازِ ، فاكترى سَفينَةً . وجاءَ مَعبَدٌ يَلتَمِسُ سَفينَةً يَنحَدِرُ فيها إلى الأهوازِ ، فلَم يَجِدْ غيرَ سَفينَةِ الرّجلِ ؛ ولَيسَ يَعرِفُ أحَدٌ منهُما صاحبَهُ . فأمرَ الرّجُلُ المَلاّحَ أنْ يُجلِسَهُ مَعَهُ في مُؤخّرِ السّفينَةِ ، ففَعَلَ ؛ وانحَدَروا .

فلَمّا صاروا في فَمِ نَهرِ الأُبُلّةِ[2] ، تَغَدّوا وشربوا ؛ وأمرَ جَواريَهُ فغَنّينَ ، ومَعبَدٌ ساكِتٌ وهوَ في ثيابِ السّفَرِ ، وعلَيهِ فَروٌ وخُفّانِ غَليظانِ وزِيّ جافٍ منْ زِيّ أهلِ الحِجازِ ؛ إلى أنْ غَنّتْ إحدى الجَواري :

صوت

بانَتْ سُعادُ ، وأمسَى حَبلُها انصرَما ، واحتَلّتِ الغَورَ والأجراعَ مِن إضَما[3]

١ البرهة بفتح الباء وضمها : الزمن الطويل ، وتأتي بمعنى الزمن مطلقاً .
٢ الأبلة : بلدة على شاطىء دجلة البصرة العظمى في زاوية الخليج الذي يدخل إلى مدينة البصرة .
٣ الغور : المطمئن من الأرض . الأجراع ، جمع جرع : الرملة الطيبة المنبت . إضم : واد بجبل تهامة ، وهو الوادي الذي فيه المدينة .

إحدَى بَلِيٍّ ، وما هامَ الفُؤادُ بها   إلاّ السَّفاهَ ، وإلاّ ذُكْرَةً حُلُمَا[1]

ــ قالَ حَمّادٌ : والشّعرُ للنّابغَةِ الذُّبيانيّ ، والغِناءُ لمَعبَدٍ ، خَفيفُ ثَقيلٍ أوّلَ بالبِنصِرِ ؛ وفيهِ لغَيرِهِ ألحانٌ قَديمَةٌ ومُحدَثَةٌ ــ

فلَمْ تُجِدْ أداءَهُ ، فصاحَ بها مَعبَدٌ : يا جاريَةُ ، إنّ غِناءَكِ هذا لَيسَ بمُستَقيمٍ . قالَ : فقالَ لهُ مَولاها ، وقد غَضِبَ : وأنتَ ما يُدريكَ الغِناءَ ما هوَ ؟ لِمَ لا تُمسِكُ وتَلزَمُ شأنَكَ ؟ فأمسَكَ مَعبَدٌ .

ثمّ غَنّتْ أصواتاً من غِناءِ غَيرِهِ ، وهوَ ساكِتٌ لا يتَكَلّمُ ، حتى غنّتْ :

صوت

بابنَةِ الأزديّ قَلبي كَئيبُ ،   مُستَهامٌ عِندَها ، ما يُنيبُ[2]
ولقَد لامُوا ، فقُلتُ : دَعوني !   إنّ مَنْ تَنهَوْنَ عَنهُ حَبيبُ
إنّما أبلَى عِظامي وجِسمي   حُبُّها ، والحُبّ شيءٌ عَجيبُ
أيّهـا العائبُ عنـدي هَواها ،   أنتَ تَفدي مَن أراكَ تَعيبُ

ــ وَالشّعْرُ لعَبْدِ الرّحْمَنِ بنِ أبي بَكْرٍ ، وَالغِناءُ لمَعبَدٍ ثَقيلٌ أوّلُ بالسّبّابَةِ في مَجرَى البِنْصِرِ ــ

قالَ : فأخَلّتْ بِبَعضِهِ . فقالَ لهَا مَعبَدٌ : يا جاريَةُ ، لَقَدْ أخلَلْتِ بهَذا الصّوْتِ إخْلالاً شَديداً . فغَضِبَ الرّجُلُ وقالَ لهُ : وَيْلَكَ ! ما أنتَ والغِناءَ ! ألا تَكُفّ عَنْ هذا الفُضُولِ ! فأمْسَكَ . وغَنّى الجَواري مَلِيّاً[3] . ثُمّ غَنّتْ إحداهنّ :

....

1 بلي : اسم قبيلة . السفاه : الطيش وخفة الحلم . الذكرة : نقيض النسيان ، وتكسر الذال .
2 ينيب : يتوب .
3 ملياً : أي ساعة طويلة .

صوت

خَليليَّ ، عُوجَا مِنكُما ساعَةً مَعي على الرَّبْعِ نَقضِي حاجَةً ، ونُوَدِّعِ [1]

وَلا تُعْجِلاني أنْ أُلِمَّ بِدِمْنَةٍ لِعزَّةَ ، لاحَتْ لي بِبَيْداءَ بَلْقَعِ [2]

وقُولا لقَلْبٍ قَد سَلا: راجِعِ الهَوَى، وللعينِ: أذْرِي من دُموعِكِ، أوْ دَعي

فَلا عَيشَ إلاّ مثلُ عَيشٍ مَضَى لَنَا مَصِيفاً ، أقَمْنا فيهِ منْ بَعدِ مَرْبَعِ [3]

— الشّعْرُ لكُثَيّرٍ ، والغِناءُ لمَعبَدٍ خَفيفُ ثَقيلٍ بالسَّبّابةِ في مَجرَى الوُسْطَى ، وفيهِ رَمَلٌ للغَرِيضِ [4] —

قالَ : فلَمْ تَصْنَعْ فيهِ شَيْئاً . فقَالَ لهَا مَعبَدٌ : يا هذه ، أمَا تَقومِينَ على أداءِ صَوْتٍ واحدٍ ؟ فغَضِبَ الرّجلُ وقالَ لَهُ : ما أراكَ تَدَعُ هذا الفُضُولَ بوَجْهٍ ولا حيلَةٍ ! وأُقسِمُ باللهِ لَئِنْ عاوَدْتَ ، لأُخرِجَنّكَ مِنَ السَّفينَةِ . فأمسَكَ مَعْبَدٌ ، حتّى إذا سَكَتَتِ الجَواري سَكْتَةً ، انْدَفَعَ يُغَنّي الصّوْتَ الأوّلَ حتّى فرَغَ منْهُ ، فصَاحَ الجواري : أحْسَنْتَ ، واللهِ ، يا رَجُلُ ! فأعِدْهُ . فقَالَ : لا واللهِ ، ولا كَرَامَةَ . ثمّ انْدَفَعَ يُغَنّي الثّاني ، فقُلْنَ لسَيّدِهنّ : وَيْحَكَ ! هذا، واللهِ ، أحْسَنُ النّاسِ غِنَاءً، فَسَلْهُ أنْ يُعيدَهُ عَلَيْنا ولَوْ مرّةً واحدَةً ، لَعَلّنَا نأخُذُهُ عَنْهُ ؛ فإنّهُ ، إنْ فاتَنا ، لمْ نَجِدْ مِثْلَهُ أبَداً . فقَالَ : قَدْ سَمِعتُنّ سُوءَ رَدّهِ عَلَيكُنّ وأنَا خائِفٌ مِثْلَهُ [5] مِنْهُ ؛ وقَدْ أسْلَفْناهُ الإساءَةَ ، فاصْبِرْنَ حتّى نُدارِيَه .

ثُمّ غَنّى الثّالِثَ ، فزَلْزَلَ عَلَيْهِمُ الأرْضَ ، فوَثَبَ الرّجُلُ فَخَرَجَ

---

١ منكما : ويروى فابكيا ، وهو أجود . نقضي : مجزوم بجواب الأمر ، وأشبعت الحركة فظهرت الياء للشعر .
٢ البلقع : المقفر ، المذكر والمؤنث .
٣ المربع : الموضع ينزلونه في الربيع .
٤ الغريض : من مشاهير المغنين في بني أمية .
٥ مثله : أي مثل هذا الرد .

إليه ، وقبّل رأسه وقال : يا سيّدي ، أخطأنا عليك ولم نعرف موضعك. فقال له : فهبك لم تعرف موضعي ، قد كان ينبغي لك أن تتثبت ولا تُسرع إليّ بسوء العشرة وجفاء القول . فقال له : قد أخطأتُ ، وأنا أعتذر إليك مما جرى ، وأسألك أن تنزل إليّ وتختلط بي . فقال : أمّا الآن فلا . فلم يزل يرفق به حتى نزل إليه . فقال له الرجل : ممّن أخذت هذا الغناء ؟ قال : من بعض أهل الحجاز ؛ فمن أين أخذه جواريك ؟ فقال : أخذته من جارية كانت لي ابتاعها رجل من أهل البصرة من مكّة ، وكانت قد أخذت عن أبي عبّاد معبد ، وعُني بتخريجها ، فكانت تحلّ مني محلّ الروح ؛ ثم استأثر الله ، عزّ وجلّ ، بها ، وبقي هؤلاء الجواري ، وهنّ من تعليمها ؛ فأنا إلى الآن أتعصّب لمعبد وأفضّله على المغنّين جميعاً ، وأفضّل صنعته على كلّ صنعة . فقال له معبد : أوَ إنك لأنت هو ! أفتعرفني ؟ قال : لا . فصكّ[1] معبد بيده صلعته ، ثم قال : فأنا ، والله ، معبد ؛ وإليك قدمتُ من الحجاز ووافيتُ البصرة ، ساعة نزلت السفينة ، لأقصدك بالأهواز ؛ والله ، لا قصّرتُ في جواريك هؤلاء ، ولأجعلنّ لك في كلّ واحدة منهنّ خلفاً من الماضية . فأكبّ الرجل والجواري على يديه ورجليه يقبّلونها ويقولون : كتمتنا نفسك ، طول هذا اليوم ، حتى جفوناك في المخاطبة ، وأسأنا عشرتك ، وأنت سيّدنا ومن نتمنّى على الله أن نلقاه !

ثم غيّر الرجل زيّه وحاله وخلع عليه عدّة خلع ، وأعطاه ، في وقته ، ثلاثمائة دينار ، وطيباً وهدايا بمثلها . وانحدر معه إلى الأهواز ، فأقام عنده حتى رضي حذق جواريه وما أخذنه عنه ثم ودّعه وانصرف إلى الحجاز .

---

١ صك : ضرب .

موت حنين[1]

أخبرني عمّي قال : حدّثني عبدُ الله بنُ أبي سعْد قالَ : حدّثني حسّانُ بنُ محمّد الحارثيّ قالَ : حدّثنا عبدُ الله قالَ : حدّثنا عُبَيْدُ بنُ حُنَيْن[2] الحيريّ قالَ :

كانَ المُغنّونَ في عصرِ جدّي أربعةَ نفرٍ ثلاثةٌ بالحجازِ ، وهوَ وحدَهُ بالعراقِ ، والّذينَ بالحجازِ : ابنُ سُرَيْجٍ والغَريضُ ومَعْبَدٌ . فكانَ يبلُغُهُم أنّ جدّي حُنَيْناً قد غنّى في هذا الشّعرِ :

هلاّ بكيْتَ على الشّبابِ الذّاهبِ ، وكففْتَ عنْ ذمّ المَشيبِ الآئبِ[3]

هذا ؟ ورُبَّ مُسوّفينَ سقيْتُهُمْ ، مِنْ خمْرِ بابلَ ، لذّةً للشّاربِ[4]

بكرُوا عليّ بسُحْرَةٍ ، فصبَحتُهمْ من ذاتِ كُوبٍ مثلِ قعْبِ الحالبِ[5]

بزُجاجةٍ ملءِ اليدَينِ ، كأنّها قنديلُ فِصْحٍ في كنيسةِ راهبِ[6]

قالَ : فاجتمعُوا فتذاكرُوا أمرَ جدّي ، وقالُوا : ما في الدّنيا أهلُ صناعةٍ شرٌّ منّا ؛ لنا أخٌ بالعراقِ ونحنُ بالحجازِ ، لا نَزُورُهُ ولا نستزيرُهُ . فكتبوا إليهِ ووجّهُوا إليهِ نفقةً ، وكتبوا يقولونَ : نحنُ ثلاثةٌ وأنتَ وحدَكَ ، فأنتَ أولى بزيارتِنا. فشخَصَ[7] إليهِمْ ، فلمّا كانَ على مرحلةٍ[8]

---

١ حنين : من نصارى الحيرة ، شاعر ، ومن أكابر المغنين في بني أمية .

٢ عبيد بن حنين : نسبه أبو الفرج إلى جده لشهرته .

٣ الآئب : الراجع .

٤ المسوفين : جمع مسوف وهو الصبور ، ومن يصنع ما شاء لا يرده أحد .

٥ القعب : القدح الضخم . والمراد : فصبحتهم من خمرة في كوب كبير كقعب الحالب ؛ والكوب : كوز لا عروة له ، أو لا خرطوم له .

٦ فصح : أي عيد الفصح عند النصارى . والمراد أن زجاجة الخمر تشع إشعاع قنديل الفصح .

٧ شخص : ذهب .

٨ المرحلة : المسافة التي يقطعها المسافر في نحو يوم .

مِنَ المَدينَةِ ، بَلَغَهُمْ خَبَرُهُ ، فَخَرَجُوا يَتَلَقَوْنَهُ ، فلَمْ يُرَ يَوْمٌ كانَ أكثرَ حَشْراً ولا جَمْعاً مِنْ يَوْمَئِذٍ . ودَخَلُوا ، فلَمّا صاروا في بَعضِ الطّريقِ ، قالَ لَهُمْ مَعْبَدٌ : صيرُوا إليّ ؛ فقالَ لَهُ ابنُ سُرَيْجٍ : إنْ كانَ لَكَ مِنَ الشّرَفِ والمُرُوءَةِ مِثلُ ما لمَوْلاتي سُكَيْنَةَ بِنْتِ الحُسَيْنِ ، عَطَفْنَا إلَيْكَ ؛ فقالَ : ما لي مِنْ ذلِكَ شيءٌ . وعَدَلُوا إلى مَنْزِلِ سُكَيْنَةَ ، فلَمّا دَخَلُوا إلَيْها أذِنَتْ للنّاسِ إذْناً عامّاً ، فغَصّتِ الدّارُ بِهِمْ ، وصَعِدوا فَوْقَ السّطْحِ . وأمَرَتْ لَهُمْ بالأطعِمَةِ ، فأكَلُوا مِنْها . ثمّ إنّهُمْ سألُوا جَدّي حُنَيْناً أنْ يُغَنّيَهُمْ صَوْتَهُ الذي أوّلُهُ :

« هَلّا بَكَيْتَ عَلى الشّبابِ الذّاهِبِ »

فَغَنّاهُمْ إيّاهُ ، بَعْدَ أنْ قالَ لَهُمْ : ابْدَأوا أنْتُمْ ؛ فقالوا : ما كُنّا لِنَتَقَدّمَكَ ولا نُغَنّيَ قَبْلَكَ ، حتّى نَسْمَعَ هذا الصّوْتَ . فغَنّاهُمْ إيّاهُ ، وكانَ مِنْ أحْسَنِ النّاسِ صَوْتاً ؛ فازْدَحَمَ النّاسُ عَلى السّطْحِ وكَثُرُوا ليَسْمَعُوهُ ، فسَقَطَ الرِّواقُ على مَنْ تَحْتَهُ ، فَسَلِمُوا جَميعاً وأُخرِجُوا أصِحّاءَ ، وماتَ حُنَيْنٌ تَحْتَ الهَدْمِ . فَقالَتْ سُكَيْنَةُ ، عَلَيْها السّلامُ : لَقَدْ كَدّرَ عَلَيْنا حُنَيْنٌ سُرُورَنا ؛ انْتَظَرْناهُ مُدّةً طَويلَةً كَأنّا ، واللهِ ، كُنّا نَسُوقُهُ إلى مَنِيّتِهِ .

بارك الله فيك ، وبارك الله عليك

كانَ بَعْضُ أهْلِ نَهيكٍ قَدْ تَعاطَى الغِناءَ ؛ فلَمّا ظَنَّ أنّهُ قَدْ أحْكَمَهُ ، شاوَرَني[1] ، وأبي حاضِرٌ ، فَقُلْتُ لَهُ : إنْ قَبِلْتَ مِنّي فلا تُغَنِّ ، فلَسْتَ فيهِ[2] كَمَا أرْضَى . فَصَاحَ أبي عَلَيّ صَيْحَةً شَديدَةً ، ثمّ قالَ لي :

١ المحدث إسحق الموصلي ابن إبراهيم ، وكلاهما من أشهر المغنين في بني العباس .
٢ فيه : أي في الغناء .

وما يُدْرِيكَ يا صَبِيّ ! ثمّ أقْبَلَ على الرّجلِ ، فقالَ : أنْتَ ، يا حَبيبي ، بِضِدّ ما قالَ ، وإنْ لَزِمْتَ الصّناعةَ بَرَعْتَ فيها .

فلَمّا خلا بي قالَ لي : يا أحمَقُ ! ما علَيْكَ أنْ يُخزِيَ اللهُ مائةَ ألْفِ مِثْلَ هذا ! هؤلاءِ أغنياءُ مُلوكٌ ، وهُمْ يُعَيّرُونَنا بالغِناءِ ، فدَعْهم يتَهتّكُوا بهِ ويُعَيّرُوا ويَفْتَضِحُوا ، ويَحتاجُوا إلَيْنا[1] فنَنْتَفِعَ بِهِمْ ، ويَتَبيّنَ فَضْلُنا لَدَى النّاسِ بِأمثالِهِمْ . ولَزِمَهُ النّهيكيّ يأخُذُ عَنْهُ ويَبَرّهُ[2] فيُجزِلُ . فكانَ إذا غَنّى فأحْسَنَ قالَ لَهُ : بارَكَ اللهُ فيكَ ؛ وإذا أساءَ ، قالَ : بارَكَ اللهُ علَيْكَ . وكَثُرَ ذلِكَ مِنْهُ ، حتّى عرَفَ النّهيكيّ مَعْناهُ فيه فتَغَنّى يوْماً ، وأبي ساهٍ عَنْهُ ، فسَكَتَ ولمْ يَقُلْ لهُ شيْئاً ؛ فقالَ لَهُ : جُعِلْتُ فِداكَ ، يا أسْتاذي ، أهذا الصّوْتُ مِنْ أصْواتِ « فيكَ » أمْ « علَيْكَ » ؟ فضَحِكَ أبي ، ولمْ يكُنْ علِمَ أنّهُ قدْ فَطِنَ لِقَوْلِهِ ؛ ثمّ قالَ لهُ : واللهِ لأُقبِلَنّ علَيْكَ حتّى تَصيرَ كَما تَشْتَهي ؛ فإنّكَ ظَريفٌ أديبٌ .

وعُنِيَ بهِ حتّى حَسُنَ غِناؤهُ وتَقَدّمَ . وفيهِ يقُولُ أبي :

أوْجَبَ اللهُ لَكَ الحَـ ... قّ على مِثْلي بظَرْفِكْ
لَنْ تراني ، بَعدَ هذا ... ناطِقاً إلاّ بوَصْفِكْ
وترَى القُوّةَ فيما ... تَشتَهيهِ ، بَعدَ ضَعفِكْ

---

١ أي يحتاجوا إلينا ليتعلموا منا
٢ يبره : يصله ويحسن إليه .

نوادر مختلفة

اكرم من معن بن زائدة

كانَ المَنْصُورُ قَدْ طَلَبَ مَعْنَ بنَ زَائِدَةَ طَلَباً شَديداً ، وجَعَلَ فيهِ مالاً ؛ فَحَدَّثَني[1] مَعْنُ بنُ زائِدَةَ باليَمَنِ[2] أنَّهُ اضْطُرَّ ، لشِدَّةِ الطَّلَبِ ، إلى أنْ أقامَ في الشَّمْسِ حَتَّى لَوَّحَتْ وَجْهَهُ ، وخَفَّفَ عارِضَيْهِ ولِحيَتَهُ ، ولَبِسَ جُبَّةَ صُوفٍ غَليظَةً ، ورَكِبَ جَمَلاً مِنَ الجِمَالِ النَّقَّالَةِ لِيَمْضِيَ إلى البادِيَةِ فَيُقيمَ بِها . وكانَ قَدْ أبْلَى في حَرْبِ يَزِيدَ بنِ عُمَرَ بنِ هُبَيْرَةَ[3] بَلاءً حَسَناً غاظَ المَنْصُورَ ، وجَدَّ في طَلَبِهِ .

قالَ مَعْنٌ : فَلَمَّا خَرَجْتُ مِنْ بابِ حَرْبٍ[4] ، تَبِعَني أسْوَدُ مُتَقَلِّداً سَيْفاً ، حَتَّى إذا غِبْتُ عَنِ الحَرَسِ ، قَبَضَ عَلَى خِطامِ[5] جَمَلي ، فأناخَهُ ، وقَبَضَ عَلَيَّ . فَقُلْتُ لَهُ : ما لَكَ ؟ قالَ : أنْتَ طَلِبَةُ أميرِ المُؤْمِنينَ . قُلْتُ : ومَنْ أنَا ، حَتَّى يَطْلُبَني أميرُ المُؤْمِنينَ ! قالَ : مَعْنُ بنُ زائِدَةَ . فقُلْتُ : يا هَذا ، اتَّقِ اللهَ ! وأينَ أنَا مِنْ مَعْنٍ ! قالَ : دَعْ هَذا عَنْكَ ، فأنا ، واللهِ ، أعْرَفُ بِه مِنْكَ . فَقُلْتُ لَهُ : فإنْ كانَتِ القِصَّةُ كَمَا تَقُولُ ، فهَذا جَوْهَرٌ حَمَلْتُهُ مَعي يَفي بأضْعافِ ما بَذَلَهُ المَنْصُورُ لِمَنْ جاءَهُ بي ، فَخُذْهُ ، ولا تَسْفِكْ دَمي . قالَ : هاتِهِ . فأخرَجْتُهُ إلَيْهِ ؛ فنَظَرَ إلَيْهِ ساعَةً ، وقالَ : صَدَقْتَ في قيمَتِهِ ، ولَسْتُ قابِلَهُ حَتَّى أسْألَكَ عَنْ

---

١ فحدثني : المتكلم مروان بن أبي حفصة .

٢ ولى المنصور معناً اليمن بعد أن رضي عنه .

٣ كان يزيد من كبار قواد بني أمية ، وأميراً على العراقين من قبل الخليفة مروان بن محمد ، قتل بواسط وهو يحارب العباسيين ، سنة ٧٥٠ م (١٣٢ هـ) .

٤ باب حرب : موضع ببغداد ينسب إلى حرب بن عبد الله البلخي المعروف بالراوندي أحد قواد المنصور .

٥ الخطام : الزمام الذي يوضع في أنف البعير ليقتاد به .

شَيْءٍ ، فإنْ صَدَقْتَني أطْلَقْتُكَ . فقُلْتُ : قُلْ . قالَ : إنَّ النّاسَ قَدْ وَصَفُوكَ بالجُودِ ؛ فأخْبِرْني هَلْ وَهَبْتَ قَطّ مالَكَ كُلّهُ ؟ قُلْتُ : لا . قالَ : فنِصْفَهُ ؟ قُلْتُ : لا . قالَ : فثُلُثَهُ ؟ قُلْتُ : لا . حَتّى بَلَغَ العُشْرَ ، فاسْتَحْيَيْتُ فقُلْتُ : أظُنُّ أنّي قَدْ فَعَلْتُ هَذا . فقَالَ : ما أُراكَ فَعَلْتَهُ ؛ أنا ، واللهِ ، راجِلٌ[1] ، ورِزْقي مِنْ أبي جَعْفَرٍ عِشْرُونَ دِرْهَماً ؛ وهذا الجَوْهَرُ قيمَتُهُ آلافُ دَنانيرَ ، وقَدْ وَهَبْتُهُ لَكَ ، ووَهَبْتُكَ لنَفْسِكَ ، وبجُودِكَ المأثُورِ عَنْكَ بَيْنَ النّاسِ ؛ ولِتَعْلَمَ أنّ في الدّنْيا أجْوَدَ مِنْكَ ، فَلا تُعْجِبكَ نَفْسُكَ ؛ ولِتَحْقِرَ ، بَعْدَ هَذا ، كُلّ شيءٍ تَفْعَلُهُ ، ولا تَتَوَقّفَ عَنْ مَكْرُمَةٍ .

ثُمّ رَمَى بالعِقْدِ في حِجْري[2] ، وَخَلّى خِطامَ البَعيرِ وانصَرَفَ . فقُلْتُ : يا هذا ، قَدْ ، واللهِ ، فضَحتَني ، ولَسَفْكُ دَمي أهْوَنُ عَلَيّ مِمّا فَعَلْتَ ؛ فَخُذْ ما دَفَعْتُهُ إلَيْكَ ، فإنّي غَنيّ عَنْهُ . فَضَحِكَ ، ثُمّ قالَ : أرَدْتَ أنْ تُكَذّبَني في مَقامي هَذا[3] ، واللهِ ، لا آخُذُهُ ، ولا آخُذُ بِمَعروفٍ[4] ثَمَناً أبَداً . ومَضَى . فَوَاللهِ ، لَقَدْ طَلَبْتُهُ ، بَعْدَ أنْ أمِنْتُ ، وبَذَلْتُ لِمَنْ جاءَني بِهِ ما شاءَ ، فَمَا عَرَفْتُ لَهُ خَبَراً ، وكأنّ الأرْضَ ابْتَلَعَتْهُ .

---

١ راجل : أي لا يملك مطية يركبها لفقره .
٢ حجري : حضني .
٣ في مقامي هذا : أي مقام الجود الذي ارتفع به على معن .
٤ بمعروف : الباء للبدل .

العصر العباسي الرابع

الحريري (١٠٥٤ – ١١٢٢م و٤٤٦ – ٥١٦هـ (؟))

ابن الأثير (١١٦٢ – ١٢٣٩م و ٥٥٨ – ٦٣٧هـ)

الحريري

المقامات

المقامة الأولى الصنعانية[1]

حَدَّثَ الحرثُ بنُ همَّامٍ قالَ : لَمَّا اقْتَعَدْتُ غاربَ الاغْتِرَابِ[2] ، وأنْأتْنِي المَتْرَبَةُ عَنِ الأتْرَابِ[3]، وطَوَّحَتْ بي طَوَائحُ الزَّمَنِ[4] ، إلى صَنْعَاءِ اليَمَنِ ، فَدَخَلْتُها خاويَ الوِفاضِ[5] ، باديَ الإنْفَاضِ[6] ، لا أمْلِكُ بُلْغَةً[7] ، ولا أجِدُ في جِرابي مُضْغَةً . فَطَفِقْتُ أجُوبُ طُرُقَاتِها[8] مِثْلَ الهَائِمِ ، وأجُولُ في حَوْمَاتِها جَوَلانَ الحَائِمِ[9] ، وأرودُ ، في مَسَارِحِ لَمَحَاتي[10] ، ومَسَايِحِ[11] غَدَوَاتي ورَوْحاتي ، كَرِيماً أخْلِقُ لَهُ دِيبَاجَتي[12] وأبُوحُ إليْهِ

١ الصنعانية : نسبة إلى صنعاء اليمن على غير قياس .
٢ الغارب : مقدم ظهر الدابة ، استعاره للاغتراب .
٣ المتربة : الفقر . الأتراب : جمع ترب وهو من نشأ معك وكان من سنك .
٤ طوحت : رمت . طوائح الزمن : خطوبه وقواذفه .
٥ الخاوي : الفارغ . الوفاض : جمع وفضة وهي خريطة من جلد يجعل فيها الراعي زاده .
٦ الإنفاض : فناء الزاد والمال .
٧ البلغة : اليسير من العيش يتبلغ به أي يسد به الجوع .
٨ أجوب طرقاتها : أقطعها .
٩ حوماتها : أي معظم مواضعها التي يجتمع فيها الناس . الحائم : العطشان الذي يحوم حول الماء ، وطائر يقال إنه إذا اشتد به العطش ، ورد الماء فحام عليه حتى يغرق وهو يشرب ، فإن ناله الماء تساقط ريشه .
١٠ أرود : أطلب . مسارح لمحاتي : المواضع التي يسرح فيها النظر .
١١ المسايح : مواضع السياحة ، واحدتها مسيحة .
١٢ كريماً : مفعول أرود . أخلق الثوب : لبسه حتى أبلاه . الديباجة : الوجه ، أو صفحة الخد ؛ وقوله أخلق له ديباجتي : أي أبذل له ماء وجهي وهو الحياء يبذله الإنسان في السؤال وطلب الحاجة .

بحاجتي ؛ أو أديباً تفرّج رؤيته غمتي ، وتروي روايته غلتي[1] ؛ حتى أدتني خاتمة المطاف ، وهدتني فاتحة الألطاف[2] ، إلى ناد رحيب ، محتوٍ على زحام ونحيب ؛ فولجت غابة الجمع ، لأسبر مجلبة الدمع[3] ، فرأيت ، في بهرة الحلقة[4] ، شخصاً شخت[5] الخلقة ؛ عليه أهبة السياحة ، وله رنة النياحة ، وهو يطبع الأسجاع بجواهر لفظه ، ويقرع الأسماع بزواجر وعظه . وقد أحاطت به أخلاط الزمر ، إحاطة الهالة بالقمر ، والأكمام بالثمر . فدلفت[6] إليه لأقتبس من فوائده ، وألتقط بعض فرائده . فسمعته يقول ، حين خب[7] في مجاله ، وهدرت شقاشق[8] ارتجاله :

« أيها السادر في غلوائه[9] ، السادل ثوب خيلائه[10] ، الجامح في جهالاته ، الجانح إلى خزعبلاته . إلام تستمر على غيك ، وتستمرئ مرعى بغيك ! وحتام تتناهى في زهوك ، ولا تنتهي عن لهوك ! تبارز بمعصيتك ، مالك ناصيتك[11] ! وتجترئ بقبح سيرتك ، على عالم سريرتك ! وتتوارى[12] عن قريبك ، وأنت بمرأى رقيبك[13] !

....

١ الغلة : شدة العطش .
٢ فاتحة الألطاف : أي أول ألطاف الله بي ، وهي ما ينال الإنسان من التوفيق بفضل الله ومنه .
٣ أي لأختبر سبب الدمع .
٤ بهرة الحلقة : وسطها .
٥ الشخت : الدقيق النحيف .
٦ دلف : مشى مشياً رويداً أو يقارب الخطو .
٧ خب : أسرع .
٨ الشقاشق : جمع شقشقة بكسر الشينين ، وهي في الأصل ما يخرجه البعير من فيه إذا هاج وهدر ويقال للخطيب إنه لذو شقشقة تشبيهاً له بالفحل الكثير الهدير .
٩ السادر : الذي لا يبالي بما صنع . الغلواء : الغلو ومجاوزة الحد ، وأول الشباب .
١٠ الخيلاء : الكبر .
١١ الناصية : الشعر في مقدم الرأس أو هي الطرة ؛ وقوله مالك ناصيتك : أي الله تعالى .
١٢ تتوارى : أي تتوارى بقبيح سيرتك
١٣ رقيبك : أي عالم أمرك وهو الله .

وتَسْتَخفي مِنْ مَمْلُوكِكَ ، وما تَخْفَى خافيَةٌ على مَليكِكَ !

أتَظُنُّ أنْ سَتَنْفَعُكَ حالُكَ ، إذا آنَ ارْتِحالُكَ ؟ أوْ يُنْقِذُكَ مالُكَ ، حينَ تُوبِقُكَ[1] أعمالُكَ ؟ أوْ يُغْني عَنْكَ نَدَمُكَ ، إذا زَلَّتْ قَدَمُكَ ؟ أوْ يَعْطِفُ عَلَيْكَ مَعْشَرُكَ ، يَوْمَ يَضُمُّكَ مَحْشَرُكَ[2] ؟

هَلاَّ انتَهَجْتَ[3] مَحَجَّةَ[4] اهتِدائِكَ ، وعَجَّلْتَ مُعالجَةَ دائِكَ ، وفَلَلْتَ شَباةَ اعتِدائِكَ[5] ، وقَدَعْتَ نَفْسَكَ[6] فَهِيَ أكْبَرُ أعْدائِكَ !

أمَا الحِمَامُ ميعَادُكَ ، فَمَا إعْدادُكَ ؟ وبالمَشيبِ إنْذارُكَ ، فَما إعْذارُكَ[7] ؟ وفي اللَّحْدِ مَقيلُكَ[8] ، فَما قيلُكَ ؟ وإلى اللهِ مَصيرُكَ ، فَمَنْ نَصيرُكَ ؟

طالَمَا أيْقَظَكَ الدَّهْرُ فتَناعَسْتَ ، وجَذَبَكَ الوَعْظُ فتَقاعَسْتَ[9] ! وتَجَلَّتْ لَكَ العِبَرُ فتَعامَيْتَ ، وحَصْحَصَ لَكَ الحَقُّ فتَمارَيْتَ[10] ، وأذْكَرَكَ المَوْتُ فتَناسَيْتَ ، وأمْكَنَكَ أنْ تُؤاسي[11] فَما آسَيْتَ ! تُؤثِرُ فَلْساً تُوعيهِ[12] ، على ذِكْرٍ تَعيهِ[13] ؛ وتَخْتارُ قَصْراً تُعْليهِ ، على بِرٍّ تُوليهِ ؛ وتَرْغَبُ[14] عَنْ هادٍ تَسْتَهْديهِ ، إلى زادٍ تَسْتَهْديهِ ؛ وتُغَلِّبُ حُبَّ ثَوْبٍ

---

١ توبقك : تهلكك .
٢ المحشر : قيامة الأموات واجتماعهم للدينونة .
٣ انتهجت : سلكت .
٤ المحجة : الطريق .
٥ أي كسرت حد ظلمك .
٦ قدعت نفسك : كففتها عن القبيح .
٧ اعذارك : بفتح الهمزة جمع عذر ، وبكسرها مصدر أعذر الرجل : أي أبدى عذراً .
٨ مقيلك : أي مرقدك ، وأصله النوم بالقائلة وهي الظهر .
٩ تقاعست : تأخرت .
١٠ حصحص : ظهر من الحص أي ذهاب الشعر وظهور ما تحته . تماريت : شككت .
١١ تؤاسي : تحسن إلى غيرك ، وتجعله أسوتك في شيء من مالك .
١٢ توعيه : تجعله في وعائك .
١٣ الذكر : الكتاب فيه تفصيل الدين . تعيه : تحفظه .
١٤ رغب عنه : نقيض رغب فيه .

تَشْتَهيه ، علَى ثَوَابٍ تَشْتَريه . يَوَاقيتُ الصِّلاتِ[1] ، أعْلَقُ بقَلْبِكَ مِنْ مَوَاقيتِ الصَّلاةِ ؛ ومُغالاةُ الصَّدُقاتِ[2] ، آثَرُ عِندَكَ مِنْ مُوَالاةِ الصَّدَقاتِ . وصِحافُ الألْوانِ[3] ، أشْهَى إلَيْكَ مِنْ صَحائِفِ الأدْيانِ ؛ ودُعابَةُ الأقرانِ[4] ، آنَسُ لَكَ مِنْ تِلاوَةِ القُرْآنِ . تَأمُرُ بالعُرْفِ[5] وتَنْتَهِكُ حِماهُ ، وتَحْمي عَنِ النُّكْرِ ولا تَتَحاماهُ ، وتُزَحْزِحُ عَنِ الظُّلْمِ ثُمَّ تَغْشاهُ[6] ، وتَخْشَى النّاسَ واللهُ أحَقُّ أن تَخْشاهُ . » ثُمَّ أنْشَدَ :

تَبّاً لِطالِبِ دُنْيا ، ثَنَى إلَيْها انْصِبابَهْ[7]
مَا يَسْتَفيقُ غَراماً بِها ، وَفَرْطَ صَبابَهْ
ولَوْ دَرَى ، لَكَفاهُ مِمّا يَرُومُ صُبابَهْ[8]

ثُمَّ إنّهُ لَبَّدَ عَجاجَتَهُ[9] ، وغَيَّضَ مُجاجَتَهُ[10] ، واعتَضَدَ شَكْوَتَهُ[11] ، وتَأبَّطَ هِراوَتَهُ[12] ، فَلَمّا رَنَتِ الجَماعَةُ إلى تَحَفُّزِهِ ، ورَأتْ تَأهُّبَهُ لِمُزايَلَةِ مَرْكَزِهِ ؛ أدْخَلَ كُلٌّ مِنْهُمْ يَدَهُ في جَيْبِهِ ، فأفْعَمَ[13] لَهُ

---

١ الصلات : العطايا .
٢ الصدُقات : جمع صدُقة وهي ما يعطى للنساء من المهر .
٣ صحاف الألوان : أي قصاع ألوان الطعام .
٤ الأقران : جمع قرن وهو المماثل .
٥ العرف : المعروف .
٦ تغشاه : تأتيه .
٧ ثنى : عطف وصرف .
٨ الصبابة : البقية اليسيرة من الماء ، والمراد : الشيء القليل .
٩ لبد عجاجته : أي سكن غباره ، كناية عن الكف عما هو فيه .
١٠ غيض مجاجته : أي ابتلع ريقه .
١١ اعتضد شكوته : أي جعل قربته في عضده .
١٢ الهراوة : العصا .
١٣ أفعم : ملأ .

وصف الحمى

من قصيدة يصف بها الحمى التي أصابته في مصر ويعرض بالرحيل عن مصر سنة ٩٥٩ م (٣٤٨ هـ) :

وزائرتي كأنّ بها حيــاءً ... فليسَ تزورُ إلاّ في الظّلامِ[١]

بذلتُ لها المطارِفَ والحشايا ... فعافتها وباتَتْ في عظامي[٢]

يضيقُ الجلدُ عن نفسي وعنها ... فتوسعُهُ بأنواعِ السّقامِ

كأنّ الصّبحَ يطرُدُها فتجري ... مدامعُها بأربعةٍ سِجامِ[٣]

أراقبُ وقتَها مِنْ غيرِ شوقٍ ... مراقبةَ المشوقِ المُستهامِ[٤]

ويصدُقُ وعدُها والصّدقُ شرٌّ ... إذا ألقاكَ في الكُرَبِ العِظامِ

أبنتَ الدّهرِ عندي كلُّ بنتٍ ... فكيفَ وصلتِ أنتِ من الزّحامِ[٥]

جرَحتِ مُجرَّحاً لم يبقَ فيهِ ... مكانٌ للسّيوفِ ولا السّهامِ

ألا يا ليتَ شعرَ يدي أتُمسي ... تصرَّفُ في عنانٍ أو زمامِ[٦]

وهلْ أرمي هوايَ براقصاتٍ ... مُحلّاةِ المقاوِدِ باللُّغامِ[٧]

---

١ وزائرتي : الواو واو رب ، أي وزائرة لي . وأراد بالزائرة الحمى لأنها كانت تأتيه ليلا وتفارقه في الصباح .

٢ المطارف ، جمع مطرف : رداء من خز . الحشايا ، جمع حشية : الفراش المحشو . عافتها : أبتها .

٣ سجام : ملسكبة بأربعة : أي بأربعة أدمع ، يعني تبكي من طرفي كل عين لكثرة دمعها .

٤ المراد يفكر فيها منتظراً مجيئها لخوفه منها ، كما يفكر العاشق في محبوبته منتظراً قدومها .

٥ بنت الدهر : الشدة .

٦ ليت شعر يدي : أي ليت يدي تشعر . العنان : سير اللجام . الزمام : المقود . يتمنى السفر على الخيل أو على الإبل .

٧ الراقصات : الإبل التي تخب في سيرها . اللغام : الزبد على فم البعير . يقول : هل أطلب ما أهواه من الأمور براقصات تحلت مقاودها بالزبد الذي على أفواهها .

وَصَيَّرْتُ وَعْظِي أُحْبُولَةً ، أُرِيغُ القَنِيصَ بِهَا وَالقَنِيصَهْ[1]
وَأَلجَأَنِي الدَّهْرُ ، حَتَّى وَلَجْتُ ، بِلُطْفِ احْتِيالِي، على اللَّيْثِ، عِيصَهْ[2]
عَلَى أَنَّنِي لَمْ أَهَبْ صَرْفَهُ ، وَلا نَبَضَتْ لِيَ مِنْهُ فَرِيصَهْ[3]
وَلا شَرَعَتْ بِي ، عَلَى مَوْرِدٍ يُدَنِّسُ عِرْضِيَ ، نَفْسٌ حَرِيصَهْ[4]
وَلَوْ أَنْصَفَ الدَّهْرُ في حُكْمِهِ ، لَمَا مَلَّكَ الحُكْمَ أَهْلَ النَّقِيصَهْ

ثُمَّ قالَ لي : « ادْنُ فَكُلْ ، وإنْ شِئْتَ فَقُمْ وقُلْ . » فالتَفَتُّ إلى تِلْمِيذِهِ وقُلْتُ: « عَزَمْتُ عَلَيْكَ[5] بِمَنْ تَسْتَدْفِعُ بِهِ الأَذَى[6] ، لَتُخْبِرَنِّي مَنْ ذا ! » فَقالَ : « هَذا أَبُو زَيْدٍ السَّرُوجِيُّ سِرَاجُ الغُرَبَاءِ ، وتَاجُ الأُدَبَاءِ . » فانصَرَفْتُ مِنْ حَيْثُ أَتَيْتُ ، وقَضَيْتُ العَجَبَ[7] مِمَّا رَأَيْتُ .

المقامة الرابعة والعشرون القطيعية[8]

حَكَى الحرثُ بنُ هَمَّامٍ قالَ : عاشَرْتُ بِقَطِيعَةِ الرَّبِيعِ ، في إبَّانِ الرَّبِيعِ ، فِتْيَةً ، وُجُوهُهُمْ أَبْلَجُ مِنْ أَنْوَارِهِ[9] ، وأَخْلاقُهُمْ أَبْهَجُ مِنْ

---

١ الأحبولة : شبكة الصيد . أريغ : أطلب . القنيص والقنيصة : الصيد من ذكر وأنثى .
٢ الليث : الأسد . العيص : أي أجمة الأسد .
٣ صرفه : حوادثه ، والضمير يعود على الدهر . الفريصة : لحمة تكون تحت الكتف ، من شأنها أن ترتعد عند الفزع .
٤ شرعت بي : أي أوردتني الماء . نفس : فاعل شرعت .
٥ عزمت عليك : أي أقسمت عليك .
٦ بمن تستدفع به الأذى : أي بالله تعالى .
٧ قضى العجب : أي بلغ من العجب أقصاه ، فلا عجب بعده ؛ وقيل : بل وفى العجب حقه ؛ وفي المصباح « وقولهم : لا أقضي منه العجب ؛ قال الأصمعي : لا يستعمل إلا منفياً ، أي لا يمكن توفية العجب حقه لعظم الأمر » .
٨ القطيعية : نسبة إلى قطيعة الربيع ، وهي محلة ببغداد .
٩ أبلج : أضوأ . الأنوار ، جمع نور : الزهر ، أو الأبيض منه .

أزْهارِهِ ، وألْفاظُهُمْ أرَقُّ مِنْ نَسيمِ أسْحارِهِ ؛ فاجْتَلَيْتُ[1] ما يَزْرِي[2] على الرَّبيعِ الزّاهِرِ ، ويُغْني عَنْ رَنّاتِ المَزاهِرِ[3]. وكُنّا تَقاسَمْنا[4] عَلى حِفْظِ الوِدادِ ، وحَظْرِ الاسْتِبْدادِ ، وأنْ لا يَتَفَرَّدَ أحَدُنا بالتِذاذِ ، ولا يَسْتَأثِرَ ولَوْ بِرَذاذٍ[5] .

فأجْمَعْنا[6] ، في يَوْمٍ سَمَا دَجْنُهُ[7] ، ونَمَا حُسْنُهُ ، وحَكَمَ بالاصْطِباحِ[8] مُزْنُهُ[9] ، عَلى أنْ نَلْتَهِيَ بالخُرُوجِ ، إلى بَعْضِ المُرُوجِ ، لِنُسَرِّحَ النَّواظِرَ في الرِّياضِ النَّواضِرِ ، ونَصْقُلَ الخَواطِرَ بشَيْمِ المَواطِرِ[10] . فبَرَزْنا ، ونَحْنُ كالشُّهُورِ عِدَّةً[11] ، وكَنَدْمانَيْ جَذيمَةَ[12] مَوَدَّةً ، إلى حَديقَةٍ أخَذَتْ زُخْرُفَها[13] وازَّيَّنَتْ[14] ، وتَنَوَّعَتْ أزاهيرُها وتَلَوَّنَتْ . ومَعَنا الكُمَيْتُ الشَّمُوسُ[15] ، والسُّقاةُ الشُّموسُ ، والشّادي الذي يُطرِبُ السّامِعَ ويُلْهيهِ ، ويَقْرِي[16] كُلَّ

---

١ اجتليت : نظرت .
٢ يزري : يقال زرى عليه : عابه .
٣ المزاهر : جمع مزهر وهو العود .
٤ تقاسمنا : تحالفنا .
٥ الرذاذ : المطر الضعيف . والمراد : الشيء القليل .
٦ أجمعنا : اتفقنا .
٧ سما دجنه : أي ارتفع غيمه .
٨ الاصطباح : أي شرب الخمر صباحاً .
٩ المزن : السحاب أو ذو الماء منه ، واحدته مزنة .
١٠ بشيم المواطر : أي برؤية السحب الممطرة .
١١ ونحن كالشهور عدة : أي ونحن اثنا عشر شخصاً بعدد شهور السنة .
١٢ الندمان : النديم . جذيمة : هو جذيمة الأبرش ملك الحيرة ؛ قيل نادمه مالك وعقيل ابنا فالج مدة أربعين سنة فضرب به وبهما المثل في صفاء المودة والوفاق .
١٣ أخذت زخرفها : أي تكاملت في حسنها .
١٤ ازينت : تزينت .
١٥ الكميت : الأحمر الضارب إلى السواد ، صفة للخمر وللفرس . الشموس : الفرس الذي يمنع ظهره من الركوب ، وهو هنا مستعار للخمرة الكميت . والمراد أنها تمتنع على اللئام والبخلاء ، أو على من لم يتعود شربها ، لأنها سريعة الإسكار .
١٦ يقري : يضيف ، من الضيافة .

سَمْعٍ ما يَشْتَهيه . فلَمّا اطْمَأَنَّ بِنا الجُلُوسُ ، ودارَتْ عَلَيْنا الكُؤوسُ ، وَغَلَ[1] عَلَيْنا ذِمِرٌّ[2] ، عَلَيْهِ طِمْرٌ[3] ، فتَجَهَّمْناه[4] تَجَهُّمَ الغِيدِ[5] الشِّيبَ[6] ، ووَجَدْنا صَفْوَ يَوْمِنا قَدْ شِيبَ[7] . إلاَّ أنَّهُ سَلَّمَ تَسْليمَ أولي الفَهْمِ ، وجَلَسَ يَفُضُّ لَطائِمَ النَّثْرِ والنَّظْمِ[8] ؛ ونَحْنُ نَنْزَوي[9] مِن انْبِساطِهِ ، ونَنْبَري لِطَيِّ بِساطِهِ[10] ؛ إلى أنْ غَنَّى شادينا المُغْرِبُ[11] ومُغَرِّدُنا المُطْرِبُ :

إلامَ ، سُعادُ ، لا تَصِلينَ حَبْلي ؛ ولا تَأْوِينَ لي مِمّا أُلاقي[12]
صَبَرْتُ عَلَيْكِ ، حتّى عِيلَ صَبْري وكادَتْ تَبْلُغُ الرّوحُ التَّراقي[13]
وها أنَا قَدْ عزَمْتُ على انْتِصافٍ ، أُساقي فيهِ خِلّي ما يُساقي[14]
فإنْ وَصْلاً أَلَذُّ بهِ ، فَوَصْلٌ ؛ وإنْ صَرْماً ، فصَرْمٌ كالطَّلاقِ[15]

قالَ : فاسْتَفْهَمْنا العابِثَ بالمَثاني[16] : « لِمَ نَصَبَ الوَصْلَ الأوَّلَ ورَفَعَ الثّاني ؟ » فأقْسَمَ بِتُرْبَةِ أَبَوَيْهِ ، لَقَدْ نَطَقَ بِما اخْتارَهُ سيبَوَيْهِ .

....

١ وغل : دخل ، والواغل في الشراب كالوارش في الطعام ، وهو الذي يدخل على القوم من غير أن يدعى .
٢ الذمر : من أسماء الدواهي .
٣ طمر : ثوب خلق .
٤ تجهمناه : استقبلناه بوجه كالح .
٥ الغيد : الفتيات النواعم ، واحدتها غيداء .
٦ الشيب : جمع أشيب وهو مفعول تجهم .
٧ شيب : أي خلط بالكدر .
٨ اللطائم : جمع لطيمة وهي وعاء العطر . والمراد : يتحدث بأطيب المنثور والمنظوم .
٩ ننزوي : ننقبض .
١٠ انبرى للشيء : اعترض له . لطي بساطه : أي لازعاجه واخراجه .
١١ المغرب : الذي يأتي بالغريب من الأغاني . وفي رواية المعرب : وهو الذي لا يلحن في كلامه .
١٢ تأوين : ترقين وترحمين .
١٣ التراقي : جمع ترقوة وهي أعلى عظام الصدر وقرب العنق .
١٤ الانتصاف : استيفاء الحق .
١٥ الصرم : القطيعة والهجر .
١٦ المثاني : أي أوتار العود لكونها مثنى . العابث بالمثاني : أي المغني الضارب على العود .

فَتَشَعَّبَتْ[1] حينَئِذٍ آرَاءُ الجَمْعِ ، في تَجْوِيزِ النَّصْبِ والرَّفْعِ ، فَقَالَتْ فِرْقَةٌ : رَفْعُهُمَا هُوَ الصَّوَابُ ، وقالَتْ طائِفَةٌ : لا يَجُوزُ فيهِما إلاَّ الانْتِصَابُ ؛ وَاسْتَبْهَمَ عَلَى آخَرِينَ الجَوَابُ ، واسْتَعَرَ بَيْنَهُمُ الاضْطِخابُ. وذلِكَ الوَاغِلُ يُبْدي ابْتِسامَ ذي مَعْرِفَةٍ ، وإنْ لمْ يَفُهْ بِبِنْتِ شَفَةٍ . حتَّى إذا سَكَنَتِ الزَّماجِرُ ، وصَمَتَ المَزْجُورُ والزَّاجِرُ ، قالَ : « يا قَوْمُ أنا أُنَبِّئُكُمْ بتَأْوِيلِهِ ، وأُمَيِّزُ صَحِيحَ القَوْلِ مِنْ عَلِيلِهِ ؛ إنَّهُ لَيَجُوزُ رَفْعُ الوَصْلَيْنِ ونَصْبُهُما[2] ، والمُغايَرَةُ في الإعرَابِ بَيْنَهُما ؛ وذلكَ بِحَسَبِ اخْتِلافِ الإضْمَارِ ، وتَقْدِيرِ المَحذوفِ في هذا المِضْمارِ » .

قالَ : فَفَرَطَ[3] مِنَ الجَماعَةِ إفْرَاطٌ[4] في مُماراتِهِ[5] ، وانْخِراطٌ[6] إلى مُباراتِهِ . فَقالَ : « أمَّا إذا دَعَوْتُمْ نَزَالِ[7] ، وتَلَبَّبْتُمْ[8] للنِّضَالِ ؛ فَمَا كَلِمَةٌ هيَ إنْ شِئْتُمْ حَرْفٌ مَحْبُوبٌ ، أوِ اسْمٌ لِمَا فيهِ حَرْفٌ حَلُوبٌ[9] ؟

....

١ تشعبت : تفرقت .

٢ يجوز رفع الوصلين ونصبهما الخ ... : أودع سيبويه هذه المسألة النحوية في كتابه،وجوز في إعرابها أربعة أوجه ، أحدها وهو أجودها، أن تنصب الوصل الأول على أنه خبر كان وهي واسمها محذوفان، وترفع الوصل الثاني على أنه خبر مبتدإ محذوف ، والوجه الثاني أن تنصبهما جميعاً ، على تقدير إن كان جزائي منه وصلا ، فأنا أجزيه وصلا ؛ والوجه الثالث أن ترفعهما جميعاً ، على تقدير إن كان لي منه وصل ، فجزاؤه وصل؛ والوجه الرابع، وهو أضعفها ، أن ترفع الوصل الأول على ما تقدم شرحه في الوجه الثالث ، وتنصب الثاني على ما تقدم شرحه في الوجه الثاني ، ويكون التقدير إن كان لي منه وصل ، فأنا أجزيه وصلا .

٣ فرط : سبق .

٤ الإفراط : تجاوز الحد .

٥ مماراته : مجادلته .

٦ انخراط : أي إقبال .

٧ نزال : للأمر أي انزل ، مبني على الكسر ؛ يقال ذلك في الدعوة إلى المبارزة في الحرب .

٨ تلببتم : يقال تلبب الرجل للحرب أي تشمر وتحزم لها .

٩ حرف محبوب : أي نعم ، فهي حرف يراد به التصديق أو الوعد عند السؤال . حرف حلوب : أي النعم وهي الإبل أو كل ماشية فيها إبل ، والحرف : الناقة الضامرة .

وأيُّ اسمٍ يتردّدُ بينَ فردٍ حازمٍ ، وجمعٍ مُلازمٍ[1] ؟ وأيّةُ هاءٍ إذا التحقتْ، أماطتِ الثِّقلَ ، وأطلقَتِ المُعتقَلَ[2] ؟ وفي أيّ موطنٍ تلبسُ الذُّكرانُ ، براقعَ النِّسوانِ ، وتبرُزُ ربّاتُ الحجالِ ، بعمائمِ الرّجالِ[3] ؟ »

* * *

قالَ المُخبِرُ بهذهِ الحكايةِ : فوردَ علينا مِنْ أحاجيهِ[4] اللاّتي هالَتْ[5] ، لمّا انهالَتْ، ما حارَتْ لهُ الأفكارُ وحالَتْ[6]. فلمّا أعجزَنا العَوْمُ في بحرِهِ ، واستسلمَتْ تمائمُنا لسحرِهِ[7] ، عدَلْنا[8] مِن استثقالِ الرّؤيةِ لهُ ، إلى استنزالِ الرّوايةِ عنهُ ؛ ومِنْ بغْيِ التّبرّمِ بهِ[9] ، إلى ابتغاءِ التّعلّمِ منهُ .

فقالَ : « والذي نزّلَ النّحوَ[10] في الكلامِ ، منزلةَ المِلحِ في الطّعامِ ، وحجبَهُ عَنْ بصائرِ الطَّغامِ[11] ، لا أنلتُكُمْ مَراماً ، ولا شفَيْتُ لكُم غَراماً ، أوْ تُخوّلَني[12] كُلُّ يدٍ ، ويختَصّني كلٌّ منكُمْ بِيَدٍ[13]. » فلَمْ

---

١ حازم : أي ضابط . والمراد بالاسم المتردد بين المفرد والجمع : سراويل ، فقيل إنه مفرد وجمعه سراويلات ، وقيل هو جمع واحده سروال ، وقوله حازم : لأنه يضم الخصر ويضبطه . وقوله جمع ملازم : أي ممنوع من الصرف .

٢ أماطت : أزالت . المعتقل : أي الممنوع من الصرف . والمراد بذلك مثل جمع صيارف فإنه ممنوع من الصرف ، فإذا لحقته الهاء ، فقلت صيارفة ، خف ثقله ، وأطلق من اعتقاله ، وصرف .

٣ الذكران : جمع ذكر نقيض الأنثى . ربات الحجال : أي النساء صاحبات الخدور . والحجال : جمع حجلة وهي كالقبة أو خدر العروس . والمراد هنا أول مراتب العدد المضاف وذلك ما بين الثلاثة إلى العشرة ، فإنه يؤنث مع المذكر ، ويذكر مع المؤنث .

٤ أحاجيه : ألغازه ومعمياته ، واحدتها أحجية .

٥ هالت : من الهول .

٦ حالت : أي أصابها العقم .

٧ التمائم : جمع تميمة وهي الخرزة تعلق في عنق الولد على اعتقاد أنها ترد عنه العين والسحر .

٨ عدلنا : أي رجعنا .

٩ التبرم : التضجر .

١٠ والذي : الواو للقسم ؛ والمراد بالذي نزل النحو : الله تعالى .

١١ الطغام : أوغاد الناس ، للواحد والجمع .

١٢ أو : بمعنى حتى . تخولني : تعطيني بلا منة .

١٣ بيد : أي بنعمة وعطاء .

يَبْقَ في الجماعةِ إلاّ مَنْ أذْعَنَ لحُكْمِه ، ونَبَذَ[1] إليْه خبْأةَ كُمّه[2] .
فلمّا حصَلَتْ تحتَ وِكائه[3] ، أضْرَمَ شُعْلَةَ ذَكائه ، فكَشَفَ حينئذٍ
عَنْ أسرارِ ألْغازِه ، وبدائعِ إعجازِه ، ما جَلا[4] بهِ صَدَأ الأذْهانِ ، وجلّى
مَطْلَعَه[5] بنُورِ البُرْهانِ .

* * *

ثمّ إنّهُ انسابَ انسيابَ الأيْمِ[6] ، وأجْفَلَ إجْفالَ الغَيْمِ[7] ؛ فعَلِمْتُ
أنّهُ سِراجُ سَرُوجَ ، وبَدْرُ الأدَبِ الذي يَجْتابُ البُرُوجَ[8] ؛ وكانَ قُصارانا[9]
التّحرّقَ لِبُعْدِه ، والتّفرّقَ مِنْ بَعْدِه .

المقامة الرابعة والثلاثون الزبيدية

أخْبَرَ الحرثُ بنُ همّامٍ قالَ : لمّا جُبْتُ البِيدَ[10] ، إلى زَبِيدَ[11] ، صَحِبَني
غُلامٌ قَدْ كُنْتُ رَبّيْتُهُ إلى أنْ بَلَغَ أشُدّه[12] ، وثَقّفْتُهُ حتّى أكْمَلَ
رُشْدَهُ . وكانَ قَدْ أنِسَ بأخْلاقي ، وخَبَرَ مَجالِبَ وِفاقي ، فلَمْ يَكُنْ
يَتَخَطّى مَرامي ، ولا يُخطِىءُ في المَرامي . لا جَرَمَ[13] أنّ قُرَبَهُ[14]

١ نبذ : طرح ورمى .
٢ خبأة كمه : أي مخفي كمه ، وهو كناية عما أعطاه من المال الذي كان مخبوءاً في كمه .
٣ حصلت : الضمير يعود على الخبأة . الوكاء : رباط القربة وغيرها ، والمراد هنا : رباط صرته .
٤ جلا : صقل .
٥ جلى : كشف . مطلعه : الضمير يعود إلى ما جلا .
٦ الأيم : الحية .
٧ أجفل : جرى وأسرع . الغيم : أي السحاب الخالي من المطر ، يكون سريع الجري لخفته .
٨ يجتاب : يقطع . البروج : أي بروج السماء التي ينزل فيها البدر . والمراد هنا : بروج الأدب أي أغراضه وفنونه الرفيعة .
٩ قصارانا : غايتنا وآخر أمرنا .
١٠ جبت : قطعت .
١١ زبيد : بلد باليمن خصب كثير البساتين والمياه .
١٢ أشده : قوته ، ما بين ثماني عشرة إلى ثلاثين سنة ، واحد جاء على بناء الجمع ، أو جمع لا واحد له .
١٣ لا جرم : حقاً ، لا محالة .
١٤ القرب : جمع قربة أي أعماله الصالحة ؛ وهي في الأصل ما يتقرب به إلى الله من أعمال البر والطاعة .

التَّاطَتْ[١] بصَفَرِي[٢]، وأخْلَصْتُهُ لحَضَرِي[٣] وسَفَرِي؛ فألْوَى بهِ[٤] الدَّهْرُ المُبيدُ، حِينَ ضَمَّتْنَا زَبِيدُ. فلَمَّا شالَتْ نَعامَتُهُ[٥]، وسَكَنَتْ نامَّتُهُ[٦]، بَقيتُ عاماً لا أُسيغُ طَعاماً، ولا أُريغُ[٧] غُلاماً، حتَّى أَلجأتْني شَوَائِبُ الوَحْدَةِ[٨]، ومَتاعِبُ القَوْمَةِ والقَعْدَةِ، إلى أنْ أعْتاضَ عَنِ الدُّرِّ الخَرَزَ، وأرْتادَ[٩] مَنْ هُوَ سِدادٌ مِنْ عَوَزٍ. فقَصَدْتُ مَنْ يَبيعُ العَبيدَ، بسُوقِ زَبيدَ.

* * *

فإنِّي لأَسْتَعْرِضُ الغِلْمانَ[١٠]، وأسْتَعْرِفُ الأَثْمانَ؛ اذْ عارَضَني رَجُلٌ قَدِ اخْتَطَمَ[١١] بِلِثامٍ، وقَبَضَ عَلى زَنْدِ غُلامٍ، وقالَ:

مَنْ يَشْتَرِي مِنّي غُلاماً صَنَعَا؟ ... في خَلْقِهِ وخُلْقِهِ قَدْ بَرَعَا[١٢]

بكُلِّ ما نُطْتَ بهِ مُضْطَلِعَا ... يَشفيكَ إن قالَ، وإنْ قلتَ، وَعى[١٣]

وإنْ تُصِبْكَ عَثْرَةٌ، يَقُلْ: لَعا، ... وإنْ تَسُمْهُ السَّعْيَ في النّارِ، سعَى[١٤]

---

١ التاطت: التصقت.
٢ صفري: أي قلبي؛ والصفر: العقل ولب القلب.
٣ الحضر: خلاف البادية، وهنا مأخوذ بمعنى الإقامة، لأن أهل الحضر مقيمون وأهل البادية مترحلون.
٤ ألوى به: أهلكه.
٥ شالت: ارتفعت وانتصبت. نعامته: باطن قدمه؛ يقال شالت نعامته: أي مات، من الكناية، لأن باطن القدم ينتصب عند الموت.
٦ النامة: النغمة والصوت؛ يقال: أسكن الله نأمته ونامته مشددة، أي أماته.
٧ أريغ: أطلب.
٨ شوائب الوحدة: أي أكدارها.
٩ أرتاد: أطلب.
١٠ أستعرض الغلمان: أي أطلب عرضهم علي.
١١ اختطم: جعل اللثام على خطمه أي أنفه.
١٢ الصنع: الحاذق في الصنعة.
١٣ نطت به: يقال ناط به الأمر، أي علقه به، وجعله في عهدته. وعى: حفظ.
١٤ لعا: كلمة تقال للعاثر، أي سلمت ونجوت. تسمه: تكلفه.

وَإِنْ تُصَاحِبْهُ، ولوْ يوْماً، رَعَى؛ وَإِنْ تُقَنِّعْهُ بِظِلْفٍ قَنِعَا[1]
وَهوَ، على الكَيِّسِ الذي قد جَمَعَا، ما فاهَ قَطُّ كاذِباً، وَلا ادَّعَى[2]
وَلا أجابَ مَطْمَعاً حينَ دَعَا؛ وَلا اسْتَجازَ نَثَّ سِرٍّ أُودِعَا[3]
وَطالَمَا أبْدَعَ فيمَا صَنَعَا، وَفاقَ في النَّثْرِ وَفي النَّظْمِ مَعَا
وَاللهِ، لَوْلا ضَنْكُ عَيْشٍ صَدَعا، وصِبْيَةٌ أضْحَوْا عُرَاةً جُوَّعَا[4]
ما بِعْتُهُ بِمُلْكِ كِسرَى أجْمَعَا

قالَ: فَلَمَّا تَأمَّلْتُ خَلْقَهُ القَوِيمَ[5]، وحُسْنَهُ الصَّمِيمَ[6]، خِلْتُهُ منْ وِلْدانِ جَنَّةِ النَّعيمِ، وقُلْتُ: ما هَذا بَشَراً، إنْ هَذا إلاّ مَلَكٌ كَرِيمٌ! ثُمَّ اسْتَنْطَقْتُهُ عَنِ اسْمِهِ، لا لرَغْبَةٍ في عِلْمِهِ؛ بَلْ لأنْظُرَ أيْنَ فَصَاحَتُهُ مِنْ صَبَاحَتِهِ[7]، وكَيْفَ لَهْجَتُهُ[8] مِنْ بَهْجَتِهِ؛ فلَمْ يَنْطِقْ بِحُلْوَةٍ ولا مُرَّةٍ، ولا فَاهَ فَوْهَةَ ابنِ أمَةٍ ولا حُرَّةٍ؛ فضَرَبْتُ عَنْهُ صَفْحاً[9]، وقُلْتُ: «قُبْحاً لِعِيِّكَ[10] وشُقْحاً[11]!» فَغارَ في الضَّحْكِ وأنْجَدَ[12]، ثمَّ أنْغَضَ

---

١ رعى : أي رعى الصحبة . تقنعه : ترضيه . الظلف : البقرة والشاة ونحوهما بمنزلة القدم للإنسان . والمراد أنه يرضى بالشيء القليل .
٢ الكيس : الحذق والعقل . ادعى : أي ادعى على غيره شيئاً بغير حق .
٣ دعا : فاعله يعود على مطمع . النث : إفشاء الخبر .
٤ صدع : أي صدع الفؤاد ، شقه .
٥ القويم : المستقيم .
٦ الصميم : الخالص .
٧ الصباحة : الحسن .
٨ لهجته : أي لفظه .
٩ أي أعرضت عنه جانباً .
١٠ العي : العجز عن أداء الكلام .
١١ شقحاً : بعداً ، أو إتباع لقبحاً .
١٢ غار : أتى الغور ، وهو ما انخفض من الأرض . أنجد : أتى النجد ، وهو ما ارتفع من الأرض ؛ والمعنى أنه ذهب في الضحك كل مذهب .

رَأْسَهُ[1] إليَّ وأنْشَدَ :

يا مَنْ تَلَهَّبَ غَيْظُهُ إذْ لَمْ أبُحْ	باسْمي لَهُ ، ما هكَذا مَنْ يُنْصِفُ !
إنْ كانَ لا يُرْضِيكَ إلاَّ كَشْفُهُ ،	فأصِخْ لَهُ : أنا يوسُفٌ أنا يوسُفُ ![2]
وَلَقَدْ كَشَفْتُ لكَ الغِطاءَ ، فإن تكُنْ	فَطِناً عَرَفْتَ ، وَما إخالُكَ تَعرِفُ[3]

قالَ : فسَرَّى عَتْبي[4] بشِعْرِهِ ، وَاستَبَى لُبّي بسِحرِهِ ، حتّى شُدِهتُ[5] عَنِ التّحقيقِ ، وأُنْسيتُ قِصّةَ يوسُفَ الصِّدّيقِ . وَلَمْ يكُنْ لِيَ هَمٌّ إلاّ مُساوَمَةَ مَوْلاهُ فيهِ ، وَاستِطْلاعَ طِلْعِ[6] الثّمَنِ لأُوَفّيهِ ؛ وكُنْتُ أحسِبُ أنّهُ سَيَنْظُرُ شَزْراً إليَّ ، ويُغْلي السِّيمَةَ[7] عَليَّ ، فَما حَلّقَ إلى حَيْثُ حلّقتُ[8] ، وَلا اعْتَلَقَ[9] بِمَا بِهِ اعْتَلَقْتُ ، بَلْ قالَ : « إنَّ الغُلامَ ، إذا نَزُرَ ثَمَنُهُ ، وخَفّتْ مُؤنَتُهُ ، تَبَرَّكَ بِهِ مَوْلاهُ ، والتَحَفَ[10] عَلَيْهِ هَوَاهُ ، وإنّي لأُوثِرُ تَحبيبَ هَذا الغُلامِ إلَيْكَ ، بأنْ أُخَفّفَ ثَمَنَهُ عَلَيْكَ ، فَزِنْ مِائَتَيْ دِرْهَمٍ إنْ شِئتَ ، وَاشْكُرْ لي مَا حَيِيتَ . » فَنَقَدْتُهُ المَبلَغَ في الحَالِ ، كَمَا يُنْقَدُ في الرّخيصِ الحَلالِ ، وَلَمْ يَخْطُرْ لي بِبَالٍ ، أنَّ كُلَّ مُرْخَصٍ غالٍ . فَلَمّا تَحَقّقَتِ الصّفْقَةُ[11] ، وحَقّتِ[12] الفُرْقَةُ ، هَمَلَتْ عَيْنَا الغُلامِ ،

....

١ انغض رأسه : حركه مستهزئاً متعجباً .

٢ أصِخ : استمع .

٣ يريد أنه حر لا يجوز بيعه ، ودعا نفسه يوسف إشارة إلى يوسف الصديق الذي باعه إخوته ، وهو حر لا يباع .

٤ سرى : أذهب . عتبي : أي لومي له .

٥ شدهت . دهشت وشغلت .

٦ استطلع طلع الشيء : طلب معرفته .

٧ السيمة : المساومة في البيع .

٨ حلق الطائر : [illegible] في طيرانه واستدار كالحلقة ؛ والمعنى هنا أنه لم يرتفع بفكره إلى حيث ارتفعت .

٩ اعتلق : بمعنى [illegible] .

١٠ التحف : أي [illegible] .

١١ الصفقة : اي [illegible] .

١٢ حقت : وجبت .

وَلا هُمُولَ دَمْعِ الغَمامِ . ثمّ أقبَلَ على صَاحِبِهِ وقالَ :

لحَاكَ اللهُ ! هَلْ مِثْلي يُبَاعُ ، لكَيْما تَشْبَعَ الكَرِشُ الجِياعُ؟![1]

وَهَلْ في شِرْعَةِ الإنْصَافِ أنّي أُكَلَّفُ خُطّةً لا تُسْتَطاعُ ؟![2]

وَأنْ أبْلَى بِرَوْعٍ بَعْدَ رَوْعٍ ، وَمِثْلِيَ حِينَ يُبْلَى لا يُرَاعُ ؟![3]

أمَا جَرّبْتَني ، فخَبَرْتَ منّي نَصَائِحَ لَمْ يُمازِجْها خِداعُ ؟

وكَمْ أرْصَدْتَني شَرَكاً لصَيدٍ ، فَعُدْتُ ، وَفي حَبَائِلِيَ السّبَاعُ

ونُطتَ بِيَ المَصَاعِبَ، فاستَقَادَتْ مُطاوِعَةً ، وكانَ بهَا امتِنَاعُ[4]

وَأيُّ كَرِيهَةٍ لَمْ أبْلِ فيهَا ، وغُنْمٍ لَمْ يَكُنْ لي فيهِ باعُ ؟[5]

وَما أبْدَتْ ليَ الأيّامُ جُرْماً ، فيُكْشَفَ في مُصَارَمَتي القِنَاعُ[6]

وَلَمْ تَعْثُرْ ، بحَمْدِ اللهِ ، مِنّي عَلى عَيْبٍ يُكَتَّمُ أوْ يُذَاعُ

فَأنّى سَاغَ عِنْدَكَ نَبْذُ عَهدي كمَا نَبَذَتْ بُرَايَتَها الصَّنَاعُ ![7]

* * *

عَلى أنّي سَأُنْشِدُ عِنْدَ بَيْعي : أضَاعُوني ، وَأيَّ فَتًى أضاعُوا !

---

١ يقال لحاه الله : أي قبحه ولعنه . الكرش : للذي الخف والظلف بمنزلة المعدة للإنسان ، ويكنى بها عن عيال الرجل وصغار أولاده ، وهو المراد هنا .

٢ الشرعة : الشريعة . الخطة : الأمر .

٣ الروع : الفزع .

٤ نطت بي : علقت بي . استقادت : انقادت .

٥ الكريهة : أي النازلة المكروهة . لم أبل فيها : أي لم أحسن مقاومتها ودفعها .

٦ مصارمتي : مقاطعتي . يكشف القناع : أي يجاهر .

٧ فأنى : فكيف . ساغ : جاز وسهل ولذ . البراية : ما يطرح من الشيء الذي يصنع ، لأنه لا ينتفع به ؛ وقوله برايتها : ارجع الضمير إلى متأخر . الصناع : المرأة الحاذقة في الصنعة .

قالَ : فلَمّا وَعى الشّيْخُ أبْياتَهُ ، وعقَلَ[1] مُناغاتَهُ[2] ، تنفّسَ الصُّعَداءَ ، وبكَى حتّى أبْكَى البُعَداءَ . ثمّ قالَ لي : « إنّي أُحِلُّ هذا الغُلامَ محَلَّ وَلَدي ، ولا أُميّزُهُ عنْ أفْلاذِ كَبِدي ؛ ولَوْلا خُلُوّ مُراحي[3] ، وخُبُوّ مِصْباحي[4] ، لَمَا دَرَجَ عنْ عُشّي ، إلى أنْ يُشيّعَ نَعْشي . »

* * *

ثمّ قالَ لَهُ : « أسْتَوْدِعُكَ مَنْ هُوَ نِعْمَ المَوْلى » ؛ وشَمّرَ ذَيْلَهُ وَوَلّى . فلَبِثَ الغُلامُ في زَفيرٍ وعَويلٍ ، رَيْثَما يَقْطَعُ مَدَى ميلٍ[5] . فلَمّا اسْتَفاقَ ، وكَفْكَفَ دَمْعَهُ المُهْرَاقَ ؛ قالَ : « أتَدْري لِمَ أعْوَلْتُ ، وعَلامَ عَوّلْتُ ؟ » فقُلْتُ : « أظُنّ فِراقَ مَوْلاكَ ، هُوَ الذي أبكاكَ . » فقالَ : « إنّكَ لَفي وادٍ وأنا في وادٍ ، واَسْكَمْ بَيْنَ مُريدٍ ومُرادٍ » . ثمّ أنْشَدَ :

لمْ أبْكِ ، واللهِ ، على إلْفٍ نَزَحْ ، ولا على فَوْتِ نَعيمٍ وفَرَحْ
وإنّما مَدْمَعُ أجْفاني سَفَحْ على غَبِيٍّ ، لَحَظْتُهُ حينَ طَمَحْ
وَرّطَهُ ، حتّى تعَنّى ، وافْتَضَحْ ، وضَيّعَ المَنْقوشَةَ البِيضَ الوَضَحْ[6]
.وَيْلَكَ ! أمَا ناجَتْكَ هاتيكَ المُلَحْ ، بأنّني حُرٌّ وبَيْعي لمْ يُبَحْ ؟[7]
إذْ كانَ في يُوسُفَ مَعْنًى قدْ وَضَحْ

---

١ عقل : أدرك .
٢ مناغاته : أي كلامه ، وأصله من ناغى الطفل : كلمه بما يعجبه ويسره .
٣ مراحي : مسكني .
٤ الخبو : الخمود ؛ ويريد بخبو مصباحه شيخوخته وضعفه .
٥ أي أنه ظل يبكي مدة يبتعد بها صاحبه الشيخ مقدار ميل .
٦ ورطه : أوقعه في ورطة ، وهي الأمر الذي يصعب الخلاص منه . تعنى : تعب . المنقوشة : يريد بها الدراهم . البيض الوضح : أي النقية البياض .
٧ ويلك : وي كلمة تعجب أو زجر ، والكاف حرف خطاب . الملح : الكلمات المستملحة ، ويريد بها الشعر الذي تعرف به إليه .

قالَ : فتَمَثّلتْ مَقالَهُ في مِرْآةِ المُداعِبِ ، ومَعْرِضِ المُلاعِبِ . فتَصَلّبَ تَصَلُّبَ المُحِقّ ، وتبَرّأ مِنْ طِينَةِ الرِّقّ . فَجُلْنَا في مُخاصَمَةٍ ، اتّصَلَتْ بِمُلاكَمَةٍ ، وَأفْضَتْ إلى مُحاكَمَةٍ . فلَمّا أوْضَحْنا للقاضي الصّورَةَ ، وَتَلَوْنا علَيْهِ السّورَةَ[1] ، قالَ : « ألا إنّ مَنْ أنْذَرَ ، فقَدْ أعْذَرَ[2] ، ومَنْ حَذّرَ ، كمَنْ بَشّرَ ، وَمَنْ بَصّرَ[3] ، فَما قَصّرَ . وَإنّ فيما شَرَحْتُماهُ لَدَليلاً على أنّ هَذا الغُلامَ قدْ نَبّهَكَ فَما ارْعَوَيْتَ ، ونَصَحَ لكَ فَما وَعَيْتَ . فاسْتُرْ داءَ بَلَهِكَ وَاكْتُمْهُ ، وَلُمْ نَفْسَكَ ولا تَلُمْهُ ، وحَذارِ مِنِ اعْتِلاقِهِ[4] ، وَالطّمَعِ في اسْتِرْقاقِهِ ؛ فإنّهُ حُرّ الأديمِ[5] ، غَيرُ مُعَرَّضٍ للتّقْويمِ[6] . وقَدْ كانَ أبُوهُ أحْضَرَهُ أمْسِ ، قُبَيْلَ أفُولِ الشّمْسِ ، وَاعْتَرَفَ بأنّهُ فَرْعُهُ الذي أنشَاهُ ، وأنْ لا وَارِثَ لَهُ سِوَاهُ . »

فقُلْتُ للقاضي : « أوَتَعْرِفُ أباهُ ؟ أخْزَاهُ اللهُ ! » فقالَ : « وَهَلْ يُجْهَلُ أبو زَيْدٍ الذي جُرْحُهُ جُبارٌ[7] ، وَعندَ كلّ قاضٍ لهُ أخبارٌ وَإخبارٌ[8] ! »

فتَحَرّقْتُ[9] حينَئِذٍ وَحَوْلَقْتُ[10] ، وَأفَقْتُ ولَكِنْ حينَ فاتَ الوَقْتُ . وَأيْقَنْتُ أنّ لِثامَهُ كانَ شَرَكَ مَكيدَتِهِ ، وبَيْتَ قَصيدَتِهِ[11] . فنَكّسَ طَرْفي ما لَقيتُ ، وَآلَيْتُ[12] أنْ لا أعامِلَ مُلَثّماً ما بَقيتُ .

....

١ السورة : يريد بها القصة .
٢ أعذر : صار معذوراً .
٣ بصر : عرف الأمر وأوضحه .
٤ اعتلاقه : إمساكه .
٥ الأديم : الجلد ، وهو هنا بمعنى الأصل .
٦ للتقويم : أي ليجعل له قيمة في البيع .
٧ جبار : هدر لا قصاص فيه .
٨ إخبار بالكسر : إعلام .
٩ تحرقت : سحقت أنيابي حتى سمع لها صريف .
١٠ حولقت : أي قلت لا حول ولا قوة إلا بالله العظيم .
١١ بيت قصيدته : أي أغرب حيله .
١٢ آليت : حلفت .

ابن الاثير

المثل السائر

ميزة الكتاب

وهَدَاني اللهُ لابْتِداعِ أشْيَاءَ لَمْ تَكُنْ مِنْ قَبْلي مُبْتَدَعَةً ، ومَنَحني دَرَجَةَ الاجْتِهادِ التي لا تَكُونُ أقْوَالُها تابِعَةً وإنّما هي مُتّبَعَةٌ . وكُلَّ ذَلِكَ يَظْهَرُ عِنْدَ الوُقُوفِ على كِتابي هذا وعَلى غَيْرِهِ مِنَ الكُتُبِ .

وقَدْ بَنَيْتُهُ على مُقَدّمَةٍ ومَقالَتَيْنِ ، فالمُقَدّمَةُ تَشْتَمِلُ عَلى أُصُولِ عِلْمِ البَيانِ ، والمَقالَتانِ تَشْتَمِلانِ على فُرُوعِهِ : فالأُولى في الصّناعَةِ اللّفْظِيّةِ ، والثانيةُ في الصّناعَةِ المَعْنَوِيّةِ . ولا أدّعي ، فيما ألّفْتُهُ مِنْ ذلِكَ ، فَضِيلَةَ الإحْسانِ ، ولا السّلامَةَ مِنْ سَلْقِ اللّسانِ[1] ؛ فإنّ الفاضِلَ مَنْ تُعَدّ سَقَطاتُهُ ، وتُحصَى غَلَطاتُهُ .

وَيُسيءُ بالإحْسانِ ظَنّاً ، لا كمن هُوَ بابْنِهِ وبِشِعرِهِ مَفْتُونُ[2]

وإذا تَرَكْتُ الهَوَى قُلْتُ : إنّ هَذا الكِتابَ بَديعٌ في إغْرابِهِ ، ولَيسَ لهُ صَاحِبٌ في الكُتُبِ فَيُقالَ إنّهُ مِنْ أخْدانِهِ[3] أوْ مِنْ أتْرابِهِ[4] ، مُفْرَدٌ بَيْنَ أصْحابِهِ . ومَعَ هَذا فإنّني أتَيْتُ بظاهِرِ هذا العِلْمِ دونَ خافيهِ ، وحُمْتُ

١ سلق اللسان : أذيته ، أي النقد اللاذع .
٢ هذا البيت من قصيدة لأبي تمام في مدح الواثق .
٣ أخدانه : أصحابه .
٤ أترابه : رفقاؤه من عمره .

حَوْلَ حِمَاهُ ولمْ أقعْ فيهِ ، إذِ الغرَضُ إنّما هوَ الحُصُولُ على تَعليمِ الكَلِمِ التي بها تُنْظَمُ العقُودُ وتُرَصَّعُ . وتُخْلَبُ العقُولُ فتُخْدَعُ ؛ وذلكَ شيءٌ تُحيلُ علَيْهِ الخَواطِرُ[1] ، ولا تَنْطِقُ بهِ الدّفاترُ .

وَاعْلَمْ ، أيّها النّاظِرُ في كتابي ، أنّ مَدارَ عِلْمِ البَيانِ عَلى حاكِمِ الذّوْقِ السّليمِ ، الذي هوَ أنفَعُ مِنْ ذَوْقِ التّعْليمِ . وَهذا الكِتابُ ، وَإنْ كانَ فيما يُلْقيهِ إلَيكَ أُسْتاذاً . وَإذا سألْتَ عَمّا يُنْتَفَعُ بهِ في فنّهِ قيلَ لكَ : هَذا ، فإنّ الدُّرْبَةَ وَالإدْمانَ أجْدَى علَيْكَ نَفْعاً ، وَأهْدَى بَصَراً وسَمعاً ، وهُما يُرِيانِكَ الخَبَرَ عِياناً ، ويَجْعَلانِ عُسْرَكَ مِنَ القَوْلِ إمكاناً ، وكُلُّ جارِحَةٍ مِنْكَ قَلْباً وَلِساناً[2] . فَخُذْ مِنْ هَذا الكِتابِ ما أعْطاكَ ، وَاستَنبِطْ بإدْمانِكَ ما أخْطاكَ[3] . وَما مَثَلي ، فيما مَهّدْتُهُ لكَ مِنْ هذهِ الطّريقِ ، إلاّ كَمَنْ طَبَعَ سَيْفاً وَوَضَعَهُ في يَمينِكَ لتُقاتِلَ بهِ ؛ وَلَيْسَ علَيْهِ أنْ يَخْلُقَ لَكَ قَلْباً ؛ فإنّ حَمْلَ النّصَالِ ، غَيرُ مُباشَرَةِ القِتالِ .

اللفظة المفردة

وَقَدْ رأيْتُ جَماعَةً مِنَ الجُهّالِ إذا قيلَ لأحَدِهِمْ : إنّ هَذهِ اللّفْظَةَ حَسَنَةٌ وهَذهِ قَبيحَةٌ ؛ أنْكَرَ ذلكَ وقالَ : كُلُّ الألفاظِ حَسَنٌ ، والوَاضِعُ لمْ يَضَعْ إلاّ حَسَناً . وَمَنْ يَبلُغْ جَهْلُهُ إلى أنْ لا يَفرُقَ بَينَ لَفْظَةِ الغُصْنِ وَلَفْظَةِ العُسْلُوجِ ؛ وبَيْنَ لَفْظَةِ المُدامَةِ ولَفْظَةِ الإسْفِنْطِ ؛ وبَيْنَ لفْظَةِ السّيْفِ ولَفْظَةِ الخَنْشَليلِ ؛ وبَيْنَ لَفْظَةِ الأسَدِ ولَفْظَةِ الفَدَوْكَسِ ، فَلا يَنْبَغي أنْ يُخاطَبَ بخِطابٍ وَلا يُجاوَبَ بجَوَابٍ ، بَلْ يُتْرَكُ وشأنَهُ كَمَا قيلَ : اتْرُكُوا الجاهِلَ بجَهْلِهِ ، وَلَوْ ألْقَى الجَعْرَ في رَحْلِهِ[4] . وما مِثالُهُ

1 تحيل عليه الخواطر : أي تعقم لا تلد .
2 قوله : كل جارحة قلباً ولساناً ، أي فيها الإدراك والفصاحة .
3 ما أخطاك : ما أخطأك ، أي ما فاتك .
4 الجعر : البعر اليابس . رحله : منزله ، أو رحل ناقته .

في هَذا المَقامِ ، إلاّ كَمَنْ يُسَوّي بَينَ صُورَةٍ زَنْجيّةٍ سَوْداءَ مُظْلِمَةِ السَّوَادِ شَوْهاءِ الخَلْقِ . ذاتِ عَينٍ مُحْمَرّةٍ ، وشَفَةٍ غَليظَةٍ كأنّها كُلْوَةٌ ، وشَعْرٍ قَطَطٍ[1] كأنّهُ زَبيبَةٌ ؛ وبَينَ صُورَةٍ رُوميّةٍ بَيْضاءَ مُشْرَبَةٍ بحُمْرَةٍ[2] ذاتِ خَدٍّ أسيلٍ[3] ، وطَرْفٍ كَحيلٍ ، ومَبْسِمٍ كأنّما نُظِمَ مِنْ أقاحٍ[4] ، وطُرّةٍ كأنّها لَيْلٌ عَلى صَباحٍ . فإذا كانَ بإنْسانٍ مِنْ سَقَمِ النَّظَرِ أنْ يُسَوّيَ بَينَ هَذِهِ الصّورَةِ وهَذِهِ ، فَلا يَبْعُدُ أنْ يَكُونَ بِهِ مِنْ سَقَمِ الفِكْرِ أنْ يُسَوّيَ بَينَ هَذِهِ الألْفاظِ وهَذِهِ ؛ ولا فَرْقَ بَينَ النَّظَرِ والسَّمْعِ في هذا المَقامِ ؛ فإنّ هَذا حاسّةٌ وهَذا حاسّةٌ ، وقِياسُ حاسّةٍ على حاسّةٍ مُناسِبٌ.

فإنْ عانَدَ مُعانِدٌ في هَذا وقالَ : أغْراضُ النّاسِ مُخْتَلِفَةٌ فيما يَختارُونه مِنْ هَذِهِ الأشْياءِ ، وقَدْ يَعْشَقُ الإنْسانُ صُورَةَ الزّنْجيّةِ التي ذَمَمْتَها ، ويُفَضّلُها على صُورَةِ الرّوميّةِ التي وَصَفْتَها ؛ قُلْتُ في الجَوابِ : نَحْنُ لا نَحْكُمُ على الشّاذّ النّادِرِ الخارِجِ عَنِ الاعْتِدالِ ، بَلْ نَحْكُمُ على الكَثيرِ الغالِبِ ؛ وكذلِكَ إذا رَأيْنا شَخْصاً يُحِبّ أكْلَ الفَحْمِ مَثَلاً أوْ أكْلَ الجِصِّ والتّرابِ ، ويَخْتارُ ذلِكَ على مَلاذّ الأطْعِمَةِ ، فَهَلْ نَسْتَجيدُ هَذِهِ الشّهوَةَ أوْ نَحْكُمُ عَلَيهِ بأنّهُ مَريضٌ قَدْ فَسَدَتْ مَعِدَتُهُ وَهُوَ مُحْتاجٌ إلى عِلاجٍ ومُداواةٍ ؟

ومَنْ لَهُ أدْنَى بَصيرَةٍ يَعْلَمُ أنّ للألْفاظِ في الأُذُنِ نَغْمَةً لَذيذَةً كنَغْمَةِ أوْتارٍ ، وصَوْتاً مُنْكَراً كصَوْتِ حِمارٍ ؛ وأنّ لَها في الفَمِ أيْضاً حَلاوَةً كحَلاوَةِ العَسَلِ ، ومَرارَةً كمَرارَةِ الحَنظَلِ ؛ وهِيَ على ذلكَ تَجْري مَجْرَى النّغَماتِ والطّعُومِ .

---

١ شعر قطط : أي قصير جعد كشعر الزنوج .
٢ مشربة بحمرة : الذي في كتب اللغة مشربة حمرة بغير تعدية .
٣ الأسيل : الخد اللين الطويل .
٤ أقاح : جمع أقحوان وهو نبت أصفر الزهر ، في وسطه وحواليه ورق أبيض تشبه به الاسنان في حسن نظمها وبياضها .

وَهَذا النَّوْعُ لمْ يُحقِّقْ أحَدٌ مِنْ عُلَماءِ البَيانِ القَوْلَ فيه ؛ وغايَةُ ما يُقالُ : إنَّهُ يَنْبَغي أنْ لا تَكُونَ الألْفاظُ نَافِرَةً عَنْ مَوَاضِعِها ، ثُمَّ يُكْتَفَى بهَذا القَوْلِ مِنْ غَيرِ بَيانٍ وَلا تَفْصِيلٍ ، حَتّى إنَّهُ قَدْ خُلِطَ هَذا النَّوْعُ بالمُعاظَلَةِ ؛ وكُلٌّ مِنْهُما نَوْعٌ مُفْرَدٌ برَأسِهِ ، لَهُ حَقيقَةٌ تَخُصُّهُ ، إلاّ أنَّهُما قَدِ اشْتَبَهَا على عُلَماءِ البَيانِ ، فكَيْفَ على جاهِلٍ لا يَعْلَمُ .

وَقَدْ بَيَّنْتُ هَذا النَّوْعَ وفَصَلْتُهُ عَنِ المُعاظَلَةِ ،وضَرَبْتُ لَهُ أمثِلَةً يُسْتَدَلُّ بهَا على أخَوَاتِها وَما يَجري مَجراها .

وَجُمْلَةُ الأمْرِ أنَّ مَدارَ سَبْكِ الألفاظِ على هَذا النَّوْعِ والذي قَبْلَهُ دونَ غَيرِهِما مِنْ تِلْكَ الأنوَاعِ المَذكورَةِ ؛ لأنَّ هَذَيْنِ النَّوْعَيْنِ أصْلا سَبْكِ الألْفاظِ ، وما عَداهُما فَرْعٌ علَيْهِما . وَإذا لم يكُنِ النّاثِرُ أوِ النّاظِمُ عارِفاً بِهِما ، فإنَّ مَقاتِلَهُ[1] تَبدو كَثيراً .

وحَقيقَةُ هَذا النَّوْعِ الذي هُوَ المُنافَرَةُ أنْ يُذكَرَ لَفْظٌ أوْ ألْفاظٌ يكُونُ غَيرُها ، مِمّا هوَ في مَعناها ، أولى بالذِّكْرِ . وعلى هذا فإنَّ الفَرْقَ بَيْنَهُ وبَيْنَ المُعاظَلَةِ أنَّ المُعاظَلَةَ هيَ التَّرَاكُبُ والتَّداخُلُ إمّا في الألْفاظِ أو في المَعاني ، على ما أشَرْتُ إلَيهِ . وهَذا النَّوْعُ لا تَرَاكُبَ فيهِ ، وَإنّما هوَ إيرادُ ألْفاظٍ غَيرِ لائِقَةٍ بمَوْضِعِها الذي تَرِدُ فيه ؛ وَهُوَ يَنْقَسِمُ قِسْمَيْنِ : أحَدُهُما يُوجَدُ في اللَّفْظَةِ الوَاحِدَةِ ، وَالآخَرُ في الألْفاظِ المُتَعَدِّدَةِ . فأمّا الذي يُوجَدُ في اللَّفْظَةِ الوَاحِدَةِ فإنَّهُ إذا وَرَدَ في الكَلامِ ، أمْكَنَ تَبْديلُهُ بغَيرِهِ مِمّا هُوَ في مَعْناهُ ، سَوَاءٌ كَانَ ذلِكَ الكَلامُ نَثْراً أوْ نَظْماً . وَأمّا الذي يُوجَدُ في الألفاظِ المُتَعَدِّدَةِ فإنَّهُ لا يُمكِنُ تَبديلُهُ بغَيرِهِ في الشِّعْرِ بَلْ يُمكِنُ ذَلِكَ في النَّثْرِ خاصّةً ؛ لأنَّهُ يَعْسُرُ في الشِّعْرِ مِنْ أجْلِ الوَزْنِ .

....

[1] مقاتله : أي مواضع الضعف فيه .

فَمِمَّا جاءَ مِنَ القِسْمِ الأوَّلِ قَوْلُ أبي الطَّيِّبِ المُتَنَبِّي :

فَلا يُبْرَمُ الأمْرُ الذي هُوَ حالِلٌ ، وَلا يُحْلَلُ الأمْرُ الذي هُوَ يُبْرِمُ

فَلَفْظَةُ حالِلٌ نافِرَةٌ عَنْ مَوْضِعِها ، وكانَتْ لَهُ مَندوحَةٌ[1] عَنها ، لأنَّهُ لَوِ اسْتَعْمَلَ عِوَضاً عَنْها لَفْظَةَ ناقِضٌ فَقالَ :

فَلا يُبْرَمُ الأمْرُ الذي هُوَ ناقِضٌ ، وَلا يُنْقَضُ الأمْرُ الذي هُوَ يُبْرِمُ

لَجاءَتِ اللَّفْظَةُ قارَّةً في مَكانِها غَيْرَ قَلِقَةٍ وَلا نافِرَةٍ .

وَبَلَغَني عَنْ أبي العَلاءِ بنِ سُلَيمانَ المَعَرّي أنَّهُ كانَ يَتَعَصَّبُ لأبي الطَّيِّبِ ، حَتّى إنَّهُ كانَ يُسَمّيهِ الشّاعِرَ ويُسَمّي غَيْرَهُ مِنَ الشُّعَراءِ باسْمِهِ . وكانَ يَقُولُ : لَيْسَ في شِعْرِهِ لَفْظَةٌ يُمكِنُ أنْ يَقُومَ عَنْها ما هوَ في مَعناها فيَجيءَ حَسَناً مِثْلَها . فَيا لَيْتَ شِعري ، أمَّا وَقَفَ على هذا البَيْتِ المُشارِ إلَيْهِ ؟ لَكِنَّ الهَوَى ، كَمَا يُقالُ ، أعْمَى ؛ وكانَ أبُو العَلاءِ أعْمَى العَيْنِ خِلْقَةً ، وأعْماها عَصَبِيَّةً ، فاجْتَمَعَ لَهُ العَمَى مِنْ جِهَتَيْنِ.

وَهَذِهِ اللَّفْظَةُ الَّتي هيَ حالِلٌ وما يَجري مَجراها قَبيحَةُ الاسْتِعمالِ ، وَهِيَ فَكُّ الإدْغامِ في الفِعْلِ الثُّلاثي ، ونَقْلُهُ إلى اسمِ الفاعِلِ ، وَعلى هذا فَلا يَحْسُنُ أنْ يُقالَ : بَلَّ الثَّوْبَ فَهوَ بالِلٌ ، وَلا سَلَّ السَّيفَ فهُوَ سالِلٌ ؛ وَلا أنْ يُقالَ : هَمَّ بالأمْرِ فَهُوَ هامِمٌ ، وَلا خَطَّ الكِتابَ فَهُوَ خاطِطٌ ، وَلا حَنَّ إلى كَذا فَهُوَ حانِنٌ . وَهَذا لَوْ عُرِضَ عَلى مَنْ لا ذَوْقَ لَهُ لأدْرَكَهُ وفَهِمَهُ ، فكَيْفَ مَنْ لَهُ ذَوْقٌ صَحيحٌ كأبي الطَّيِّبِ ! لكِنْ لا بُدَّ لِكُلِّ جَوَادٍ مِنْ كَبْوَةٍ .

[1] المندوحة : المتسع من الشيء .

وَقَدِ اكْتَفَيْتُ في هذا بشِعْرِ أبي تَمّامٍ حَبيبِ بنِ أوْسٍ ، وَأبي عُبادَةَ الوَليدِ ، وَأبي الطَّيِّبِ المُتَنَبِّي ؛ وَهَؤُلاءِ الثَّلاثَةُ هُمْ لاتُ الشِّعْرِ وَعُزّاهُ وَمَناتُهُ[1] ، الذينَ ظَهَرَتْ على أيْديهِمْ حَسَناتُهُ ومُسْتَحْسَناتُهُ . وَقَدْ حَوَتْ أشْعارُهُمْ غَرابَةَ المُحدَثينَ إلى فَصاحَةِ القُدَماءِ ، وَجَمَعَتْ بَيْنَ الأمْثالِ السّائِرَةِ وَحِكْمَةِ الحُكَماءِ .

أمّا أبُو تَمّامٍ فإنّهُ رَبُّ مَعانٍ وَصَيْقَلُ ألْبابٍ[2] وأذْهانٍ ، وَقَدْ شُهِدَ لَهُ بكُلِّ مَعْنًى مُبْتَكَرٍ ، لمْ يَمْشِ فيهِ عَلى أثَرٍ ؛ فَهُوَ غَيْرُ مُدافَعٍ عَنْ مَقامِ الإغْرابِ ، الذي بَرَّزَ فيهِ على الأضْرابِ . وَلَقَدْ مارَسْتُ مِنَ الشِّعْرِ كُلَّ أوّلَ وَأخيرٍ ، وَلَمْ أقُلْ ما أقُولُ فيهِ إلاّ عَنْ تَنْقيبٍ وَتَنْقيرٍ ؛ فَمَنْ حَفِظَ شِعْرَ الرَّجُلِ ، وَكَشَفَ عَنْ غامِضِهِ ، وَراضَ فِكْرَهُ بِرائِضِهِ[3] ، أطاعَتْهُ أعِنّةُ الكَلامِ ، وَكانَ قَوْلُهُ في البَلاغَةِ ما قالَتْ حَذامِ[4] . فَخُذْ مِنّي في ذلِكَ قَوْلَ حَكيمٍ ، وَتَعَلَّمْ ، فَفَوْقَ كُلِّ ذي عِلْمٍ عَليمٌ .

وَأمّا أبُو عُبادَةَ البُحتُرِيّ فإنّهُ أحْسَنَ في سَبْكِ اللّفْظِ على المَعنى ، وَأرادَ أنْ يَشْعُرَ فَغَنّى ، وَلَقَدْ حازَ طَرَفَي الرِّقّةِ وَالجَزالَةِ[5] على الإطْلاقِ ؛ فبَيْنا يَكُونُ في شَظَفِ نَجْدٍ[6] إذْ تَشَبَّثَ بريفِ العِراقِ[7] . وَسُئِلَ أبُو

١ اللات : الصخرة التي كانت تعبدها ثقيف في الطائف، ولها بيت يعرف ببيت الربة. العزى: هي أعظم الأصنام عند قريش ، وكانوا يزورونها ويهدون لها ، ويتقربون عندها بالذبح ، وقد بني عليها بيت . مناة : أقدم الأصنام ، وكان منصوباً على ساحل البحر من ناحية المشلل بقديد بين مكة والمدينة . وكانت العرب جميعاً تعظمه ، ولا سيما الأوس والخزرج . والمراد هنا أن هؤلاء الشعراء الثلاثة هم أرباب الشعر المفضلون .

٢ الصيقل : الذي يشحذ السيوف ويجلوها . الألباب : العقول

٣ برائضه : الضمير يعود على شعر الرجل ، والرائض اسم فاعل من راضه رياضة : ذلله وجعله طيعاً .

٤ حذام : علم لامرأة ، مبني على الكسر ، يضرب بها المثل في صدق القول ، قيل إنها زرقاء اليمامة .

٥ الجزالة : متانة الألفاظ وبعدها من الركاكة .

٦ شظف نجد : أي في خشونة شعراء نجد وشدتهم .

٧ الريف : الأرض التي فيها زرع وخصب . وقوله في ريف العراق : أي في رقة شعراء العراق ولينهم .

الطَّيِّبِ المُتَنَبّي عَنْهُ وَعَنْ أبي تَمّامٍ وَعَنْ نَفْسِهِ ، فَقالَ : أنَا وَأبو تَمّامٍ حَكيمانِ ، وَالشّاعِرُ البُحْتُرِيّ . وَلَعَمْري إنَّهُ أنْصَفَ في حُكْمِهِ ، وَأعْرَبَ بِقَوْلِهِ هَذا عَنْ مَتانَةِ عِلْمِهِ ؛ فإنَّ أبا عُبادَةَ أتى في شِعْرِهِ بالمَعْنى المَقدودِ مِنَ الصَّخْرَةِ الصَّمّاءِ[1] ، في اللَّفْظِ المَصُوغِ مِنْ سَلاسَةِ الماءِ ، فأدْرَكَ بذَلِكَ بُعْدَ المَرامِ ،مَعَ قُرْبِهِ إلى الأفْهامِ .وَما أقُولُ إلاّ أنَّهُ أتى في مَعانيهِ بأخْلاطِ الغاليَةِ[2] ،وَرَقَى في ديباجَةِ لَفْظِهِ إلى الدَّرَجَةِ العاليَةِ .

وَأمّا أبُو الطَّيِّبِ المُتَنَبّي فإنَّهُ أرادَ أنْ يَسْلُكَ مَسْلَكَ أبي تَمّامٍ ، فقَصَّرَتْ عَنْهُ خُطاهُ ، وَلَمْ يُعطِهِ الشِّعْرُ مِنْ قِيادِهِ ما أعطاهُ ؛ لَكِنَّهُ حَظِيَ في شِعْرِهِ بالحِكَمِ وَالأمْثالِ ، وَاخْتَصَّ بالإبْداعِ في وَصْفِ مَوَاقِفِ القِتالِ ، وَأنَا أقُولُ قَوْلاً لَسْتُ فيهِ مُتَأثِّماً[3] ، وَلا مِنْهُ مُتَلَثِّماً ، وَذاكَ أنَّهُ إذا خاضَ في وَصْفِ مَعْرَكَةٍ ، كانَ لِسانُهُ أمضَى مِنْ نِصالِها ، وَأشجَعَ مِنْ أبْطالِها ، وَقامَتْ أقْوَالُهُ للسّامِعِ مَقامَ أفْعالِها ؛ حَتّى تَظُنَّ الفَرِيقَيْنِ قَدْ تَقابَلا ، وَالسِّلاحَيْنِ قَدْ تَوَاصَلا . فطَرِيقُهُ في ذَلِكَ تضِلُّ بسالِكِهِ[4] ، وَتَقُومُ بعُذْرِ تارِكِهِ . وَلا شَكَّ أنَّهُ كانَ يَشْهَدُ الحُرُوبَ مَعَ سَيْفِ الدَّوْلَةِ بنِ حَمْدانَ فيَصِفُ لِسانُهُ ما أدّى إلَيْهِ عِيانُهُ . وَمَعَ هَذا فَإنّي رَأيْتُ النّاسَ عادِلِينَ فيهِ عَنْ سَنَنِ التَوَسّطِ ؛ فإمّا مُفْرِطٌ في وَصْفِهِ ، وَإمّا مُفَرِّطٌ[5] . وَهُوَ وَإنِ انْفَرَدَ بطَرِيقٍ صَارَ أبا عُذْرِهِ[6] ، فإنَّ سَعادَةَ الرَّجُلِ كانَتْ أكْبَرَ مِنْ شِعْرِهِ . وَعَلى الحَقيقَةِ فإنَّهُ خاتَمُ الشُّعَراءِ ، وَمَهْما وُصِفَ بِهِ فَهُوَ فَوْقَ الوَصْفِ وَفَوْقَ الإطْرَاءِ .

....

١ الصماء : الصخرة الصلبة المصمتة . والمراد بالمعنى المقدود من الصخرة الصماء : الذي فيه قوة ولا يبلغ إليه إلا بكد وعناء .
٢ الغالية : أخلاط من الطيب . والمراد أن معانيه كأخلاط الغالية في طيبها وحسن ائتلاف أنواعها .
٣ متأثماً : تائباً ؛ والمراد أنه غير راجع عن قوله .
٤ بسالكه : الضمير يعود على في ذلك ، أي في ذلك الوصف .
٥ المفرط : نقيض المفرط .
٦ أبا عذره : أي مبتكره ، وأول من شقه .

فهرست

